

نمونه‌ای از ادبیات عرب

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date



انتشارات دانشگاه تهران

شمارهٔ ۱۳۰۲

گنجینه زبان آموزی و زبان شناسی
شماره ۱۹

تهران - ۱۳٤۹

الدّین و الادب

نمونه ای از ادبیات عرب

تألیف

سید محمد باقر سبزواری
استاد دانشگاه تهران

شمارهٔ مسلسل ۱۵۰۰

چاپ و صحافی این کتاب در یکهزار نسخه در مهر ماه ۱۳۴۹
در چاپخانهٔ سازمان چاپ دانشگاه تهران خاتمه پذیرفت

بها : ۲۴۰ ریال

مقدّمة
للدّين والادب

انّ الدّين عندالله الاسلام فهواقوى عامل فى حياة الانسان وكافل لسعادته المادّيّة والأدبيّة واجدى مؤثّرفى وجدانه وأخلاقه وأعماله وهو يشعر بقوّة الهيّة لاتتناهى عدّة وشدّة ومدّة فالمسلم لايقول ولايفعل الّا لله. انّ صلوتى ونسكى ومحياى ومماتى لله ربّ العالمين وصار شعاره الله اكبر والى هذا اشار أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بقوله عظم الخالق فى أنفسهم فصَغر مادونه فى اعينهم وفى هذا الكلام مايغنينا عن الاسهاب فى أقوال الاصحاب.

وأمّاالادب أدب النفس والدرس فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله ادّبنى ربّى فاحسن تأديبى وقال صلى الله عليه وآله ادّبوا اولادكم على ثلاث خصال حبّ نبيّكم: وحبّ أهل بيته وقراءة القرآن فانّ حملة القرآن فى ظلّ الله يوم لاظلّ الاظلّه مع انبيائه واصفيائه. وقيل الأدب ملكة نفسانيّة تمنع صاحبها الاقدام على إثم او على سوء.

وقيل ادَّبْتُه اى علّمته رياضة النفس وكرائم الأخلاق والجمع آداب.

وقال أبوزيد الانصارى الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الانسان فى فضيلة من الفضائل - فالادب حسن الاخلاق ومنه. أَدّبته تأديباً. مبالغة وتكثير اذا عاقبته على اساءته لانه داع الى الأدب.

ومن هنا يظهر أَنَّ أَدب النفس أَساس أَدب الجوارح ولذا قال ابن قتيبة فى مقدّمة كتاب ادب الكاتب نحن نستحبّ لمن قبل عنّا

اوائتمّ بكتبنا ان يؤدّب نفسه قبل ان يؤدّب لسانه ويهذّب اخلاقه قبل ان يهذّب الفاظه . ونقل عن الجواليقى انّ اطلاقه على العلوم العربيّة مولّد حدث فى الاسلام وقال غيره ثمّ استعمل فى علم العربيّة يحترز به عن الخطأ فى اللّفظ والخطّ وينقسم الى اثنى عشر علما اصولاً وفروعاً أمّا الاصول فالبحث فيها إمّا عن المفردات من حيث جواهرها وموادّها فعلم اللغة او من حيث صورها وهيآتها فعلم التصريف او من حيث انتساب بعضها الى بعض بالاصالة والفرعيّة فعلم الاشتقاق .

وإمّا عن المركّبات فأمّا من حيث هيآتها التركيبيّة وتأديتها لمعانيها الأصليّة فعلم النّحو وباعتبار إفادتها المعانى مغايرة لها ولكن تلازمُها فعلم المعانى أو باعتبار كيفيّة الافادة فعلم البيان وإمّا عن المركّبات الموزونة فإمّا من حيث وزنها فعلم العروض أو من حيث اوزان ابياتها فعلم القافية .

وأمّا الفروع فالبحث امّا يتعلّق بالنقوش والكتابة فعلم الخط او يختصّ بالمنظوم فعلم القريض او بالمنثور فعلم الإنشاء او لا يختصّ بشىء منها فعلم المحاضرة ومنه التاريخ وأمّا البديع فهو ذيل لعلم المعانى والبيان عند التحقيق .

وموضوع علم الأدب هو المركّب خاصّة وغايته الاحتراز عن الخطأ وهذا يطلق على علم النحو فقط وقد يطلق الى ماهو الاعم .

والفرق بين الاديب والعالم

ان الاديب من يأخذ من كلّ شيء احسنه فيأْلَفُهُ . والعالم من يقصد بفن من العلم فيعْتمله ولذلك قال على ﷺ العلم أكثر من ان يحصى فخذوا من كلّ شيء أحسنه وقال خليل بن احمد. اذا اردت العلم لنفسك فاجمع من كلّ شيء شيئاً، واذ اردت ان تكون رأساً فى العلم فعليك بطريق واحد . قال الشعبى ماغلبنى الاذوفنّ . وحسبك من شرف هذا العلم ان كلّ علم على الاطلاق مفتقر الى معرفته . محتاج الى استعماله فى محاورته . وصاحبه فغير مفتقر الى غيره وغير محتاج الى الاعتضاد والاعتماد على سواه فان العلم انما هو باللسان . فاذا كان اللسان معوجّاً فمتى يستقيم ماهو به . وان اردت اقامة الدليل على شأْن اهل هذا الشأْن . وايضاح فضلهم بالدلائل والبرهان كنت كمن تكلّف دليلاً على ضياء النهار واشراق الشمس واحراق النار فان ذلك لايخفى على الصامت من الحيوان فكيف الناطق . فهذه اخبار قوم عنهم اخذ علم القرآن المجيد والحديث المفيد وبصناعتهم تنال الإمارة وببضاعتهم يستقيم أمـر السلطان والوزارة وبعلمهم يتمُّ الاسلام . وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ألاترى ان القارى اذا قرأ إِنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَسُولُهُ بالرفع فقد سلك طريق الصواب . فان كسر اللّام من رسوله . كان كفراً بحتاً وجهلاً قحّاً . وقد روى ان اباعمرو بن العلاء كان يقول تعلّم العربية هو الدّين بعينه . فبلغ ذلك عبدالله بن المبارك . فقال صدق . لأنّى رأيت النصارى قد عبدوا المسيح لجهلهم

بذلك قال الله تعالى انا ولّدتك من مريم وانت نبيّى . فحسبوه يقول انا ولّدتك وانت بنيّى !

ذكر ابو حيّان فى كتاب محاضرات العلماء انه كان الفرّاء يوماً عند محمّد بن الحسن فتذاكرا فى الفقه والنّحو : ففضّل الفرّاء النّحو على الفقه . وفضّل محمّد بن الحسن الفقه على النّحو فقال الفرّاء . قلّ رجل أنعم النظر فى العربيّة واراد علماً غيره الّا سهل عليه . فقال محمّد بن الحسن يا ابازكريّا قد أنعمت النظر فى العربيّة ، واسألك عن باب من الفقه . فقال هات على بركة الله تعالى فقال ماتقول فى رجل صلّى فسها فى صلاته وسجد سجدتى السهو فسها فيهما فتفكّر الفرّاء ساعة ثمّ قال لاشىء عليه فقال له محمّد : لم . قال لأن التصغير عندنا ليس له تصغير وانّما سجدتا السّهو تمام الصّلوة وليس للتّمام تمام .[1]

على أنهم اذا شاؤا تدوين افكارهم فى العلوم . أعوزهم شىء من الأدب لان التدوين فنّ يستلزم فى ذيه ملكة الكتابة الّتى هى واحد من فنون الأدب فعلى كلّ عالم يجب انيكون متأدّبا لا أديبا فى سبيل تدوين علمه ليستهوى قرّاءه . ويكاد يكون الاستهواء قاصراً على الفنون . فكلّ عالم يجب ان يكون ملمّاً بالأدب كما أنّ كلّ اديب يجب عليه ان يلمّ بالعلم على ان الالمام بالعلوم والفنون هو كلّ مهنة الاديب لان قوام الادب بتمازج العلوم فى نفس الاديب وامّا العالم فالمامه بالأدب من كماليّاته

١ـــ وما يقوله الفقهاء لاسهو للسهو بحكم النص وليس مذهبنا القياس .

وبتعبير آخر فالاديب إنّما كان عالماً لا علاّمة وادبه يتقوّم بطرائف العلوم الّذى تصقّل روحه وتذكّى فكره وتثقّف عقله وتهذّب خلقه فالتاريخ والقصص والرّواية . ثمّ الشعر والخطابة ممايتقوّم به الأدب جزئيّاً لا كليّاً اذ يستحيل على الانسان وهو محدود العمر ومحدود الفكر ان ينضج فى العلوم جمعاء ، لذلك يجبُ على الأديب ان يكون عالماً لا علاّمة ، قال محمّد على الحومانى : الفنّان يرسم خطوط الحياة للامّة والعالم يبنى الامّة اويطبعها وفق هذه الخطوط او النظم . وامّا الاديب فيعمد الى تصوير هذا البناء ثمّ يعرض الصورة على مسرح الحياة الخالدة من وراء العين والأُذن فالفنّان مؤسس للحياة والعالم هو البانى لها على تلك الأسس . وأمّا الاديب فهو المشرف على التأسيس والبناء اشرافا يشترك فيه مع الفنّان فى توطيد الاسس . ومع العالم فى تكوين البناء وتلوينه .

لما كانت اللّغة العربيّة لغة القرآن هى المغناطيس الّذى يجتذب الناس الى احسن المراكز الّتى كانت تدرس فيها هذه اللّغة بكلّ دقائقها ولطائفها وكان القرآن قبل كلّ شىء أساس الدّراسات جميعاً . الّا ان ذلك قد ادّى حتماً الى دراسة دقيقة للطائف اللّغة العربيّة ودقائق علم النّحو وفقه اللّغة والتفسير وكان تنوّع الاساتذه الّذين جاؤا من مختلف البلاد شاحذاً للقرائح ، كما اشتعلت العقول الجديدة بآرائها المبتكرة اضواء جديدة فكانت كالفتيل الّذى يشتعل من الشرّر المنبعث من الزّناد . فعالم من سمرقند او نيسابور قد يعقبه آخر من اشبيلية او قرطبة غير انّهم

جميعا كانوا يتكلّمون نفس اللّغة ويشتغلون بنفس الموضوعات . وكانوا يشعرون وهم فى مسجد غاصّ كأنّهم فى وطنهم وبين أهليهم .

والمساجد كانت ومازال بعضها ـ جامعات الاسلام ، وانها عجّت بالطلبة الّذين ملأتهم الرغبة فى العلم . وقد جاؤا للاستماع الى محاضرات العلماء فى علوم الدين والشريعة والفلسفة والطب والرياضة . وقد جاء العلماء انفسهم من جميع ارجاء العالم الذى كان يتكلّم اللّغة العربيّة .

وكانوا يلقون محاضراتهم بالطريقة الّتى تروقهم . وفى الوقت الّذى يناسبهم ، من غير ان تكون لديهم شهادات دراسيّة . ودون ان يتقاضوا مرتّبات او يكونوا تحت إشراف دراسىّ منظّم وقد أيقن ذووا الكفاءة من هؤلاء العلماء من اقبال الطّلاب على حلقاتهم والاعتراف بفضلهم . كما كانوا لايتناولون غير أجر ضئيل يؤدّى اليهم طواعية واختياراً ـ وكان يرحّب بكلّ طالب مهما كانت جنسيّته . وكان الطّلاب فى معظمهم فقراء مثل اساتذتهم ، الّا انّ بعضهم كان يساعد البعض الآخر . وكانت الحياة بسيطة ومطالبها قليلة .

ومن الملاحظ انّ كثيرين من قادة الفلسفة الاسلاميّة والعلوم الرياضيّة قد أتوا من بلادنائية مثل نهر جيحون كالفارابى مثلاً . وكان من اعظم الفلاسفة الّذى لقّب بالمعلّم الثانى ، قد جاء بغداد من (اترار فى طلب العلم (وكانت تسمّى من قبل فاراب) على نهر جيحون . ولمّا كان من الجنس التركمانى لم يكن يعرف العربيّة . وبغير العربيّة لم يكن يمكنه

احراز ایّ نجاح . فدرس فی مدینة حرّان حیث کان یعنی بالدراسات الفلسفیّة الخاصة – موطن المعلم الصابئیّ العظیم البتانی . ولما تعلّم کلّ ماتمکّن تعلّمه فی حرّان – عاد الی بغداد . وتفرّغ لدراسة ارسطو دراسة مستفیضة . واستقرّ به المقام اخیراً فی دمشق حیث توفّی فی سنة ٩٥٠م وکان الدمشق فی ذلك الوقت عاصمة الأمیر العربیّ سیف الدّولة الحمدانی راس إحدی تلك الاسر الّتی اقتسمت اراضی الخلافة فیما بینها عند ماتضاءل نفوذ العباسیین . واصبح الخلفاء مجرّد العوبة فی ایدی حرّاسهم الا تراك . وسیف الدّولة کان . بصیراً للعلم بقدر ما کان رجل حرب ذائع الصیت . واعلن الحرب علی اعدائه البیزنطیین الّذین کانوا علی الحدود الشمالیّة لأراضیه . وکان کذلك شاعراً یسّره ان یحطّ نفسه برجال الأدب . ومن بینهم المتنبّی المشهور الّذی کان یعدّ أنبغ شعراء الاسلام ولو انه فی نظر الغربیّین اکثرهم تکلّفا وقد اجتذبت حلب ودمشق فی عهد هذا الأمیر المثقف . حلقة مشهورة من اساتذه الادب والعلم. ومن ثمّ قوبل الفارابی بالترحیب علی الرغم من ان حیاة القصور لم ترق له . فکان یؤثر ان یستغرق فی تأمّلاته الفلسفیّة . وان یحیا حیاة بسیطة ینفق فیها علی نفسه مایقرب من اربعة دراهم فی الیوم کانت تصرف له من بیت المال . وقد سار علی نمطه کثیرون غیره وخاصّة ابن سینا أشهر من شرح الآراء المنسوبة الی ارسطو باللّغة العربیّة ومؤلّف کتاب القانون المشهور فی الطب .

وقليل من هؤلاء الاساتذة المبرّزين من لم يكن رحّالة مخاطراً فى الوقت الّذى كان السفر فيه فى الشرق محفوفاً بالمخاطر . وهناك مجموعة عظيمة من كتب الاسفار باللّغة العربيّة سبقت بكتب عن طرق الرّحلات ثمّ المعاجم الجغرافيّة العظيمة مثل معجم ياقوت الّذى كان عبداً يونانيّاً . لكنّه تعلّم فى بغداد . وكتب الاسفار للادريسىّ والبكرى . وابن جبير وغيرهم . وكان المسعودى المورّخ القصصى الّذى يطلق عليه احياناً (هيرودت الشرق) رحالّة كبيرة ، بدأ رحلته من بغداد وزار اقطاراً كثيرة وذكر عن معظمها اشياء ذات فائدة للتسلية او التعليم .

ولا يخفى أنّ مميّزات اللّغات ليست قائمة بما فيها من الأسماء والافعال بل بما فيها من حروف المعانى واساليب التصريف والاشتقاق وتركيب الجمل . اى بصرفها ونحوها وبيانها . فى لغتنا الفارسيّة الوف من الكلمات العربيّة وقد تقرأ سطرين فيها مؤلّفين من عشرين كلمة فتجد فيها اربعة عشر كلمات عربيّة ومع ذلك يبقى الكلام امامك فارسيّاً لا يفهمه العرب مالم يتعلم اللّغة الفارسيّة . لأنّ تصاريفها وتراكيبها وحروف المعانى فيها غير ماهى فى العربيّة . وكلّ مادخل الفارسيّة من لغة العرب لم يصرفها عن كونها فارسيّة ولاحطّ من منزلتها . بل زادها غنىً وزاد اهلها مقدرة على التعبير عن المعانى . ومثل ذلك اللّغتان الانجليزيّة والفرنساويّة فان فيهما عشرات الالوف من الكلمات الّتى تشتركان فيها ومع ذلك فكلّ لغة منهما المستقلّة عن الاخرى تمام الاستقلال ولا يستطيع الفرنساوى ان يفهم الانكليزيّة

ما لم يتعلّمها ولا الانكليزى الفرنسويّة ما لم يتعلّمها . وتعلّم اللغة الواحدة على ابناء اللّغة الاخرى ليس أسهل من تعلّمها على ابناء الفارسيّة لان مميّزات كلّ لغة منهما انّما هى فى المختلف من حروفهما وتصاريفهما وتراكيبهما لا فى المتماثل من اسمائهما وافعالهما . ولقد دخل العربيّة قبل جمع معجماتها كثير من الكلمات اليونانيّة والقبطيّة والفارسيّة والسريانيّة فلم يغضّ ذلك من كرامتها واستمرّ الدخيل يضاف اليها حتّى الان ويستحيل ان ينقطع ما دامت اللّغة حيّة والمتكلّمون بها يخالطون غيرهم من أهل اللّغات الاخرى ويتعلّمون الفلسفة ومباحث مختلفة فى علوم شتّى .

اذا قرأت مقدّمة نصير الدّين الطوسى فى كتاب تحرير الاصول الاقليدس وجدت ان كثيراً من الفاظها وتعابيرها ليس من مناحى العرب ولكن مترجمى اقليدس والجارين فى خطّتهم . مثل ثابت بن قرّة الحرّانى وحجّاج بن مطر . وسنان بن جابر الحرّانى . لم يتقيّدوا بألفاظ الشعراء والادباء واساليبهم بل اخضعوا اللّغة لأغراضهم فعرّبوا واستعاروا وتصرّفوا كيف شاؤوا على ما اقتضاه نقل المعانى الى العربيّة . وهذا ينبغى ان يكون شأننا نحن . اذا اردنا ان نجارى العصر ونسير فى طريق العلم . فالحاجة الى التعريب واساليب التعريب لا يعرفها ولا يقوم بها الّا اصحاب كلّ فنّ فى فنّهم . فالجرّاح الّذى قرن العلم بالعمل والتعلّم بالتعليم يعلم ما تحتاج اليه صناعته من التعريب . والصيدلانى. الّذى عمل بما علم يعلم ما تحتاج اليه صناعته من التعريب . وقس على ذلك الفلكى والفسيولوجى

والبيولوجى والجيولوجى والنباتى والرياضى وقائد الجيش وصانع الآلات والأدوات. أما ان تقيم نحوياً اومنطقياً اومورّخاً اومنشئاً لوضع كلمات فى الهندسة وعلم الفلك والنبات وعلم الحيوان والعلوم الطبيعيّة والطبّيّة والرياضيّة فمثل تخويلك قاضياً يطبّب الابدان وطبياً يصوّر الالوان. نعم انه لابدّ من الاستعانة بعلماء اللّغة الّذين يحفظون مُتونها ويسهل عليهم استحضار الفاظها. ولكن يستحيل الاستغناء بهم عن العلماء الاختصاصيّين الّذين لهم المام واسع بمختلف العلوم والفنون وقد قرنوا العلم بالعمل زماناً طويلاً واشهر ماحدث من التنوّعات فى الالفاظ العربيّة فى العصر الاسلامى المصطلحات الدينيّة والشرعيّة والفقهيّة وكانت الفاظهاموجودة قبل الاسلام ولكنّها كانت تدلّ على معان أخرى فتحوّلت للدلالة على مايقاربها من المعانى الجديدة. فلفظ المؤمن مثلاً كان فى الجاهليّة معروفاً بمعنى الامان او الايمان وهو التصديق. فاصبح بعد الاسلام يدلّ على المؤمن غير الكافر وله شروط معيّنة. ومما حدث من المصطلحات الشرعيّة لفظ الصّوم والصّلوة والحجّ والزّكوة فقد كان لهذه الالفاظ واشباهها معان تبدّلت بالاسلام وتنوّعت. حتّى لقد اصبح للّفظ الواحد معنى فقهى وآخر لغوى وآخر عروضى وآخر دينى. واحدث الاسلام تغييراً كبيراً فى أساليب التعبير كقولهم. اطال الله بقاءك. وأوّل من قالها عمر بن الخطّاب لعلىّ بن أبى طالب ﷺ. وكما احدث الاسلام الفاظاً جديدة للتعبير عن معان جديدة اقتضاها الشرع الجديد والعلم الجديد فقد محا من اللّغة الفاظاً

قديمة . ذهبت بذهاب بعض اعتقادات الجاهليّة وعاداتهم فمنها قولهم (المرباع) وهو ربع الغنيمة الّذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهليّة و (النشيطة) وهى ما اصاب الرئيس قبل ان يصير الى بيضة القوم او مايغنمه الغزاة فى الطريق قبل الوصول الى الموضع الّذى قصدوه و (المكوس) وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الاسواق فى الجاهليّة .

ويقال بالاجمال ان العرب اقتبسوا من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها ولذلك رأينا ائمّة اللّغة اذا أشكل عليهم بعض الالفاظ الاعجميّة عدّوها فارسية فان الظنّ يلحق الشىء بالاعم الاغلب .

قال المسعودى — وقد كانت اسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً له ولجدّها ابرهيم عليه السّلام وتمسّكاً بهديه وحفظاً لأنسابها . وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك جدّ اردشير بن بابك وهو أوّل ملوك آل ساسان وابوهم الّذى يرجعون اليه ، فكان ساسان اذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر اسماعيل ، فقيل انّما سمّيت زمزم لزمزمته عليها هو وغيره من فارس ، وهذا يدلّ على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذا البئر ، وفى ذلك يقول الشاعر فى قديم الزمان

زمزمت الفرس على زمزم وذاك من سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بذلك فقال

ومازلنا نحجّ البيت قدما ونلقى بالاباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتّى أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشّاربينا

وكانت الفرس تهدى الى الكعبة أموالاً فى صدر الزمان وجواهر وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً . هذه من معاليه احدى المعالى نعم كما انّ الله إله العالمين هو الّذى فى السماء وفى الارض إله . كذلك بيته بيت النّاس اجمعين .

قال الله تعالى ان اوّل بيت وضع للناس للّذى ببكّة مباركا .

خادم الدين والأدب **سيّد محمّد باقر سبزوارى**

بسم الله الرحمن الرحيم

ألْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القائلون ولا يُحصِي نَعماءَهُ العادُّون
ولا يُؤدِّي حقَّهُ المُجتهدون الَّذي لا يُدرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ ولا ينالُهُ غوصُ
الفِطَنِ الَّذي ليسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ محدودٌ ولا نعتٌ موجودٌ ولا وقتٌ معدودٌ
ولا أجلٌ ممدودٌ فطرَ الخلائقَ بقدرتِهِ ونشرَ الرياحَ برحمتِهِ ووتَّدَ
بالصُّخورِ ميدانَ أرضِهِ أوَّلُ الدِّينِ معرفتُهُ وكمالُ معرفتِهِ التَّصديقُ
بهِ وكمالُ التَّصديقِ بهِ توحيدُهُ وكمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ لهُ وكمالُ
إخلاصِهِ نفيُ الصِّفاتِ عنهُ لِشهادةِ كُلِّ صفةٍ أنَّها غيرُ الموصوفِ
وشهادةِ كُلِّ موصوفٍ أنَّهُ غيرُ الصِّفةِ فمن وصفَ اللهَ سبحانَهُ
فقد قرنَهُ ومن قرنَهُ فقد ثنّاهُ ومن ثنّاهُ فقد جزّأهُ ومن جزّأهُ فقد
جهلَهُ ومن أشارَ إليهِ فقد حدَّهُ ومن حدَّهُ فقد عدَّهُ ومن قالَ فيمَ فقد
ضمَّنَهُ ومن قالَ علامَ فقد أخلى منهُ كائنٌ لا عن حدثٍ موجودٌ لا عن
عدمٍ مع كُلِّ شيءٍ لا بمقارنةٍ وغيرُ كُلِّ شيءٍ لا بمزايلةٍ فاعلٌ لا بمعنى
الحركاتِ والآلةِ بصيرٌ إذ لا منظورَ إليهِ من خلقِهِ متوحِّدٌ إذ لا سكنَ
يستأنسُ بهِ ولا يستوحشُ لفقدِهِ أنشأَ الخلقَ إنشاءً وابتدأهُ ابتداءً بلا
رويَّةٍ أجالَها . ولا تجربةٍ استفادَها . ولا حركةٍ أحدثَها ولا همامةِ نفسٍ

إِضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا وَلَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا
وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ إِبْتِدَائِهَا مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا
عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ
وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ حَمَلَهُ
عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ وَسَلَّطَهَا عَلَى
شَدِّهِ وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ أَلْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ ثُمَّ
أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً إِعْتَقَمَ مَهَبَّهَا وَأَدَامَ مَرَبَّهَا وَأَعْصَفَ مَجْرِيهَا وَأَبْعَدَ
مَنْشَاهَا فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَضَتْهُ
مَخْضَ السِّقَاءِ وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَسَاجِيَهُ
إِلَى مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ وَجَوٍّ
مُنْفَهِقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً
مَحْفُوظاً وَسَمْكاً مَرْفُوعاً بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا وَلَا دِسَارٍ يَنْتَظِمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ فَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً فِي
فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمٰوَاتِ الْعُلَى فَمَلَأَهُنَّ
أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ وَصَافُّونَ
لَا يَتَزَايَلُونَ وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ
وَلَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ وَلَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ وَالسِنَةٌ إِلَى
رُسُلِهِ مُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ
جِنَانِهِ وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ اه .

قال الرّاغب فى تفسيره الكبير عند قوله تعالى أَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ انّ الّذى يحمد ويمدح ويعظّم فى الدّنيا انّما يكون كذلك لأحد وجوه اربعة امّا ان يكون كاملاً فى ذاته وصفاته منزّهاً عن جميع النقايص والمعايب وان لم يكن منه احسان اليك وإمّا لكونه محسناً اليك منعماً عليك وامّا لأنّك ترجو فضول احسانه اليك فيما يستقبل من الزّمان وامّا لأجل ان تكون خائفاً من قهره وقدرته وكمال سطوته فهذه الجهات الموجبة للتّعظيم فكأنّه تعالى يقول ان كنتم ممّن تعظّمون للكمال الذّاتى فأحمدونى فانّى انا الله وان كنتم تعظّمون للاحسان والتربية والإنعام فإنّى أنا ربّ العالمين وان كنتم تعظّمون للطمع فى المستقبل فأنا الرّحمن الرّحيم وإن كنتم تعظّمون للخوف فأنا مالك يوم الدّين .

انّ لارتفاع الامم وانحطاطها أسبابا خاض فيها الحكماء وافاض فى بيانها العلماءِ فالادب والاخلاق هى العنوان الاكبر والحجّة البالغة على ماللامم من مبلغ الرقى وسعة النّظر وهى الشرط الأوّل فى نهوض الامم وترقيها فى سلّم السّعادة والعرفان وبدونها لايتمّ جاه لدولة وقوة لشعب ولو تطلّبوا من العلم والثروة ماتطلّبوا وكيفما كانت حالهم فى الذّكاءِ وسعة الفكر والتوغّل فى الثّقافة والمعارف . وانّما الامم الاخلاق مابقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا وادلّة هذا من التّاريخ كثيرة فالتّاريخ قد أنبئنا عن تغلّب الرّومان على اليونان بالاخلاق العالية الّتى هى شرط اوّلى فى حياة الشعوب مع ان اليونان من اكبر الامم علماً وفلسفة وسلطاناً وقوة فى ذلك الوقت ولكن

كل هذه الأَشياء الّتى من شأْنها تمديد آجال الشعوب وبثّ روح الحياة فى اجسامهم لم تغن فتيلاً حيال اخلاق الرومان العالية وفى ظنّنا ان هذا مستند من قال المرء باخلاقه لا بذكائه .

والاخلاق الحسنة كثيرة يرجع معظمها الى ملكة اصليّة وهو الصّدق الصّادق بالاقوال والافعال فقوّة الجاش المعبّر عنه بالجرأَة الادبيّة والتعويل على حقايق الاشياء وحريّة القول الّتى هى الاصداع بالحق بدون أَدنى تحيّز لاىّ تقليد كأَنّ حرّية الفكر كلّها ترجع الى الصّدق . ومن الاخلاق الراقية سعة الصدر وهى آلة الرياسة كما قال سيّدنا علىّ امير المؤمنين عليه السلام والحياء . والتعويل على الافعال لا الاقوال فاكثر الامم اسعاداً من كثر فعّالوها وقلّ قوّالوها ومن دعائم العمران العظيمة الّتى يجب الاتّصاف بها العفاف والثبات فى المبدء فَاسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَمَنْ تٰابَ مَعَكَ طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه . وقرّر ان لِكُلِّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَعَلَيْهٰا مٰا اكْتَسَبَتْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلَّا مٰا سَعىٰ واباح لكلّ احد ان يتناول من الطّيّبات ماشاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارّا لنفسه اولمن يدخل فى ولايته وماتعدّى ضرره الى غيره . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَالطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ وحدّد له فى ذلك الحدود العامّة بما ينطبق على مصالح البشر كافّة فكفّل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتّسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتّى لم يعدلها عقبة تتعثر بها

اللّهم الّا حقّا محترما تصطدم به . انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر . فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس . واقتلعت اصوله الرّاسخة فى المدارك . ونسفت ما كان له من دعائم واركان فى عقائد الأُمم ، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم (ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة) اطرق كرى ان النعامة فى القرى .

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام . وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام . اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلّمون منبّهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرّح فى وصف اهل الحق بانهم (اَلَّذِيْنَ يَسْتَمِعُوْنَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُوْنَ أَحْسَنَهُ) فوصفهم بالتّمييز بين مايقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا ممّا علّموا احسنه ويطرحوا ما لم يتبيّنوا صحّته ونفعه . ومال على الرّؤساء فانزلهم من مستوى كانوا فيه يأْمرون وينهون ووضعهم تحت أَنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقّنون لا بما يظنّون ويتوهّمون .

ان كل امّة تحافظ على قوميّتها وتهتّم بجامعتها وتعنى بحفظ هيأَتها وتريد ان تعيش بصفتها امّة ممتازة على غيرها مباينة لسواها لا تأْلوا جهداً فى التّمسّك بما عرفت به من الاخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة والعادات

الحسنة والاداب الجميلة وتجعلها الاساس المتين فى تربية ناشئتها وتهذيبها والوسيلة الفعّالة فى غرس المحبّة القوميّة فى نفوسها فيرتضع الصبى أفاويقها وهو فى حضن امه وتتأثّر منها حواسّه وهو فى بيت ابيه ويتلقّفها من أفواه أترابه ويتلقّاها من معلّميه ومؤدّبيه ويدرك سرّها ويفقه لبّها كما هى عند مايدخل رياض المدرسة من تعاليم أساتذته ونصائح مرشديه فتنطبع تلك الصور الجميلة فى مرآت فكرته الصّقيلة انطباعاً هيهات ان تمحوه يد الاغيار اوتشتّت اصوله حوادث الدّهر وتقلّب الزّمان ذلك شأن الامم الرّاقية الّتى تعرف ماللمحافظة على اخلاقها من المزايا الّتى تكفل لها بقاء قوميّتها وتصون هيكل جامعتها من التّداعى والانهدام وتحوّط حوزتها عن الامتزاج والاندماج - والامّة الّتى لاتتمسّك باخلاقها ولاتحافظ على مميّزاتها لاتلبث ان تضمحلّ من بين الامم وتندمج بقاياها الحقيرة فى سلك غيرها تملّصا من الويلات الّتى تنصبّ عليها وتستراً من اللعنات المتساقطة عليها كل حين وآن وانقياداً لسنّة ميل الضعيف الى القوى ومحاكاته فى عوائده وأزيائه لاعتقاده الكمال فى جميع احواله. بذلك تضمحلّ الامم وتنقرض الشّعوب وتصبح أثراً بعد عين.

عرفت الشعوب الاسلاميّة بكثير من الاخلاق السّامية وايران عضو من ذلك الجسم والحمد لله وله سهام كثيرة ماديّة ومعنويّة فى خدمة الاسلام وحفظ شعائر الدّين وجمع شتات المسلمين وهذه حقيقة لاتنكر فله القصب السبق والقدح المعلى فى الكتب الّتى بين ايدينا من فقه وفلسفة وادب وطبيعى

ورياضى وتفسير القرآن الكريم – نعم كلّ الّذين دوّنوا الحقوق الاسلاميّة وما نعبّر عنها بالاحكام الفقهيّة من كتب الاربعة للشيعة والصّحاح الستّة لاهل السّنة . كانوا من ايران .

فالامتياز للجنسيّة الايرانيّة والفسيلة الاصيلة من بين الامم بجليل المناقب وكريم الخصال كالصدق والحياء والنزاهة والغيرة والنجدة والكرم والمروّة والنصح والوفاء الى غيرها من شعب المكارم والفضل فى ذلك لدينها الحنيف الاسلامى دين الفطرة والفكرة دين العقل والعلم دين الفلسفة والمنطق دين الكمال والعظمة دين الجمال والعزّة فالايمان بالله والعقيدة الدينيّة فطرة فى النفس الانسانية وصبغة الهيّة وهو الملاذ الوحيد الّذى يعتصم به فى الملمّات والاسلام لايزال مجهول حقيقته عند من يدّعى معرفته وقد قال السيّد الحكيم جمال الدّين ان الاسلام لمحجوب بالمسلمين وكان يرى ان سوء حال المسلمين اكثف الحجب الحائلة بين شعوب اوربا والاسلام . ومن اقواله اذا اردنا ان ندعو احرار اوربا الى ديننا فيجب علينا ان نقنعهم اوّلاً انّا لسنا مسلمين فانهم ينظرون الينا من خلال القرآن هكذا – ورفع كفيّه وفرّج بين اصابعهما فيرون وراءه أقواماً فشافيهم الجهل والتخاذل والتواكل فيقولون لوكان هذا الكتاب حقّا مصلحا لما كان أتباعه كما نرى .

والحق نقول : ان كثيراً من المسلمين اليوم مسلمون بالاسم لايعرفون من الاسلام الا اسمه ومن القرآن الّا درسه دينهم دنانيرهم ونساءهم قبلتهم ولهذا يصحّ سلب الاسلام عنهم فكما اى فرد لايقبله اىّ حزب

فی عداده بدون ان یعمل بمبادی الحزب ویسعی فی تحکیم مبانیه فکذلك الاسلام لایصحّ اطلاقه علی شخص لاتظهر اعماله مطابقة لتعالیم الاسلام ویقوم الاسلام علی خمسة ارکان ـ الصّلوة والزّکوة والحجّ والصّوم والولایة ومانودی بشیء کما نودی بالولایة واصول الشریعة الاسلامیّة اربعة وهی کتاب الله القرآن وهو الکلام الّذی نزل به الرّوح الامین علی قلب محمّد لیکون للعالمین نذیراً فهو الکتاب المبین الّذی یهدی للّتی هی اقوم وهو المدوّن بین الدفتین والمصحف المصون من التّصحیف المنقول الینا مشافهة وکتابة جیلا عن جیل محفوظاً من ایّ تحریف وتبدیل قوله تعالی انا نحن نزّلنا الذکر وانا له لحافظون وهو الجامع لجمیع مایحتاج الیه فی امر الدّین والدّنیا وضامن لسعادة العرب والعجم ولذا کان الاسلام دعوة موجّهة الی کافّة النّاس فی العالم لافرق بین امّة وامّة وجنس وجنسیّة کما قال وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِلنَّاسِ : وقال علی علیه السَّلام روایة عن رسول الله صلّی الله علیه وآله وسلّم « علیکم بکتاب الله فیه نبأ ماقبلکم وخبر مابعدکم وحکم مابینکم هو الفصل لیس بالهزل ومن اتّبع الهدی فی غیره اضله الله ومن دعا الیه هدی الی صراط مستقیم » وقال علیه السَّلام « واعلموا انّ هذا القرآن هو النّاصح الّذی لایغشّ والهادی لایُضّل والمحدّث الّذی لایکذب وماجالس هذا القرآن احد الّاقام عنه بزیادة او نقصان زیادة فی هدی ونقصان من عمی واعلموا انّه لیس علی احد بعد القرآن من فاقة ولا لاحد قبل القرآن من غنی فاستشفوه من

ادوائكم واستعينوا به على لاوائكم فان فيه شفاءً من اكبر الداء وهو الكفر والنّفاق والضّلال فاسئلوا الله به وتوجّهوا اليه بحبّه ولاتسأَلوا به خلقه انّه ماتوجّه العباد الى الله بمثله واعلموا أنّه شافع ومشفّعٌ وماحل مصدّق وانّه من شفع له القرآن يوم القيمة شفع فيه ومن محل به القرآن يوم القيمة صُدّق عليه» وهو متضمّن الاحكام الملزمة وهى ثلاثة انواع .

الاول الاحكام الاعتقاديّة تتعلّق بما يجب على المكلّف اعتقاده فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والثانى احكام خلقيّة تتعلّق بمايجب على المكلّف ان يتحلّى به من الفضائل وما يتخلّى عنه من الرذائل .

والثالث احكام عمليّة بمايصدر عن المكلّف من اقوال وافعال وعقود وتصرّفات .

والاصل الثانى من اصول الشريعة الاسلاميّة هو السنّة وهى ماصدر عن الرّسول وخلفائه المهديّين المعصومين من فعل او قول او تقرير فالقوليّة هى احاديثهم والفعليّة اعمالهم والتقريريّة هى مافعله احد من المسلمين واقرّه عليه النبى صلى الله عليه وآله او احد المعصومين من أئمة الميامين امّا بسكوته او موافقته وعدم انكاره او استحسانه .

والسنّة امّا انتكون مقرّرة مؤكّدة حكماً جاء فى القرآن وامّامفصّلة ومفسّرة لما جاء فيه وامّا مثبتة ومنشئة حكماً سكت عنه القرآن والعلاقة بين القرآن والسنة هى أنّها فى المرتبة الثانية بالنسبة له .

والاصل الثالث هو الاجماع الكاشف عن قول المعصوم .

والاصل الرابع هو العقل وهذا الاصل العقلى إذا كان صحيحاً وسليماً يكون اقدم واقوم لانه اذا كان فى القرآن حكم يخالف العقل ينبغى لنا بل يجب علينا ان نأوّل القرآن ونؤول الى حكم العقل .

وهذا ان دلّت على شىء فانّما تدلّ على ان شريعة الاسلام شريعة حيّة نامية قابلة للتطوّر وموافق لناموس الارتقاء بحيث استطاعت ان تساير امتداد الفتح ومانشأ عنه من اتّساع نظرة الاسلام بالقياس الى الظروف المحلّيّة للحياة والعادات والشعوب الجديدة الّتى دخلته وانطوت تحت لوائه ولما كان الاسلام دين الكلّ لا الفئة ويعمل على هدى الانسانيّة مادّة ومعنويّة دنيويّة واخرويّة باقامة دين حنيف وانشاء دولة حرّة فقد جاء مجموعة من المبادى والاحكام الّتى تنظّم للفرد مناشطه فى الحياة حياته وحياة الآخرين بجميع ابعادها الروحيّة والاخلاقيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة من هذه المبادى مانصّ عليه الاسلام من الخلوص بين الانسان وخالقه . بحيث لايكون تابعاً لاحد من اخوانه فى البشريّة يكون وسيطاً بينه وبين خالقه (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِىْ عَنِّى فَإِنِّىْ قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيْبُوْا لِىْ وَلْيُؤْمِنُوْا بِىْ) وبهذا المبدء وضع الاسلام اساس الحريّة الروحيّة للانسان .

ومن مبادئه المساوات العامّة بين البشر فلافضل لعربىّ على عجمىّ الّا بالتقوى (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقاكُمْ) وبهذا المبدء وضع الاسلام اساس الحريّة الاجتماعيّة للانسان وكذلك نصّ الاسلام على تقرير مبدء الشورى فى الحكومة فقال تعالى «وَأَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ» وقال تعالى «وَشاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ» وبذلك جعل لكلّ فرد حقّ الرقابة على الحكم وابداء الرأى فى الشؤون العامّة وذلك هو مبدء الديمقراطيّة فى الاسلام وكذلك اعتراف الاسلام بحقّ العلم فى تقرير المعتقدات وتحديد المعاملات وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً : وَمايَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ : إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ : بل ذهب القرآن الى ان ايمان المقلد غير مقبول وقال فى الآخذين بالاوهام والظنون وَمايَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّاظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لايُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيْمٌ بِمايَفْعَلُونَ وبهذا المبدء تحرّرت العقول والنفوس وظهر الدين مواخياً للعقل لاوّل مرّة فى تاريخ الانسان وكما آخى بين الدين والعقل آخى بينه وبين المدنيّة فقرّر انّ الدّين هو التمدّن وهو دليلها الصادق (وَلاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) ، (فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) ولما كان العامل فى ايجادالمدنيّة المادّيّة هو العلم قرّر الاسلام ان العلم فريضة انسانيّة (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِيْنَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِيْنَ لايَعْلَمُونَ) .[1] وطلب العلم فريضة

١ ــ قال الشهرستانى فى العدد الثانى من السنة الثانية من مجلة العلم :

انّ المستر تيبر الانكليزى المهندس على سدّة الهنديّة نيابة عن ويلكوكس سئلنى عن الاحاديث الثلاثة الّتى نرسمها دائماً حول العلم فى غلاف المجلة وعن الداعى الى رسمها

البقية تأتى

جاءَ بما يكفل الهناء والسعادة لكافّة البشر . واتى بما فيه صلاح عقولهم وابدانهم وصيانة ارواحهم واعراضهم واموالهم . امرهم بطاعة الله وتقويه وفعل الخير وإتيان المعروف وحثّهم على التمسك بمكارم الاخلاق ومعالى الهمم . واوجب عليهم اقامة العدل واجراء المساوات والمعاملة بالجميل مع سايربنى الانسان (لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوْا إِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ) .

وبذلك قرّر الاسلام مسألة الأخوّة العامّة ونهاهم عن المفسدات والمنكرات (وحرّم عليهم الخبائث وأحلّ لهم الطّيّبات) . كلّ ذلك فى سبيل مصلحتهم وسوقهم الى منهج سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم . فاهتدت امة وضلّ آخرون ـ استقام المسلمون على الطريقة واقاموا شرايع الاسلام

فقلت له ان نبى الاسلام ﷺ ماوجب على امّته شيئاً مثل مااوجب عليهم طلب العلم فانّه لم يستثن من ذلك احداً ولازمانا ولامكانا الاوقد فرض معه طلب العلم فبقوله ﷺ (طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة) اوجب التعلم على جميع افراد امّته من ذكر وانثى وبقوله ﷺ (اطلبوا العلم من المهد الى اللحد) اوجب التعلم عليهم فى كلّ آن وعلى كلّ حال وليس فى الشريعة فريضة تلازم الانسان مادام حيّاً من اللبن الى اللبن الّا العلم وبقوله ﷺ (اطلبوا العلم ولو بالصين) اوجب على امّته التعلم فى كلّ مكان وتحصيله من كلّ امّة ولو بشدّ الرحال الى الصين والتلمذ على الوثنيّين فضلاً عن الاوربائيّين ونحن نرسم هذه الاحاديث فى عنوان مجلّتنا ليتذكّر المسلمون وغيرهم انّ الاسلام اوجب العلم على كلّ فرد وفى كلّ مكان وزمان . . . فاطال المستر تفكّره متعجّباً ثم قال ياليت عمل المسلمون بالحديث الفوقانى تمامه لابنصفه المقدّم فقلت له لو عمل المسلمون بنصفه المقدّم عملوا بنصفه المؤخّر بالضرورة لكنّهم لم يعملوا به رأساً فاستحسن هذه المحاورة كثيراً .

ولم يتعدّوا حدود الله فانجز لهم ماوعدهم به من التمكين فى الارض فسادوا وشادوا وحكموا وعدلوا ودانت لهم الممالك وخضعت لهم المسالك وخشعت لهم الامم الى ان حادوا عن الصراط السوى والطريق المستقيم فسقطوا . هكذا كان وهكذا يكون سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيْلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيْلاً .

لاشك ان الحكم على الامم حسب مسيرها نحو الرقى او الانحطاط يتوقّف على معرفة قيمتها العلميّة وصفاتها الاخلاقيّة اذ بذلك تتميّز الشعوب ويعرف الراقى منها من المنحط . قد علّمنا التاريخ ان كل قوم تقاعدوا عن تحصيل العلم وغفلوا او تغافلوا عن تطبيق قواعده على نواميس الحياة واضاعوا اخلاقهم او استبدلوها بما لم يلق بطبيعتهم ومميّزاتهم توالت عليهم النكبات الاجتماعيّة واصبحوا هدفاً لعوامل التقهقر والانحلال وهذا الطّور هو الّذى دخلت فيه الامّة الايرانيّة منذ مدّة بعد ان كانت بلادنا المباركة مقراً للمعارف والفنون يؤمّها النّاس من جميع الممالك الاسلاميّة تجذبهم اليها شهرة فقهائها وبلاغة ادبائها وسعة علم محدّثيها ودقّة نظر متكلّميها وفلاسفتها ولم يكن تقهقرنا ناشئاً عن نقص فى ذكاء اهل هذه الديار او عجز عن التنظيم والاختراع وانما سببه المحافظة على اساليب فى التعليم لم تعد صالحة للزمان . والاعراض عن التصرّف فيما يدرس بما يناسب التغييرات الاجتماعيّة الّتى طرأت على البلاد كما طرأت على غيرها والاحترام المتناهى لقواعد فارقتها الحياة من زمن بعيد والازدراء بما كانت

تجول فيه عقول العارفين بالممالك المجاورة لنا وعدم الاهتمام بمكتشفات علمائها وابحاثهم المتنوّعة فى الكيمياء والهيأة والفلك والطبيعيات وقد نغمسنا فى تدقيق الجزئيّات المنطقيّة والنكات الفقهيّة وتجاهلنا اروبا كانها لم تكن فى عالم الوجود كان يجب علينا تتبّع سيرها بغاية العناية والانتباه من يوم ظهور النهضة الايطالية والانقلاب المذهبى اللّذين غيّرا منظرها وكانت نتيجة هذا الموقف الغريب الّذى ربما يراه بعضهم بالحقد والكراهية اللّذين استوليا على المسلمين ضدّ اروبا اثر الحروب الصليبيّة وهجمات المسيحيّين المتتالية على الاراضى والبلاد الاسلاميّة .
وقوف دولاب المدنيّة عندنا وتدحرجنا من قمّة العزّ والرفاهية الى درك الجهل والفاقة والخذلان جولّنا انظارنا الى ماضينا الفاخر وافرطنا فى الترنّم بما صنعه الآباء والاجداد بينما كانت اروبا متجهّة بكليّتها الى المستقبل مستعينة على فتح ابوابها الفضّية بفحص تلك الكتب الّتى دوّنها حكماؤُنا واستخراج كنوزها الثمينة واستمرّت هكـذا متابعة للعمل والاجتهاد الى ان بلغت منزلتها الحاليّة من القوّة والسلطان .

انعزلنا عن اروبا انعزالاً تامّا وضربنا صفحاً عن تقلّباتها الاجتماعيّة ولكنّها لم تقلدنا فى هذا المسلك العقيم ولم تعبأ بجفائنا لها بل انها اخذت تتقرّب منّا لمصالحها بربط العلائق التجاريّة اوّلا ثم بعقد المعاهدات ثانياً وبانت تترصّد الفرص للتداخل فى امورنا الى أن ساعدتها الظروف وصاروا لنا ضيوف . حصل كلّ ذلك ونحن لم ندرك ان مابلغه الغرب

من اسباب القوّة والرقى انما كان بفضل العلم وانتشاره بين اقوامه وحسن تطبيق اصوله على ضروريّات الحيات بخلاف الامر عندنا فانّنا كنّا نعتقد وربما لم يزل بعضنا يعتقد أنَّ محاكاتنا فى اللباس وظواهر الحيات. تحاكى عن رشدنا ورقانا ومادرينا أنّ الفضل والشرف شىء فى الروح والنفس لافى الظاهر واللبس.

فلو كان فى لبس الفتى شرف له فما السيف الاغمده والحمائل

ارتقى العلم باروبا الى الدرجة الّتى نشاهدها اليوم وتجلّى للمؤلّفين افق لم يحلم به الأقدمون وتوفّق المستشرفون الى تصنيف الكتب فى آدابنا وتاريخنا واخلاقنا وكتابنا وحديثنا بما هو ادق نسجاً واحسن اسلوباً واكثر فائدة مما حبرته اقلام كثير من كتّابنا فى تلك الاغراض.

ومن مبادى الاسلام التسامح الدينى فقد امر الاسلام اتباعه ان يبرّوا الاجانب عن دينهم ويعدلوا معهم اذا كانوا لم يقاتلوهم فى الدّين ولم يخرجوهم من ديارهم (لَايَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِيْنَ لَمْ يُقَاتِلُوْكُمْ فى الدِّيْنِ وَلَمْ يُخْرِجُوْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوْهُمْ وَتُقْسِطُوْا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ).

وان شئت التفصيل فعليك بمقدّمه ترجمة القرآن الشريف الّتى كتبها مسيوجون لابوم الفرنساوى وترجمها الفريد وجدى.

ولمّا كان الدين الاسلامى دين توحيد فى العقايد لادين تفريق فى القواعد «العقل من اشد اعوانه والنقل من اقوى اركانه فقد تقرّر إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَاللهِ الإِسْلَامُ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ (أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً) . فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ .

والدين فى عرف القرآن هو الايمان بالاصول الدينيّه الّتى هى حقايق خالدة لايدخلها النسخ ولاتختلف فيه الانبياء وانّ الاسلام هو هذا الدّين اذ لادين غيره عند الله ولذلك هتف به الانبياء فنرى نوحاً يقول لقومه وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وموسى يقول لقومه (إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِيْنَ) والحواريّون يقولون لعيسى (آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) وقال يوسف مخاطبا ربّه أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِيْنَ فالاسلام طهر فى العقل والقلب ونور فى الحقّ والسلوك واصطلاح مع الفطرة واستقامة مع العدالة وقد يظهر ان الاسلام اكبر منّا . وان تكاليفه ابعد من هممنا وان مطالبه الكثيرة لاتزال تتحدّى مزاعمنا واوّل مايكشف عن هذا العجز الشائن أنّنا نريد الوصول الى اهداف اسلاميّة – كما نقول – بوسائل مبتوتة الصلة بالاسلام – واظن ان هذا المسلك لايتحمّل الّا تفسيراً واحداً هو انّ الاسلام ليس بغيتنا وان شيئاً آخر هو الّذى يسيطر على نيّاتنا واعمالنا يقول الغزالى الفاضل المعاصر هل تظن ان اخوة يوسف كانوا صادقى الرغبة فى صلاح النفس ورضوان الاب يوم قرّروا قتل يوسف عليه السلام كلّا – فاىّ صلاح . هذا الّذى يتوصّل اليه باقتراف جريمة (اقْتُلُوْا يُوْسُفَ أَوِ اطْرَحُوْهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيْكُمْ وَتَكُوْنُوْا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالحين) .

انهم لن يكونوا صالحين بوسائل فاسدة وغارس الاشواك لن يلقى جنى غراسه ورداً ابداً وقد لفت البوصيرى انفسنا الى هذه الحقيقة فانّ المرء قد تحدثه نفسه ان يشبع هذه النهمة فحسب وان يدرك هذه الشهوة وكفى . وبعد ذلك تسكن نفسه الى ماحصلت عليه من حرام وتستأْنف حياة افضل فقال الرجل الحكيم :

فلاترم بالمعاصى كسر شهوتها   انّ الطّعام يقوّى شهوة النهم

اى ان الوسائل الفاسدة لن تزيد مرضى القلوب الّا علّة ، واذا حسبوا انّها تكسر شهوتهم فهى فى الحقيقة تطغى شِرَّتهم وترسخ فى الإثم أقدامهم .

ان العبيد لايقدّرون الحرّية يوم تساق اليهم عفواً ألم تر كيف صنع اليهود مع موسى لمّا استخرجهم من مصر واستنقذهم من بطش فرعون — حنّت نفوسهم الى صنم ينكسون عنده رؤسهم كان ارتفاع الهامّة أمر معنّت — وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا : يَامُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ — إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قال : «أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» .

فسكتوا وماسكنوا حتّى اذا غاب عنهم نبيّهم وولّى امرهم ايّاماً وظهر فيهم السّامرى فأخرج لهم عجلاً جسداً لَهُ خوار . نشدوا ضالّتهم فأضلّهم السّامرى. هولاء لم يكونوا مؤمنين بالله بل آمنوا بعصا موسى فانّهم رأوا

عجباً حين تبدّلت ثعباناً ولمّا جاءهم السّامرى بأمر اعجب من عصا موسى سجدوا للعجل تقليداً ومحاكاة للسّامرى فالايمان الّذى يحصل بالعصا يبطل بالصدا وصوت البقر وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ .

قال العلّامة الدكتور جوستاف لوبون : مرّت القرون وتوالت الاجيال ولم يبق من مدنيّة العرب الّا الرّسوم والاطلال والتحقت تلك المدنيّة بما يصحّ ان يطلق عليه لفظ (تاريخ) ولكن هل تمكن لنا الجزم بذلك كلّا لان الديانة واللغة العربيّة لاتزال الان فى الشيوع مثلما كانت عليه فى عصر شباب العرب . فان اللّغة العربيّة هى اللّغة الرسميّة من المغرب الى الهند وسير الاسلاميّة فى معارج الترقّى والنمو ليس بالفاتر ولا المتوانى ـ الى ان قال ان السهولة العجيبة الّتى ينتشر بها القرآن حريّة بالاعتبار بنوع خاص فاينما يمرّ المسلم يوقن ان دينه يمكث فى الارض الّتى مرّ فيها ويتأصّل فيها بما لاسبيل لقطعه . فكذلك نرى بعض البلاد الّتى لم يطأها المسلمون بصفة فاتحين بل على سبيل الإتّجار مثل افريقيا الوسطى والروسيا والصين يبلغ اشياع النبى ﷺ هناك الملائين .

كل ذلك وقع اختياراً ولم يكن للسيف فيه مجال ولم يسمع بأنّ قوّة حربيّة جاءت لاعانة اولئك التّجار العاملين عمل الدعاة . فى الهند

---

١ ـ گاورا باور كنند اندر خدائى عاميان نوح را باور ندارند از پى پيغمبرى

الآن نيّف وخمسون مليوناً من المسلمين فى حين ان جميع المجهودات
الّتى بذلها دعاة النصرانيّة اخفقت ومساعيهم للتّحصيل ولو على عدد
قليل من المنتصرين احبطت هذا مع ان حكوماتهم وجمعيّاتهم تعدهم
بالمساعدات الّتى اهمّها بذل المال فى كلّ آن وحال ، وفى اواسط افريقيا
نجهل عدد المسلمين ولكن على ماخبر به السيّاح انهم وجدوا عدّة قبائل
اعتصموا بالاسلام الى اقصى نقطة وصلوها . قالوا انّ المسلمين هناك
لازمون لتمدين الاقوام المنغمسين فى ضحضاح التقهقر وهم يبذلون
فى ذلك جهد طاقتهم ونفيس اوقاتهم حتّى أثمر ماغرسوا وأينع مازرعوا
فنعم الصنيع الّذى صنعوا . قال المسيو دوفال (بفضل الاسلام اخذت
الاصنام والمعبودات تنمحى شيئاً فشيئاً من الكرة الارضيّة والنذور
البشريّة والتأكّل بين بنى الانسان اضمحلّ اوكاد . وقانون الزّواج
ضبط وربط . والوشائج العائلية قرّرت ودعمت . والعبد صار احد
اعضاء العائلة وفتحت فى وجهه ابواب كثيرة نحو الحريّة والاستقلال .
وايقام الصّلوة وايتاء الزّكوة والصّدقات وإقراء الضّيف طهّر الاخلاق
ورفعها الى مستوى الفضيلة والفخار . وعواطف الرحمة والعدل والرّفق
تمكّنت من الضمائر والولاة علموا ان لهم واجبات مثل عامّة الشعب
فاستقرّ المجتمع هناك على دعائم قانونيّة متينة .

واذا ارتكبت مخالفات لهذه النواميس فان ذلك لايخلو منه اىّ
مكان ومع ذلك فانّ العدل السماوى ينتظر المرتكبين بعقابه الشديد .

واذ فكر اولئك الاقوام بان وراء هذه الحياة حياة اخرى اسعد من هذه تتدارك ماالحقته الاولى من تعب ونكد لاريب انّ ذلك ممّا تطمئنّ به انفسهم فتريض على احتمال مضض الآلام خصوصاً من رشقتهم الايّام لسهامها وصوّبت نحوهم سنانها . تلك هى بعض مزايا المسلمين على الجمعيّات المتوحّشة وان كانت لاتحصى واكثر من ان تستقصى على انّ الحركة الاسلاميّة انتشرت فى الصين اكثر منها فى سواها فان فى نفس البلاد الّتى اعيا دعات النّصرانيّة امرها وأقرّوا بعجزهم وقصورهم امامها نال الاسلام فيها فوزاً باهراً ونجاحاً ظاهراً ونحن اليوم نعلم عدد الدائنين به يبلغ العشرين بالملائين وان لمدينة بكيــن وحدها مائة ألف قال المعلّم فاستلوف : انّ الاسلاميّة دخلت الى قطر ابن السماء وستتوصل تدريجاً الى الحلول محلّ مذهب ساكيمونى والجلوس فى مكانه . كما هو راى المسلمين الصينيّين .

وقال العلّامة هوداس : وهنالك امر حرّى بالاعتبار وهو انّ الاسلاميّة من بين سائر الديانات الحاليّة قد امتازت باستهواء عدد كبير من البشر فى كلّ يوم بدون ان يكون لذلك نظام خاص مثل ماهو مشاهد فى الارساليّات المسيحيّة مثلاً . ذلك لان كلّ مسلم عامل يدأب لنشر دينه وبثّه بين الملأ لايحتاج فى ذلك لأدنى مساعدة مادّية ولاادبيّة ولايرجوا جزاء ولاشكوراً . انما يسوقه الى ذلك الفوز الاخروى وماينتظره حين ينقلب الى ربّه من النعيم المقيم . فبينا هو مقبل على شأنه مستمرّ فى عمله تراه يحاول فى استمالة

من حوله الى مذهبه وحملهم على الاعتقاد انه الحقّ من ربّه لابالاقاويل الكاذبة والمواعيد الباطلة بل بالقدوة الصالحة وحسن السلوك . ويزداد فوزه تحقيقاً اذا كان بازاء اقوام بسطاء على السذاجة الاولى كما هو الشأن فى مجاهيل افريقيا . امّا فى البلاد المتمدّنة فالانتشار بطيئ التيّار ـ شأن العقول المفّكرة لاتنبذ مذهباً او مبدأ الّا بعد التّدبر والافتكار ولاتنتهى فى اللجّاج الّا اذا افحمها الدليل بعد العناء الطويل .

فتمحّض من ذلك ان عدد المسلمين آمن من غائلة النقصان خصوصاً وانّ التناسل منتشر فى البلاد الّتى تقع فيها دعوتهم بخلاف الديانات الاخرى فانّه يلحقها اضراراً كلّ يوم متزائدة بسبب حريّة الفكر والخروج من قيود الدين وهذا النقص لايعوضه العدد القليل من المعمّدين الّذين تجلبهم بشاره دعاتهم .

ولقائل ان يقـول ان انتشار الاسلام لم يقع الّا بين ظهرانى امم سافلة او بعبارة اخرى الامم المنحطّة فى التمدّن عن درجة اوربا وانه يمكننا ان نحكم بان هذه الحركة آيلة الى الوقوف يوم يتمّ دخول سكان الاقليم الأسود فى الاسلام . فنجيبهم بان ليست هناك ولاقرينة واحدة تؤيّد مدّعاهم لاننا نرى هذا الدين عم ليس فقط الهند والصين بل ان اوربا اخذت تحسّ بآثاره .

فقد تكونت فى ليفربول جامعة اسلاميّة السواد الاعظم منها مركب من نساء انكليزيّات وهذا من الغرابة بمكان ـ ثم حاولوا فى اميركا ان ينسجوا

على هذا المنوال لكنّهم والحقّ يقال لم يتوصّلوا الى الان لنتيجة محسوسة. على انه ولئن كانت نتائج ضعيفة الان فلاينبغى نسيان ان الفكرات الدينيّة فى بلاد مثل انكلتره واميركا تلبث ان تسترسل بمجرّد ماتقطع العقبات الاولى تتعرّض لكلّ ابتداع عند نشوؤه وانه يكفى حدوث فرصة ملائمة ليجد صدى الاسلام رنّة عظيمة فى قلوب الكثيرين من سكّان هاتيك الأصقاع وكثيراً ماتعلن الجرايد العربيّة اسلام بعض الافراد فى الولايات المتّحدة والهند ويلوح ان هؤلاء المهتدين نساء كانوا او رجالاً يهوداً او نصارى انّما يسلمون لمقصد مجرّد عن الاغراض الشخصيّة فى الغالب فانّى لنا بفهم سرّ ذلك فى دين مضى على ظهوره الف واربعمائة سنة — وشعاعه مازال يخترق النفوس وتصل كهرباءه الى اعماق القلوب مع ان ناشريه لايلجئون الى استعمال الوسايل ونصب الحبائل ولا يستأجرون ادنى عصابة لهذا الغرض.

لاشك ان من دقّق النظر ويسبر الاشياء بمسبار البصيرة يرى ان اهتداء النّاس لهذا الدين لم يكن جزافاً بل لما انسوه من فضائله وموافقته للفطرة وَعَدَ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا مِنْكُمْ وَعَمِلُوْا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمْ الَّذِىْ ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُوْنَنِى لَايُشْرِكُوْنَ بِىْ شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُوْنَ.

نعم. اللّغة من مقوّمات الامم ومميّزات الشعوب من بنى آدم فهى رابطة

متينة تربط بين بنيها . ودعامة كبرى من دعائم وحدة الأُمة فالأُمة الّتى تحافظ على لغتها تحافظ على وحدتها . والامّة الّتى تهمل لغتها وتفرّط فيها تكون قد سعت فى حلّ وحدتها وتوهين جامعتها وسلكت طريق الفناء وحفرت بيدها قبرها وهدمت صرح مجدها ولكن جاء الاسلام فآخى بين المسلمين وساوى بين المؤمنين ونادى بالنّاس اجمعين يٰاأَيُّهٰا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَقَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوْا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقٰاكُمْ .

فاصبح المسلمون بنعمة الله اخوانا يتساوون فى الحقوق والتكاليف يتفاخرون بالتقوى واعمال البرّ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ وبذلك تمّت النعمة ونمت الوحدة الدينيّة وتحكّمت اواصر الاخوّة الاسلاميّة ولم يكتف الاسلام بهاته الرابطة المتينة بل عزّزها برابطة اخرى وهى رابطة اللغة العربيّة الّتى هى لسان الدّين وفيها نزل القرآن المبين .

انتشر الاسلام وانتشرت معه اللغة العربيّة لغة النبى ﷺ ولغة القرآن والحديث وساير كتب الدين فجعلها المسلمون لغة الدولة والحكومة والجند فانتشرت فى البلاد الّتى دخلها الاسلام فاصبحت لغة المسلمين ان لم يكن للتفاهم بها فلكى يقرأُوا بها القرآن ويؤدّوا بها الصّلوات والدعوات . فما من مسلم الّا ويقرأ العربيّة كثيراً أَوقليلاً فالتمدّن الاسلامى لم يخلف مثل ماخلفه الفرس والروم او اليونان ومصر من الآثار

البنائية كالمراسح اوالميادين والتماثيل والاهرام والبرابى والمسلّات لكنّه
خلّف آثاراً مطبوعة فى النفوس يتوارثها الأَبناء عن الآباء كانه وسم الامم
الّتى دخلت فى دولته سلطانه بسمات خالدة اهمّها الدين واللّغة فبعض
الامم وسمت بالسمتين معاً كمسلمى الشام ومصر والعراق وبعضها وسمت
باحدهما كالفرس فانّهم اتّخذوا الاسلام ولم يتّخذوا اللغة العربيّة -
وهناك سمة ثالثة شملت تلك الامم كلّها وهى الخطّ العربى ولاتزال تكتب
به الى الآن ونشأمن كلّ البلاد الايرانيّة علماءفحول كانوا ائمّة الدين واعلام
الأَدب وكانوا مصابيح الهدى وحسبك بالطوسى والكلينى وابن بابويه
والطبرى والبخارى والرازى والمروزى والتبريزى والجرجانى والاصفهانى
والبيضاوى وفيروز آبادى والقزوينى والنيسابورى من العلماءِ والادباءِ
كسائى وسيبويه والزّمخشرى وابن المقفّع وبشّار وابى نواس وابن الرّومى
فكان انتشار اللّغة سن عمل الاسلام الّذى جعل العربيّة لسان العبادة بين
العباد وربّهم واوجب على كلّ مسلم تعلّم شىء منها وجعل فهم القرآن معلّقا
على درس العربيّة وفهمها وجعل حبّ النبىّ وآله من اصول الاسلام .

وبذلك يمتاز الفتح الاسلامى انّه ليس فتحاً للبلاد ولااستعماراً
لهاولاحماية ولاوصاية كلّ هذه اشكال زائلة ولكن فتح للقلوب وللبصائر
حتّى يصير اهل البلاد الايرانيّة احرص على الدين واخلص له من
الفاتحين دوّنوا قواعدها .وجمعوا شتاتها .وقيّدوا شواردها .وحلّوا مشاكلها
واوضحوا غوامضها . وهاهى نفائس كتبهم الّتى امتلات بها ديار اوربا

وامريكا وكان لهم خير نور استضاؤا به فى طريق مدنيّتهم شاهد عدل قامت طائفة من ايران ممّن نوّر الله بصائرهم وشرح صدورهم بانوار العلم والحكمة وحقايق المعارف والثقافة يدعون الى الدين ويقومون لربّ العالمين بوجوب بثّ العلم ونشر انوار العرفان ومحاربة الجهل والقضاء عليه والتمسّك بحبل الله المتين والعروة الوثقى الامام المبين .

لهج معظم الاوربيين وضعاف العقول من المسلمين بأنّ الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الّا لانه سعى والسيوف امامه تمهّد له السبيل وتذلّل بين يديه العظماء وتلجئ المستضعفين الى اعتناقه حقناً لدمائهم وصيانةً لاموالهم وقد استدلّوا بما قام به النبى ﷺ من مغازيه وسراياه ثمّ بما عمل الخلفاء من بعده على أنّهم لو قرأوا القرآن وشيئاً من التاريخ وسيرة النبى ﷺ لما تطرّق ذلك الخطاء الى عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم نعم لا يسعنى الانكار انه قد وجد من بعض امراء المسلمين من شوّهوا وجه الاسلام ودنسوه بما جنت ايديهم عليه وقد جئت بما لا مزيد عليه فى بعض كتبى بالفارسيّة انّ اعمال بعضهم فى الاسلام نفس الاعمال فى الجاهليّة كانوا يضربون بالسيف ويطعنون بالسنان والدين لعق باللسان والقرآن لا يتجاوز حناجرهم فهم للقرآن حاملون وليسوا بعاملين ولمّا يدخل الايمان فى قلوبهم وما كان النبى ﷺ مسؤولا عن اعمال هؤلاءِ ولكنّنى اريد ان اتكلّم هنا فى الاسلام من حيث هو .

كان يجئ ويقول للنبىّ إلام تدعو يا محمّد يقول ادعوك الى عبادة الله

وحده لاشريك له . وان تخلع ماانت عليه من عبادة مالايسمع ولايبصر ولايضرّ ولاينفع والاحسان الى والديك وان لاتقتل ولدك خشية الفقر وان لاتقرب الفاحشة ماظهر منها ومابطن وان لاتقتل نفساً حرّم الله قتلها الّابالحقّ وان لاتقرب مال اليتيم الّابالّتى هى احسن حتّى يبلغ أشدّه وان توفى الكيل والميزان بالقسط وان تعدل فى قولك ولوكان على ذى قرباك وتوفى لمّاعاهدت ، هكذا يدخل العباد فى دين الله غير مهدّدين ولاملجئين ولكن طائعين منصفين مدركين الفرق بين ماكانوا عليه من الضّلال وماأتاهم به من دين الحنيف وخير الدّنيا والآخرة . ولم يدفعهم الى الدّخول فى الاسلام اذ ذاك رغبة فى جاهٍ ولاتوقع ثروة اونفوذ اوعصبيّة حتّى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكّة ليحالفوا قريشاً على الخزرج جاءهم رسول الله ﷺ فقال هل لكم فى خير ممّاجئتم له . أَنْ تُؤْمِنُوْا بِاللهِ وَحْدَهُ وَلَاتُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً . ثم تلاعليهم القرآن ولم يمض الّاقليل حتّى آمن به بعضهم وصدقوه فيماجاءبه قال جون لابوم فى فهرسته الّذى رتّبه للقرآن الكريم . لأجل ان يفهم الانسان تمام الفهم اىّ دعوة من الدعوات يلزمه أوّلاً الالمام بحال الداعى فى ذاته ولأجل ان يقدر قدر دعوته يجب عليه ان يدرس الجهة البشريّة الّتى وجه همّته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة الّتى خصصناها للمشرع العربى مؤسس مايمكن تسميته بالجامعة الاسلاميّة .

حوالى ميلاد محمّد ﷺ فى القرن السادس الميلادى كان جوّ العالم متلبّداً بغيوم الاضطرابات والفتن وكان اعتماد النّاس على وسائل الشرّ

أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان اجمع الرّؤساء للثقة والطاعة اشدّهم صيحة فى اصلاء نيران الحروب والمعارك الى ان يقول : المتأمل فى حالة العرب قبل الاسلام وبعده الى حين وفاة رسول الله ﷺ يدرك فارقا كبيراً بين الحالتين بل يرى استحالة من حال الى حال لم يعهد لها مثيل فى تاريخ البشر فى مثل تلك المدّة الّتى اقامها رسول الله ﷺ بين ظهرانى قومه – ماذا يرى ؟ يرى قبائل كانت متعادية متباغضة سيوفها تنطف دماً وقلوبها تلتهب حقداً لايسكن لها جاش ولا يهدأ لها روع فهى امّا طالبة او مطلوبة . ثم هى مع ذلك لاتدين لغير الوثنيّة ولاتعرف شرعة غير شرعة الجاهليّة . لانظام يحفظ جماعتها ولا كتاب يوجد وحدتها ولا قانون يحسم تنازعها ولا رئيس يأْخذ بمقادتها فهى فوضى فى العقايد فوضى فى الأَخلاق فوضى فى المعاش .

يراها فى سنة ٦٢٢ على هذه الحال ثم يعود اليها فى سنة ٦٣٢ اى بعد نحو عشر سنين فيجدها امّة من الدين على التوحيد الخالص ومن الاخلاق على شرعة الفلاسفة الّذين قتلوا الميول علماً ومن الوحدة على مثل حال الجسد الواحد ان اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسّهر والحمّى . ومن الحكومة على الديموقراطية الخالصة الّتى ذهب اليونان والرومان والفرس ولم يحقّقوا منها خيالا على شدّة مابذلوه من الجهود ومن الحكومة على دستور ثابت لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومن الإجماع

على مثل البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا ـ كلّ هذا ليس بشيء ان
كان شكلا متحجّراً او حالاً جامداً ولكنه يرى فوق ذلك اجتماعاً حيّاً
متمتّعاً بروح قويّة روح تبعث الحركة والنموّو الترّقى والتكمّل روح
من تلك الأَرواح الّتى هبطت على بعض امم التاريخ فجعلتهم خلفاء
الارض ـ وكلّ هذا ليس بشئ بجانب ما يأتى وهو ان تلك الرّوح روح
جديدة ليست من نوع ماسبقتها. روح رحمة وهدى ونور. روح تعليم وارشاد
وتخليص. الله اكبر امة كانت بالامس ترسف فى قيود الجاهليّة وتخوض
فى غمرة الوثنيّة وترتطم فى اوحال الفوضى والهمجيّة تنهض بعد عشر سنين
حيّة باعلى روح اجتماعيّة عهدت فى الارض أَسحر هذا ؟ ام استحالة على
غير مثال ؟ حدثت على يد رجل يريد الله ان يكون خاتم رسله الى خلقه
لعمرى اذا ضننت على محمّد برتبة النبوّة واعماله هذه الاعمال والروح
الّتى اتى به هذه الروح فلمن تسمح بها بعد ذلك ـ يمكن لمدّع ان يدّعى
انه كان كاذباً مرائياً مخادعاً . قال اوحى الىّ ولم يوح اليه ويمكنه ان يقول
اكثر من ذلك ولكنه لايستطيع ان يقول انّ الكاذب يأْتى بخير ممّا اتى
به جميع النبيّين والمرسلين وان المرائى لا يفتضح امره وقد عاش فوق الستّين
وان المخادع يتغلّب على الحكماء الفاضلين ـ يمكن لمدّع ان يزعم ان محمّداً
لم يكن رسول ولكنه لايستطيع ان يفسّر لنا كيف يؤيّد الله الكاذبين
وينصر المرائين والمخادعين واذا كان ذلك ممكناً فاىّ مميّز بين دعوى
المدّعين وبين حجّة الانبياء والمرسلين .

اننا فى حاجة الى صرخة تهتف بالاسلام ليفيق على دوّيها المسلمون الّذين نام الاسلام فى قلوبهم ولانقول انّهمات : لأنّه لايمكن ان يموت فهو دين الفطرة والطبيعة المرتقية فهو حيّ ما كان الوجدان والضّمير حيّاً اذا اغفله اهله المنسوبون اليه فان غيرهم ساع اليه متعلّق به يحقّقه قليلاً قليلاً حتّى ليشهدنّ فى آخر الامر به عمله وليعلننّ الشّهادة بعد ذلك بلسانه.

قال الاستاذ على الطنطاوى : ان رجلاً جرمانيا اسمه (بِرتْزِل) قدم علينا الشام منذ سنوات فعرّفنا بنفسه وأرانا بطاقته واذا هو قد كتب عليها فلان متخصّص بقراءة القرآن يفخر بذلك ويعتزّ به. وسأل عن الّذى طبع كتاب (النّشر فى القراءات العشر) فلمّا لقيه اكبره وعظمه وعلمنا بعد ذلك انه ملمّ بعلم القراءة عارف برواياتها وقارى للقرآن ناشر للكتب فى هذا العلم عدة. ومن شبّاننا من لايعرف ما الادغام وما الإخفاء وما المخارج وما الاداء ويرى اشتغاله بذلك ذلّةً لانّه لايشتغل به على ما افهموه الا رجعىّ غير متمدّن وشيخ خامد... وامثال (برتزل) اكثر من ان يحصر وقال الاستاذ عزيز احمد فهمى وهاهو ذا برنارد شو يقول انّ الاسلام هو الدّين الّذى سيسود اوربا بعد مائة عام. وهو لم يقل هذا الّا لأنّه لحظ اتجاه الحياة الاروبية الى مبادى الاسلام الحقّة تستنجد بها كلما احست وحشة المادّة وظلمتها مدفوعة فى ذلك بعوامل الطبيعة لا بتبشير يزاوله المسلمون ولا بجهاد يمارسونه. و (شو) فنان من الغرب يعرفه النّاس بانّه قد حرّر عقله. وهو

يؤذن بالاسلام على رأس اوربا . فكم من فنان مسلم يفعل اليوم هذا[١] ...
قليلون جداً فأكثرهم لم يتحرّروا كما تحرّرهو وأكثرهم لم يصقّلوا احساسهم
كما صقّل احساسه هو وأكثرهم لم يطلقوا عقولهم من اغلال الزيف كما اطلق
عقله هو وكانما هم يجهلون أن الفنّ من الحياة وان للحياة حدوداً رسمها
الاسلام فحصر فى داخلها اصولها ثم ترك الخيار بعد ذلك لكلّ مسلم ان
ينطلق داخل هذه الحدود ماحلاله الانطلاق وحدود الاسلام ليست
قيوداً مما تشلّ الحركة ولاهى أغلال ممّا يمنع النهوض ولاهى عصائب ممّا
يحجب عن العيون النور ولاهى احجار ممّا يثقل على الحس. ولاهى جهالات
ممّا يمتنع على العقل الإقناع به وتدبّره . وانّما هى حدود الطبيعة الّتى لايمكن
خرقها والّتى لايخرقها الّا من يظلم نفسه . وهى ليست شيئاً الّا تحرير
الانسانيّة من كلّ عبوديّة تفرض عليها الّا عبادة الله . ومن كلّ تقليد اونظام
يراد به العبث بكرامة العقل اوكرامة الرّوح وهى فى ذلك كلّه سعى حر
بالتطوّر الى الإرتقاء . ولسنا هنا بعرض الاستيعاب واستقصاء هؤلاء
الّذين كتبوا عن الاسلام والرّسول الاعظم من كتّاب الفرنجة الاعلام وانّه
صاحب دعوة اصلاحيّة عامّة تناولت الدّين والنظام الاجتماعى والسياسى
والاقتصادى واثرّت فى الحضارة واستطاعت ان تستوقف التاريخ
اوتلوى عنانه لتملى عليه ارادتها وتلقى اليه وحيها .

١ـ الرّسالة .

التاريخ والادب[1] ــ ذهب قوم الى ان لفظ التاريخ عربى ومعناه نهاية الشيء وآخره يقال فلان تاريخ قومه اذا انتهى اليه شرفهم وقال بعضهم ان معناه التأخير فيكون مقلوباً منه وذهب آخرون الى انّه فارسىّ واصله ماه روز فعرّب مؤرّخ ثم جعل اسمه التاريخ ويقال أرّخت وورّخت بالهمزة والواو لغتان ولذلك قالوا فى مصدره تأريخ وتوريخ كما يقال تأكيد وتوكيد فهو عدد اللّيالى والايّام بالنظر الى ما مضى من السّنة أو الشهر والى ما تبقى منهما.

كانت الامم تورِّخ بالحوادث العظام وبملك الملوك كالطوفان وبناء كعبة وبيت المقدس او غلبة اسكندر وقتل دارا ام ملك اردشير اوّل ملوك الأكاسرة وكان بنو معدّ بن عدنان يورّخون بغلبة جرهُم العماليق واخراجهم ايّاهم من الحرم ثم ارّخوا بأيّام الحروب كحرب بنى وائل وحرب البسوس وحرب داحس وعام الفيل وهذا تاريخ ما قبل الهجرة وامّا ما بعد الهجرة ففى ايران تاريخ واحد وهو من هلاك يزدجرد آخر ملوك الفرس.

التاريخ الهجرى ــ روى ان النبى ﷺ لما قدم المدينة فى شهر ربيع الاوّل أَمَر بالتاريخ وعلى هذا فيكون ابتداء التاريخ فى عام الهجرة خلاف ما هو المعروف ان ابتداء التاريخ بالهجرة كان فى خلافة عمر ثم

---

١ ــ اصبح التاريخ جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الأديب يؤثّر فيه ويتأثّر به واتّجه التاريخ اتّجاهين اتّجاهاً عملياً دقيقاً واتّجاهاً ادبياً يبلغ ذروته عند الشيعة الاماميّة ويمثل هذا الإتّجاه نهج البلاغة الّذى يجمع الى خطب على عليه السلام البليغة اخباراً أو تاريخاً هاماً يبرّر موقف الشيعة (نقلاً عن الموسوعة العربيّة).

اختلف فى السبب الموجب لذلك فذكر النحاس ان السبب فيه ان عامل
عمر بن الخطّاب باليمن قدم عليه فقال أمّا تورّخون كتبكم فاتّخذوا
التاريخ وقيل أنّ اباموسى الاشعرى كتب الى عمر انه يأْتينا من قبل
امير المؤمنين كتب لاندرى على ايّها نعمل قد قرأنا كتابا منها محلّه شعبان
فما ندرى فى ایّ الشعبانين وذكر بعضهم انه رفع الى عمر صكّ محلّه شعبان
فقال ایّ شعبان لاندرى الّذى نحن فيه ام الّذى هوآت ثم جمع وجوه
الصحابة وقال ان الاموال قد كثرت وماقسمناه منها غير موقّت فكيف
التوصّل الى مايضبط به ذلك فقالوا يجب ان نعرف ذلك من امور
الفرس فاستحضر الهرمزان وسأَله فقال ان لنا حساباً نسمّيه ماه روز
ومعناه حساب الشهور والايّام فعمل عمر التاريخ قال ابن الحاجب النعمان
فى ذخيرة الكتّاب لمّا اراد عمر التاريخ جمع النّاس للمشورة فقال بعضهم
نورّخ بمبعث النبىّ ﷺ وقال بعضهم بل بوفاته وقال بعضهم بل بهجرته
من مكّة الى المدينة لانها اوّل ظهور الاسلام وقوّته. فانّ الهجرة فكرة لارحلة.

عقيدة ودين وتضحية وشريعة وحبّ واعتبار وفداء وافتخار
انّ المسلمين اعتبروا الهجرة بداية تاريخهم فى هذه الحياة الى ان يرث الله
الارض ومن عليها ولم يعدّوا ميلاد نبيّهم مبدءً لذلك التاريخ لأنّ
المسيحيّين سبقوهم فى ذلك وجعلوا ولادة المسيح مبدأ تاريخهم وهذا
امر حسن ولكنّ المسلمين خير امّة اخرجت للنّاس لاينبغى لهم التقليد
والاقتداء بالاخرين بل شأنهم الابتكار ولهم بدائع الافكار لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِيْ رَسُوْلِ اللهُ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قال المنفلوطى الكاتب القدير فى مقالته عبرة الهجرة فأفاد وأجاد لابأس ان نأْتى بها بألفاظها.

ان فى اخلاق النبى ﷺ وسجاياه الّتى لاتشتمل على مثلها نفس بشريّة مايغنيه عن كلّ خارقة تأْتيه من الارض او السّماء او الماء والهواء.

ان ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وايثاره وصدقه واخلاصه اكثر ممّا كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ومشى الشجر ولين الحجر ذلك لأنّه ما كان يريبهم فى الاولى ما كان يريبهم فى الأُخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة وسحر السّحرة فلو لاصفاته النفسيّة وغرائزه وكمالاته مانهضت له الخوارق بكلّ مايريد ولاتركت له المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأَثر الّذى تركته ذلك هو معنى قوله تعالى وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ.

كان ﷺ شجاع القلب فلم يهب ان يدعوا الى التّوحيد قوماً مشركين يعلم انهم غلاظ جفاة شرسون متنمّرون يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم ويحبّون آلهتهم حبّهم لأبنائهم كان على ثقة من نجاح دعوته فكان يقول لقريش اشدّ ما كانوا هزءً به وسخريّة. يامعشر قريش والله لايأْتى عليكم غير قليل حتّى تعرفوا ماتنكرون وتحبّوا ماانتم له كارهون كان حليماً سمح الاخلاق فلم يزعجه ان كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعّثون منه ويضعون التراب على رأْسه ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى الجزور

وهو فى صلاته بل كان يقول : أَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَيَعْلَمُونَ .

كان واسع الامل كبير الهمّة صلب النفس لبث فى قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلايلبّى دعوته الا الرّجل بعد الرّجل فلم يبلغ الملل من نفسه ولم يخلّص اليأس الى قلبه فكان يقول . والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على ان اترك هذا الأمر حتّى يظهره الله او أهلك فيه ماتركته . ومازال هذا شأنه حتّى علم أنّ مكّة لن تكون مبعث الدعوة ولامطلع تلك الشمس المشرقة فهاجر الى المدينة فانتقل الاسلام بانتقاله من السّكون الى الحركة ومن طور الخفاء الى طور الظهور . لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الاسلام لأنها اكبر مظهر من مظاهره وكانت عيداً يحتفل به المسلمون فى كلّ عام لانّها اجمل ذكرى للثبات على الحقّ والجهاد فى سبيل الله .

لقد لقى ﷺ فى هجرته عناءً كبيراً ومشقّة عظمى فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لاضنّاً به بل مخافة أن يجد فى دار هجرته من الأعوان والأنصار مالم يجد بينهم كأنّما كانوا يشعرون بأنّه طالب حقّ وأنّ طالب الحقّ لابد ان يجد بين المحقّين اعواناً وانصاراً . فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكّراً بعد ماترك فى فراشه ابن عمّه على بن ابيطالب عليه السلام عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به ومشى هو وصاحبه ابوبكر رض يتسلّقان الصخور وينسربان فى الاغوار والكهوف ويلوذان باكناف الشعاب والهضاب حتّى انقطع عنهما الطلب

وتمّ لهما ما ارادا بفضل الصبر والثبات على الحقّ، ان حياة النبي ﷺ اعظم مثال يجب ان يحتذيه المسلمون للوصول الى التّخلق باشرف الاخلاق والتحلّي بأكرم الخصال واحسن مدرسة يجب ان يتعلّموا فيها كيف يكون الصدق في القول والاخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحقّ سبباً في علوّه على الباطل لاحاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرّومان وعلماء الإفرنج فلدينا في تاريخنا حياة شريفةٌ مملؤة بالجدّ والعمل والصّبر والثّبات والحبّ والرّحمة والحكمة والسّياسة والشّرف الحقيقي والانسانيّة الكاملة وهي حياة نبيّنا ﷺ وحسبنا بها وكفى[١].

ترك النبي ﷺ مكّة وعمره ثلاث وخمسون سنة ولا ريب ان حالته النفسيّة كانت تموج بعواطف بعيدة الغور وذكريّات عزيزة جيّاشة فيها من الحبّ بقدر ما فيها من الاسى.

هذه البلدة نشاء فيها طفلاً محفوظاً بعناية الله ثم شاباً مطهّراً مرموقاً بالتجلّة والوقار من الرّجال والنّساء ثم رجلا لاترقى الى سيرته ريبة ولا بخلقه ظنّة ثم نبيّاً يحلم على الجهّال ويدفع السّيّئة بالّتي هي احسن وهاهو ذا بعدان وخط الشيب[٢] رأسه يخرج من موطنه ويتنكّر له الأقرباء والغرباء وتبثّ في طريقه الأرصاد وتوضع المكافات لمن يسفك دمه.

انّ الخبراء باحوال المجتمعات الفاسدة يعرفون بفطرتهم ماسيلقاه

١ـ ج١ النظرات. ٢ـ خالط سواد شعره.

مصلحوها من عنا وقد كان ورقة بن نوفل صادق الحدس عند ماقدر
ان مكّة سوف تتمرّد على رسول الله وتأبى مقامه فيها وجاش فى نفسه حبّ
النجدة والانتصار للحقّ فقال ليتنى فيها جذعا اذ يخرجك قومك ماأتى
رجل قومه بمثل ماجئت به الّا اخرجوه ولئن يدركنى يومك أنصرك
نصراً مؤزرا . وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ
لَتَعُوْدُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّٰالِمِيْنَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِىْ وَخٰافَ وَعِيْد .

انّ كبرياءِ السّادة المترفين وملق الاتباع المفرطين يضع امام الكبراء
المصلحين عقبات جساماً دون تحطيمها جهاد وجلاد وينبغى ان يتهيّأوا
لذلك حتّى لاتروعهم المفاجأة وماأحسن قول المتنبىّ :

عرفنا الليالى قبل ماصنعت بنا فلمّا دهتنا لم تزدنا بها علما

اصبح اهل مكّة وهم يرقبون صوت الناعى ليبشّر دولة الكفر
والغدر واللؤم والطغيان ان عدّوها الألدّ قدقتل . وهيهات لقد خرج محمّد
لم يمسسه سوء وَلاٰيَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلّاٰبِأَهْلِهِ . وَيَمْكُرُوْنَ وَيَمْكُرُاللهُ
وَاللهُ خَيْرُ الْمٰاكِرِيْنَ .

انّ الله العلىّ القدير لايترك الحقايق العظمى تذهب قبل ان تأْخذ
مداها وقبل ان تترك على تاريخ الارض طابعها العميق والدّين الّذى
بعث به إمام الانبياء هو ابو الحقايق العظمى وامّ الايات الكبرى فهو
باق الى ان يشاءالله. نعم لقد اخرج محمّد ليكمل الله به الرّسالة العالميّة

وعلم الطغاة الّذين ألجأوه الى الهجرة مدى الخطر المبيت لهم وشعروا من الهواجس المنبعثة فى اعماق نفوسهم انّ الدائرة سوف تدور عليهم . إلّا تَنْصُرُوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُوْدٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ وفى هذه الآية توضيح لازم يأتى فى محلّه .

قيمة الزّمن فى عمر اىّ نبى غير قيمته فى عمر اىّ فرد من البشر نحن نضيع علينا اكثر ايّامنا سدى بين جدّ قليل ولهو كثير أمّا الانبياء فأيّامهم يتقسّمها الإجهاد وتزحمها المتاعب وهم يعيشون لفكرتهم فحياتهم فكرة مجسّمة تتحرّك بين النّاس هم يؤمنون بأنفسهم ويكفرون بخصومهم ويغالون بفكرتهم ، إنّ الحياة عقيدة وجهاد .

هذا هو منطق العقيدة وهذه حقيقة يجب ان يعرفها حملة المبادى فاذا حدث حادث والانسان بين عقيدته ونفسه فرجحت نفسه او بين عقيدته وماله فرجح ماله او بين عقيدته ومتعه الخاصة فرجحت متعه فمعنى ذلك أنّ العقيدة اهون شىء لدى صاحبها وسوف يبيعها فى اوّل مساومة ويباعد عنها لأقل صدام امّا اذا غالى الإنسان بعقيدته فسفك دونها دمه وبذل قبلها ماله وضحى فى سبيلها براحة البدن وطيب العيش ويرضى بالمحن وترك الوطن فهذا هو الرّجل الممتحن قال الله تعالى وَلَوْ

أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوْا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوْا مِنْ دِيَارِكُمْ مَافَعَلُوْهُ إِلَّا قَلِيْلٌ مِنْهُمْ .

ومن عمل العقيدة العميقة فى النفس أنها تهيج صاحبها حتّى تجشمه فوق طاقته من عمل . فانّ الله عزّوجلّ عذر فى الهجرة من لا يستطيعها من الشّيوخ العجزة ولكن شيخاً مريضا من بنى ليث حدثته قوّة الايمان فى نفسه انه اهل للهجرة وانى لأجد حيلة ولى من المال مايبلغنى المدينة والله لا ابيت الليلة بمكّة اخرجونى فخرجوا به يحملونه على سرير حتّى جاوزوا قريباً من مكّة فبرّحت به العلّة وحضره الموت ثمّ قال اللّهم هذه لك وضرب بيمينه على شماله وضرب مرّة اخرى وقال هذه لرسولك أبايعك على مابايع رسولك ثم مات وبلغ خبره اصحاب الرّسول فتمنّوا لوان الرّجل وافى المدينة فنزلت الآية وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ .

حرّم الاسلام على بنيه الذّلّ كما حرّم الخَمْرَ وكما حرّم الفواحش والمنكرات وليس يغضّ من قيمة هذا التحريم الحاسم انّك تجد أفراداً من المسلمين مخمورين لتعاطيهم المسكر . او انّك تجد شعوبا من المسلمين منظلمة لتعاطيها الذّل وتحريم الذّل هو الّذى اوحى بالهجرة الى المدينة ومن قبل المدينة الى الحبشة والهجرة باقية الى يوم القيمة قال الله تعالى إِنَّ الَّذِيْنَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوْا فِيْمَ كُنْتُمْ قَالُوْا كُنَّا مُسْتَضْعَفِيْنَ فِى الْأَرْضِ قَالُوْا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوْا فِيْهَا .

قال الاستاذ على الطنطاوى : كان الاعرابى الجلف الجافى يقعد بين يدى النبى ﷺ ساعة من زمان يستمع فيها اليه. فلايقوم الاوقد فهم الاسلام وعرفه. وصار من المبشرين به والداعين اليه. وكان يصحب النبيّ ايّاما فلاينقضى حتّى يغدو عالماً يبعثه النبى الى قومه معلّماً ومرشداً. فيعرّفهم الحدود ويبيّن لهم الحلال من الحرام.

كان هذا يوم لم يكن تدوين ولم تصنّف المصنّفات ولم تجمع الاحاديث . . . وهانحن اولاءِ نملك اكثر من مائة الف كتاب ورسالة فى التفسير والحديث والفقه والاصول والتصوّف والسيرة وكلّ مايخطر على بال باحث من المسائل المتصلّة بالاسلام ولكنّا لانجد فيها كتاباً واحداً لخّص الاسلام كلّه تلخيصاً وافياً وعرضه عرضاً واضحاً. يقرؤه الشاب فيفهم ويفهم فيه الدّين كلّه كفهم الوافدين على النبىّ فى الدّين . حين دخلوا فيه افواجاً.

ولقد احسست بهذا النقص منذابتداء عهدى بالطلب وعرضت له فى رسائل (فى سبيل الاصلاح) بيدانى لم اعرف خطره الّا امس حين درّست الدين فى مدارس العراق وشرحت للطلّاب مزاياه وكشفت لهم عن عظمته فكانوا يتشوّقون زيادة الاطّلاع فيسألوننى عن الكتاب الّذين يجدون فيها خلاصة الدين كمايجدون خلاصة الطبيعة او الهندسة فى كتاب واحدفافكرّ فيه فلاأجده احسست بهذا النّقص البيّن فكتبت فى وصفه وخطبت مراراً وسأَلت من توسّمت فيه من العلماء سدّه وإكماله فأيست

منهم أوكدت . ودفعنى هذا اليأْس الى محاولة الكتابة فى هذا الموضوع على
قصر يدى فيه وقلّة بضاعتى والمراد ان يلخّص الدين الاسلامى فى كتاب
يضمّ بين دفتّيه الاسلام الّذى جاء به محمّد ﷺ واضحاً سهلاً لافلسفة
فيه ولاجدال خالياً من الحشو والزيادات والبدع والخلافات يقرؤه
الشاب المسلم الّذى لايعرف الدين فلايحتاج بعده الى شئ ويقرؤه العامى
فيفهم منه دينه ويقرؤه الغربى (مترجما) فيحصل له عن الاسلام فكرة
واضحة صحيحة واذا كان المسلم الكامل هو الّذى اخذ الاسلام علماً وعملاً
واعتقاداً . واذ كان حديث جبريل المعروف قد قسم الدين الى ايمان واسلام
واحسان . وشرح الاوّل بأنّه التّصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه وشرح الثانى بانه النطق بالشهادة
وإقامة الصّلوة وايتاء الزّكوة وصوم رمضان وحجّ البيت وفسرّ الاحسان
بأنّه عبادتك الله كأنّك تراه فان لم تكن تراه فانّه يراك . هذه هى المباحث
المهمّة واهمّ منها ان تكتب باسلوب لاهو بالاسلوب العلمىّ الجامد
ولاهو بالاسلوب القصصى الخيالى وان تكون تعلميّة قبل ان تكون
علميّة وتعود الى المنبع الصّافى الّذى استقى منه الصّدر الاوّل .

ولمّا كان شيخنا الصّدوق قدّس سرّه قد سدّ هذا الفراغ قبل ألف سنة
أتينا بما جاء فى كتابه المعروف بالامالى (ولا ينبئك مثل خبير) يوم الجمعة
الثانى عشر من شعبان سنة ثمان وستّين وثلثمائة واجتمع فى هذا اليوم الى الشيخ
الفقيه ابى جعفر محمّد بن على بن بابويه القمى ره اهل مجلسه والمشائخ فسألوه

ان يملى عليهم وصف دين الامامية على الايجاز والاختصار فقال رض[١].

دين الامامية هو الاقرار بتوحيد الله تعالى ذكره ونفى التشبيه عنه وتنزيهه عمّا لا يليق به والاقرار بانبياء الله ورسله وحججه وملائكته وكتبه والإقرار بأنّ محمّداً ﷺ هو سيّد الأنبياء والمرسلين وانّه افضل منهم ومن جميع الملائكة المقرّبين وانّه خاتم النبيّين فلا نبيّ بعده الى يوم القيمة وان جميع الانبياء والرّسل والائمّة افضل من الملائكة وانهم المعصومون المطهّرون من كلّ دنس ورجس لا يهمّون بذنب صغير ولا كبير ولا يرتكبونه وانّهم امان لاهل الارض كما انّ النّجوم امان لاهل السماء وان الدعائم الّتى بنى الاسلام عليها خمس الصّلوة والزّكوة والصّوم والحجّ وولاية النبى ﷺ والائمّة بعده وهم اثنا عشر اماماً اوّلهم امير المؤمنين على بن ابيطالب ثمّ الحسن والحسين ثمّ على بن الحسين ثمّ الباقر محمّد بن على ثمّ الصادق جعفر بن محمّد ثمّ الكاظم موسى بن جعفر ثمّ الرّضا على بن موسى ثمّ الجواد محمّد بن على ثمّ الهادى على بن محمّد ثمّ العسكرى الحسن بن على ثمّ الحجّة بن الحسن بن على عليهم السلام والاقرار بأنّهم اولى الامر الّذين امر الله عزّ وجلّ بطاعتهم فقال «أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» وانّ طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله ووليّهم ولىّ الله وعدوّهم عدوّ الله عزّ وجلّ ومودّة ذرّيّة النبى ﷺ اذا كانوا على منهاج ابائهم الطّاهرين[٢] فريضة واجبة فى اعناق العباد الى يوم القيمة وهى اجر النبوّة لقول الله

١ـ مجلس ثلثة وتسعون ٢ـ فى العيون عن الرضاء النظر الى ذرّيّة النبىّ عبادة مالم يفرقوا منهاجه.

عزّوجلّ قلْ لاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّاالْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبىٰ . والإقرار بـأَنّ الإسلام هو الإقرار بالشهادتين والايمان هو الإقرار باللّسان وعقد بالقلب وعمل بالجوارح لايكون الايمان الّاهكذا ومن شهد الشهادتين فقد حقن ماله ودمه الّابحقّهما وحسابه على الله عزّوجلّ والإقرار بالمسائلة فى القبر حين يدفن الميّت وبمنكر ونكير وبعذاب القبر والاقرار بخلق الجنّة والنّار ومعراج النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى السماء السابعة ومنها الى سدرة المنتهى ومنها الى حجب النور وبمناجاة الله ايّاه وانّه عرج به بجسمه وروحه على الصحّة والحقيقة لاعلى الرؤيا فى المنام وان ذاك لم يكن لأَنّ الله عزّوجلّ فى مكان هناك لانه متعال عن المكان ولكنّه عزّوجلّ عرج تشريفاً به وتعظيماً لمنزلته وليريه ملكوت السّموات كما أراه ملكوت الارض ويشاهد مافيها من عظمة الله عزّوجلّ وليخبر أمّته بما شاهد فى العلو من الآيات والعلامات والاقرار بالحوض والشفاعة للمذنبين من اصحاب الكبائر والإقرار بالصّراط والحساب والميزان واللّوح والقلم والعرش والكرسى والإقرار بـأَنّ الصّلوة عمود الدين وانها اوّل مايحاسب عليه العبد يوم القيمة من الاعمال واوّل مايسأَل عنه العبد بعد المعرفة . فان قبلت قبل ماسواها وان ردّت ردّ ماسواها وانّ المفروضات من الصّلوات فى اليوم والليلة خمس صلوات وهى سبع عشر ركعة الظهر اربع ركعات والعصر اربع ركعات والمغرب ثلاث ركعات والعشاء الآخرة اربع ركعات والغداة ركعتان وامّا النافلة فهى مثلا الفريضة اربع وثلثون ركعة ثمان ركعات قبل الظهر وثمان بعدها

قبل العصر واربع ركعات بعد المغرب وركعتان من جلوس بعد العشاء
الآخرة يحسبان بركعة وهى وتر لمن لم يلحق الوتر آخر الليل وصلوة
الليل ثمانى ركعات كلّ ركعتين بتسليمة والشّفع ركعتان بتسليمة والوتر
ركعة واحدة ونافلة الغداة ركعتان فجملة الفرائض والنوافل فى اليوم
والليلة احدى وخمسون ركعة والاذان والاقامة مثنى مثنى وفرائض الصلوة
سبع الوقت والطّهور والتوجّه والقبلة والرّكوع والسّجود والدّعاء
والقنوت ربّ اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم انّك انت الاعزّ الاكرم ويجزى
فيه ايضاً ثلاث تسبيحات وان احبّ المصلى ان يذكر الائمّة عليهم السلام فى قنوته
ويصلّى عليهم فيجملهم وتكبيرة الافتتاح واحدة والسبع افضل ويجب
الجهر بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْم فى الصّلوة عند افتتاح الفاتحة وعند
افتتاح السّورة بعدها وهى آية من القرآن وهى أقرب الى اسم الله الاعظم
من سواد العين الى بياضها ويستحب رفع اليدين فى كلّ تكبيرة فى الصّلوة
وهو زين للصّلوة والقراءة فى الاوّلتين من الفريضة الحمد وسورة ولا تكون
من العزائم الّتى يسجد فيها وهى الم سجدة وَحٰم السَّجْدَة والنَّجم وسورة
إقْرَءْ بِاسْمِ رَبِّكَ» ولا تكن السورة ايضاً لإِيْلاٰفِ وأَلَمْ تر كَيْفَ والضّحى
وأَلَم نشرح لان. لإيلاف وأَلم تر كيف سورة واحدة والضّحى وأَلم نشرح
سورة واحدة ولايجوز التفرقة بواحدة منها فى ركعة فريضة فمن اراد ان
يقرء بها فى الفريضة فليقرء لايلاف وأَلَمْ تَرَ كَيْفَ وَالضُّحى وَأَلَمْ نَشْرَحْ
فى ركعة ولا يجوز القرآن بين سورتين فى الفريضة فأَمّا فى النافلة فلا بأْس

بان يقرء الرّجل ماشاء ولا بأْس بقراءة العزائم فى النوافل لانّه انّما يكره ذلك فى الفريضة ويجب أَن يقرأ فى صلوة الظهر يوم الجمعة سورة الجمعة والمنافقين فبذلك جرت السنّة والقول فى الرّكوع والسّجود ثلاث تسبيحات وخمس أحسن وسبع افضل وتسبيحة تامّة تجزى فى الرّكوع والسّجود للمريض والمستعجل ومن نقص من الثلاث التسبيحات فى ركوعه او فى سجوده تسبيحة ولم يكن بمريض ولا مستعجل فقد نقص ثلث صلوته ومن ترك تسبيحتين فقد نقص ثلثى صلوته ومن لم يسبّح فى ركوعه ولا سجوده فلا صلوة له الّا ان يهلّل اويكبّر اويصلّى على النبى بعدد التّسبيح فان ذلك يجزيه .

ويجزى فى التشّهد الشهادتان فما زاد فتعبّد والتسليم فى الصّلوة يجزى مرّة واحدة مستقبل القبلة ويميل بعينه الى يمينه .

وينبغى للمصلّى ان يسبّح بتسبيح فاطمة الزهراء سلام الله عليها فى دبر كلّ فريضة وهى اربع وثلثون تكبيرة وثلاث وثلثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميد فإنّه من فعل ذلك بعد الفريضة قبل ان يثنى رجليه غفر الله له ثم يصلّى على النبى والائمّة ويدعو لنفسه بما احبّ ويسجد بعد فراغه من الدعاء سجدة الشكر يقول فيها ثلاث مرّات شكراً لله ولا يدعها ولا يجوز التكفير للصّلوة ولا قول آمين بعد فاتحة الكتاب ولا وضع الركبتين على الارض فى السّجود قبل اليدين ولا يجوز السّجود الّا على الارض اوعلى ما انبتته الارض الّا ما أكل اولبس ولا بأْس بالصّلوة

فی شعر ووبر کلّما اکل لحمه ومالا یؤکل فلایجوز الصّلوة فی شعره ووبره الّا ما خصّته الرّخصة وهی الصّلوة فی السّنجاب والسّمور والفنك والخزّ والاولی ان لا یصلّی فیها ومن صلّی فیها جازت صلوته وامّا الثعالب فلا رخصة فیها الّا فی حال الضّرورة والصّلوة یقطعها الرّیح اذا خرج من المصلّی اوغیرها ممّا ینقض الوضوء اویذکر انه علی غیر وضوء او وجد أذی اوضرباناً لا یمکنه الصبر علیه اورعف فخرج من انفه دم کثیرا والتفت حتّی یری من خلفه ولا یقطع صلوة المسلم شیء یمرّ بین یدیه من کلب اوامرأة اوحمار اوغیر ذلك، ولا سهو فی النافلة فمن سهی فی نافلة فلیس علیه شیء فلیبتن علی ماشاء وإنّما السهو فی الفریضة فمن سهی فی الاوّلتین اعاد الصّلوة ومن شكّ فی المغرب اعاد الصّلوة ومن شك فی الغداة اعاد الصّلوة ومن شك فی الثانیة والثالثة اوفی الثالثة والرابعة فلیبن علی الاکثر فاذا سلّم اتمّ ماظنّ انّه قد نقص ولا تجب سجدتا السهو علی المصلّی الّا اذا قام فی حال قعود اوقعد فی حال قیام اوترك التّشهد اولم یدرزاد فی صلوته اونقص منها وهما بعد التسلیم فی الزیادة والنقصان ویقال فیها بسم الله وبالله السّلام علیك ایّها النبیّ ورحمة الله وبرکاته .

وامّا سجدة العزائم فیقال فیها «لَاإِلٰهَ إِلَّا اللهُ حَقّاً حَقّاً لَاإِلٰهَ إِلَّا اللهُ إِیْمَاناً وَتَصْدِیْقاً لَاإِلٰهَ إِلَّا اللهُ عُبُوْدِیَّةً وَرِقّاً سَجَدْتُ لَكَ یَارَبِّ تَعَبُّداً وَرِقّاً لَامُسْتَنْكِفاً وَلَامُسْتَكْبِراً بَلْ أَنَا عَبْدٌ ذَلِیْلٌ مُسْتَجِیْرٌ» ویکبّر اذا رفع رأسه ولا یقبل من صلوة العبد الّا ما اقبل علیه منها بقلبه حتّی انّه ربّما

قبل من صلوته ربعها اوثلثها اونصفها اواقلّ من ذلك اواكثر ولكنّ الله عزّوجلّ يتمّمها بالنوافل واولى النّاس بالتقدّم فى جماعة اقرأهم للقرآن[١] فان كانوا فى القرآن سواء فاقدمهم هجرة فان كانوا فى الهجرة سواء فاسنّهم فان كانوا فى السنّ سواء فاصبحهم وجهاً وصاحب المسجد أولى بمسجده ومن صلّى بقوم وفيهم من هو أعلم منه لم يزل امرهم الى سفال الى يوم القيمة.

والجماعة يوم الجمعة فريضة واجبة وفى ساير الايّام سنّة من تركها رغبة عنها وعن جماعة المسلمين من غير علّة فلاصلوة له. ووضعت الجمعة عن تسعة عن الصّغير والمجنون والمسافر والعبد والمرأة والمريض والاعمى ومن كان على رأس فرسخين.

وتفضل صلوة الرّجل فى جماعة على صلوة الرّجل وحده خمسة وعشرين درجة فى الجنّة وفرض السفر ركعتان الا المغرب فانّ رسول الله تركها على حالها فى السفر والحضر ولايصلّى فى السفر من نوافل النّهار شىء ولايترك فيه من نوافل الليل شىء ولايجوز صلوة اللّيل من اوّل اللّيل الافى السفر واذا قضاها الانسان فهوافضل له من ان يصلّيها فى اوّل اللّيل وحدّ السفر الّذى يجب فيه التقصير فى الصّلوة والافطار فى الصّوم ثمانية فراسخ فان كان سفر الرّجل اربعة فراسخ ولم يرد الرّجوع من يومه فهو بالخيار انشاء اتمّ وانشاء قصّر وإن اراد الرجوع من يومه فالتقصير عليه واجب ومن كان سفره معصية فعليه التّمام فى الصّلوة والصّوم

١ــ لاريب ان المقصود اعلمهم بالقرآن وأحفظهم له وماقاله المتأخّرون بمامعناه حسن القراءة فليس بشىء وقد أثبتنا فى حواشينا على النهاية.

والمتمّم فى السّفر كالمقصّر فى الحضر والّذين يجب عليهم التّمام فى الصّلوة والصّوم فى السّفر المكارى والمكرى والاشقان وهو البريد والرّاعى والملّاح لانه عملهم وصاحب الصّيد اذا كان صيده بطراً او اشراً وان كان صيده ممّا يعود به على عياله فعليه التقصير فى الصّوم والصّلوة وليس البرّ ان يصوم الرّجل فى سفره تطوعاً ولا يجوز للمفطر فى السفر فى شهر رمضان ان يجامع والصّلوة ثلاثة اثلث فثلث طهور وثلث ركوع وثلث سجود ولا صلوة الّا بطهور والوضوء مرّة مرّة ومن توضّأ مرّتين فهو جايز الّا انه لا يوجر عليه والماء كلّه طاهر حتّى يعلم انه قذر ولا يفسد الماء الّا ما كانت له نفس سائلة ولا بأس بالوضوء بماء الورد والاغتسال به من الجنابة. وامّا الماء الّذى تسخنه الشّمس فلا بأس بالوضوء منه وانّما يكره الوضوء به وغسل الثياب والاغتسال لانه يورث البرص. والماء اذا كان قدر كرّ لم ينجّسه شىء والكرّ الف رطل ومائتا رطل بالمدنى وروى ان الكرّ هو ما يكون ثلاثة اشبار طولاً فى ثلاثة اشبار عرضاً فى ثلاثة اشبار عمقاً وماء البئر طهور كلّه مالم يقع فيه شي ينجسّه وماء البحر طهور كلّه ولا ينقض الوضوء الّا ما خرج من الطرفين من بول او غائط او ريح او منى والنوم اذا ذهب بالعقل ولا يجوز المسح على العمامة ولا على القلنسوة ولا يجوز المسح على الخفّين والجوربين الّا فى ضرورة تتّقى او ثلج يخاف منه على الرّجلين فيقام الخفّان مقام الجباير فيمسح عليهما وروت عايشة عن النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم انّه قال اشدّ النّاس حسرة يوم القيمة من راى وضوءه على جلد غيره وقالت عائشة لئن امسح على ظهر عير

بالفلاة احبّ الى من ان امسح على خفّى ومن لم يجد الماء فليتيمّم كما قال الله عزّوجلّ «فَتَيَمَّمُوْا صَعِيْداً طَيِّباً» والصعيد الموضع المرتفع والطيّب الّذى ينحدر عنه الماء فاذا اراد الرّجل ان يتيمّم ضرب بيديه على الارض مرّة واحدة ثم ينفضهما فيمسح بهما وجهه ثم يضرب بيديه الارض فيمسح بهما يده اليمنى من الزند الى اطراف الاصابع ثم يضرب بيمينيه الارض فيمسح بهما يساره من المرفق الى اطراف الاصابع وقد روى ان يمسح الرجل جبينه وحاجبيه ويمسح على ظهر كفّيه وعليه مضى مشايخنا رض ، وماينقض الوضوء ينقض التيمّم والنظر الى الماء ينقض التيمّم ومن تيمّم[1] وصلى ثمّ وجد الماء وهو فى وقت الصّلوة او قد خرج الوقت فلااعادة عليه لأنّ التيمّم احد الطهورين فليتوضّأ لصلوة اخرى ولابأس ان يصلّى الرّجل بوضوء واحد صلوة اللّيل والنّهار كلّها مالم يحدث وكذلك التيمّم مالم يحدث او يصب ماء والغسل فى سبعة عشر موطناً غسل ليلة سبع عشرة من شهر رمضان وليلة تسع عشرة وليلة احدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين وللعيدين وعند دخول الحرمين وعند الإحرام وغسل الزيارة وغسل الدخول الى البيت ويوم التّروية ويوم عرفة وغسل الميّت وغسل من غسل ميتاً اوكفّنه اومسّه بعدمايبرد وغسل يوم الجمعة وغسل الكسوف اذا احترق القرص كلّه ولم يعلم به الرّجل وغسل الجنابة فريضة وكذلك

١ــ فاذا فقد الرجل الماء يتيمّم صرف الارض ضربة للوضوء ويمسح بها وجهه من قصاص الشعر الى طرف انفه الاعلى والى الاسفل اولى ثم يمسح ظهر يده اليمنى ثم يده اليسرى وكذلك يضرب بدل غسل الجنابة ضربتين ضربة يمسح بها وجهه وضربة يمسح بها ظهر كفيه .

غسل الحيض لأنّ الصّادق عليه السلام قال غسل الجنابة والحيض واحد وكلّ غسل فيه وضوء الّاغسل الجنابة لانه فريضة واذا اجتمع فرضان فاكبرهما يجزى عن اصغرهما ومن اراد الغسل من الجنابة فليجتهد ان يبول ليخرج مابقى فى إحليله من المنى ثمّ يغسل يديه ثلاثاً من قبل ان يدخلهما الإناء ثمّ يستنجى وينقّى فرجه ثمّ يضع على رأسه ثلاث اكفّ من ماء ويميّز الشعر بأنامله حتّى يبلغ الماء اصل الشعر كلّه ثمّ يتناول الاناء بيده ويصبّه على رأسه وبدنه مرّتين ويمرّ يده على بدنه كلّه ويخلّل اذنيه باصبعيه وكلّما اصابه الماء فقد طهر واذا ارتمس الجنب فى الماء ارتماسةً واحدةً اجزأه ذلك من غسله وان قام فى المطر حتّى يغسله فقد اجزأه ذلك من غسله ومن احبّ ان يتمضمض ويستنشق فى غسل الجنابة فليفعل وليس ذلك بواجب لان الغسل على ماظهر لاعلى مابطن غير انه اذا اراد ان يأكل ويشرب قبل الغسل لم يجز له الّا ان يغسل يديه ويتمضمض ويستنشق فانه ان اكل وشرب قبل ذلك خيف عليه البرص واذا عرق الجنب فى ثوبه وكانت الجنابة من حلال فحلال الصّلوة فى الثوب وان كانت من حرام فحرام الصّلوة فيه ــ واقل الحيض ثلثة ايّام واكثرها عشرة واقلّ الطّهر عشرة ايّام واكثره لاحدّ له واكثر ايّام النّفساء الّتى تقعد فيها عن الصّلوة ثمانية عشر يوماً وتستظهر بيوم او يومين الّا ان تطهر قبل ذلك.

والزّكوة على تسعة اشياء الحنطة والشعير والتمر والزّبيب والابل والبقر والغنم والذهب والفضة وعفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمّا سوى ذلك

ولا يجوز دفع الزّكوة الّا الى اهل الولاية ولا يعطى من اهل الولاية الابوان والولد والزوج والزوجة والمملوك وكلّ من يجبر الرّجل على نفقته والخمس واجب فى كلّ شىء بلغ قيمته ديناراً من الكنوز والمعادن والغوص والغنيمة وهو لله عزّوجلّ ولرسوله ﷺ ولذى القربى من الاغنياء والفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل من اهل الدين وصيام السنّة ثلثة ايّام فى كلّ شهر خميس فى اوّله واربعا فى وسطه وخميس فى آخره وصيام شهر رمضان فريضة وهو بالرّؤية وليس بالرّأى ولا التظنّى ومن صام قبل الرّؤية او أفطر قبل الرّؤية فهو مخالف لدين الاماميّة ولا يقبل شهادة النساء فى الطلاق ولا رؤية الهلال والصّلوة فى شهر رمضان كالصّلوة فى غيره من الشّهور فمن احبّ ان يزيد فليصّل كلّ ليلة عشرين ركعة ثمانى ركعات بين المغرب والعشاء الآخرة واثنى عشرة ركعة بعد العشاء الآخرة الى ان يمضى عشرون ليلة من شهر رمضان ثم يصلّى كلّ ليلة ثلثين ركعة ثمان ركعات منها بين المغرب والعشاء واثنتين وعشرين ركعة بعد العشاء الآخرة ويقرء فى كلّ ركعة منها الحمد وماتيسّر من القرآن الّا فى ليلة احدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين فانّه يستحب احياؤُهما وان يصلّى الانسان فى كلّ ليلة منهما مأة ركعة يقرء فى كلّ ركعة الحمد مرّة وَقُلْ هُوَاللهُ أَحَدْ احد عشر مرّات ومن احياها تين اللّيلتين بمذاكرة العلم فهو افضل وينبغى للرّجل اذا كان ليلة الفطر ان يصلّى المغرب ثلاثا ثم يسجد ويقول فى سجوده ياذا الطول ياذا الحول يامصطفى محمّد

وناصره صلّ على محمّد وآل محمّد واغفرلى كلّ ذنب اذنبته ونسيته وهو عندك فى كتاب مبين ثمّ يقول مائة مرّة اتوب الى الله عزّ وجلّ ويكبّر بعد المغرب والعشاء الآخرة وصلوة الغداة والعيد والظهر والعصر كما يكبّر ايّام التشريق ويقول الله اكبر الله اكبر لااله الّاالله والله اكبر الله اكبر ولله الحمد والله اكبر على ماهدانا والحمد لله على ما ابلانا ولايقول فيه ورزقنا من بهيمة الانعام فان ذلك فى ايّام التشريق وزكوة الفطرة واجبة يجب على الرّجل ان يخرجها عن نفسه وعن كلّ من يعول من صغير وكبير وحرّ وعبد وذكر وانثى صاعاً من تمر أو صاعاً من زبيب او صاعاً من برّ أو صاعاً من شعير وافضل ذلك التمرّ والصّاع اربعة امداد والمدّ وزن مأتين واثنين وتسعين درهماً ونصف يكون ذلك الفا ومائة وسبعين درهماً بالعراقى ولابأْس بان يدفع قيمته ذهباً او ورقا ولابأس بان يدفع عن نفسه وعن من يعول الى واحد ولايجوز ان يدفع مايلزم واحداً الى نفسين ولابأْس باخراج الفطرة فى اوّل يوم من شهر رمضان الى آخره وهى زكوة الى ان يصلّى العيد فان اخرجها بعد الصّلوة فهى صدقة وافضل وقتها آخر يوم من شهر رمضان ومن كان له مملوك مسلم او ذمّى فليدفع عنه الفطرة ومن ولد له مولود يوم الفطر قبل الزّوال فليدفع عنه الفطرة وان ولد بعد الزّوال فلافطرة عليه وكذلك اذا اسلم الرّجل قبل الزّوال وبعده فعلى هذا.

والحاج على ثلثة اوجه قارن ومفرد ومتمتّع بالعمرة الى الحجّ ولايجوز لاهل مكّة وحاضر بها التمتّع بالعمرة الى الحجّ وليس لهم

إلّا القران والافراد لقول الله عزّوجلّ . ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ،وحدّ حاضرى المسجد الحرام. أَهل مكّة وحواليها على ثمانية واربعين ميلا ومن كان خارجاً من هذا الحدّ فلا يحجّ الّا متمتّعاً بالعمرة الى الحجّ ولا يقبل الله غيره واوّل الاحرام المسلخ واوسطه غمرة وآخره ذات عرق واوّله افضل فإنّ رسول الله ﷺ وقّت لأَهل العراق العقيق ووقّت لأَهل الطائف قرن المنازل ووقّت لأَهل اليمن يلملم ووقّت لأَهل الشام المهيعة وهى الجحفة ووقّت لأَهل المدينة ذا الحليفة وهو مسجد الشجرة ولا يجوز الاحرام قبل بلوغ الميقات ولا يجوز تأْخيره عن الميقات الّا لعلّة وضرورة وفرائض الحجّ سبعة الاحرام والتلبيات الأَربع وهى لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لاشريك لك لبّيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك وغير ذلك من التلبية سنّة وينبغى للملبّى ان يكثر من قوله لبّيك ذا المعارج لبّيك فانّها تلبية النّبى ﷺ والطواف بالبيت فريضة والركعتان عند مقام ابرهيم فريضة والسعى بين الصفا والمروة فريضة والوقوف بعرفة فريضة والوقوف بالمشعر فريضة وهدى التمتّع فريضة وماسوى ذلك من مناسك الحجّ سنّة ومن ادرك يوم التروية عند زوال الشمس الى الليل فقد ادرك المتعة ومن ادرك يوم النحر مزدلفة وعليه خمسة من النّاس فقد ادرك الحجّ ولا يجوز الاضاحى من البدن الّا الثنى وهو الّذى تم له خمس سنين ودخل فى السّادسة ويجزى فى البقر والمعز الثنى وهو الّذى تم له سنة ودخل فى الثانية ويجزى من الضان الجذع لسنة ولا يجزى فى الاضحية

ذات عوار ويجزى البقرة عن خمسة نفر اذا كانوا من أهل بيت والثّور
عن واحد والبدنة عن سبعة والجزور عن عشرة متفرّقين والكبش عن
الرّجل وعن أهل بيته واذا عزّت الاضاحى اجزأت شاة عن سبعين ويجعل
الاضحية ثلاث اثلث ثلث يوكل وثلث يهدى وثلث يتصدّق به ولا يجوز
صيام ايّام التشريق فانّها أيّام أكل وشرب وبعال وجرت السنة فى الافطار
يوم النحر بعد الرجوع من الصّلوة وفى الفطر قبل الخروج الى الصّلوة والتكبير
فى أيّام التشريق بمنى فى دبر خمس عشر صلوة من صلوة الظهر يوم النحر الى
صلوة الغداة يوم الرّابع وبالامصار فى دبر عشر صلوة من صلوة الظهر يوم
النحر الى صلوة الغداة يوم الثالث، وتحلّ الفروج بثلثة وجوه نكاح بميراث
ونكاح بلاميراث ونكاح بملك اليمين ولا ولاية لأحد على المرأة الّا لأبيها
مادامت بكراً فاذا كانت ثيّباً فلا ولاية لاحد عليها ولا يزوّجها ابوه ولا غيره
الّا بمن ترضى بصداق مفروض ولا يقع الطلاق الّا على الكتاب والسنّة
ولا يمين فى طلاق ولا فى عتق ولا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك ولا عتق
الّا ما اريد به وجه الله عزّ وجلّ والوصيّة لا يجوز الّا بالثلث ومن اوصى
بأكثر من الثلث ردّ الى الثلث وينبغى للمسلم ان يوصى لذوى قرابته
ممّن لا يرث بشىء من ماله قلّ أم كثر ومن لم يفعل ذلك فقد ختم عمله بمعصيته
سهام المواريث لا تعول على ستّة ولا يرث مع الولد والابوين احد الّا زوج
او زوجة والمسلم يرث الكافر ولا يرث الكافر المسلم وابن الملاعنة لا يرثه
ابوه ولا احد من قبل أبيه وترثه أُمّه فان لم تكن له أُمّ فاخواله وأقرباؤه

من قبل أُمّه ومتى اقرّ الملاعن بالولد بعد الملاعنة الحق به ولده ولم ترجع اليه امرأته فان مات الأَب ورثه الإبن وان مات الإبن لم يرثه الأَب .

ومن شرايط دين الاماميّة اليقين والاخلاص والتوكل والرضا والتسليم والورع والاجتهاد والزهد والعبادة والصدق والوفاء واداء الامانة الى البرّ والفاجر ولو إلى قاتل الحسين والبرّ بالوالدين واستعمال المروّة والصبر والشجاعة وإجتناب المحارم وقطع الطمع عمّا فى أيدى النّاس والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله بالنّفس والمال على شرائطه ومواساة الإخوان والمكافات على الصنايع وشكر المنعم والثناء على المحسن والقناعة وصلة الرّحم وبرّ الآباء والأُمّهات وحسن المجاورة والإنصاف والإيثار ومصاحبة الأَخيار ومجانبة الأَشرار ومعاشرة النّاس بالجميل والتسليم على جميع النّاس مع الإعتقاد بان سلام الله لاينال الظالمين وإكرام المسلم ذى السيّئة وتوقير الكبير ورحمة الصّغير وإكرام كريم كلّ قوم والتّواضع والتخشّع وكثرة ذكر الله عزّوجلّ وتلاوة القرآن والدّعاء والإغضاء والإحتمال والمجاملة والتقيّة وحسن الصحابة وكظم الغيظ والتعطّف على الفقراء والمساكين ومشاركتهم فى المعيشة وتقوى الله فى السّرّ والعلانية والاحسان الى النساء وماملكت الايمان وحفظ اللّسان الّا من خير وحسن الظّنّ بالله عزّوجلّ والنّدم على الذنب واستعمال السخاء والجود والإعتراف بالتّقصير واستعمال جميع مكارم الافعال والاخلاق للدّين والدّنيا واجتناب مذّامها فى الجملة والتفصيل واجتناب الغضب

والسخط والحميّة والعصبيّة والكبر وترك التجبّر واحتقار النّاس والفخر والعجب والبذا والفحش والبغى وقطيعة الرّحم والحسد والحرص والشرّه والطمع والخرق والجهل والسفه والكذب والخيانة والفسق والفجور واليمين الكاذبة وكتمان الشّهادة والشّهادة بالزور والغيبة والبهتان والسّعاية والسّباب واللّعان والطّعان والمكر والخديعة والغدر والنّكث والقتل بغير حق والظّلم والقساوة والجفاء والنّفاق والرّبا والزّنا واللّواط والرّياء والفرار من الزحف والتعرّب بعد الهجرة وعقوق الوالدين والاحتيال على النّاس وأكل مال اليتيم ظلما وقذف المحصنة .

هذا ما اتّفق املاه على العجلة من وصف دين الاماميّة وقال سأملى شرح ذلك وتفسيره اذا سهل الله عزّ اسمه الى العود من مقصدى الى نيسابور ان شاء الله ولا حول ولا قوّة الّا بالله العلىّ العظيم وصلّى الله على محمّد وآله الطّاهرين .

١ – وانّما اوردنا هذا الباب من بيان الصدوق لكونه من عظماءِ الاصحاب ومشايخ الشيعة هو الشيخ الاجل رئيس المحدّثين وركن من اركان الشريعة ابوجعفر محمد بن على بن الحسين ابن بابويه وهو استاذ شيخنا المفيد الذى نفع الله به كلّ مستفيد وجه الطائفة بخراسان ونيسابور ورد بغداد سنة ٣٥٥ وسمع منه شيوخ الاماميّة وهو حدث السّن توفّى رض بالرّى سنة ٣٨١ .

اللغة والادب ـ اللغة العربية : لغة غنيّة طيّعة مرنة لاتعوزها كلمة تعبّر عن ايّ شيء ممّا يتصوّره الانسان فى الحقيقة والخيال ولاتقصر عن تأدية ايّ معنى من المعانى الّتى يوحى بها الفكر والعواطف والحواس، فما من هاجسة من هواجس القلب . اوخاطرة من خطرات العقل اوعاطفة من عواطف النّفس . اوصورة من صور الطّبيعة والحياة الاّلها فى اللّغة العربيّة . الكلمة المطابقة المقابلة الموافقة . الّتى تنقلها الى المخاطب نقلاً صحيحاً أميناً دقيقاً لالبس فيه ولاابهام . لا ، بل ان العربيّة كثيراً ماتقدم اليك الشيء الواحد فى عدّة كلمات تحسبها مترادفة وماهى بالمترادفة . اذ كلّ واحدة منها تصوّر لك لوناً اونوعاً اودرجة اوحالة من ذلك الشيء نفسه، فالظماء . والصدى . والاوام . والهيام ، كلمات تدلّ على العطش الاّان كلا منها يصوّر درجة من درجاته . فانت تعطش اذا احسّبت حاجة الى الماء ، ثم يشتدّ بك العطش فتظمأ . ويشتدّ بك الظمأ فتصدى . ويشتدّ بك الصدى فتؤوم . ويشتدّ بك الأوام فتهيم . واذا قلت انفلاناً عطشان فقد اردت انه فى حاجة الى جرعات من الماء لايضيره أن تبطئ عليه . امّا اذا قلت انه هائم فقد علم السامع انّ الظمأ برح به حتّى كاد يقتله .

والعشق، والغرام، والولع . والوله، والتيم، صور من الحبّ . اودرجات متفاوتة منه ، تبين حالاته المختلفة فى نفوس المحبّين . فليس كلّ محبّ مغرما ، ولا كلّ مغرم مولها ، ولا كلّ موله متيّماً .

هذه الوفرة فى الكلمات للتعبير عن الشيء الواحد فى متفاوت صوره

وحالاته قلّما تجدها فى لغة اخرى[١] . واذا صادفتها فى احداها فلايمكن ان يكون بمثل هذه الفيضوضة العربيّة الّتى تغنينا بكلمة واحدة عن عبارة مطوّلة نحدّد بها المعنى المخصوص ، وتجعلنا نقول عن المشرف على الموت عطشاً انه (هائم) حين لايستطيع غيره ان يودّى هذا المعنى الّا فى ثلاث كلمات اذ يقول ، على وشك ان يموت من الظمأ .

على ان العيب فى قصور لغتنا هذه عن تقديم الكلمات الّتى تعبّر عن مصطلحات الفلسفة والصناعات والفنون . ليس عيب اللّغة نفسها وانما هو عيب اصحابها الّذين وقفوا بها حيث تركها الأوّلون . فلم يماشوا المدنيّة الجديدة فى نواحى نشاطها . ولم يسايروا التفكير الحديث فى سبل نموّه وترقيّه وهو على كلّ حال عيب مؤقت لايمكن أن يبقى الا ريثما تتحرّر اللّغة العربيّة من النزعة الجامدة الرجعيّة الّتى تتحكّم فيها الآن . والّتى نريدها عربيّة خالصة نقيّة من كلّ اجنبي و دخيل . وعندئذ تنفتح أبواب التعريب والاقتراض فتستكمل اللّغة العربيّة ماينقصها . وتصبح بحقّ اغنى اللّغات .

ان اللّغة الّتى تدّعى انها تستغنى بنفسها عن الاقتراض من اللّغات الاخرى لم تخلق بعد ، وليس فى استطاعة هيأة من الهيآت ولا أُمّة من الأُمم

١ ـ حكى عبدالقادر الجرجانى قال ركب الكندى المتفلسف الى ابى العبّاس وقال له : انّى اجد فى كلام العرب حشوا ـ فقال له ابو العباس فى ايّ موضع . قال وجدت العرب تقول . عبدالله قائم ثم يقولون ان عبدالله قائم . ثم يقولون إن عبدالله لقائم فالالفاظ متكرّرة والمعنى واحد ـ فقال له ابو العباس : لا ، بل المعانى مختلفة لاختلاف الالفاظ ! فقولهم عبدالله قائم اخبار عن قيامه وقولهم ان عبدالله قائم جواب عن سؤال سائل وقولهم ان عبدالله لقائم جواب على انكار منكر قيامه ، فما أحار المتفلسف جواباً ، فاذا ذهب مثل هذا على الكندى فما الظن بغيره ؟

أن تخلقها . ومهما يكن من غنى اللّغة العربيّة وسعتها فلامناص لها من الخضوع لذلك القانون العام . ولسوف يتّضح للّذين يزعمون امكان الإستغناء بالنحت والإشتقاق عن التعريب والإقتراض أنهم يحاولون محالاً وان أكفّهم الضعيفة لن تقوى على صدّ تيّار التجديد الّذى يقضى بتطعيم اللّغة العربيّة بمفردات اجنبيّة فى موادّ العلوم والصّناعات والفنون. فمن العبث ان يحاول بعضهم التعبير عن الراديو بالمذياع وعن التليفون بالارزير ، وعن الترام بالجماز ، ففى ذلك ارهاق للاذهان لاتستوجبه الضرورة وبعث اوخلق للغة جديدة لاتستسيغه طبيعة العصر .

لقد كان العرب اقدر منكم على النحت والاشتقاق . وكان فى وسعهم ان يخلقوا كلمة يعبرون بها عن الآلة الّتى تعيّن مواقع الكواكب فى الفضاء ولكنهم اقترضوا من اليونانيّة كلمة الاصطرلاب وعرّبوها فاندمجت اللفظة فى لغتهم وصارت منها . ومثل الاصطرلاب الهندسة والكيمياء والبنج والكحول والترياق والقانون والانبيق والأسورة والمنجنيق والسندس والسروال والدمقس والديباج والاستبرق والابريق والصنج والنموذج والبرنامج والدرهم والدينار وآلاف غيرها من المفردات الاجنبيّة رضى بها العرب فعرّبوها حتّى لقد ورد بعضها فى القرآن وقد صنّف الادباء كتباً جمعوا فيها الالفاظ الفارسيّة كبديع اللّغة وكتاب الالفاظ الفارسيّة المعرّبة للكلدانى وبعضها فى ذكر الالفاظ الفارسيّة فى القرآن منها المعرّب للجواليقى وقد فتح ابن جنّى فى الاختصاص باباً فأفاد واجاد لابأس ان تأتى به .

فى أنّ ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، هذا موضع شريف وأكثر النّاس يضعف عن احتماله لغموضه ولطفه والمنفعة به عامّة والتساند اليه مقوّ مجد وقد نصّ ابو عثمان عليه ، فقالوا ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ألاترى أنّك لم تسمع أنت ولاغيرك اسم كلّ فاعل ولامفعول وانّما سمعت البعض فقست عليه غيره فاذا سمعت قام زيد أجزت ظرف بشر وكرم خالد . قال أبو على إذا قلت (طاب الخشكنان فهذا من كلام العرب لأنّك باعرابك إيّاه قد ادخلته كلام العرب ويؤكّد هذا عندك . ان ماأُعرب من أجناس العجميّة .قد أجرته العرب مجرى اصول كلامها ألاتراهم يصرفون فى العلم نحو آجرّ وإبريسمٍ وفرندٍ وفيروزجٍ وجميع ماتدخله لام التعريف وذلك انه لمّادخلته اللام فى نحو الدِّيباج والفِرِنْد، والسُّهْريز ، والآجرّ ، اشبه اصول كلام العرب اعنى النكرات فى الصّرف ومنعه مجراها . قال ابو على ويؤكّد ذلك ان العرب اشتقّت من الأعجمى ، النكرة كما تشتق من اصول كلامها قال رؤبة

هل ينجِيّنى خَلِفٌ سِخْتِيتُ أَوْ فِضةٌ أَو ذهبٌ كبْريتُ

قال فسِختيتٌ من السَّخت كزِحليل من الزَّحل .وحكى لنا ابو على، عن ابن الأعرابى أظنه قال يقال دَرْهَمَتِ الخُبَّازى اى صارت كالدراهم فاشتق من الدرهم وهو اسم اعجمى وحكى ابوزيد رجل مُدَرْهَم قال ولم يقولوا منه دُرهِمَ ، إلّا انه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل فى الكف ولهذا أشباه وقال ابو عثمان فى الالحاق المطرّد إنّ موضعه من جهة اللّام نحو

قُعْدَدٍ، ورِمدِدٍ، وشَمْلَلَ، وصَعْرَر، وجعل الالحاق بغير اللّام شاذّاً لا يقاس عليه وذلك نحو جوهر وبيطر وجدول وحِذيَم وهرول وأرطى ومِعزى وسلقى وجعبى قال ابو على وقت القراءة عليه كتاب أَبى عثمان . لوشاء شاعر اوساجِعٌ اومُتَّسعٌ ان يبنى بإلحاق اللّام اسماً وفعلاً وصفة لجازله ولكان ذلك من كلام العرب وذلك نحو قولك خَرْجَجٌ أَكرمُ من دَخْلَلٍ وضربب زيد عمرا ومررت برجل ضربببٍ وكرممٍ ونحو ذلك قلت له أفترتجل اللّغة ارتجالاً ؟ قال ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو إذاً من كلامهم قال أَلاترى أنك تقول طاب الخشكنان[1] فتجعله من كلام العرب وان لم تكن العرب تكلّمت به هكذا ، قال فرفعك إيّاه كرفعها ماصار لذلك محمولا على كلامها ومنسوباً الى لغتها ومّما اشتقته العرب من كلام العجم ماأنشَدَناهُ من قول الراجز :

هل تعرف الدّار لامّ الخزرج   منها فَظَلْتَ اليوم كالمُزَرَّج

اىّ الّذى شرب الزَّرجُونَ وهى الخمر فاشتق المزرّج من الزَّرجون وكان قياسه كالمُزرجن من حيث كانت النون فى زرجون قياسها أَن تكون اصلا اذ كانت بمنزلة السين من قربوس . قال ابو على ولكن العرب اذا اشتقت من الاعجمى خلطت فيه . وقال الجواليقى اصله زرگون اى لون

١ــ قال الجواليقى والخشكنان قد تكلّمت به العرب قال الراجز :

ياحبّذا الكعك بلحم مثرود   وخشكنان وسويق مقنود   وروى ايضاً فى الحاشية :

ياحبّذا مافى الجواليق السود   من خشكنان وسويق مقنود .

الذهب قال ابودهبل الجمحى :

وقباب قد اشرجت وبيوت   نطقت بالريحان والزرجون

وقال النضر بن شميل الزرجون شجر العنب وقال الليث الزّرجون بلغة اهل الطائف واهل الغور قضبان الكرم وانشد :

بدّلوا من منابت الشّيح   والإذخر تيناً ويانعاً زرجونا

للّغة العربيّة خصائص ومميّزات تدل على مبلغ عقول أَصحابها من الرقى ويستدلّ عليها بتمدّن العرب منها الإعراب اى تغيير اواخر الكلم بتغيير العوامل عليها رفعاً ونصباً وجرّاً وجزماً قال جرجى زيدان اللّغات الحيّة فى العالم المتمدّن الان تعدّ بالعشرات ليس بينها من اللّغات المعربة إلّا ثلاث وهى العربيّة وابنتها الحبشيّة واللّغة الالمانيّة والظاهر ان الإعراب من خصائص التمدّن القديم لان لغات ذلك التمدّن كان معظمها معرباً كذلك كانت اللّغات البابليّة (الآشورية) والعربيّة واليونانيّة واللاتينيّة والسنسكريتة واللّغات الّتى تخلّفت عن تلك الأُمّهات جاءت خالية من حركات الإعراب كأَن الإعراب اذا ترك لمجارى الطبيعة لايعيش فى الرّخاء طويلاً. وانّما يعيش فى البادية اونحوها من أَحوال الخشونة اوالقوّة. إلّا اذا اراد أَصحابه تقييد لغتهم بالقواعد كما فعل العرب والآلمان على ان اللّغة العربيّة سارت سيرها الطّبيعى على السنة العامّة فذهب الإعراب منها.

ومنها دقّة التعبير ومن المقرّر الثابت ان اللّغة لاتتولّد فى امة الا للتعبير عن معنى حدث فى اذهان اصحابها . فاذا وجدنا فى لغة من اللّغات اسماً

لنوع من اللّباس نحكم قطعياً ان اصحابها عرفوه اولبسوه اونوعاً من الاطعمة عرفنا أنّهم اكلوه . وبعكس ذلك خلّوها من اسماء بعض الادوات فانه يدلنا على جهلهم ايّاها . وقس على ذلك الالفاظ المعنويّة الّتى تدلّ على المعانى المجرّدة كالعواطف والفضائل فان وجودها فى اللّغة يدلّ على ان اصحابها عرفوا تلك الفضائل والعواطف وعانوها ولذلك كانت لغات الامم المتوحّشة خالية من هذه الالفاظ .

واللّغة العربيّة من اغنى لغات الارض بالفاظ العمرانيّة والسياسيّة . ان فيها عشرات من الالفاظ لضروب الجماعات من النّاس على اختلاف أغراض اجتماعهم كالشعب والجماعة واللجنة والزراقة والسرب والكوكبة والقوم والنّفر والشرذمة والعصابة ومثلها لأماكن الاجتماع كالمحفل والنادى والندوة والمأتم والمجلس والموسم والمدرس والمصطبة وعشرات منها للتعبير عن فرق الجند كالجريدة والسريّة والكتيبة وفيها للقلم والورق عشرات من الاسماء والالقاب ولكلّ منها معنى خاص .

ومن امثلة دقّة التعبير فيها وجود الالفاظ لتأْدية فروع المعانى او جزئياتها فعندهم لكلّ ساعة من ساعات النهار اسم خاص به . فالساعة الاولى الذرور ثمّ البزوغ ثمّ الضحى ثمّ الغزالة ثمّ الهاجرة ثمّ الزوال ثمّ العصر

١ــ قال حمزة المصنّف فى بعض كتبه : قال النّبى صلى الله عليه وآله وسلم لسلمان الفارسى : ان اتخذ لنا سوراً اى طعاماً كطعام الوليمة وهى فارسيّة قال ابوحيّان قال شيخنا ابوسعيد السيرافى : أخطأ هذا المتأوّل ، وانّما اراد النبى صلى الله عليه وآله وسلم . ان سلمان اتّخذ لنا خندقاً يوم الاحزاب لانه حضّ على ذلك وليس ذا من ذاك الّا باللفظ نقلاً عن الامتاع والمؤانسة ج٣ .

ثمّ الاصيل ثمّ الصبوب ثمّ الحدور ثمّ الغروب. ويقال فيها ايضاً البكور ثمّ الشروق فالاشراق فالرأد. فالضحى فالمتوع فالهاجرة فالاصيل فالعصر فالطفل فالحدور فالغروب.

وعندهم اسم لكلّ ليلة من ليالى القمر وهذا مالامثيل له فى ارقى لغات البشر وهو يدلّ على تصرف أصحاب هذه اللّغة بالمعانى والمبانى لخصب عقولهم وسعة مداركهم وتجد للمعنى الواحد عدّة الفاظ يعبّر كلّ منها عن تنوّع من تنوّعات ذلك المعنى فللشَّعر مثلاً اسماء عديدة حسب منبته كالفروة لشعر معظم الرأْس والناصية لشعر مقدّم الرأْس والذؤابة لشعر مؤخّر الرأْس والفرع شعر رأْس المرأة والغديرة شعر ذؤابتها وقد عالجوا أَلفاظ لغتهم معالجة الاستثمار فاكثروا فيها من المترادفات الّتى يدلّ عشرات اومئات منها على معنى واحد او معان متشابهة وتوسعوا فى مدلول اللّفظ الواحد حتّى تعدّدت معانيه فعندهم للفظ العين بضعة وعشرون معنى ومثلها او أَكثر منها للفظ العجوز وعشرات من المعانى لأَلفاظ الخال والخمر والرّكن والغرب ان كثرة المترادفات فى اللّغة العربيّة وتعداد المعانى للفظ الواحد جعلتها واسعة التّعبير وسهلت على أَصحابها التّسجيع وكان التّسجيع شائعاً فى الجاهليّة بلغة الكهان وهذا شيء يكون فى كلّ لغة نعم فى كلّ لغة تكون للمعنى الواحد مترادف ومتوارد ولكن العرب فاقوا بها سائر امم الارض ففيها للسنّة اربعة وعشرين اسماً وللنّور واحد وعشرين وللظّلام اثنان وخمسين وللشّمس تسعة وعشرين وللسّحاب خمسين وللمطر اربعة

وعشرين وللبئر ثماني وثمانين وللّبن ثلثة عشر وللعسل نحو ذلك وللخمر مئة اسم[1] وللاسد ثلاثمأة وخمسين اسماً وللحيّة مئة ومثل ذلك للمجمل امّا الناقة فاسماؤها مأتين وخمسة وخمسين اسماً.

---

١ ـ ذكر الثعالبي وابن السكّيت في فقه اللغة وتهذيب الالفاظ من اسمائها وصفاتها مالا نعني بنقلها وفي اشعار المرحوم حاج سيّد حبيب الله الخراساني الفقيه الفيلسوف والعارف المعروف مايغنينا:

واعظی گفت دراین ماه که ماه رجب است / توبه کردن نه عجب توبه شکستن عجب است
گفتمش ماه رجب گرچه مه توبه بود / فصل گل نیز مه باده و شور و شغب است
سبب توبه و عشرت چو بهم گرد آیند / جنگ خیزد ز دو سو چونکه مخالف سبب است
کار ترجیح باجماع همه باده کشان / بکف ساقی زیبا رخ دیبا سلب است
می حرام است و رجب نیز بود ماه حرام / می دراین ماه چه نوشی طرب اندر طرب است
مه خرداد مه پارسی و ماه رجب / عربی جنگ دو مه جنگ عجم با عرب است
آن قوی پنجهٔ دانا فکن از جا کند ار / پور وقاص و وگر زادهٔ معدیکرب است
نی که می خوردن خرداد مه آمد واجب / روزه درماه رجب داشتن ار مستحب است
ساعتی فارغ از اندیشه اگر یکنفس است / خلوتی خالی ازاغیار اگر یک وجب است
خوشتر ازمملکت روی زمین سربسر است / بهتر ازسلطنت دورزمان روز و شب است
کنیت و نام و لقب بادهٔی انگوری را / سیصدو شصت فزونتر بلسان عرب است
خندریس است وعجوز است وسلاف است ورحیق / ابنة الكرم ابوالعشرة و بنت العنب است
واندگرها که فزون است زتعداد و شمار / برخی از جمله نبشته بکتاب أدب است،
سیصدوشصت بود چون شمری درمه وسال / هرچه ازدور فلک گردش روز است وشب است
چون بهر روز بود شرط خرد باده زدن / باده را نیز بدینگونه شمار لقب است
گر همه روز بیک نام بخوانی می را / الحق انصاف توان داد که دور ازادب است

قال ابو العبّاس احمد بن على القلقشندى فى صبح الاعشى انّ اللّغة العربيّة امتن اللّغات واوضحها بياناً واذلقها لساناً وامدّها رُواقا واعذبها مذاقاً قال الفراء وجدنا اللغة العرب فضلاً على جميع الأُمم اختصاصاً من الله تعالى وكرامة اكرمهم بها ومن خصائصها انه يوجد فيها من الايجاز مالا يوجد فى غيرها من اللّغات قال .

ومن الايجاز الواقع فيها ان للضّرب كلمة واحدة فتوسّعوا فيها فقالوا للضّرب فى الوجه لطم وفى القفا صفع وفى الرأْس اذا ادمى شجّ. فكان قولهم لطم أوجز من ضرب على وجهه قال فى المثل السائر حضرت مع رجل يهودى عارف باللّغات فجرى ذكر اسم الجمل فقال لاشك ان العربيّة أوجز اللّغات . فان اسم الجمل بالعبرانيّة كومل فسقط منه الواو وحوّلت الكاف الى الجيم .

ومنها ماورد فى كلامهم من مثنى امّا على سبيل التغليب كقولهم القمران[1] يريدون الشّمس والقمر والحسنان يريدون الحسن والحسين وامّا على الحقيقة كقولهم ذهب منه الاطيبان يريدون الاكل والنكاح واختلف عليه الملوان اوالجديدان يريدون اللّيل والنّهار قال ﷺ عليكم بالأحمرين .

ومنها أَسماء الأَضداد فان فيها مئات من الأَلفاظ يدلّ كلّ منها على معنيين متضادّين كالجون للأَبيض والأَسود والقرء للطّهر والحيض

---

١ – سمّى القمر قمراً لبياضه إذا الاقمر هو الابيض وتسمية ليلة الرّابع عشر ليلة البدر لمبادرة الشمس القمر بالطلوع اولتمامه وامتلائه حينئذ من حيث ان كل تام له يقال بدر .

والصَّريم للّيل والنّهار ووراء للخلف والقدّام وقعد للقيام والجلوس ونضح للرّى والعطش وذاب للسيولة والجمود وأفسد للاسراع والإبطاء واقوى للإفتقار والإستغناء والسدفة للضوء والظلمة .

ومنها الاعجاز والايجاز وهذا أيضاً يكون لكلّ قوم فى لغتهم فيدلّون بلفظ قليل على معنى كثير ولكن العرب اقدر على ذلك من سواهم لأن لغتهم تساعدهم عليه وقد تعوّدوه وألفوه ومنه فى القرآن والحديث والأَمثال وكتب والفقه والشرع الأَدب امثلة كثيرة وقد اورد ابومنصور الثعالبى فى كتابه الاعجاز والايجاز شيئاً مّما نقصده فصدّره ببعض مانطّق به القرآن الكريم من الكلام الموجز المعجز فقال من اراد ان يعرف جوامع الكلم ويتنبّه على فضل الاعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الايماء ويفطن لكفاية الايجاز فليتدبّر القرآن وليتأمّل علوّه على سائر الكلام فمن ذلك قوله تعالى إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا . استقاموا كلمة واحدة تفصح عن الطاعات كلّها فى الائتمار والانزجار . وذلك لو ان انساناً اطاع الله سبحانه وتعالى مأة سنة ثمّ سرق حبّةً واحدة لخرج عن حدّ الاستقامة ــ وما احسن التّعبير هنا بثُمَّ المفيدة الترتيب والتراخى المشاهين للغاية يشير الى ان الغرض من الوصول الى مقامه العلى الاستقامة الّتى هى نتيجة اوامره ونواهيه ومن ذلك قوله عزّوجلّ لاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُوْنَ فقد ادرج فيه ذكر اقبال كلّ محبوب عليهم وزوال كلّ مكروه عنهم ولاشىء اضرّ بالانسان من الحزن والخوف لان الحزن يتولّد

من مكروه ماض او حاضر والخوف يتولّد من مكروه مستقبل فاذا اجتمعا
على امرئ لم ينتفع بعيشه بل يتبرّم بحياته والحزن والخوف اقوى اسباب
مرض النّفس كما انّ السّرور والأمن اقوى اسباب صحّتها فالحزن
والخوف موضوعان بازاء كلّ محنة وبليّة والسّرور والأمن موضوعان بازاء
كلّ صحّة ونعمة . ومن ذلك قوله تعالى أَوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ ، فهما كلمتان
جمعتا ماعقده الله على خلقه لنفسه وتعاقده النّاس فيما بينهم . ومن ذلك
قوله تعالى فِيْهَا مَاتَشْتَهِيْهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ فلم يبق مقترح لأحد
الّاوقد تضمنّته هاتان الكلمتان مع مافيهما من القرب وشرف اللّفظ
وحسن الرّونق قال الثّعالبي ومن ذلك قوله جلّ وعلا فَاصْدَعْ بِمَا تُوْمَرْ
ثلاث كلمات اشتملت على شرائط الرّسالة وشرايعها واحكامها وحلالها
وحرامها . ومن ذلك قوله جل ثناؤه فى وصف خمر الجنّه لَايَصَدَّعُوْنَ
عَنْهَا وَلَا ينزفون فهاتان الكلمتان قد أتتا على معائب الخمر فى الدّنيا
ولما كان منها ذهاب العقل وحدوث الصداع برأ الله خمر الجنّة منها واثبت
طيب النفس وقوّة الطبع وحصول الفرح[1] .

١ــ عاشقى و رندى و مستى خوش است — پاى زدن برسر هستى خوش است
همچو تو شهباز بلند آشيان — گر نزدى خيمه به پستى خوش است
شهپر سيمرغ تجرّد تو راست — از قفس خاك برستى خوش است
وهم تو دام دل داناى توست — گر خم اين دام گسستى خوش است
بادهٔ انگور خمار آورد — مستى صهباى الستى خوش است

البقية تأتى

ومن ذلك قوله عزّ وعلا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ وهو كلام يتضمّن
جميع مايجب على الرّجال من حسن معاشرة النّساء وصيانتهنّ وازاحة
عللهنّ وبلوغ كلّ مبلغ فيما يؤدّى الى مصالحهنّ وجميع مايجب على النّساء
من طاعة الأزواج وحسن مشاركتهم وطلب مرضاتهم وحفظ غيبتهم
وصيانتهم عن خيانتهم قال الثّعالبى ومن ذلك قوله عزّ ذكره فى اخوة
يوسف فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوْا مِنْهُ خَلَصُوْا نَجِيّاً وهذه صفة اعتزالهم لجميع
النّاس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن وأخذهم فى تزوير مايلقون به أباهم
عودهم اليه ومايوردون عليه من ذكر الحادث فتضمّنت تلك الكلمات
القصيرة معانى القصّة الطّويلة .

ومن ذلك قوله جلّت عظمته وإِمّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَأَنْبِذْ
إِلَيْهِمْ عَلىٰ سَواءٍ ، فلو أراد أحد الأعيان الأعلام فى البلاغة ان يعبّر عنه
لم يستطع ان يأتى بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الّذى يتضمّنها حتّى يبسط
مجموعها ويصل مقطوعها ويظهر مستورها فيقول ان كان بينك وبين
قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة او نقضاً فاعلمهم انك نقضت ما
شرطت لهم وآذنهم بالحرب لتكون انت وهم فى العلم بالنقض سواء .

جسم بتى در ره و جان هم بتى است گر بهم این هردو شکستی خوش است
زیر دورنگی فلک ای دل چوکوه فارغ از اندیشه نشستی خوش است
گمشده بسیار دراین وادی است گم شده مستی که توجستی خوش است
ای دل دانا ز کمند خیال کس نرهد گر تو برستی خوش است
دید الهی گذر عمر و گفت عاشقی و رندی و مستی خوش است

وقال تعالى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً . لقد حكم سليمان بما خالف حكم داود وهما نبيّان .

صعد سليمان بن عبدالملك يوم جمعة المنبر فسمع صوت ناقوس فقال ماهذا قالوا البيعة فامر بهدمها فهدمت فبلغت ذلك ملك الرّوم فكتب اليه ان هذه البيعة اقرّها من كان قبلك فان كانوا اصابوا فقد اخطأت وان تكن اصبت فقد اخطأوا فكتب فى الجواب فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً . وقال الله تعالى وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا لما كان اليهود ينكرون نبوّة سليمان ويعدّونه من جملة الملوك وزعموا انه إنّما وجد الملك بسبب السّحر وجاء فى تفسير الكبير عن بعض الأحبار . ألا تعجبون من محمّد ﷺ يزعم ان سليمان كان نبيّاً وما كان الّا ساحراً ؟ فانزل الله هذه الآية ...

ولمّا كان الشىء بالشىء يذكر نقول استعمل الحجاج على بعض ولاية فارس رجلاً يقال له سليمان وضمّ اليه سبعمائة رجل من الاتراك وقال له قد ضممت اليك سبعمائة شيطان لتذلّ بهم من طغى وبغى .

ثمّ ان الأتراك المذكورين اكثروا الفساد فى تلك الولاية واهلكوا الحرث والنسل وعتوا عتواً كبيراً فاشتكت الرعيّة الى الحجاج فكتب اليه قد كفرت النعمة ياسليمان فاقدم فكتب فى الجواب بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ

الرَّحِيْمِ وَما كَفَرَ سُلَيمانُ وَلٰكِنَّ الشَّياطِيْنَ كَفَرُوا فلما قرأ الحجاج جوابه استحسنه وامر ببقائه على ولايته وصرف عنه الاتراك .

ومنها ان لالفاظها وقعاً على الاذن يكون له تأْثير موسيقى يختلف شدّة ولطافة باختلاف التراكيب فيؤثر فى النّفس تأْثيراً خاصّاً سواء كان نثراً اونظماً ومن امثلة الوقع الشديد وصف الأَسد لأَبى زبيد الطائى بين يدى عثمان بن عفّان فقد قال وهو يصف خروج الأَسد عليهم فى واد .

واقبل ابوالحارث من اجمته يتظالع فى مشيته كانه مجنوب اوفى هجار . بصدره نحيط ولبلاعمه غطيط . ولطرفه وميض . ولارساغه نقيض كأَنما يخبط هشيما . اويطأصريما . واذا هامةٌ كالمجنّ . وخدٌّ كالمسنّ . وعينان سجراوان كانهما سراجان يتّقدان . وكفّ شثنة البراثن الى مخالب كالمحاجن فضرب بيده فارهج ، وكشر فافرج ، عن انياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة ثمّ اقعى فاقشعرّ ، ثمّ مثل فاكفهر ، ثمّ تجهّم فازبأَرّ ، فلاوذوبيته فى السّماءِ مااتقيناه بأَوّل من اخ لنا من بنى فزارة كان ضخم الجزارة فوهصه ثمّ اقعصه فقضقض متنه وبقر بطنه فجعل يلغ فى دمه فذمرت اصحابى فبعد لأى ما استقدموا فكر مقشعر الزبرة كأَن به شبهاً جوليّاً . فاختلج من دونى رجلا أعجر ذا حوايا فنفضه نفضة فتزايلت اوصاله وانقطعت اوداجه ثمّ نهم فقرقر . ثمّ زفر فبربر ثمّ زأَر فجرجر ثمّ لحظ ، فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه فارتعشت الأَيدى واصطكت الارجل وأطت الاضلاع وارتجت الاسماع وحملجت العيون وانخزلت

المتون ولحقت الظّهور والبطون ثمّ ساءت الظّنون وانشأ .

عَبوسٌ شَموسٌ مُصْلَخِدٌّ[1] خُنابِسٌ[2] جَرِیٌّ عَلَی الأَرْواحِ لِلْقَرنِ[3] قاهِرُ

منیع ویحمی كلّ واد یرومه شدید أُصول الماضغین مكابِرُ

براثنه شَثْنٌ وعیناه فی الدجی كَجَمْرِ الغَضا فی وَجْهِهِ الشَرُّ ظاهِرُ

یُدلُّ بانیاب حداد كأنّها اذا قَلَّصَ الأَشداق عنها خناجِرُ

فقال عثمان اكفف لاامّ لك فلقد أرعبت قلوب المسلمین ولقد وصفته حتّى كأنی انظر الیه یرید یواثبنی[4] .

هی اللّغات تری فی سیرها غیرا تبدو فتزكو لحین ثمّ تنكسف

كالنبت یبدو ضئیلاً ثمّ یعقبه زهر وطیب ثمار ثمّ ینقصف

هذا مانعت به بعض الشّعراء لفیف اللّغات الّتی شاعت بین الملاء فی ممرّ الاجیال . وایم الحقّ انّ من اعتبر التّاریخ (السنة البشر) واستقصی ماطرأ علیها من التقلّبات یراها فی أطوارها أشبه بأطوار حیاة كلّ حیّ علی الأَرض اعنی انها تولد كالطفل الرّضیع ثمّ تتحرّر من قُمطها فتنشأ وتترعرع كالحدث الیافع ثمّ تزدهر فتبلغ عزّ قوّتها كالكهل التّام الشباب الی ان یتقلص ظلّها وتتضعضع قواها كالشیخ الهرم فتموت وتضحی نسیا منسیا فی بطن المكاتب او زوایا المدارس كالمیّت المحنّط المدرج فی ضریح قبره .

١ — المنتصب القائم . ٢ — القدیم . الشدید . الثابت . الضخم . ٣ — السیّد وبالكسر الكفو . ٤ — فی المحاسن والأضداد إضافات نقلها الجاحظ واقتصرنا بهذا اختصاراً .

بيد انّ الله عزّ وجلّ استثنى من حكمه هذا بعض اللّغات فخصّها بحياة اطول من سواها فتخالها كالنسر لاتزال تجدّد شبابها وتعمر العمر الطّويل الّذى هو احرى بان يدعى صنفاً من الخلود .

واللّغة العربيّة قد اصاب من هذا القبيل بالسهم الفائز والقدح المعلّى فانّ من يتتبّع آثارها ويتحقّى فى درس تاريخها مدى القرون الغابرة يراها فى كلّ آن مزدانة بخواص اللّغات الكاملة من حيث مفرداتها وتراكيبها وعباراتها واساليبها كانّها ظهرت بادى بدء تامّة العدّة كاملة الأُهبة . واذا قابلنا بين اللّغة الشائعة فى يومنا هذا مع لغة اقدم الشعراء كالنابغة وامرئ القيس لانكاد نرى اختلافا يذكر اللّهم الا فى استعمال بعض الالفاظ اللغوية الشعرية كما جرى ذلك فى نثر ونظم كلّ اللّغات القديمة اوفى اتّخاذ بعض التعابير الجديدة دلالة على المعانى المستحدثة كما هو دأْب اللّغات الحيّة فكأنى اذن بالعربيّة عذراء فائقة الجمال تامّة الشباب لم تأْنس بضعف الطفولة ولم تعرف غضون الكهولة ومن عجيب امر لغة القرآن العزيزة انه مرّت عليها صروف الدّهر وكوارثه دون ان تمسّها الايّام بأذى فترى الشعوب تتوالى بضبط عنان الامر وتجلس الدّول واحدة بعد اخرى على منصّة الملك وأريكة السّلطنة والعربيّة باقية كما هى لا يصيبها تغيّر جوهرى ولا يستولى عليها الفساد .

قال حافظ إبرهيم فى لسان حال اللّغة العربيّة

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى — وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى — عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرايسى — رجالا واكفاءً وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية — وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة — وتنسيق اسماءٍ لمخترعات
انا البحر فى احشائه الدُرّ كامنٌ — فهل سأَلوا الغوّاص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى — ومنكم وان عزّ الدواء اساتى
فلا تكلونى للزمان فاننى — اخاف عليكم ان تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعة — وكم عزّ اقوام بعزّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنّناً — فياليتكم تأْتون بالكلمات
أَيطربكم من جانب الغرب ناعب — ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم — بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله من بطن الجزيرة أعظما — يعزّ عليها ان تلين قناتى
حفظن ودادى فى البلى وحفظته — لهُنّ بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أَهل الغرب والشرق مطرق — حياء بتلك الاعظم النخرات
أرى كلّ يوم بالجرائد مزلقا — من القبر يدنينى بغير أناة
وأسمع للكتّاب فى مصر ضجة — فاعلم ان الصّائحين نعاتى
أيهجرنى قومى عفى الله عنهم — الى لغة لم تتّصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى — لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

فجاءت كثوب ضمّ سبعين رقعة مشكّلة الالوان مختلفات
الى معشر الكتّاب والجمع حافل بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فإمّا حياة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وإمّا ممات لا قيامة بعده ممات لعمر لم يقس بممات

اللّغة هى رمز الرقى وعنوان الحضارة بل هى الدّليل على وجود الامّة الحيّة فمصير كلّ شعب مرهون بمصير لغته قوّةً وضعفاً رقيّاً وانحطاطاً حياة وموتاً قال الشاعر :

ان الشعوب هى اللّغات حياتها بحياتها والموت فى خذلانها

ولابد للّغة من تقمّصها روح العصر وسيرها مع الزّمان وتطوّرها بأطواره وليست اللّغة سوى واسطة نعرب بها عن افكارنا ونترجم عن حياتنا ونعبّر عن حاجاتنا ولاريب ان افكارنا وحياتنا وحاجاتنا اليوم غيرها فى زمن امرئ القيس . فكيف نتقيّد بلغته وهى قاصرة عن هذه الأفكار وهذه الحياة وهذه الحاجات فيجب ان ننتفض من هذا الجمود وان ننهض باللّغة الى مستوى تكون فيه صالحة لافكارنا منطبقة على حياتنا العصريّة كافية لحاجاتنا اليوميّة وجاء فى صوت العدالة الانسانيّة مايلزم الاصغاء اليه . وكأنّ الله أراد ان يكون على بن ابيطالب عليه السلام ركن العربيّة فى علومها كما كان ركن الاسلام فى عكومه وهذا ما يقوله المورّخ المعاصر والكاتب الماهر جرداق جاء فى كتابه القيم فصل معنون بثقافة الامام يقول هو فذّ من افذاذ العقل وقطب الاسلام وموسوعة المعارف العربيّة ليس من علم عربى

الّا وقد وضع أَصله او ساهم فى وضعه امّا ببلاغته وعبقريّته فى الاجتماع فسيأتى عليهما قول كثير امّا علومه ومواهبه فى الفقه والقضاء والكلام والعربيّة وما إليها فهى الّتى سنتحدّث عنها موجزين ولنبدأ بالكلام على القرآن والحديث ثمّ على غيرهما لندرك الى أَىّ مدى بعيد اصاب النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فى وصفه عليّا ساعة قال أَنا مدينة العلم وعلىّ بابها .

ربّى على ابن ابيطالب برعاية النّبىّ وتتلمذ له وورث اخلاقه واسلوبه فى النّظر الى الحياة والخلق وجرى الميراث فى قلبه وعقله سواء بسواء ، وعكف على دراسة القرآن دراسة المتبصّر الحكيم الّذى ينفذ الى لباب الاشياء فيعى حقايقها ويستوحيها فاذا هو يتقن القرآن نصّاً ويحياه جوهراً فيستقيم به لسانه كما يستقيم جنانه .

امّا علمه بالحديث والفقه بل العلم بادوات الفقه ومنها علم الحساب الى ان يقول كان علىّ عليه السلام اوّل المتكلّمين بل أَبا علم الكلام او فلسفة الدّين الاسلامى ثمّ انّ التصوّف الاسلامى واجد أُصوله وبذروه فى نماذج شتّى من نهج البلاغة وأَمّا العربيّة فان أَهل زمانه لم يكن فيهم من يقف إلى جانب الامام فى علوم العربيّة وقد ساعده تبحّره فيها ومنطقه السّليم وقواه الذهنيّة الخارقة ان يبادر الى ضبط العربيّة بأُصول وقواعد تستند الى الدّليل والبرهان ممّا يشير الى مقدرته العقليّة على الوزن والقياس . فهو بحقّ واضع الاساس فى العلوم العربيّة وممهّد طريقها لكلّ من أَتى بعده وممّا يثبته التاريخ ان عليا هو واضع النحو . فقد دخل عليه تلميذه وصاحبه

ابو الأَسود الدؤلي يوماً فرآه مطرقاً مفكراً فقال له فيم تفكّر يا أمير المؤمنين
قال انى سمعت ببلدكم هذا (يعنى الكوفة) لحناً فاردت ان اصنع كتاباً
فى اصول العربيّة . ثمّ القى اليه صحيفة فيها الكلام اسم وفعل وحرف
ويروون ذلك على صورة اخرى فيقولون ان أبا الأَسود شكى الى الامام
شيوع اللّحن على السنة العرب لاختلاطهم بالاعاجم بعد الفتوحات العربيّة
والاعاجم أهل رطانة ولحن فقال الامام اكتب ما أُملى عليك فتناول
أبو الأَسود قلماً وصحيفة فقال على ﷺ . ان كلام العرب يتركب من اسم
وفعل وحرف فالاسم ما أَنبأ عن المسمّى والفعل ما انبأ عن حركة المسمّى .
والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولافعل وان الاشياء ثلاثة ظاهر
ومضمر وشىء ليس بظاهر ولا مضمر ثمّ قال انح هذا النحو فعرف بالنحو
قال ابو عثمان ابن جنّى فى الخصائص ان اكثرا لنحويّين واعنى بذلك .
الحذّاق المتقنين من العلماء المتقدّمين فتحوا بابا فى بيان أنّ علل العربيّة
هل هى كلاميّة أم فقهيّة ؟ وجلّ النحويّين على انّها أقرب الى علل المتكلّمين
منها الى علل المتفقّهين وذلك أَنّهم إنّما يحيلون على الحسّ ويحتجّون
فيه بثقل الحال او خفّتها على النفس وليس كذلك حديث علل الفقه
وذلك أنها إنّما هى أَعلام وأَمارات لوقوع الاحكام ، ووجوه الحكمة فيها
خفيّة عنّا ، غير بادية الصّفحة لنا أَلاترى ان ترتيب مناسك الحجّ
وفرائض الطّهور ، والصّلاة ، والطّلاق ، وغير ذلك ، انما يُرجع فى وجوبه الى

وروداَلأَمر بعمله فى العبادات والمعاملات والعقود والايقاعات ولاتعرف
علّة جعل الصلوات فى اليوم والّليلة سبعة عشر ركعات وفى خمسة اوقات
دون غيرها من الاعداد ولايُعلم حال الحكمة والمصلحة فى اختلاف مافيها
من التسبيحات والقرآءت ولاتُحَلَّى النّفس بمعرفة السبب الّذى كان
ذلك له ومن أَجله. وليس كذلك علل النحويّين والادباء قال ابو اسحق
فى رفع الفاعل ونصب المفعول . إنما فعل ذلك للفرق بينهما . ثمّ سأَل
نفسه فقال فان قيل فهلّا عكست الحال فكان فرقاً أَيضاً قيل الّذى فعلوه
احزم ، وذلك أَنّ الفعل لايكون له أَكثر من فاعل واحد وقد يكون له مفعولات
كثيرة فرفع الفاعل لقلّته ونصب المفعول لكثرته فالفتح أقل مؤونة
لانه يلفظ باطلاق الصّوت دون تحريك اللّسان ولا الشفتين وامّا الضمّ
فانه يقتضى اعمال الشفتين لتضييق الفم قليلاً والكسر يستوجب ضمّ
جانبى اللّسان الى الفكّ الاعلى وذلك ليقلّ فى كلامهم مايستثقلون ويكثر
فى كلامهم مايستخفّون فجرى ذلك فى وجوبه ووضوح امره مجرى شكر
المنعم وذمّ المسيئ فى إنطواءِ الأَنفس عليه ، وزوال اختلافها فيه ومجرى
وجوب طاعة القديم سبحانه لما يعقبه من إنعامه وغفرانه ، ومن ذلك
قولهم إنّ ياء نحو ميزان . وميعاد انقلبت عن واو ساكنة ، لثقل الواو
الساكنة بعد الكسرة وهذا أَمر لالبس فى معرفته ولافى قوّة الكلفة
فى النطق به وكذلك قلب الياء فى مُوسر ومُوقن واواً لسكونها وانضمام
ماقبلها ، ولاتوقُّف فى ثقل الياء الساكنة بعد الضمّة لان حالها فى ذلك

حال الواو الساكنة بعد الكسرة ، وهذا كما تراه أمر يدعو الحس إليه ويحلو طلب الإستخفاف عليه ، وإذا كانت الحال المأْخوذ بها ، المصير بالقياس اليها ، حسية طبعيّة ، فناهيك بها ولا مَعْدِل بك عنها . ومن ذلك قولهم فى سيّد وميّت ، وطويت طيّا وشويت شيّاً ، ان الواو قلبت ياء لوقوع الياء الساكنة قبلها فى سيّد وميّت ووقوع الواو الساكنة قبل الياء فى شيًّا وطيًّا فهذا أمر هذه سبيله أيضاً ألاترى الى ثقل اللّفظ بسَيْوِدٍ ومَيْوِتٍ وطَوْيـاً وشويـاً وأن سيّداً ، وميّتاً وطيّاً وشيّاً أخف على ألسنتهم من اجتماع الياء والواو مع سكون الأوّل منهما ، فان قلت فقد تجد فى اللّغة أشياء كثيرة غير محصاة ولا محصّلة لاتعرف لها سبباً ولا تجد الى الاحاطة بعللها مذهبا فمن ذلك اهمال ما أُهمل . وليس فى القياس مايدعو الى اهماله وهذا أوسع من ان يذكر ، وقد صحَّ ووضح ان الشريعة انما جاءت من عند الله ومعلوم انه تعالى لايفعل شيئاً الّا ووجه المصلحة والحكمة قائم فيه وان خفيت عنّا أغراضه ومعانيه وليست كذلك حال اللّغة ألاترى الى قوّة تنازع أهل الشريعة فيها وكثرة الخلاف فى مباديها ، ولا من الواضع لها ولا كيف وجه الحكمة فى كثير من احوالها وماهذه سبيله لايبلغ شاؤ ما عُرف الآمر به سبحانه تعالى ولذا نجد فى علل الفقه مايصحّ أمره وتعرف علّته ، نحو رجم الزانى اذا كان محصناً وحدّه اذا كان غير محصن وذلك لتحصين الفروج وارتفاع الشك فى الاولاد والنّسل وزيد فى حدّ المحصن على غيره لتعاظم جرمه وجريرته على نفسه وكذلك إقادة القاتل بمن قتله لحقن الدماء وكذلك

إيجاب الحجّ على المستطيعين لِيَشْهَدُوْا مَنَافِعَ لَهُمْ وليكون دُرْبَةً للنّاس على الطاعة وليشتهر به حال الاسلام ويُدَلَّ به على ثباتها واستمرار العمل بها فيكون أرسخ له وأدعى الى ضمّ نشر الدّين ونظاير هذا كثيرة جدّاً فقد ترى الى معرفة اسبابه كمعرفة اسباب ما اشتملت عليه علل الاعراب، فلم جعلت علل الفقه اخفض رتبة من علل النحو. قيل له ما كانت هذه حاله من علل الفقه فأمر لم يستفد من طريق الفقه ولا يخصّ حديث الفرض والشرع. بل هو قائم فى النّفوس قبل ورود الشّريعة به. ألَا ترى ان الجاهليّة الجهلاء كانت تحصّن مفارشها واذا شكّ الرّجل منهم فى بعض ولده لم يلحقه به خُلُقا قادت اليه الأَنَفَة والطّبيعة ولم يقتضه نصّ ولا شريعة وكذلك قول الله وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ قد كان هذا من أظهر شيء معهم وأكثره فى استعمالهم أعنى حفظهم للجار ومدافعتهم عن الذّمار فكأن الشّريعة إنّما وردت فيما هذه حاله، بما كان معلوماً معمولاً به حتّى انّها لو لم ترد بايجابه. لما أخلّ ذلك بحاله لاستمرار الكافّة على فعاله، فما هذه صورته من عللهم جار مجرى علل النحويّين ولكن ليت شعرى من أين يعلم وجه المصلحة فى جعل الفجر ركعتين والظّهر والعصر أربعاً أَربعاً والمغرب ثلاثا والعشاء الآخرة أربعا. ومن اين يعلم علّة ترتيب الأذان على ما هو عليه وكيف تعرف علّة تنزيل مناسك الحجّ على صورتها ومطرّد العمل بها ولست تجد شيئاً ممّا علّل به القوم وجوه

الإعراب الّا والنّفس تقبله والحسُّ منطوٍ على الاعتراف به ، ألا ترى ان عوارض مايوجد فى هذه اللّغة شىء سبق وقت الشرع وفزع فى التّحاكم فيه الى بديهة الطبع فجميع علل النّحو اذاً مواطئة للطباع وعلل الفقه لاينقاد جميعها هذا الإنقياد ولايخفى انا لاندّعى انها تبلغ قدر علل الحكماء والفلاسفة او براهين المهندسين والدلايل الرياضيّة بل انّا نقول ان علل النحويّين على ضربين أحدهما واجب لابدّ منه لانّ النّفس لاتطيق فى معناه غيره والآخر مايمكن تحمله الّا انه على تجشّم واستكراه له.

وقد اختلف المتأخّرون فى انّ هل يجوز لنا وضع اللّغات وهل الباب مفتوح لنا ام لا وهذا ماقاله حفنى ناصف، أكثر القائلون بتطبيق سياسة الباب المفتوح على اللّغة العربيّة .من ذكر جمود أُمّتنا واشتغالها عن الجواهر بالاعراض ووقوفها موقف المستضعفين امام الأُمم الغربيّة ونعوا علينا تحرّجنا عن قبول الدخيل فى لغتنا ورمونا بالرّجوع الى الوراء والنّفور من كلّ جديد والوقوف عند حد ماأماته الزّمان . ومخالفة سنّة اللّغات الحيّة صاحبة الحركة الدائمة الّتى قدر أهلها ان ينتفعوا بكلّ ماخلقه الله الى آخر ماأتوا به من القضايا الخطابيّة بقصد التأْثير فى افكار السّامعين حتّى تخيّلوا ان الكلم الاعجميّة واجبة الاستعمال فى اللّغة العربيّة .حرصاً على الزّمن أن يضيع فى انتقاد الفاظ عربيّة تسدّ مسدّها ، وان قواعد الاقتصاد السّياسى تقضى بصرفه فى إختراع آلة حربيّة او معدل صناعى

اومصرف مالى . ولقد كدت من شدّة التّأثير أمسك عن الكلام خيفة ان أُضيِّع عليكم ساعة يمكنكّم فيها اختراع بندقية جديدة او آلة للطيران اوعلاج للسرطان ! مسكينة الأُمّة المستضعفة لاتدرى من أين تؤتى ولاتعرف لتأخّرها علّة . فتذهب مع كلّ ذاهب وتمشى وراء كلّ حاطب. ظنّنا النيل سبب رخاوتنا فعدلنا عنه الى الآبار فما نشطنا[1] . وخلنا الأَزياء الواسعة مانعتنا عن الحركة فاستبدلنا بها أزياء ضيّقة فما عدونا . وحسبنا اقتعاد السّيّارات يوصلنا الى المدنيّة فاقتعدنا وما استفدنا . وعددنا النفازج[2] معارج فما عرجنا . فما أخرجنا كلّ ذلك عمّا نحن فيه من الاستضعاف ولاسما بنا الى مراقى الدّول فالمسأَلة الّتى نحن بصددها مسأَلة نقلية يرجع فيها الى كتب اللّغة والأَدب وليس لأحدان يأْخذ فيها بالهوى اويسترسل مع الوجدان اويقتصر فيها على مجرّد الاستقباح والاستحسان فكما لايجوز فى التّاريخ انكار غلبة دولة على دولة محتجّين بانّ الصّغير لايغلب الكبير لايجوز فى العربيّة ان تنصبوا الفاعل ويُقدّم خبر انّ على اسمها احتجاجاً بأَنَّ المعنى لايتغيّر ولاان تقولوا ما الفرق بيننا وبين العرب الاولى حتّى جاز لهم وضع أَلفاظ مقتضبة وتعريب كلمات اعجميّة والشذوذ عن القياس وامتنع علينا، أَليسوا رجالاً ونحن رجال ـ ليس لأحد ان يقول ذلك الّا اذا خرج من الربقة وخلع العذار ورضى بان يكون طليقا لايتقيّد بشىء . المسأَلة منصوصة فى الأَسفار فمن شاء ان يخرق الاجماع ولايقصر شيئاً

١ ـ من خطبة حفنى ناصف نقلتها من مجلّة المنار لسنة ١١ .   ٢ ـ ظ الفنازج جمع الفنزج .

على السّماع ويستريح من عناء الدّروس فليصنع ماشاء فليس عندنا مايرغمه على اتّباع الجماعة ولافائدة فى الجدال معه واذا شاء ان يتّبع المنصوص فهذا بيانه .

اتّفق العلماء على ان اللّغة العربيّة كانت لسان عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وجرهم ووبار من أولاد إرم بن سام .

وأوّل تنقيح دخلها كان بعمل يعرب بن قحطان رأس العرب العاربة وجرى أولاده على لغته فى أنحاء اليمن كلّها ثمّ تفرق جماعة منهم فى نجد والحجاز وتهامة والشّام والحيرة .

ولما اصهر اسمعيل بن ابرهيم عليه السلام الى قبيلة جرهم أدخل تنقيحاً ثانياً فى اللّغة وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وخزاعة وقيس وضبّة .

والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج انتخاباً من لغات قبائل العرب الّتى كانت تفد عليهم فى كلّ عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوماً منها ثلاثة أيّام بسوق ذى المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة فى مناسك الحجّ .

والتّنقيح الرّابع هو اختيار علماء المصرين البصرة والكوفة (نقلة اللّغة فى عصر الامويّين والعبّاسيّين) فقد قصّروا اختيارهم على ستّ قبائل من صميم العرب لم تختلط بغيرها وهم قيس عيلان واسد وهذيل وبعض تميم وبعض كنانة وبعض طى . ولم يأخذوا عن لخم وجذام

لمخالطتهم القبط أهل مصر . ولا عن قضاعة وغسّان واياد لمخالطتهم أهل الشّام والرّوم وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانيّة. ولا عن تغلب لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين ليونان ولا عن بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا عن عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين الهنديّين والفرس ولا عن أهل اليمن (حمير وهمدان وخولان والازد) لمخالطتهم الحبشة والزنج والهنديّين ولا عن بنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم تجّار اليمن عندهم ولا عن حاضرة الحجاز وقت نقل اللّغة لفساد لغتها بالاختلاط .

وعدّوا لغة قريش افصح اللّغات العربيّة لانّها خالية عن عنعنة تميم وهى ابدال الهمزة عيناً نحو عنّك وعنت اى انك وانت وعن تلتلة بهراء وهى كسر اوّل المضارع نحو تِلعب وتِلهو. وعن كسكسة ربيعة ومضر وهى الحاق سين بعد كاف الخطاب رايتكس وعن كشكشة هوازن وهى الحاق شين بعد كاف المخاطبة نحو رأيتكش وعن فحفحة هذيل وهى قلب الحاء عيناً نحو عتّى اى حتّى وعن وكم ربيعة وهى كسر كاف الخطاب بعد الياء الساكنة او الكسرة نحو عليكم وبكم وعن وهم بنى كلب وهى كسر هاء الغيبة اذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة نحو عنهم وبينهم وعن جعجعة قضاعة وهى قلب الياء الاخيرة جيماً نحو الساعج يدّعج اى الساعى يدعى وعن وتم أهل اليمن وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو النات اى النّاس . وعن الاستنطاء فى لغة سعد والازد وقيس وهو قلب

العين الساكنة نوناً قبل الطاء نحو أنطى اى اعطى وعن شنشنة اليمن وهى قلب الكاف شيناً نحو لبّيش اللّهم لبيش اى لبّيك اللّهمّ لبّيك وعن لخلخانيّة الشحر وعمان وهى حذف الالف فى نحو مشاء الله اى ماشاء الله وعن طمطمانيّة حمير وهى جعل أل ام، نحو طاب امهواء اى الهواء وغمغمة قضاعة وهى اخفاء الحروف عند الكلام فلاتكاد تظهر.

ولم ينظر نقلة اللّغة الى لغة كلّ قبيلة على حدتها بل جمعوا الالفاظ الّتى يتكلّم بها كلّ القبائل الّتى عوّلوا على الأَخذ عنها وجعلوها لغة واحدة مقابل اللّغة الاعجمية لايخطى المتكلّم الّا اذا خرج عنها فلفظ المدية لغة دوس (بطن من الأزد) ولفظ السكين لغة قريش فنقل الأئمة اللّفظين واباحوا لكلّ انسان ان يتكلّم بأَيّهما شاء ولولم يوجد فى العرب من تكلم بهما معاً ومن هنا جاء الترادف فى اللّغة والاشتراك اللّفظى ولوجمعوا لغة كلّ حىّ من العرب على حدتها لتكرّر العمل وطال الزّمن.

ثمّ نظروا بعد ذلك الى المفردات فما كان منها كثير الدوران على السنة العرب عدوّه غريباً ووحشيّاً يعدّ استعماله مخلّاً بالفصاحة ولو كان معروفاً عند المخاطبين.

واستخرجوا من استعمالات العرب قواعد تتعلّق بأَحوال أَواخر الكلم وقواعد تتعلّق بباقى أَحوالها وسمّوها علم النّحو والصّرف وجعلوا لبعض تلك القواعد قيوداً واستثناءات حتّى يكون الاستعمال الكثير

مضبوطاً بقوانين تحتذى عندالقياس وماشذّ عن ذلك جعلوه سماعيّاً يقبل من العربى ولايقبل من المولّد .

وكانوا شديدى الحرص على بيان السماعى و القياسى فاذا لم يكن اللّفظ (مادّةاوهيئة) قد سمع من العرب منعوه بتاتاً وشنّعوا على مستعمله.

وعرفوا المعرب بانه الاسم الاعجمى الّذى فاهت به العرب الموثوق بعربيّتهم فاذا فاه به غير العربى سمى مولّداً وقد تبعهم فى ذلك كلّ من كتب فى اللّغة كأَصحاب الصّحاح والقاموس والمحكم والعباب واجمع العلماء على ان لايستشهد فى اللّغة والصّرف والنّحو الّا بكلام العرب ولايجوز الاستشهاد بكلام المولّدين الّافى علوم البلاغة .

واجازوا استعمال الكلم فى غير ماوضعت له متى وجدت مناسبة بين المعنى الاصلى والمعنى المراد وقامت قرينة تمنع ارادة المعنى الاصلى وحصروا تلك المناسبات بالاستقراء وسموّها علاقات وهى .

المشابهة نحوفاه الخطيب بالدّرر اى الكلمات الحسان .

والسببيّة ـ نحو رعينا الغيث اى الكلاء .

والمسبّبيّة ـ نحو امطرت السّماء نباتاً اى ماءً .

والكلّيّة ـ نحو يَجْعَلُوْنَ أَصَابِعَهُمْ فِىْ آذَانِهِمْ . اى اطراف الاصابع

والجزئيّة ـ نحو بثّ الامير العيون اى الجواسيس.

والحاليّة ـ نحو فَفِىْ رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ اى الجنّة .

والمحلّيّة ـ نحو سال الوادى وجرى الميزاب اى ماؤه .

واللّازميّة ـ كاطلاق الحرارة على النّار .

والملزوميّة ـ نحو دخلت الشّمس من الكوّة اى ضوءها .

والاطلاق ـ نحو لا صلوة لجار المسجد الّا فى المسجد اى لا صلوة كاملة .

والتقييد ـ كاطلاق المشفر على شفة الانسان والمشفر للبعير

كالشّفة للانسان (شقائق النعمان ، جحفلة زيد ، اراذل تميم)

والعموم ـ كاطلاق الابيض والاسمر على السّيف والرّمح والدّابة

على ذات الأربع (الّذين قال لهم النّاس اى نعيم بن مسعود)

والخصوص ـ كاطلاق اسم الشّخص على القبيلة نحو تميم

وقريش وربيعة .

والبدليّة ـ نحو فى ملك فلان الف دينار اى متاع يساوى الفاً .

والمبدليّة ـ نحو أكلت دماً إنّى أروعك ضرّه اى اكلت دية .

واعتبار ما كان ـ نحو وَآتُوْا الْيَتَامى أَمْوالَهُمْ اى الّذين كانوا يتامى .

واعتبار مايكون ـ نحو أرانِيْ أعْصِرُ خَمْراً اى عنباً .

والداليّة ـ نحو فهمت الكتاب اى معناه .

والمدلوليّة ـ نحو ، قرأت معناه مشفوعاً بتقبيل ، اى قرأت لفظه .

والمجاورة ـ نحو شربت من الرّاوية او أنخ الرّواية اى المزادة المجاورة

للجمل وقد تكون المجاورة . فى الذّكر فقط كما فى المشاكلة ـ نحو .

قلت اطبخوا لى جبة وقميصاً .

والآلِيّة ـ نحو وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ اى ذكراً حسناً صادقاً. وعبّر باللّسان لانه آلة الذكر والمنطق

والتّعلق ـ كاطلاق لفظ المصدر على الفاعل او المفعول كشاهد عدل (وهذا خلق الله .)

والشّرطيّة ـ نحو وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ اى صلوتكم .

والمصدريّة ـ نحو فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ اى آرائهم .

والمظهريّة ـ نحو يَدُاللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ اى قدرته .

والتّضاد ـ كاطلاق البصير على الأعمى .

ومتى اشتهر اللّفظ فى معناه المجازى صار حقيقة عرفية له حكم الحقيقة الوضعيّة .

وقد صارت اللّغة بهذا التنقيح الأخير لغة العرب عامّةً لا لغة قبيلة بعينها فاىّ لفظ نطقت به فانت مصيب واىّ استعمال جرّبت عليه فلست بمخطئ مادمت لم تخرج عن المنقول وأية علاقة صادفتك من العلاقات السالفة الذّكر توصلك الى تسمية مالم تسمه العرب فلست مقيّداً بلفظ اعجمى ولا بلهجة حىّ معين وصرت بذلك بعيداً عن الخطأ. واسع المجال فى النثر والنظم والتقلب فى الأساليب الإنشائيّة تصول وتجول وتتهم وتنجد حسبما يسمو اليه استعدادك وتصل اليه درجتك من الاطّلاع وتمكنك منه بضاعتك فلك ان تقول المدية كما تقول دوس وان تقول السكّين كما تقول قريش وان تنطق كلمة حيث ، بتسع لغات ولفظ ياربّى بستّ لغات

وان ترفع الخبر وتنصبه فى نحو ماهذا بشراً وان تطلق الأَسد على السّبع والشّجاع والعين على الباصرة والذّهب والجاسوس وتصرّح وتعمّى حيث تحتاج لذلك وتنقل الى العربيّة كلّ مافهمت من اللّغات الاخرى وقد وقع جاسوس عربى فى يد العدوّ فحبسوه وألزموه ان يكتب كتاباً الى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلّة عددهم وعُددهم غشّاً وتغريراً فكتب الى الملك كتاباً قال فيه .

أمّا بعد فقد أحطت علماً بالقوم واصبحت مستريحاً من السّعى فى تعرّف أَحوالهم . وانى قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت أعهد فى اخلاق الملك المهلة بالامور والنظر فى العاقبة فقد تحقّقت انكم الفئة الغالبة باذن الله ولقد رأيت من أَحوال القوم مايطيب به قلب الملك نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسّلام وسلّم الكتاب الى العدوّ فارسلوه الى الملك بعد مااطّلعوا عليه فتفطّن الملك لما أراد الكاتب وقال لحاشيته انّ الجاسوس وقع فى الأَسر فأَصبح مستريحاً من السّعى وانه رآهم اضعافنا وأنّنا قليل بالنّسبة لهم اذلمح بآية (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ) ولفتنى الى الأناة اذ جعلها عادة لى واراد قلب حروف الجملة الأَخيرة فتكون كلّهم عدوّ كبير عدفتحصّن .

وهذا مايسمّونه اللّحن الّذى هو التّعريض والكناية كما نقله الشّريف المرتضى فى الامالى ان رجلاً من بنى العنبر حصل اسيراً فى بكر بن وائل فسأَلهم رسولا الى قومه فقالوا لاترسل الّا بحضرتنا لأَنّهم كانوا عزموا على غزو قومه فخافوا ان ينذرهم فجئ بعبد اسود فقال له أَتعقل قال نعم انّى

لعاقل قال . ماأراك عاقلاً واشار بيده الى اللّيل فقال . ماهذا ؟ فقال هذا اللّيل قال اراك عاقلاً ! ثمّ ملأ كفيّه من الرّمل فقال كم ؟ فقال لاادرى وانه لكثير ،فقال ايّما اكثر ؟ النجوم ام النيران، فقال : كلّ كثير فقال ابلغ قومى التحيّة وقل لهم ليكرموا فلاناً – يعنى اسيراً فى ايديهم من بكر – فان قومه لى مكرمون وقل لهم ان العرفج قد ادبى وشكّت النّساء . وأمرهم ان يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وان يركبوا جملى الاصهب بآية ماأكلت معكم حيساً واسألوا عن خبرى أخى الحارث .

فلما ادّى العبد الرّسالة اليهم قالوا : لقد جنّ الاعور ، والله مانعرف له ناقة حمراء ولاجملاً اصهب ثمّ سرّحوا العبد ودعوا الحارث فقصّوا عليه القصّة فقال : قد انذركم . أمّا قوله ادبى العرفج يريد ان الرّجال قد استلأموا ولبسوا السّلاح وقوله شكّت النساء اى اتخذن الشكّاء للسفر وقوله الناقة الحمراء اى ارتحلوا عن الدهناء . واركبوا الصّمان وهو الجمل الاصهب وقوله أكلت معكم حَيْساً يريد اخلاطاً من النّاس قد غزوكم لان الحيس – لجمع التمر والسمن والأقط فامتثلوا ماقال وعرفوا لحن كلامه .

على هذا استقرّت اللّغة العربيّة وتمّ إحكامها وحصرت مفرداتها الاصليّة وقوانينها وابيح استعمال مفرداتها فى غير ماوضعت له عند الاحتياج بشرط العلاقة والقرينة وانتهت أدوار التنقيح فيها فلم يبق الّا استظهارها والعمل بها . وقد اغتبطت الأُمّة العربيّة بذلك وعكفت على العمل بها قروناً قضت فيها لبانة للعلم والسّياسة وتفرغت للفتوح

والاستعمار وملأت طباق الارض بالتّصانيف فى الشّرائع والحكمة وكلّ ما كان على وجه الارض من العلوم فأنارت الخافقين ونشرت المدنيّة فى الدّنيا ولمّا ضعف أمرهم ورثهم الغربيّون فى حكمتهم واخذوها عنهم وأضافوا إليها ماتجدّد من الصّناعات والفنون ولايزال الافرنج يدأبون فى اقتناء الكتب الاسلاميّة ويستخرجون منها من الفوائد ما لم يكن فى حسباننا ولكلّ مجتهد نصيب . وفى الحديث ربّ حامل فقه الى من هو افقه منه ؟

شهد العدّ وقبل الصديق بان لغة العرب افسح اللّغات مجالاً لقائل واخفّها جرسا على سامع وانّها اجلى اللّغات بياناً واعذبها منطقاً واغناها لفظاً واوفرها اسلوبا واخصرها عبارة واوضحها تمييزاً واعرابا . ولو حاولت الاستشهاد على ذلك بأقوال علماء اللّغات من شرقيّين وغربيّين واخصّ منهم علماء جرمانيّين حيث قال بعضهم بعد محاضرات كفى فى فضل هذه اللّغة وبقائها واستعدادها انّها لغة نزل بها القرآن .

هذه اللّغة خدرها اهلها عن التبذل لسواها وصان حرّ وجهها اولياؤها عن مسألتها غيرها منذ ازمان سحيقة وعصور متوغّلة فى القدم يتضاءل امامها التاريخ ويتصاغر دونها عدد المئات والالوف ، قد تناوبها ما يتناوب كلّ طويل العمر من سعادة وشقاء وشدّة ورخاء فلشدّ ماتنكر لها الدّهر فصابرته وصارمها الصديق فى سنته كما طا لما اشرقت لها اسارير الزّمان واطلق لها فى كلّ شىء الرّسن والعنان فمرت بها عصور سعد كانت فيها لغة العلم والحكمة لغة الخطابة والمحاضرة لغة الجدل والمناظره لغة الشعر

والادب لغة الشّريعة والدّين لغة القضاء والاحكام لغة القرآن الكريم وهى بعد لم تفقد من هذه الخصائص والمزايا شيئاً فان هى آنست من اهلها روحاً قوياً استطالت على اللّغات وضمّت الى حضنيها جميع العلوم والفنون وبسطت جناحيها على سائر المعانى والاغراض وتتحرّز عن قبول لغة غيرها وتحفظ بذلك كيانها وتبقى شكلها بيد انّها تزداد نشاطاً وامّا ان تتسامح فى قبول كلّ مايطرأ عليها من لغة غيرها لاسيّما الالفاظ ذات المعانى الّتى لم تعهدها من قبل فتندمج احديهما فى الاخرى على طول الزّمان كما اندمجت لغة بقايا عرب الاندلس فى اللّغة الاسبانيولية وعرب اندونزى فى لغة الملايو واللّغة القبطيّة وروميّة سوريّة فى العربيّة ففى اىّ طريق من هاتين نسير ، ان كلّ لغة حيّة هى لغة مستقلّة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماماً فاذا استعاروا لمحدث جديد اسماً من ذلك الأَصل فانما هم يستعيرونه من لغة اجنبيّة او كما يسمّونه اعجميّة بالنّظر الى لغتهم . ألاترون أنهم لايقصرون الاستعارة على اللّغة اللّاتينيّة ويتعدّونها الى اليونانيّة القديمة واحياناً يستعيرون كلمتين من كلّ لغة كلمة وينحتونهما ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم فيصير جزءًا منها ويفسحون له فى كتب اللّغة محلاً بين كلمتين اصليتين بحسب ترتيب حروفه الابجديّة .

انهم يعملون اكثر من هذا : انّ لكلّ بلد عادات فى أكلها وسكناها ولباسها واطوارها ويتبع ذلك وجود اسماء عند قوم لمسمّيات لايعرفها قوم

آخرون الآن التّجارة وطرق المواصلات تنقل هذه المسمّيات اوتجعلها
تشاهد فى اماكنها من النازحين اليها فيرى اهل البلد مايرون لهم من بعض
تلك الخصوصيات لاهل البلد الآخر ولايجدون من لغتهم نصيراً على
التّعبير عنه تماماً لكنهم لايختارون ولايقصدون الاجماع تلو الاجماع
ولايفترقون شيعاً واحزابا بل يقدمون على تناول المسمّى واسمه ويدرجون
عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكلّ ويتحرّون فى حديثهم ان يلفظوه
كأنّهم فى نطقهم به من اهله والأمثلة على ذلك لاتحصى يعرفها كلّ من تعلّم
لغة واحدة اجنبيّة وما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللّغات بل ماازدادت
لغاتهم بهذا الاّطلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الامم الغربيّة
عامّة لتكون الالفاظ الغريبة عن لغتهم برهانا عن سعة مداركهم ورحب
صدورهم لكلّ نافع وكلّ مفيد ولتكون دليلاً على مصدر المسمّى ، عليكم
بالتقدّم ، فادخلوا ابوابه المفتحة امامكم ، ولاتتأخّروا فى التأْخير آفات
فالنّاس فى العصور الاولى ما كان لهم ان يرضوا ولاان يغضبوا سواء أقصّر
ابناؤهم فى تحصيل اشتات العلوم أم برعوا فيه لان التماس العلم انما كان
ترفا عقليّا يظفر به المحظوظون من طلّاب المتعة الرّوحيّة أوليست كلمة
(مدرسة) معناها المتعة فى اللّغة اليونانيّة ومعناها اللّعب فى اللّغة اللاتينيّة
فلاعجب ان كان تحصيل العلم متعة عقليّة ورياضة روحيّة يقبل عليها
الانسان اقباله على أنفس مايمتّع به نفسه من لذائذ العقل والرّوح وان
نحن تجاوزنا عهد القرون الخوالى وانحدرنا من زمن الكتابة الهيرغليفيّة

والكتابة الصينيّة الى الزّمن الّذى الهم الله فيه هؤلاء الفينيقيّين باختراع الحروف الابجديّة وبالايحاء الى الاغريق فاللّاتين بان يستنبط كلّ منهما من ذلك الاختراع حروف لغته ومدلولات افكاره واصواته اذا هبطنا من ذلك العهد السحيق الى عهد المسيحيّة، فالاسلام، رأينا الانبياء والملوك يهتّمون بأمر التعليم اهتماماً نشعر معه بالهدف الأعلى الّذى كانوا يصبون اليه من نشر العلم فهذا عيسى عليه السلام وقد كان ينادى يامعلم. يأمر رسله ان يطوّفوا بالبلاد ويعلّموا النّاس وهذا محمّد صلى الله عليه وآله يعلن بوجوب العلم ويسمّى نفسه بالمعلم انّما بعثت معلّماً ويأمر اصحابه بالتّعليم والتعلّم ويفتدى اسرى بدر فمن يقدر ان يعلّم الكتابة لايقبل منه الفداء بل فداءه ان يعلّم الكتابة عشرة من المسلمين وهؤلاء الأئمة الهداة المهديّين يعنون بتعليم المؤمنين وافتتاح المدارس وقد كانوا يسألون عنهم ماتعلّموا؟ وهذا شيء نسمّيه اليوم، بالامتحان، وقد جاء عن الصّادق عليه السلام انه قال لبعض تلاميذه يوماً اى شيء تعلّمت منّى فقال يامولاى ثمان مسائل قال عليه السلام قصّها علىّ لاعرفها.

قال الاولى رأيت كلّ محبوب يفارق محبوبه عند الموت فصرفت همّى الى من لايفارقنى وهو فعل الخير قال أحسنت والله.

الثانية رأيت قوماً يفخرون بالحسب وآخرين بالمال والولد واذا ذاك لافخر ورأيت الفخر العظيم قوله تعالى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ فاجتهدت ان اكون عند الله كريماً قال أحسنت والله.

الثالثة قال رأيت النّاس فى لهوهم وطربهم وسمعت قول الله وَأَمَّا مَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ فاجتهدت
فى صرف الهوى عن نفسى حتّى استقرّت على طاعة الله قال احسنت والله .

الرابعة قال رأيت كلّ من وجد شيئاً يكرم عنده اجتهد فى حفظه
وسمعت قول الله تعالى مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ وَلَهُ
أَجْرٌ كَرِيمٌ فاحببت المضاعفة ولم أر أحفظ ممّا يكون عنده فكلما وجدت
شيئاً يكرم عندى وجّهت به اليه ليكون ذخراً لى وقت حاجتى اليه قال
أحسنت والله .

الخامسة قال رأيت حسد النّاس بعضهم لبعض وسمعت قوله تعالى
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ فلمّا عرفت أن رحمة الله خير ممّا يجمعون ماحسدت احداً
ولاتأسّفت على مافاتنى قال احسنت .

السادسة قال رأيت عداوة النّاس لبعضهم لبعض فى دار الدّنيا وسمعت
قول الله تعالى إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فاشتغلت بعداوة الشّيطان عن
عداوة غيره قال احسنت .

السابعة قال كدح رأيت النّاس واجتهادهم فى طلب الرّزق وسمعت قول الله
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ
أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فعلمت ان وعده حقّ وقوله

صدق فسكنت الى قوله ووعده ورضيت بقوله واشتغلت بما له عليّ عمّا لى عنده قال احسنت والله .

الثامنة قال رأيت قوماً يتّكلون على ابدانهم وقوماً على كثرة أموالهم وقوماً على خلق مثلهم وسمعت قوله تعالى وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً فاتّكلت على الله وزال اتّكالى عن غيره فقال ﷺ والله ان التّورية والانجيل والزبور والفرقان وساير الكتب مشحونة بهذه المسائل[1] .

ولاخفاء فى ان المعلم كان يلذّ له التطوّع فى سبيل الله وفى سبيل العلم فقد كان يشعر باغتباط روحى سام اذا هو استطاع ان ينقل الى المستمعين له مايزخر فى صدره من حقائق الدّين وآيات اللّغة والبيان لانه وهب نفسه للعلم فالتلاميذ والتّآليف خير عنده من الاولاد والاحفاد :

وحسبى تصانيفى وحسبى رواتها بنين بهم سيقت إلىّ مطالبى

وكان الطالب كذلك يلذّ له تجشّم الصّعاب ومعاناة الاسفار للاخذ عن الامام وللاغتراف من منهل عالم او اديب لانه منذ اول الامر ابتعد عن كلّ مشغلة[2] واعتزل النّساء واختار سيرة المسيح ويحيى يقول احدهم لاتخطب المرأة لحسنها ولكن لحصنها فان اجتمع الحصن والجمال فذاك هو الكمال واكمل من ذلك ان تعيش حصوراً وان عمرت عصوراً .

١ ـ الانوار النعمانيّة .   ٢ ـ الزمخشرى فى اطواق الذهب .

عند الامتحان يكرم الرجل اويهان ـ ادرك النّاس منذ القدم ماللامتحانات من فوائد فأولوها ماتستحق من عناية . ومازالت أهميّتهاتظهر وشأنها يعلوحتّى اصبحت من النّظم الاجتماعية المقرّرة الّتى لامناص منها ، فهى على تعداد انواعها واختلاف آراء المربّين فيها وبرغم ماينجم عنها من شرور واضرار ـ من ضروريّات المجتمع الّتى لايمكن الاستغناء عنها ، فهى أداة مدرسيّة فعّالة يحمل التلاميذ على الجدّ والنشاط ، وتدلّ على منزلتهم العلميّة ، ومبلغ استعدادهم لتولّى مهامّ الحياة ، وهى ايضا مقياس لجهود المدرّسين . تعرف بها نتائج اعمالهم ومبلغ اهتمامهم بمهنتهم . ولم يصل المربّون بعد الى ابتكار وسيلة اخرى غير الامتحانات الّتى بها تقيم المدارس الدّليل على انها تستحق النّفقات الّتى تنفق عليها ، وتمدّ اولياء أمور التّلاميذ بمعلومات عن قوى ابنائهم وبناتهم الى مايجب ان يعملوا ليوجّهوا كلّاً منهم الى الطّريق الّتى هو مستعدّ بطبيعته الى السير فيها بمقدرة ونجاح . ولذا قالوا الامتحان مشكلة التّعليم منذ القدم .

تطوّر الامتحانات ـ ان سنّة التطوّر الّتى شملت حياة الفرد وعملت عملها فى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية قد شملت الامتحانات ايضاً . وكما اختلفت نظم الحكم وتنوّعت القوانين الاجتماعيّة باختلاف ظروف الأُمم وتجاربها ومبلغ رقيها الاجتماعى ، كذلك اختلفت الامتحانات

من حيث انواعها واساليبها بتوالى العصور وتنوّع البيئات والظّروف واختلاف التّجارب .

والامتحانات كما تعلم إمّا شفويّة وإمّا تحريريّة وإمّا عمليّة . ويروى المورّخون فيما يروون أن اوّل امتحان ظهر فى الوجود . كان فى بلاد الصّين حوالى سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد اذ كان الصينيّون يختبرون – من حين الى آخر – الموظّفين الّذين يتولّون مهامّ الدولة . وفى سنة ١١١٥ ق . م . جعلوا الانتظام فى سلك الوظائف الحكوميّة متوقّفاً على النجاح فى الامتحان وقد ظهرت الامتحانات فى أوربا فى القرون الوسطى فى الجامعات اوّلاً . ثمّ عمل بها فى المدارس الثانويّة والابتدائيّة وكان لا يتولّى التدريس الّا من تتلمذ ثمّ تمرّن على التدريس ويبرهن على كفايته بالنّجاح فى امتحان خاص يتولّاه بعض رؤساء الجامعة بعد ان يقرّر استاذ الطالب أو اساتذته انه اهل للتقدّم للامتحان . وكانت الطريقة المتبّعة فى الامتحان العام ان يعيّن للطالب اوّل النّهار فقرة من فقرات الكتاب الدينى او العلمى فيقتلها بحثاً بنفسه او بمعونة أحد الاساتذة . وبعد مضىّ الوقت المعيّن يحضر فى اليوم نفسه امام لجنة الامتحان ليلقى محاضرة فى الموضوع المعيّن ويناقشه فيه استاذان تعيّنهما الجامعة . وقد يسأله غيرهما بعض الاسألة المتعلّقة بالموضوع ويوردون على اجابات الطالب بعض اعتراضات وقد ظلّ الامتحان الشّفوى النظام الوحد المتّبع حتّى مستهلّ القرن الثامن عشر فعمّ استعمال الورق وصارت الكتابة من أهمّ وسائل التعليم والتعلّم وحينئذ

ظهر فى الوجود الامتحانات التحريريّة . بجانب الامتحانات الشفويّة فى الممالك المختلفة ذلك النوع الّذى تكون فيها الاسألة بمثابة رؤس موضوعات إنشائيّة يجيب عنها التلاميذ بكتابة موضوعات انشائية . ولاريب ان التلميذ فى اجابته عن مثل هذه الاسألة يعانى مشقّتين : اذ عليه ان يعنى بالاسلوب اللّغوى حتّى يكون صحيحاً مطابقاً لقواعد اللغة ، وبالمعلومات الّتى يردّدها كى تكون صحيحة مطابقة لمّا درس وتعلّم . ولاشكّ ان التلاميذ على فرض تساويهم فى مقدار مادرسوا من المادّة ومقدار مايعرفون منها يختلفون كثيراً فى طرق تعبيرهم عن افكارهم ويقول بعض المرّبين ان لامفرّ من اتّباع نظام الاسألة المعروف على شريطة ان يتولّى وضع الاسألة رجال فنّيون ملّمون بمناهج الدراسة خبيرون بطرق التّدرس. عالمون بالطرق الفنّية لصوغ الاسألة وترتيبها حتّى نرفع مستوى التعليم وننزّل التلاميذ منازلهم.

ومن ظريف ماجرى لسنان بن ثابت بن قرّة طبيب ، القاهر، فى امتحان الاطبّاء عند ماتقدّم الخليفة اليه بذلك وكان سبب ذلك الامتحان انّ غلطاً جرى على رجل من العامّة من بعض المتطبّبين فمات الرّجل فأَمر الخليفة بمنع ساير المتطبّبين من التصرّف الّامن امتحنه سنان بن ثابت فصاروا اليه وامتحنهم واطلق الى كلّ واحد منهم مايصلح ان يتصرّف فيه وبلغ عددهم فى جانبى بغداد ثمانمأة رجل ونيّف وستين رجلاً سوى

من استغنى عن محنته باشتهاره فى التقدّم فى صناعته ومهنته وسوى من كان فى خدمة السّلطان .

احضر اليه رجل مليح البشرة والهيأة ذوهيبة ووقار فاكرمه سنان على موجب منظره ورفعته . ثمّ التفت اليه سنان فقال قد اشتهيت ان اسمع من الشّيخ شيئاً أحفظه عنه وان يذكر شيخه فى الصّناعة فاخرج الشّيخ من كمّه قرطاساً فيه دنانير صالحة ووضعها بين يدى سنان وقال والله مااحسن اكتب ولااقرأ شيئاً جملة ولى عيال ومعاشى دار دائره واسألك ان لاتقطعه عنى .

فضحك سنان . وقال على شريطة انك لاتهجم على مريض بمالاتعلم ولاتشير بفصد ولابدواء مسهل الّا بما قرب من الامراض قال الشيخ . هذا مذهبى مذ كنت ماتعدّيت السكنجبين والجلاب وانصرف . ولما كان من الغد حضر اليه غلام شابّ حسن البزّة مليح الوجه ذكىّ . فنظر اليه سنان فقال له على من قرأت قال على أبى قال ومن يكون ابوك . قال . الشّيخ الّذى كان عندك بالامس قال نعم الشّيخ وانت على مذهبه قال نعم . قال لاتتجاوزه ، وانصرف مصاحبا .

ولكثرة اغتباط القاهر بسنان اراده على الاسلام فامتنع امتناعاً شديدا كثيراً فتهدّده القاهر فخافه لشدّة سطوته فاسلم واقام مدّة فانهزم الى خراسان وعاد ومات فى بغداد .

ان جمهور الكتاب فى هذا العصر يسهبون فى الكلام على العلم

ويوجزون في الكلام على الغاية منه . ومعظمهم يعتبرون العلم عدّة الانسان في معارك الحياة ، فترى الوالدين يشجّعون اولادهم على الجدّ والتّحصيل لكي يضمنوا لأنفسهم في المستقبل رزقا طيّباً . فيجعلون كتب الدرس بذلك وسيلة لإحراز المادّة .

ومن حق الأنسان ان يسعى ويكدّ ليضمن لنفسه الرّزق والعيشة الهنيئة . بل من حقّه ان يبذل كلّ الجهد للوصول الى اعلى المراتب الاجتماعية . وان يستعين في سبيل ذلك بما قد احرزه من علم ولكن المادّة ليست غاية العلم . ولو كانت كذلك لكان العلم نقمة لا نعمة .

خذ علم الطب مثلاً ، وانظر الى طالب قد تخرّج في هذا العلم ، ونال الاجازة الّتي تبيح له مزاولة هذه المهنة ، ففتح عيادة ، واخذ يعالج المرضى ويكسب مايحتاج اليه ، وفي الوقت نفسه يتتبّع الاكتشافات الحديثة في علم الطب ، ولكنّه يقف عند هذا الحدّ ولا يبلغ شأواً من الشهرة بين قومه ، حالة ان أحد رفقائه ممّن درسوا الطب معه ولم يكن في مدّة الدراسة على شيء من الذّكاء ولم ينل الاجازة الطبّية الا بشقّ النفس هو اليوم أوفر منه نجاحاً وأبعد شهرة . وهو يستعمل أحدث الاساليب الطبيّة وافضلها واسمه على لسان كلّ من يعرفه . هذان طبيبان درسامعاً وتخرّجا في مدرسة واحدة . وعلى ايدي اساتذة بعينهم . وكان اوّلهما في المدرسة أوفر ذكاء واوسع فطنة . ولم ينل الثاني اجازته الابشقّ النفس . فلما ذا اشتهر فيما بعد اكثر من رفيقه ، وما الّذي جعله اوفر نجاحاً في مزاولة مهنته ؟

السّر فى ذلك هو تطبيق العلم على العمل . فمعظم النّاس يتلقّون العلم ويستعملونه كما تلقوه . وقليلون منهم يطبقونه على اعمالهم بطرق وأساليب يبتكرونها . فهم مبتكرون واولئك مقلّدون[١] . وفى العالم مئات الالوف من الشبان الّذين يحملون الشهادات المدرسيّة . ولكن النّوابغ منهم قليلون جداً ، والّذين يرقبون التفاحة تسقط من الشّجرة كنيوتن والبخار يدفع غطاء القدر كجيمس واط هم الّذين يطبقون العلم على العمل ويفيدون العالم اكثر ممّا يفيده حملة الشّهادات .

وفى الواقع ان التعليم ليس سوى وسيلة لترقية عقل الانسان وللتحكّم فى ذلك العقل ولتقوية ملكة الاختراع والابتكار ، وبعبارة اخرى — ان التعليم يجب ان يكون بمنزلة المحرّض للدماغ على البحث والاستقراء ومعرفة العلل والمعلولات ، فاذا اقتصر فيه على شحن الدماغ بالمعلومات فقد ذهب ضياعاً . وإذا اريد ان يسفر التّعليم عن النّجاح وجب تدريب

١ — ان طبيباً دخل على مريض فقال لأهله اخطأتم فى إطعامه خياراً قالوا نعم . فلمّا خرج قال له تلميذه من أين علمت قال رأيت قشر الخيار عنده . فطلب الطبيب يوماً فلم يوجد فذهب التلميذ فلمّا دخل رآى داخل الباب اكاف حمار فقال لهم اخطأتم انكم اطعمتوه حماراً . واذا بالطبيب قد دخل فرآهم يسخرون منه كلام التلميذ فقال ان اللحم يسمّى الاحمر واراد بالحمار مرقته فقالوا نعم اطعمناه قليلاً من مرقة لحم . فلمّا خرج . قال للتلميذ ماحملك على ماقلت قال رأيت إكاف الحمار فقست على قشر الخيار فقال اذهب ياحمار ولاترينّى وجهك بعداليوم فان هذه صنعة لطافة وظرافة لايناسبها مافيك من البلادة ، من بعض المجاميع فى مكتبة عارف حكمت .

الدماغ على عادة الابتكار . وتدريب الدماغ لازم كتدريب الجسم والعضلات . وليس هذا التدريب أمراً نظرياً بل هو عملى . وغاية الغايات منه التّحكّم فى عمل الدماغ وتسيير ذلك العمل فى الجهة الّتى يراد تسييره فيها . وفى جميع ذلك يجب على الانسان ان يعلم انه يؤثر فى البيئة الّتى هو فيها وفى الوسط المحيط به تأثيراً صالحاً اورديئاً . وهذا هو المراد ببناء الاخلاق فالاجتماع من أهمّ شروط الانسانيّة ويتوقّف على الفضائل اكثر ممّا على الذكاء حتّى قيل المرء باخلاقه لابذكائه .

قال نابلئون بونابارت مرة لبعض مادّة جيشه وكانوا يتكلّمون عن تأثير البئية فى عمل الانسان . البيئة انّنى انا الّذى أخلق البيئة أراد بذلك انّ الانسان يستطيع بل يجب ان يتحكّم فى البيئة ولايدع البيئة تتحكّم فيه . ومثل هذا المبدء هو سرّ النّجاح فى العالم ففى وسع كلّ امرئ ان يخلق البئية الّتى يريدها وان يتحكّم فيها نشاطه وصدق عزيمته كفيلان باستطاعة التّحكم فيها امّا الفشل وضعف العزيمة والعجز وأمثال هذه من الصّفات فهى طارئة على الانسان لم يخلقها الله فيه ولااراد ان يكون لها اىّ وجود فى نفسه والمقدام الجريئى يعرف لنفسه قوّتها ويعلم انّ الله تعالى لم يوجده فى هذا العالم ليكمّل به عدد سكّانه بل اوجده لغاية سامية ولخطة ازليّة رسّمها له وكلّفه انجازها ، من مجلّة الهلال لسنة ٤٣ .

وقد يزعم البعض انه ليس ثمّة أية صلة بين التّعليم والأخلاق

وهذا خطأشايع . فان التّعليم الّذى لايرقّق طباع الانسان ويصقّلها ليس جديراً بان يسمّى تعليماً .

ثمّ ان للتّعليم غاية أخرى أرقى من كلّ ماتقدّم . وهى ترقية المجتمع فى كلّ نواحيه ومساعدة ناموس التطوّر لكى يجرى مجراه . وبهذا الاعتبار نقول انّ التّعليم ليس هو جمع المعلومات بين دفّتى كتاب وتلقينها للتلميذ أوالطالب . بل هو وسيلة لرقى الانسان ووصوله الى الحقيقة . ولايمكن ان يقف بالانسان عند حدّ معيّن لان الانسان مهما بلغ من الرقى يظلّ بمنزلة التلميذ الّذى يحتاج الى التّحصيل . لهذا يقول العلماء ان دور التّعليم لاينتهى بخروج الانسان من المدرسة بل يلازمه طول العمر ، و المعلومات الّتى يكتسبها فى مدرسة الحياة أهم بكثير من المعلومات الّتى يكتسبها بين جدران الكلّيّات والجامعات فالمنتهى من كلّ مدرسة مبتدى فى الاجماع .

واذا اخذنا كل علم من العلوم على حدة نجد ان له اطواراً يزدهر فيها وأطواراً يذوى فيها ويشرف على الزّوال فلكلّ من الشّعر والخطابة والكتابة وعلم الادب والحساب والتّاريخ وغيرها أدوار هبوط وارتفاع . ولكن للمعرفة دوراً واحداً لايتغيّر . وبعبارة اخرى . لقد تضعّف دولة الشعر . فلانعود نرى شعراء كسعدى وحافظ او المتنبىّ والمعرّى اوهوجو وشكسبير وامرئ القيس . وقد تضعف دولة التّعاليم الدينيّة فلانجد الأفاضل والأعلام ولكن الرّغبة فى العلم فى حدّ ذاتها لا تضعف بل هى ابداً فى نموّ وازدياد . والتلميذ الشاب الّذى يتردّد اليوم الى مكتبته وكلّيته يعرف من

العلوم أضعاف ما كان يعرفه الأقدمون. فالاطبّاء الجرّاحون الان يقومون بعمليّات جرّاحية لو شهدها السلف لعدوّها من المعجزات الخارقة. والبواخر تسير بسرعة ما كان أحد يحلم بها من قبل والبشر يتخاطبون عن بعد الوف من الأميال كما لو كانوا يتخاطبون وجهاً لوجه. وتطوّر الانسان والاجتماع محسوس فى كلّ دائرة من دوائر الاجتماع. والقوة الاساسيّة الّتى تعمل فى هذا التطور هى التّعليم. واذا كان هذا التطوّر قد صادف فى طريقه الصعاب والعقبات الكثيرة فللجهل فى تطبيق العلم على العمل. ويقول النقّاد المتدبّرون مافائدة بواخركم الفخمة وقطاراتكم المريحة وطيّاراتكم السريعة وأجهزتكم اللّاسلكيّة. واعباء الحياة تزيد كلّ يوم والشقاء يستحكم بالعالم والاخلاق تتدهور والمعابد تفرغ وابتسامة الارتياح لا اثر لها على ثغور النّاس! بل مافائدة الاختراعات العلميّة والسجون ملاءت بالمجرمين ومستشفيات المجاذيب غاصّة بالمجانين والمدن مزدحمة بالبائسين! أبمثل هذا يباهى الجيل الحالى، ويدّعى ان عصره هو عصر النور والمدنيّة؟ بل انظر الى اهل هذا الجيل وقد عرا الاصفرار وجوههم وحنى العمل ظهورهم وافسد الجهل قواهم وعبثت الهموم بنفوسهم. وقابلهم بأهالى الأجيال الماضية الّذين كانوا اقلّ علما وأوفر هناء. فهل زاد العلم فى راحتهم ام فى شقائهم؟ وهل كان العلم مجلبة لسعادتهم؟ ليس اللوم واقعاً على العلم. بل على الّذين يسيئون تطبيق العلم، وما من عالم فيلسوف الّا ويعتقد اعتقاداً راسخاً ان العلم الحقيقى يجب ان يؤول الى

سعادة الانسان وهناءته . لا الى بؤسه وشقائه فاذا كان قد آل حتّى الآن الى العكس من ذلك فليس ذلك لعيب فى العلم بل لنقص فى طريق تطبيقه .

ولا شك ان التعليم ينشئ مقداراً من الذّكاء حتّى فى ضعاف العقول . ومن خواصّه انّه يصقّل الاخلاق ويهذّب النفوس ويقرّب الانسان من المثل الاعلى للكمال . واذا احسن الانسان تطبيقه كانت الحياة أوفر بهجة واكثر سروراً ولقد تسأل الكثيرين من الّذين يحملون الشهادات المدرسيّة . كم تلقّوا من العلم فى المدرسة ؟ فيجيبونك انهم لم يتلقّوا سوى النزر اليسر . واكثر منهم الّذين يجيبونك أنهم لا يعرفون كيف يطبقون ماتعلّموه . فكأنهم خرجوا من المدارس لا أكثر علماً ولا أقلّ جهلاً . وهذا يوجب على رجال التعليم ان يزيدوا على البرنامج مادّةً جديدة وهى تطبيق العلم على العمل . ويعتقد الكثيرون ان هذا التّطبيق هو سرّ العبقريّة والنبوغ . اى ان العبقرىّ النابغة لا يختلف عن المتعلّم البسيط الا بكونه يحسن تطبيق ماتعلّمه على شؤون الحياة .

والدلائل اليوم متوافرة على ان الانسان قد بدأ يدرك نقص أساليب التعليم الحاضرة وحاجتها الى التنقيح بل هنالك قرائن كثيرة تدل على انّ الّذين بيدهم شؤون التعليم قد اخذوا يدركون الان ان النظم التعليميّة الحاليّة هى ميكانيكية خالية من العنصر المعنوى، اى ان الانسان يكتفى بأن ينال قسطاً معيناً من العلم ويؤدّى عنه امتحاناً معيّناً ينال بعده الشهادة المدرسية ثمّ يدخل مدرسة الحياة الكبرى وقد وضع تلك الشهادة فى أحد

أدراجه ونسى ماتعلّمه واخذ يسعى لكسب رزقه . لامن طريق تطبيق العلم على العمل بل من الاستعانة بالحظّ والإعتماد على محاسن الصدف. ولكن الاستسلام الى المصادفة ليس دليلاً على استعمال الذّكاء ولاهو يشّف عن تطبيق العلم على العمل . وغنيّ عن البيان انهذا التّطبيق فى حدّ ذاته هو مجلبة للسعادة ولشعور النفس بالارتياح الباطنى . والدليل على ذلك انك وانت تقوم بتطبيق العلم تشعر بلذّة باطنيّة ولولم يكلّل عملك بالنّجاح . انك تشعر بأنّك قد فعلت الواجب المفروض عليك ولم تستسلم الى عامل الحظ . ولايستطيع أحدان يطالبك بأكثر من ذلك .

ولكن تجب رعاية الترتيب فى تعلّم العلوم ، لان العلم بمثابة الغذاء للرّوح فكما أن اغذية الجسد تختلف باختلاف الحالات والمناسبات فالصالح من الأغذية للشاب لايصلح للطفل الرّضيع ، والصالح للصحيح لا يصلح للمريض والصالح للمزاج القوىّ لا يصلح للمزاج الضعيف ، فكذلك العلوم يجب انيلاحظ فى تعليمها وتعلّمها إستعداد المتعلّم بروحه ونفسه ومحيطه وبيئته ، وان يراعى الأصلح منها فالأصلح ،والأهمّ فالأهمّ . وهذا سرّ تقسيم العلوم الى ابتدائية ومتوسّطة وعالية،وهو السبب لرعاية الأقدمين الترتيب الطبيعى فى موضوعات العلوم لكى يتكوّن للمتعلّم فى العلم السابق بحسب الترتيب استعداد تحصيل العلم اللّاحق على وجه يترتّب عليه الأثر المقصود منه ولأجل ذلك أوجب الحكماء والفلاسفة انيقدّم تهذيب الأخلاق وتقويم الفكر

ببعض العلوم الرّياضيّة الّتى مبادئها حسّية على الشّروع فى علم المنطق ويقدم تعلّم المنطق على دراسة الفلسفة و إهمال هذا الترتيب وتلك الحكمة يؤدّى الى الفوضى الثقافيّة الّتى تخشى مغبّتها .

قال ابن حزم الاندلسى غاظنى اهل الجهل مرّتين فى عمرى : احداهما بكلامهم فيما لا يحسنون أيّام جهلى . والثّانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتى . فهم أبداً ساكتون عماينفعهم ناطقون فيمايضرّهم وسرّنى أهل العلم مرّتين : احداهما بتعليمى أيّام جهلى : والثّانية بمذاكرتى أيّام علمى من طلب الفضايل لم يساير الّا اهلها . ولم يرافق فى تلك الطريق الا أكرم صديق ومن طلب الجاه والمال واللذّات لم يساير الا الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة . ولم يرافق فى تلك الطريق الّا كل عدّو .

منفعة العالم فى استعمال الفضائل عظيمة . وهو انّه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو فى النّدرة ويعلم قبح الرّذائل فيجتنبها ولو فى النّدرة . ويستمع الثناء الحسن فيرغب فى مثله والكلام الردّى فينفر منه . فعلى هذه المقدّمات وجب ان يكون للعلم حصّة فى كلّ فضيلة وللجهل حصّة فى كلّ رذيلة . ولايأتى الفضائل من لم يتعلّم .

انا لاادّعى الان انى قادر على الجزم فى مايجب ان نعلّمه فى مدارسنا وفيمايجب ان نرفضه و إنّما المقصود من هذا التلميح أن اوجّه افكار رجال العلم المفكّرين الى البحث فى هذه القضيّة الحيّوية لعلّهم يستطيعون بالتعاون ومساعدة مصادر الامور الى الحلّ الّذى يناسب رجال الغد فان

افكار التلامذة فى مدارسنا عموماً متجّهة الى درس الطب والصيدلة والحقوق ، من المهن الّتى تمكّن أَصحابها من معاطاتها وهم بالاثواب الرسميّة . امّا الحرف اليدوية والعمل فى الارض فلا اقبال عليه مع انه لاحياة لبلادنا الّا باتّجاه اميال شبيبتها الى الصّناعة والزّراعة .

فالتّاريخ يذكر ان مملكتنا قد تفوّقت بصناعتها وزراعتها وتصدر القمح والارز . والفواكه المجفّفة والفستق والبندق واللوز والجوز وغيرها

ان بلاداً هذه حالتها تحتاج الى مصانع كبيرة فالمشاكل لا تقلّ من البلاد حتّى تكثر المعامل الصناعيّة وتكثر الايدى العاملة فى الأَرض .

كنّا نسمع كثيرين من الخطباء والناطقين فى الاذاعة والكتبة فى الجرائد والمجلّات يحثّون على التعليم العام اعتقاداً منهم انّ اصل بلائنا من الاميّة الضاربة أطنابها . على أنّا اذا أمعنا النظر وأنعمنا الفكر نرى ان ضربات البلاد العموميّة وتقهقرنا .

مصدرها التعلّم لا الامّية كما يزعمون ودليلنا على ذلك انّ الّذين يتعلّمون فى المدارس والكلّيات يترفّعون عن الاعمال اليدويّة ويندفعون وراء الظّهور الخارجى الّذى يكلّف النفقات الباهظة . وامّا الامّيون فهم الّذين يحرثون الارض ويشتغلون فى الصناعات ويحملون الامّة من موظّفين واساتذة واطبّاء ومهندسين ومحامين على اكتافهم .

فاذا ظلّ روح المتعلّمين فى الشّرق على ماهى عليه الان من حيث الترفّع عن العمل أخاف ان نصل الى يوم نقول فيه سقى الله ايّام الجهل وتبّاً

للساعة الّتى أسّست فيها المدارس فيصدق علينا اذ ذاك مثل البغل والثعلب والذئب قيل ان هؤلاء الثلاثة اجتمعوا في الصّحراء متعاهدين على ان يعيشوا معاً بسلام . فحدث انّه مضت مدّة لم يستطع الذئب والثعلب ان يصيبا صيداً ، فساء حالهما على حين ان حليفهما البغل كان يرعى الحشيش غير شاعر بالازمة الشديدة فتشاور الذئب والثعلب معاً على نقض العهود وأكل البغل بحيلة قانونيّة . وعليه اتّفقا ان يعقدا مع البغل جلسة رسميّة يقرّرون فيها بأكثريّة الأصوات اكل اكبرهم سنّاً . وبعد القرار يُسأل البغل اوّلاً عن عمره ومتى ذكره يدّعى كلّ منهما انّه اصغر منه سنّاً فيتمّ لهما مايبغيانه . فلمّا اجتمع الثلاثة وقرّروا سئل البغل عن عمره فقال انّ اباه قيّد تاريخ ميلاده على حافره فاذا ارادا معرفة ذلك فليتقدّم احدهما اوكلاهما ويقرء المكتوب على الحافر فقال الذئب للثعلب تقدّم ياابا ثعالة واقرء لنا المكتوب فتمنّع الثعلب بدعوى ان والده لم يعلّمه القراءة . عندئذ اقترب الذئب من حافر البغل المرفوع ليقرء التّاريخ فناوله البغل لبطة على امّ رأسه فوقع مغشيّاً عليه فلمّا رأى الثعلب ذلك ولّى هاربا وهو يقول رحمة الله عليك ياوالدى لأنّك لم تعلّمنى القراءة ونحن قد اشتدّت علينا لبطات الزّمان بسبب التعليم المدرسى السطحى الّذى انشأ فينا وفى ابنائنا روح الترفّع عن الصّنائع والحرف والاعمال اليدويّة فوقعت البلاد فى ازمّة اقتصاديّة لاعرف امة يحيط بها الخطر كمايحيط بناء العلم العملى اوجد المدن الصناعية فكيان هذه المدن ومستقبلها

رهن مباحث الكيمياوى والطبيعى اكثر ممّا هى رهن حكمة السّياسى او فصاحة الخطيب .

العالم الكهربائى منح الاطبّاء آلة تمكّنهم من تدوين كلّ ضربة من ضربات القلب ورنتجن مكّنهم باكتشافه لأشعّة اكس من رؤية اعضاء مرضاهم وتحقيق عللها . والكيمياوى كشف الطريق لصنع ادوية وعقاقير اقوى من الأَدوية الطبيعية .

ان باستور اعظم محسن لعلم الطب بل ركن الطب الحديث بدأ حياته العلمية كيمياويّاً ولكنه دلّ النّاس والاطبّاء على طريقة للبحث عن اسباب الامراض وكيفيّة معالجتها والوقاية منها ، معلم الطب يرتقى وصناعته تتقدّم لاعتمادها على الحقايق العلميّة الّتى يكتشفها العلماء فرجال العلم يفكّرون تفكيراً جدّياً الآن فى تطبيق مبادى العلم على تحسين النوع البشرى فانه كما ثبت لرجال العلم انّ النّاس ارتقوا منذ ازمنة غابرة الى الان فى أجسامهم وعقولهم وتصرّفهم يصحّ لنا ان نعتقد ان هذا الارتقاء ميسور لهم فى المستقبل ، ومن المقارنات الخاطئة ان يوضع الأَدب فى المكان المقابل للعلم كأن العلم يمنع الأَدب اوكأن الادب يمنع العلم اوكأن الامم لايمكن ان تتّفق لها علوم وآداب فى وقت واحد فكل امة تحسن التشوق والاستطلاع تحسن العلم والادب وكل علم لايكون باعثه الشعور الصادق بالحياة ولاتكون غايته من هذا القبيل هو علم كالجهل بل هو شرّ منه لان الجهل كان فى الدّنيا وكان فيها العظماء والسعداء والفاتحون بل كانت

الشمس تدور حول الارض فى نظر الوف من سكّان هذه الكرة السابحة فى الفضاء وقد سبحت الارض سبحها ولم تقف لمحة عين لان سكانها سلخوا الدهور يجهلونها ويظنّون بها الوقوف .

أنا استطيع ان اتصور الحياة بغير علم ولكنّنى لا استطيع ان اتصور الحياة بغير ادب لاننى لا استطيع ان اتصورها بغير احساساتها فاذا احسّت الحياة نطقت واذا نطقت وتجملت فى معانيها والفاظها فذاك هو الادب .

لقينى طالب علمى يجادل فى العلم والادب ويحسب ان الدنيا مادّة كلّها وانّ كلّ ماعدا المادّة عبث وخرافة وهو من روادّ الصّور المتحرّكة يكاد لاتفوته رواية تعرض فيها . فقلت له . هذه المادّة فى جيبك وانت تسعى بقدميك الى دور الصّور المتحرّكة لتنفقها عن طيب خاطر فماذا تقبض من تلك الدور عند ماتفارقها لاتقبض غير الخيالات والاحلام .

إنّنى أومن بالادب لأنّنى أومن بالحياة واذا قست انساناً الى انسان او امة الى امة فانما أقيسهم جميعا بالشعور الّذى يشعرونه والأمل الّذى يأملونه . وليس مقياس الأمل الطيّب انه واقع مشاهد والا لمّا كان أملا ولكنّما مقياس الواقع الطيّب انه يدعو الى اطيب الآمال . فاذا التمست لجميع اولئك مظهراً صادقا يعرف به فلست واجده الا فى عالم الآداب .

لاخلاف فى ان الامم تنحصر شؤونها من حيث مجرّد النوعية فى شيئين الاول مادّى وهو مااقتضته الطبيعة من الموجودات الّتى يتركّب منها هيكل العمران الآن .

والثّاني وهو ما اقتضاه قوام هذه الامم من النظام الحافظ له والمودّي الى بقاء كيانه تجاه الطوارى الغريبة من طبيعيّة وغير طبيعيّة . فأمّا الشئ الاول فاصله موجود بطبعه ثمّ ان الانسان استنبت من هذا الاصل فروعاً شتّى واستخرج منه كوامن وعلّق عليه خواص وقواعد بحسب التجارب تارة وبالفحص والاكتشاف اخرى وبما ان القوى العقليّة تتزايد فى البشر بتزايد العلوم فقد اصبح باب التوسّع فى الاكتشاف والاختراع مفتوحاً لن يغلق ومهما بلغ التوسّع شأوه العظيم ومهما كثرت ضروب الاختراع وصنوفه فالجوهر الطبيعى هو هو غير ان هناك علوماً تاسّست على نحو ما تقدّم من البحث والتجارب ، وبعبارة اخرى ان الطبيعة مشحونة باسرار خلقت لخدمة الانسان وهو مكلّف بالعمل فيها وكلّما زادها بحثاً وتنقيباً زاد به نفعاً وارتقاءً باظهار غوامضها وكشف اسرارها سرّح طرفك فى انحاء المسكونة وامعن الفكر وانعم النظر فى بواعث تقدّم الهيآت الاجتماعية وموارد ثروتها الزراعيّة والتجاريّة والصناعيّه وما يتبعها من اسباب الأمن والصحّة وكثرة التناسل وساير وسائل العمران فانه من نتائج الاختراعات الحديثة وعلوم الطبيعيّة .

ولعلّ القائل يظنّ ان كلمة الادب قاصرة على القصائد الشعرية والقصص التاريخيّة حتّى انزلها منزلة العرض من الجوهر . ان بعض الظن اثم ، بل هى الجوهر الحقيقى وسواها العرض الزائل لان آداب الامم او علوم آدابهم ليست هى الشعر والتاريخ فقط بل هى دائرة كبرى تحيط

باعظم واجبات الامم واخصّ شعائر مدنيّتهم وافضل مايمثّل تقدّمهم .

فمنها الاخلاق والعوائد وهى اول مايكتسبه الانسان منذ تمييز اليسار من اليمين والغثّ من السّمين أليست هذه أوّل ما يجب الهمّ فى اصلاحه واكتشاف مايشفى علل فساده ؟ قبل كلّ شىء هى عنوان الامة وشعارهم وكما يدخل تهذيب الاخلاق فى دائرة الآداب تدخل سائر العلوم المتعلّقة بنظام الامم من حيث سياستها وادارتها وقضائها وتدبير شؤونها تلك هى العلوم الادبيّة ومزاياها الّتى هى روح التمدّن وما العلوم الطبيعيّة الّا بمنزلة القوى للنفس الناطقة او اعضاء العاملة للجسم .

ومالى وللاطالة خذ المجلّات الادبيّة مثالا ثم اعطف بنظرك الى المحافل الادبيّة الحديثة النشأة ثم انظر كم كانت الامة منحطّة القدر هابطة الذّكر وكيف ابتدأت ان تفيق من رقدة لم تغن عنها اختراعات الطبيعيّة ولا اكتشافها فتيلا ، اهجر وطنك هذا الّذى علمت اخلاق ابنائه وأطوارهم وكابدت آدابهم وعوائدهم الى موطن لم تطأه قدمك من قبل ثم انظر كم تشتاق نفسك . ويرتاح خاطرك الى معرفة عوائد أهله واخلاقهم وآدابهم قبل ان يخطر ببالك النظر فى مخترعاتهم . ثمّ ناشدتك الله كم تزدرى بهم عيناك وكم تسأمهم نفسك اذا رأيت شوارعهم تتألّق نوراً ومحالّهم غاصّة بالآت الصّناعة والاختراع وهم مع ذلك ينتهكون حرمة الآداب ولا يحفلون بها . وقال نبيّنا الأكرم بعثت لأتمّم مكارم الاخلاق وقال تخلّقوا بأخلاق الله ولا شك فى ان من تخلّق بالاخلاق الفاضلة يأبى الذل

والفقر والمكسل والخمول والحقد والحسد والبخل والملق والنّفاق والكذب فالرّجل إمّا صادق اوساقط والمرء مخبوء تحت لسانه هذا هو حكم الفطرة واذا مسخ الإنسان ونسخ الحكم واعتصم بالكذب ترى الجوامع البشريّة تخترع ادوات وآلات لاكتشاف الحقيقة.

ان العلم قد وفق اخيراً الى عدّة وسايل سوف تحدث فى معضلة الاجرام انقلاباً خطيراً لأنّها تنتزع من المجرم اعترافاً صريحاً بما ارتكبه – وفى مقدّمة تلك الوسائل الجهاز المعروف بالبوليجراف اوكاشف الكذب وهو شديد الشبه بمقياس ضغط الدم الّذى يستعمله الاطباء وانما يختلف عنه بأَن له قلماً يرسم بالحبر خطوطاً متموّجة على (اسطوانة) من الورق وهذه الخطوط هى نتيجة ارتفاع ضغط الدم وانخفاضه.

وهذا التّغيير ينشأ عن الانفعالات الّتى تطرأُ على الانسان. وتفصيل ذلك انه عند احداق الخطر المفاجئ يعبئ (الجسم) قواه لمواجهة ذلك الخطر. فتندفع ملائين الكريات الحمراء من الطحال الى المجارى الدمويّة كما تندفع الجنود الى ساحات القتال. وتنضم اليها فى تلك المجارى افرازات الغدد الادرينالية وغيرها. وبعبارة اخرى انه عند مايحدق الخطر بالانسان من جراء سؤال مفاجئ له صلة بجناية من الجنايات يستولى على ذلك الانسان شيء من الهلع يحدث فيه انفعالاً فجائياً. فيستعدّ جهازه للدفاع عنه بمحاولة الإنكار وإخفاء الحقيقة. ومهما يظهر

من الحذق والجلد فى إخفاء جريمته فانه لايستطيع ان يمنع مايقع فى باطنه
لان ضغط الدم يرتفع ارتفاعاً واضحاً يسجّله جهاز (البوليجراف)
تسجيلاً لاسبيل الى انكاره . وقدجرب هذا الجهاز فى نحو الف وخمسمائة
حادثة صدق الجهاز فى جميعها صدقاً تاماً ولم يكذب فى واحدة .

ومع ان المحاكم لم تقرّر حتّى الآن استعمال هذا الجهاز لاكتشاف
الجرائم . فقد قررت شركات ومصارف كثيرة فى امريكا استعماله لمعرفة
الّذين يسرقون ويخونون الامانة من الموظّفين والمستخدمين . وفى تقرير
لأحد مصارف مدينة شيكاجو اختلس منه مرّة خمسة الاف دولار .
فقامت ادارة المصرف بالتّحقيق مع ستّة وخمسين من المستخدمين .
وكانت النتيجة انه ظهر المختلس واعترف بجريمته . ووقعت عدّة حوادث
اختلاس اخرى أمكن الوصول فى جميعها الى معرفة المختلسين معرفة
لاتبقى مجالاً للشك . وقد قرر بنك شيكاجو المذكور ان يفحص مستخدميه
بجهاز البوليجراف مرّة فى السنة على سبيل الاحتياط ، وهنالك جهاز
آخر لكشف الكذب ومعرفة المجرم وهو جهاز (البسيكوجلفانومتر)
ومخترعه قسّيس يدعى الاب صمرز ولهذا الجهاز تيّار كهربائى خفيف
يتولّد عن (بطارية) ناشفة فاذا وصل الجهاز برجل متّهم وفوجئ هذا
المتّهم بسؤال حرج فان الغدد الّتى تفرز العرق تنشط للافراز وتبتلّ بشرة
اليد إبتلالا خفيفاً يقلّل قوّة مقاومة المتّهم للتيّار الكهربائى الّذى يمرّ
بجسمه . وهذا النقص فى قوّة المقاومة يسجّله الجهاز بطريقة خاصة

يستحيل معها الخطأ وقد جرب الجهاز فى حوادث كثيرة أشعرت جميعها عن نتائج قاطعة .

ان بعض المجرمين المغالين فى الاجرام والّذين ماتت ضمائرهم قد لايصابون باىّ انفعال عند مايفاجأون ببعض الاسئلة وعليه فقد وفق العلم الى اكتشاف وسائل يرغم المجرم على الاعتراف .

من بين النّظرات الّتى يعتبرها العالم حديثة العهد ويرجع الفضل فيها الى علماء اوربا نظريّة استعانة المحقّق بالظواهر النفسيّة ودقّات القلب على حقيقة الشّخص والاهتداء الى المجرم . لكن هذه النظريّة ليست جديدة فقد سبق ايران اليها عقد فى لندن سنة ١٩٢٥ موتمر دولى للسجون وكان من بين قراراته المهمّة انه حتم على من يهمهم حفظ الامن او من يشتغلون بالقضاء او التحقيق ان يقفوا على أخلاق المجرمين، ويزيدوا فى معلوماتهم عن علم النفس والاجتماع وتعليل ذلك هو انّ الحوادث تحتفظ لها فى المخّ بمكان خاص فاذا ماأثيرت بواسطة الترابط انتجب الاثر الّذى يتّسق وطبيعتها - وسرى التيّار من المخ وهو على رأس الجهاز العصبي الى ساير الاعضاء الاخرى .

وتقسيم العلماء هذه الانفعالات مبدئياً الى الانفعالات خاصة بالاعضاء الخارجية واخرى بالداخلية .

امّا الاولى فليست من الصعوبة بمكان عظيم . ولايتطلب لمعرفتها دراية خاصة فكلّ انسان قوى الملاحظة يمكنه ان يتبيّن ان كان الشّخص

الّذى امامه مضطرباً او غير مضطرب من رؤية أسارير وجهه وقد قال سيدنا امير المؤمنين مايضمر الانسان شيئاً الّا ويظهر من صفحات خدّه وفلتات لسانه انما الصّعوبة فى ملاحظة الاعضاء الداخلية للمجرم واهمّها القلب ودقّاته اذالمفهوم ان القلب مقياس صحيح لانفعالات الانسان وتختلف دقاته قوّة وضعفاً وسرعة وبطوءحسب خوفه واطمئنانه وحزنه وسروره وما الى ذلك ممايطوف به.

ويسند الغربيّون لأنفسهم فخر اكتشاف هذه الظاهرة والحقيقة ان ايران كان اسبق منهم اليها وقد سجّلت تجاربهم فى هذا الصّدد فى كتب عدّة وكان لها نفس النتائج الّتى حصل عليها امثال منتسبرج وغيره.

كان احد امراء العرب له ابن شاب ينزله من قلبه منزلة كبيرة ويعتزّ بقوّته وشجاعته بين اترابه وفى أحد الأيّام رأى الوالد ابنه قد نزل به السقم، وانتابه داء غريب لم يفهم احد كنهه فعرضه على اطباء هذا العصر فلم يفقه احدهم علّته : وصار الشاب ينتقل به المرض من سيّءٍ إلى اسوأ حتّى فقد ابوه كلّ امل فى شفائه.

ونما خبر هذا المريض الى ابن سينا فتطوع للذهاب الى الأمير. وعرض عليه ان يفحص ابنه لعل الله يكشف عن بصيرته فيهتدى الى موطن الداء ـ وفحص ابن سينا ابن الأمير فادرك رغم مابه من هزال ان جسمه سليم، وايقن ان سقمه لابد من تفكير لم يبح بمنشأه لمخلوق.

وظلّ العالم بالشاب حتّى ادرك انه مريض بالحب. وان حبيبته من اسرة فقيرة ويخشى ان يطّلع أباه على رغبته فيحتقر مابه من عاطفة

نحوها . فنقل ابن سينا هذا القول الى الوالد الّذى مالبث ان اظهر رغبته فى تحقيق كلّ ماتصبو اليه نفس ابنه ، ولكن الشّاب رغم هذا لم يبح باسم حبيبته . فطرأت على مخيّلة العالم فكرة عظيمة هى عين مااهتدى اليه علماء الغرب بعده باحقاب .

فقد احضر شيخاً كبير السن ، يعرف اهل البلد جميعهم وطلب اليه ان يذكر اسماء شوارع المدينة واحداً واحداً ثم قبض بيده على نبض ابن الأَمير وابتدء الشيخ يذكر اسماء الشّوارع حتّى ذكر اسم شارع معيّن فزاد نبض الشّاب عند ذكر اسم احدها فانتقل الشّيخ الى ذكر اسماء الاسر المقيمة في هذا الزّقاق . فزادت دقّات قلب ابن الأمير عند ذكر احد الأسماء فطلب ابن سينا ذكر افراد هذه الاسرة وما ان وصل الشّيخ الى اسم الفتاة حتّى زاد نبض الشّاب زيادة كبيرة فادرك العالم انها هى سبب هذا السقم الطّويل فلمّا زوجّه ابوه منها ذهب عنه الدّاء وعاد اليه الشّفاءِ ــ وتلك النتيجة الموفقة الّتى انتهى اليها ابن سينا[١] . هى نفس نظريّة (منتسبرج) الّتى دعمها باختراعه العلمى الحديث (الجلفانومتر) وهم يفكّرون الان فى تطبيقها عمليّاً والاعتراف بها قانونيّاً ولنرجع الى ماكنّافيه ونقول .

كانت اللّغة العربيّة فى عصر من عصورها مجمع الثقافات وملتقى المدنيّات . ومنتهى الألسن ، وكان الأدب العربى فى حدود مراميه التعبير

---

١ ــ وقد اشار فى القانون الى هذا النوع من العلاج فقال ويكون نبضه (اى نبض العاشق) نبضاً مختلفا بلا انتظام البتّة كنبض اصحاب الهموم ويتغيّر نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة وعند لقائه بغتة ويمكن من ذلك ان يستدل على المعشوق اذا لم يعترف به ج ٢ ص ٧١ .

العام عن خوالج الانسانية فى أكثر بقاع الارض ، لان الاسلام الّذى جمع قلوب الامم على قرآنه جمع السنتهم على لسانه ، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب . ولا صورة تتمثّل فى خاطر شاعر ، الا وجدت فى هذه الخضم المحيط صدفة تستقرّ فيها . فلما تحوّلت عن مذاهبه الأنهار وجفّت على جوانبه الرّوافد ، عاد كالبحيرة المحدودة الرّاكدة . لا يمدّها الاّقطرات المطر ، ودفعات السّيل فى الحين بعد الحين . فاذا اردنا لأدبنا ان يتسّع فى حاضره كما اتسّع فى ماضيه . فليس لنا اليوم غير سبيل الامس . نرفده بآداب الامم الاجنبيّة ونطعمه بأنواع الفنون الاوربيّة . ونصله بتيّار الأفكار الحديثة ، ونخلّى بينه وبين الحريّة ليزدهر وينتشر ويساهم الآداب العالمية فى تبليغ رسالة الجمال والخير والحق ، فلو اصبحت العربيّة لساناً مقدساً فى جميع الامصار الاسلامية ولا مراء ان الفضل فى هذا يرجع الى القرآن ولو انه كان للقرآن تأثير عظيم فى تاريخ اللّغة العربيّة وآدابها فانّ ضرورة حفظ اصل الكتاب الكريم سليما وشرح غوامضه بعثت المسلمين على استنباط علم النّحو واللّغة ودعت الى جمع شعر الجاهليّة والاخبار الّتى لابد قد تطرّق اليها الضياع . ولما استقر العرب كفاتحين فى سورية وفارس واختلطوا بالشعوب الغريبة عنهم . لم تلبث لغتهم محافظة على فصاحتها الاولى امّا فى بلاد العرب نفسها وخاصّة بين بدو الصحراء فلم يكن الفارق محسوسا وكذلك فى البلدان المجاورة ومراكز التّجارة الكبرى كالكوفة والبصرة حيث كان معظم السكّان من الاجانب الّذين

اعتنقوا الاسلام وسرعان مااستعربوا الّا انها اصبحت بعد تحوير قليل الوسيط العالمى للحديث بين الطبقات العليا فى المجتمع الاسلامى، وفى مستهل العصور الوسطى كانت لغة الحديث والكتابة لجميع مثقفى المسلمين من اىّ جنسيّة كانوا حتّى المحيط الاطلسى فكانت لغة البلاط والدّين ولغة الشّرع والتّجارة ولغة السّياسة والأدب والعلم.

ولما انشأ المأمون دار التّعريب الّتى سمّاها دار الحكمة وهى دار كتبه العظيمة ارصد فيها علماء لتهذيب الكتب المترجمة وتوجيه الاسماء المعرّبة من الأعلام والاجناس على مايناسب المنطق العربى فكانوا ينحون فى ذلك منحى العرب ويتصرّفون فى الاسماء بالتغيير والابدال والحذف وهذا هو وجه الصّعوبة فى التّعريب، لانه لاضابط له. ولان الألفاظ العربيّة محصورة الاوضاع محدودة الصيغ، لاتقبل الزيادة عليها الّا منها. ولايمكن ان تقحم فيها الالفاظ الاجنبيّة الّا بعد أن تجانسها وتواخيها ـ ومن امثلة هذا التغير الّذى جرى عليه العرب ومن بعدهم فى اسماء الاعلام يحيى فى يوحنا وقابيل فى قايين وعيسى فى ايسوس وهو تحريف يشوع باليونانية وقد حذفوا آخره فصار ايسو وطالوت فى جليات والضّحّاك فى ده آك وأشبيليه فى هسياليس وطليطلة فى تولاده حتّى لقد تجد الاسم الواحد ينقلب على صور شتّى وبذلك تضيع حقيقته التاريخيّة كفيلبس ابى الاسكندر، فانك تجده فى كتب التاريخ العربيّة فيلقوس وفيلنوس وفيلتوس وفيلبوس ولذا ذهب ابن خلدون الى وجوب ضبط هذه الاسماء

الاعجميّة على وجوهها الّتى تلفّظ بها فى لغاتها فان الّذين تولّوا امر التّعريب يومئذ انّما هم الصّناع والمحترفون لا الكتّاب والمؤلّفون وبذلك صار الدخيل لغة فى التّاريخ بعد ان كان تاريخاً فى اللّغة .

ان اللّغة العربيّة مشحونة بالفاظ اعجميّة كثيرة وذلك من لوازم المخالطة والمجاورة ولكن اللّغة الّتى حازت قصبة السبق فى إعارتها اللّغة العربيّة الفاظا كثيرة هى الفارسيّة وليس فقط القبائل المجاورة للفرس بل القبائل البعيدة ايضاً استعارت منهم كلمات كثيرة لا يضمّها حصر. قال الخفاجى فى شفاءِ الغليل بالغاء (الاكارع) بلغة اهل المدينة معرب (پاچه) وكذا قال السيوطى فى المزهر وقد عقد فيه فصلاً لما اخذه العرب من الاعاجم وان العرب قد ابقوا بعض الالفاظ الاعجميّة على صورتها الاصليّة وبعضها غيّروها قليلاً . واكثرها صحفّوها اقبح تصحيف او جعلوا فيها القلب والابدال ولهذا صار البحث فى تحقيق اصل الالفاظ المعرّبة من اصعب وادّق المباحث اللّغويّة وقد جمعت الألفاظ الفارسيّة فى كتب كثيرة والجامع غير واحد بل بعضهم عربى وبعضهم غربى وبعضهم ايرانى وكلّهم قائلون بأن العرب كثيراً ما يتصرّفون تصرّفاً غريباً فى الالفاظ الاعجميّة حتّى صار فى حكم المثل السائر ان هذه الكلمة عجميّة فافعلوا بها ماشئتم فقد يحذفون من الاصل الاعجمى أحرفا ان فى الاوّل وفى الوسط وفى آخر الكلمة قالوا مثلاً مارستان فى بيمارستان . وشفارج فى پيشباره ، ونشوار فى نشخوار، وجلّوز فى چلقوزه ، وسوهقه فى سوه كاريز

وهزار فى هزاردستان وقد يزيدون حروفاً على الاصل الاعجمى . كما انهم قالوا بستوقة اوستوق فى ستو[١] بستووترّهات فى راه وفنزج فى پنجه وبالغافى پاچه .

نعم اختلط العرب بالفرس واخذوا منهم كثيراً من الألبسة والأنسجة ولم ينقلوها الى لسانهم بل عرّبوها وابقوها على ماهى كالسراويل والقباء ومنها الجبة والتبّان والجورب والديباج والارجوان والسرموج[٢] والقفطان والطربوش والبابوج – كما فعل اهل هذا العصر باسماء الالبسة الافرنجية الّتى اقتبسوها من الافرنج فى تمدّنهم كالبنطلون والجاكت واللاستيك وغيرها .

واقتبس العرب من الفرس كثيراً من ألوان الاطعمة وانواع الاسلحة والفرش والادوات وابقوها على لفظها الاعجمى منها الجلّاب والجلنار والبنفسج والخشاف والخوز والدسكّرة[٣] والدولاب والدهقان والسرداب والطنبور والفرسخ وغيرها كثير . فالحاقها بلغاتها الأصلية يسوغه اوّلاً التاريخ لانه يدلنا على ان العرب اقتبسوا تلك المواد من الفرس فاذا تأيّد ذلك بالاشتقاق اللّغوى كان الدّليل اثبت مثل جلاب فانها مؤلّفة فى الاصل الفارسى من كل آب اى ماء الزهر وخشاف من خوش آب وسرداب من سرداب اوسردابه بيت الثلج والطربوش من سربوش والبابوج من پاپوش .

ولم تقتصر العرب على اقتباس الالفاظ من اللّغات الاخرى واستبقائها على حالها ولكنهم صرّفوها وشقّوا منها الافعال ونوّعوا منها على مااقتضته احوالهم فقد شقّوا من لفظ نبى من اللّغة المصرية القديمة واصل معناه فيها

١ – قال الجواليقى درهم ستوق للرّدى .
٢ – وفى العربية سرموق دواء للنساء .
٣ – جيل من الناس او جبل فى كرمان .
٤ – شبه قصر حوله بيوت .

رئيس العائلة اورب المنزل نبأ وتنبأ وشقّوا من لفظ قبس بمعنى الشعلة في الهير وغليف خبس ومعناه المصباح ومن هذا القبيل اللّجام وهو لكام في الفارسية فشقّوا منه اولاً الجم الدابة البسها اللّجام وجمعوا لجام على لجم وألجمة ثمّ استخدموه للمجاز فقالوا لجمه الماء اى بلغ فاه وقولهم (التقىّ ملجم) ارادوا به انه مقيد اللّسان والكف، والمهر الخاتم في الفارسية استعاره العرب وبنوا منه فعلاً فقالوا مهر الكتاب اى ختمه بالمهر المهر مهرى والخطّ خطى ولادرى ، ومن ذلك ماشقّوه من لفظ ديوان وهى اعجميّة فقالوا دوّن اى كتب اسمه فى الجنديّة وقس على ذلك كثيراً من الالفاظ الدخيلة الّتى يعتقد العرب انها اصيلة وقد شقّوا منها الافعال والاسماء مثل سراب وهى تعريب سيرآب فى الفارسيّة اى مملوء ماء والزمهرير من زم اريز بالفارسيّة اى ضباب بارد وجزاف من گزاف وجزيت من گزيت والضّنك من تنك والفصفصة من اسبست .

ومما اقتبسوه من اليونانيّة واللاتينيّة الفردوس والقسطاس والبطاقة والقبّان والاصطرلاب والقنطار والترياق والقنطرة ومانقلوه عن الحبشيّة فاكثره لايدل على اصله لتغيّر شكله ولأنّ الحبشيّة والعربيّة اختان تتشابه الالفاظ فيهما والمشهور عند علماء العربيّة من الالفاظ المقتبسة من الحبشيّة ثلاثة ، كفلين والمشكاة والهرج ، لكنّنا لانشكّ فى انهم اقتبسوا كثيراً غيرها وخصوصاً مايتعلّق منها بالاصطلاحات الدينيّة من ذلك

١ــ قاله عثمان بن عفّان فى جواب الاستيضاح فقتلوه وكانت عائشة تقول اقتلوا نعثلاً .

قولهم المنبر وهو عند العرب مكان مرتفع فى الجامع يقف فيه الخطيب او الواعظ وقد شقّه صاحب القاموس من نبر اى ارتفع وقالوا انه معرّب (ومبر) فى الحبشيّة اى كرسى او مجلس او عرش ومن هذا القبيل لفظ النفاق وهو عند العرب ستر الكفر فى القلب واظهار الايمان وقد شقّوه من نفق راج او رغب فيه وليس بين المعنيين تناسب فاضطرّوا لتعليله الى استعارة خروج اليربوع من نافقاته فقالوا ومنه اشتقاق المنافق فى الدّين وهو تكلّف نحن فى غنى منه اذ اعرفنا ان نفاق فى الحبشيّة معناها الهرتقة او البدعة او الضلال فى الدين وهى من التعبيرات النصرانيّة الّتى شاعت فى الحبشيّة بدخول النصرانيّة فيها. وكذلك لفظ الحوارى شقّه صاحب القاموس من حار بمعنى البياض وقال فى معنى الحوارى انه سمى بذلك لخلوص نيّة الحواريّين ونقاء سريرتهم او لأنهم كانوا يلبسون الثياب البيض والأظهر انّ هذه اللّفظة المعربة حوارى فى الحبشيّة ومعناها فيها الرّسول وهو المعنى المراد بها فى العربيّه تماماً.

وكذلك برهان وقد شقّها صاحب قاموس من برهن وشقّها غيره من بره بمعنى القطع وان النون زائدة فيها وهى فى الحبشيّة برهان اى النور والإيضاح.

والمصحف فانه حبشىّ من صحف اى كتب والمصحف الكتاب وقد أخذوا عن العبرانيّة كثيراً من الالفاظ الدينيّة كالحج والكاهن والعاشوراء.

واقتبسوا كثيراً من الأَلفاظ السنسكريتية ممن كان يخالطهم من الهنود

فى اثناءِ الاسفار للتّجارة او الحج لان جزيرة العرب كانت واسطة الاتّصال بين الشّرق والغرب فكلّ تجارات الهند المحمولة الى مصر او الشام او المغرب كانت تمرّ ببلاد العرب ويكون للعرب فى حملها او ترويجها شان واخذوا من الهنود كثيراً من المصطلحات التجاريّة واسماء السفن وأدواتها واسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والاطياب مما يحمل من بلاد الهند والعرب يعدّونها عربيّة اويلحقونها بالالفاظ الفارسيّة كالمسك والكافور لان الفرس اقدم من خالط العرب من الامم الغريبة عن لسانهم والنحت او الاشتقاق مصدر ثروة كبيرة للغة العربيّة لامثيل له فى غيرها من اللّغات الّتى كثيراً ماتضطرّ الى اقتباس الفاظ اجنبيّة للدلالة على معان جديدة وهى تدخل تلك الالفاظ فى معجم لغتها واهم مايجب مراعاته فى الاشتقاق هو المحافظة على معنى الكلمة الاصلى مع التوسّع فيه وإلباس اللفظ المشتق معنى جديداً اعم . وقد يكون فى هذا التوسّع كثير من التكلّف فى اللغات الاوربيّة وامّا فى اللّغة العربيّة فانه طبيعى ينطبق على روح اللّغة فضلاً عن كونه ممكنا ومباحاً من وجه قواعد اللّغة والاصطلاح . ماذا عسى ان يكون رأى المفكرين فى مثل كلمة القاطرة والباخرة وغيرهما من الالفاظ الّتى لم يستعملها العرب ولاهى فى شىء من لغة العيس والجمال؟ فالقاطرة تشير الى قطرة فى سلسلة الرتل المعروفة بالقافلة وهى ترجمة بديعة للمركبة الّتى تتقدّم ساير المركبات الّتى يتألف منها القطار والباخرة منحوتة من كلمة البخار ومامن أحد يجهل اليوم ان معناها السفينة الّتى تسير،

وقد يبدلون الحروف وهو كثير عندهم . فبدّلوا النون والرّاء باللّام والكاف الفارسية بالجيم والخاء بالحاء والباء الفارسية بالفاء او بالباء والكاف بالقاف والجيم الفارسية بالصاد او بالشين . والشين بالزاى والتّاء بالطّاء والالف بالعين او بالحاء والزّاى بالذّال الى غير ذلك ممّا لايقع تحت قاعدة فقالوا فى زركون زرجون وفى گرده نان جردبيل[١] وفى خنبك خورنق[٢] . وفى كندپير قندفيل . وفى كاروان قيروان اى القافلة[٣] وفى گرم جرم . وفى خُربا حرباء وفى پرند فرند او برند وفى گرته قرطق . وفى چوبه صوبج اوشوبق .

وقديزيدون جيماً اوقافاً فى آخر الالفاظ المعرّبة وذلك يجرى غالباً فى الالفاظ المنتهية بالهاء فقالوا لوزينج فى لوزينة وجوزينج وجوزينق فى گوزينه وقربج وقربق فى گربه وقال ادّى شير فى مقدّمة كتابه[٤] وقد عرّبوا اللّفظة الواحدة بصور عديدة تقرب من الاصل قليلاً او كثيراً منها قولهم فى كهتر جيتر وجيدر وجعدر وجعبر . وفى تن پرور . تنبور وتنبل وتنبال وتنبول وتنْتَلْ وتعلّم هذه المعرّبات من بعض المستشرقين وقد يشتقّون من الالفاظ المعرّبة افعالاً مثل ما فى لغة لگام لجم يلجم فهو ملجم وقد استعاروا افعالاً من اللّغات الفارسية اواشتقّوا افعالاً من الفاظها الغير المعرّبة .

١ــ اذا ماكنت فى قوم شهاوى فلا تجعل شمالك جرده بيلا (نانا)

٢ــ وهذا غير الذى جاء فى الاشعار وضربت به الامثال وقيل فيه انه معرّب خورنگاه .

٣ ــ تهذيب الالفاظ ج١ ، ص٥١ . ٤ ــ الالفاظ الفارسيّة المعرّبة ص٤ .

الفنّ والادب

اختلفت انظار الفلاسفة فى الآداب والفنون فافلاطون يرى ان الفنّ احط من الفلسفة لان الفنان عنده لايستمدّ فنّه من العقل والتفكير بل يستمدّه من الوحى والقلب وهذا ليس فى مستوى المعرفة العقليّة فالفنّان لايصدر عنه التّصوير الجميل بناء على قواعد قد وضعت بل هو يعمل بما يشاء ويلهم ويسير فى فنّه بلادليل كما ان الشاعر يجرى على لسانه القول الحكيم والشعر الجميل ولكن لايعلم كيف كان ويجب عنده ان يكون الفنّ خاضعاً للاخلاق والفلسفة فالشعر مثلاً لايسمح منه الّا بما يعين على الفضيلة لان الغرض الاهم هو تفهّم المثل والادب والفنّ انما هو معين على فهم هذه المثل وليس غاية فى نفسه .

وعند ارسطو على نوعين فنّ يكمل الطبيعة كالطب . وفنّ يقلّد الطبيعة ويخلق جديداً وهو الفنون الجميلة من تصوير وشعر وليس هذا التقليد تقليداً للافراد والجزئيّات بل هو تقليد للشىء الكلى فى فرد . لان الفنّان اذا صوّر انساناً فهو لايصوّر فرداً يراه . وإنّما يصوّر فيه المثل الاعلى للانسان . او الفرد الكامل منه فهو يلقى على الصّورة نغمة ممّا يتصوره من الكمال[1] . فالانسان العادى ينظر الى الفرد من النّاس كانه فرد ، امّا الفنّان فيرى الانسانيّة فى الفرد فيلقى على الصّورة شيئاً من هذا

١ — لايكفى ان يكون التمثال جميلاً . ولايكفى ان يخرج المثال آية فى الحسن والإتقان . ولايكفى ان تخرج ريشة المصوّر صورة تزرى بجمال الطبيعة ومثلها الاعلى . بل يجب فوق ذلك ان يحمل التمثال رمزاً ومعنى . وان تشمل الصورة مغزىً ودرساً .

النظر العالى كما انَّ الشاعر يجب ان يحمل الفاظه العذبة ومفرداته المسبوكة وكلماته المنمقّة الموشّاة بالذهب على استار الحرير جميل المعانى الّتى تتّفق مع اللّفظ روعة وجلالاً ومن هنا كان الشعر اقرب الى الحق او الى الفلسفة من التاريخ . لان التاريخ يبحث فى الجزئيّات من حيث هى جزئيّات امّا الفنّ ومنه الشعر، فيتعلّق بروح هذه الحوادث الّذى لانفسى . فاذا نحن رتّبنا الفلسفة والتاريخ والفنّ حسب اهميّتها كانت الفلسفة فى المرتبة الاولى لانها تبحث فى الكلى من حيث هو كلى . ويليها الفنّ لان عرضه هو الشىء الكلى متحقّقاً فى جزئى ثمّ التاريخ لانه يبحث فى الجزئى من حيث هو جزئى واحدث الآراء فى الآداب والفنون انها غاية فى نفسها وليست وسيلة لشىء آخر . وان الشىء الجميل له فى نفسه قيمة ذاتيّة وان الفنّ يحكم بقوانينه هو وبمقتضى مقائيس الجمال ومن هنا شاع على ألسنة الادباء الفنّ للفنّ . فاذا كانت الفلسفة النظريّة غايتها الحق والفلسفة العملية غايتها الخير . فان الآداب والفنون غايتها الجمال لا المقام والمال .

ومن العجب انَّ الرصا فى يقول ولقد تأمّلت فى هذا القول فلم اجد له محصّلاً ينطبق على المعقول اذ لا ريب ان الغاية هى مايكون لأجله وجود الشىء فهى اذن علّة الوجود وليس من المعقول ان يكون الشىء علّة لنفسه فاذا قال الشاعر قصيدة فليس من المعقول ان تكون القصيدة نفسها هى الباعث له على قولها . وكم من عائب قولاً صحيحاً ؟ وآفته آه

ثمّ يقول سألت عن تحقيق معنى هذا القول بعض من يقولونه فلم يجيبوا بما يشفى الغلّة ثمّ انى اطلعت على كتاب فى علم النفس نقله من الافرنسيّة الى التركيّة نعيم بك مدرّس علم النفس فى دار العلوم بالآستانة فقرأت فيه بحث قولهم (الصنعة للصنعة) وعلمت منه ان ليس معنى هذا القول ان الفنون الجميلة لا غاية لها بل معناه انها لا تحتاج فى وجودها الى مادّة خارجة عن غايتها كالنّجارة مثلاً فان النجّار يحتاج فيها الى خشب يصنع منه كرسيّاً والخشب خارج عن غاية الكرسى بخلاف الصناعات العالية الى ان يقول هذا هو معنى قولهم (الصنعة للصنعة) وهو معنى صحيح لا غبار عليه ولا يلزم منه ان الأدب ليس له غاية كما يقولون بل الصّواب ما قلناه ان العلم مطلوب ذاتاً واصلاً ونفساً لا تبعاً وعرضاً او توصّلاً وتطفّلاً ولكن الجواد قد يكبو والصارم قد ينبو ذلك بانه لم تكد الدولة العربيّة تنبعث فى الحضارة حتّى ارسلت كلمة الفنّ للتعبير عمّا يقابل العلم فما كان قوامه ارسال القضايا الكلّية الّتى يتعرّف بها احكام ما يندرج تحتها من الجزئيّات . فذلك علم . وما كان قوامه العمل الجارى طوعاً للاصول والاحكام المقسومة . فذلك فنّ . فيقال علم الاصول وعلم الفقه . وعلم النحو . وعلم الصرف ، ولا يقال على شىء من ذلك فنّ . ويقال للخطابة وقرض الشعر والموسيقى فنّ ولا يقال علم . فقد بان لك انّ العلم مادّته الفكر والنظر . وان الفنّ مادّته العمل والأثر . والواقع ان الموضوع الواحد لقد

١ ــ تاريخ آداب اللغة للرّصافى ص ٣٧ .

يكون علماً وفنّاً معاً ولذا تجد بين اهل اللّسان من يعبّر عن الموسيقى مثلاً بعلم الموسيقى مرة وبفنّ الموسيقى مرة اخرى وعن البلاغة بعلوم البلاغة تارة . وبفنّ البلاغة تارة اخرى وهكذا .

والسبب انه من ناحية يكون كذا ومن ناحية اخرى يكون كذا فنحن اذا طلبنا الموسيقى مثلاً من جهة القضايا العامة من نحو تقسيم النغم الى اصليّة وفرعيّة . وأن هذه النغمة لا يفضى منها الى تلك الا بطريق كذا . وان هذه لاتقع فى جواب تلك الّا بشرط كذا . فلاشك ان الموسيقى على هذا علم لا فنّ : فاذا غنّى المغنّى بالفعل او أخذ السائق يحدو فتصرف فى فنون النغم طوعاً لتلك الاحكام فلاريب فى ان الموسيقى على هذا فنّ لا علم . وكذلك نقول فى علوم البلاغة ، فما قررت من احكام الفصل والوصل . والايجاز ، والإطناب ، والمساوات ، والاستعارة . والتشبيه والجناس والتورية والتقسيم . فتلك علوم البلاغة حتّى اذا ارسلت القلم بالكلام البليغ فذلك فنّ البلاغة .

لتفنّنت فى الكتابة حتّى عطل النّاس فنّ عبد الحميد

وكذلك القول فى الهندسة وفى كلّ ماتجرى عليه احكام القضايا النظريّة ، بحيث يمكن ان يكون له اثر محسوس فى خارج الاعيان كما يقولون على ان العامّة قد تبسّطوا بوجه خاص فى هذا الباب حتّى دعوا كل مهنة فنّاً – ومهما يكن من امر فان اللّغة فى اطّرادها وتوسّعها لم تكن تأبى ادراج هذه الحرف والمهن فى جريدة الفنون . لانها وان لم تقعد لها القواعد وتعقد لها القضايا فى الكتب .

إلّا ان اصحابها قد تغنوا عن ذلك بطول العلاج والتمرين . وما كشفت لهم التجاريب على طول السنين – وقد جرّد المتأدبون من ابناء هذا الجيل كلمة الفنون للفنون الجميلة خاصّة وعلى ذلك اصبحت كلمة الفنّان الّتى كانت فى اللّغة بمعنى الحمار الوحشى يعنون بها صاحب الفنّ الجميل.

وبعد اذ فرغنا من تاريخ هذه الكلمة من اوّل منجمها فى لسان العرب الاوّلين ومتون المعجمات وتصرّفها فى وجوه المعانى حتّى مصيرها اليوم – بعد هذا يحسن بنا ان نلم إلمامة يسيرة بنشأة الفنون وتطوّرها واضطرابها بين مختلف الاوضاع والاشكال .

لاشك فى ان منشأ الفنون على وجه عام . انما هو الغريزة فالحاجة هى الّتى تدفع الانسان الى ان يبتكر الفنّ ابتكاراً اوان ينقله نقلا ويقلّد فيه تقليداً سواء أكان ذلك عن الحيوان ام عن الطبيعة نفسها بحيث يكون هذا النقل والتقليد على الوجه الّذى يوائمه ويواتى اسبابه .

واريد بالحاجة مايعم الضروريّات والكماليّات جميعا . فحاجة الانسان الى التواء فى المأمن هى الّتى هدته الى بناء الدور . وحاجته الى عبور الانهار هى الّتى هدته الى اقامة الجسور . ومن ثمّ نجم فنّ الهندسة . وقل مثل هذا فى سائر الفنون الّتى تدعو اليها ضروريّات الحيات كما ان استراحته الى تنغيم الطيور وتسجيعها، وتغريدها وترجيعها، ومايجد لذلك من طرب ويدخله من اريحيّة قد بعثه وأثاره على التنغيم والترنيم . وكذلك نشأ فنّ الموسيقى . وقل مثل هذا فى كلّ فنّ جميل .

وبعد، فانت خبير بان الفنون كلّها، وان نشأت بسيطة غاية في البساطة، ضئيلة غاية في الضّآلة بحيث لاتوافي إلّا ادنى الحاجة فانها على الزّمن لاتفتأ تتسع وتتركب. وتتشكّل وتتلوّن، طوعاً لسنّة الإطّراد في تفقّد سائر مطالب الحاجة اوّلاً، ثمّ التدرّج في التماس الأحسن ثانياً ثمّ التأَنّق في ابتغاء الكمال ثالثاً. ولايزال الانسان يجدّ في السعي لبلوغ هذا الكمال. ولكنه غير بالغه مهما تراخى الزّمان بحال. ولقد تعلم أن الفنون في تطوّرها، وتلوّنها، وتهذّبها، وارتقائها والاساليب الّتي يجري فيها كلّ اولئك خاضعة للزمان والمكان، والجوّ ومألوف العادات. ومأثور التقاليد وحظّ القوم من التعليم والتثقيف ولذلك كان الفنّ مظهراً من مظاهر الحضارة بل هو مقياسها لدرجة رقيها ومفاد هذا التعريف انه كلّما ارتقت الامّة ارتقى معها فنّها. ثمّ ان للفنّ اطواراً يتعاقب فيها ازدهاره وقد يضعف شأنه ولا يمكن ان ينقرض مهما أوغل الانسان في المادّية وانصرف اليها وفي الحقيقة مادام للانسان شعور وعواطف فسيظلّ الفنّ باقياً. فاذا قضى على الانسان بان يموت شعوره وتزول عواطفه قضى على الفنّ بالإندثار. وفي هذه الحالة يصبح الانسان مخلوقاً ميكانيكياً اقرب الى الالة الصّماء منه الى المخلوق العاقل.

ولمّا كان الذوق مرجع الفنّ قالوا ان الفنّ وحي يهبط على كلّ فرد بمقتضى ادراكه وقوّة شعوره فقد تكلّف نحّاتاً ايطاليّاً ان يصنع تمثالاً لقيصر وتكلّف نحّاتاً فرنسياً ان يقوم بذلك العمل عينه. فيقوم الاثنان

بمهتمها خير قيام ويصنعان تمثالين يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً مع ان كلّاً منهما يكون آية من آيات الفنّ ، ولو كان ذانك النحّاتان من علماء الحساب وكلفتهما حلّ مسألة حسابيّة لجاء حلّ كلّ منهما مماثلاً للآخر مماثلة تامّة – ولقد رأيت تمثال المسيح فى الولايات الامريكيّة والممالك الاوربائيّة اشكالاً مختلفة فى معابد الانجليز تراه جرجيا وفى امريكا ترى على صورة رئيس الجمهور – وذلك لان العلم يقوم على اسس ونواميس ثابته لايمكن مخالفتها . واما الفنّ فمرجعه الى الذوق والعواطف والمشاعر وهى تختلف باختلاف الاشخاص – وليس معنى ذلك ان الفنّ طليق من كلّ قيد لاقواعد له ولاروابط . والحق ان له منها الشىء الكثير . ولكن تلك القيود والرّوابط استبداديّة مرجعها الى الذوق والعرف . وكثيراً ماتؤثر فيها العوامل التاريخيّة والطبيعة والاقليميّة والجوّية وغيرها . وفى الحقيقة انك تستطيع ترويض الذوق وطبعه بطابع البيئة واخضاعه لشتّى المؤثرات كالعادة مثلاً فقد يكره المرء المرأة النحيلة الجسم الزرقاء العينين الشقراء الشعر . فاذا اقام ببعض انحاء اوربا الشمالية اعتاد رؤية النساء اللواتى تكثر فيهن الاوصاف المذكورة فيراض ذوقه على استحسانهنّ ويصبح معجبا بالنحيلات الشقر ، ذوات العيون الزرق ،وهذا دليل على ان الذوق يختلف باختلاف الزّمان والمكان وامّا العلم – ونقصد العلم الصحيح لاالنظريات العلمية غير الثابتة فلايختلف ولاتؤثر فيه الاعتبارات المكانيّة والزمانيّة لانه يقوم على نواميس الطبيعة والنواميس

الطبيعيّة ثابتة لاتتغيّر ولاتؤثر فيها البئية اوغيرها .

ان تعليم البنين والبنات العلوم والفنون لايفيد وحده بل يجب قبل كلّ شيء تربية الرّوح حتّى يصير الطفل متى شبّ رجلا شجاعاً ممتلئاً بالوطنيّة الحقّة بالمبادى الجنسيّة . وتصير الطفلة متى شبّت وصارت أمّا ورئيسة عائلتها امرأة رشيدة مدبّرة تعلّم اولادها محبّة البلاد وتغرس فى قلوبهم وجوب التفانى فى خدمة الامة وفى اعلاء شان الوطن العزيز ، فتكون بذلك المدارس منبع حياة الامة ومصدر وجود جديد . ويجب قبل كلّ شيء ان تكون التّربية الدينيّة اساس التّعليم والتهذيب . فالدين عاصم من الدنايا . رادع عن الخطايا معلم للفضائل محبّب للكمالات . ومن هنا قلنا انّ وتر الدّين حسّاس يستولى به الخاصة على العامة .

قال ابن قتيبة ، من أراد ان يكون عالماً فليلزم فنّاً واحداً ومن اراد ان يكون اديباً فليتسّع فى العلوم ،واتّخذ الخلفاء والامراء فى العصرين الاموى والعبّاسى معلّمين لاولادهم يسمّونهم المودّبين وكان المؤدّبون حين يروون القصائد والامثال والخطب يذكرون طرفاً من اخبار اصحابها ونبذاً من الواقعات الّتى قيلت فيها فاستعمل الأدب فى الشّعر والنّثر ومايتصل به من اخبار ونوادر وسمّى من يروى الادب واخباره ويعلّمه اديباً وامتاز الأديب من الشّاعر والكاتب فاذا غلب على الرجل درس الأدب وتعليمه فهو اديب واذا غلب عليه انشأ الشعر فهو شاعر واذا غلب عليه انشاء النثر فهو كاتب وربما جمع الرجل هذه الالقاب كلّها .

فالادب في العصر الحديث يشمل التاريخ والسيرة والشعر والمقال والقصّة وهذه الاخيرة اكثر انواع الادب ذيوعاً والسيرة والتاريخ قد احتلّا مكاناً ممتازاً وقد ندر ادب المقال وصار الشعر الجيّد قليلاً جداً .

وقد صحب تطوّر الادب تطوّر الفنّ على مرّ الاجيال من يوم كانت تهتزّ امة بشيبها ومردها وحرائرها وامائها وضيعها وشريفها لصوت شاعر واحد من عهد هو ميروس يونان وفتاحوت مصر واعشى عكاظ وحسّان بن ثابت شاعر الاسلام الى عهد دانتي وشكسبير وغوته وفكتور هوجو .

وبما ان لسان العرب شعريّ بطبعه ومعدّات النظم متوفّرة فيه لرائديه وحبّ التقليد وحسّ المحاكاة منطبع في النفوس بما مرّ عليها من ازمان الخمول فلا يكاد الطالب يلمّ باصول اللّغة حتّى يخرج الى الشعر متأثّراً خطى الاقدمين فلا هو ناشىء نشوءهم ليأتي ببلاغتهم ولا هو بمستنبط امراً ومبتدع فكراً ليجيد ويفيد .

اطّلع هولاء الشعراء بل الناظمون على بعض الدواوين ومنظومات العرب فاستسهلوا منها المدح والهجاء والغزل والرّثاء وما هي بالابواب السهلة كما يزعمون فرأوا أن ينهجوا نهجهم فما ادركوه ولم ينزعوا منزعاً آخر فحبط مسعاهم .

على ان الشّعر ليس بالعلم الّذي ينال بالجدّ والمثابرة وان زعم الخوارزمي خلاف ذلك . فان لم تسقه سليقة فطريّة ظلّ تافهاً على ممرّ السنين وهو امّا جيّد وإمّا رديّ ولا ثالث بينهما فمن لم يأنس من نفسه الاجادة فيه فَلْيَنْبذه وليتغنّ بشعر غيره اذا شاء . فما هو خير من افلاطون

فيلسوف اليونان اذ طمع بمجاراة هو ميروس وماهو ان شعر بالضعف والعجز حتّى طلق الشعر بتاتاً واجتزأ بالنثر فكانت له فيه الآيات البيّنات.

ولكن السليقة او القريحة وحدها باتت اليوم غير وافية بالمراد. فلقد كانت كذلك يوم كان كلّ علم القوم بمسموعهم ومشهودهم على نحو ما كان عليه العرب فى جاهليّتهم. امّا الآن والعصر عصر علم وجدّ واستنباط. فلابدّ للشاعر مهما توقّد ذهنه وذكت نيرانه من درس ومثابرة وسعة اطّلاع ومراقبة. ثمّ ان الزّمان قد تغيّر فلابد لنا من مجاراته. فنحن على غير ما كان عليه الأقدمون من خلوّ الذهن وصفاء العيش وهيهات ان نبلغ فى عصرنا شاؤهم فى عصرهم مالم تتغذ نفوسنا بغذاء زمننا كما تغذّت نفوسهم بغذاء زمنهم ذلك ان العرب عاش قبل ان يوحّد الاسلام بينهم – قبائل متفرّقة فى حياتهم وتعدّد معتقداتهم. ليس لهم فنّ خاص يمتازون به. ولانصيب لهم من فنّى العمارة والنحت، غير انهم أشبعوا ميولهم الفنّيّة بحبّهم للألوان، وبما احاطوا به انفسهم من وافر الزهر ويانعه ممّا ينبت فى كلّ مكان من بلادهم. وبغضّ النّظر عن الوسائل الفنّيّة الاخرى عبّر العرب عن احساسهم بالجمال وفيما التزموه من دقّة صارمة فى تعبيراتهم واساليبهم الكتابيّة والخطابيّة. وفى سنة ٦٤١ ميلاديّة، وقبل ان يمضى على وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم تسع سنين. غزا العرب بلاد فارس ووضعوا ايديهم على اصول الحضارة الساسانيّة وفنونها. وغدت هذه الحضارة مصدراً هامّاً من مصادر الفنّ الاسلامى – ادهش العرب ماوجدوا فى البلاد الفارسيّة وإن

شئت فسمّها مملكة البلبل والورد من الوان الحياة الرغيدة والنعمة فى العيش . ومن انواع الفنون والطعوم ، على انهم ادركوا حاجتهم للتقاليد والثقافة ادراكهم لحاجات امبراطوريتهم العظيمة فأقاموا انفسهم رعاة للفنون والآداب اينما ذهبوا وعملوا منذ استقرارهم بفتوحهم ، على تغذية الفنّ والادب بما يتّفق وحاجات الاسلام – ومن الغريب انه برغم حبّ العرب للجمال . لم يظهر من بينهم كثيرا وقليل من اهل الفنون والواقع ان الفنّ الاسلامى يدين بوجوده الى اناس من مختلف الشعوب والفضل فى ذلك ايضاً لايران فاسبغوا على ذلك الفنّ كلّ مالديهم من مواهب واحساس بالجمال ويظهر اثر ذلك واضحاً فى فنّى المعمار والزخرفة فى المعابد والمشاهد.

كلّ علم نافع فهو فى الشريعة الاسلاميّة فرض كفاية . ان لم يوجد فى الامّة من يتحقق به اثمت الامة جميعاً ، وان قام به البعض سقط عن الباقين . ولا يعرف مثل هذا الأصل الاجتماعى فى غير الاسلام ، ولم ترتق الامم الحديثة الا به : فان لكل علم رجالاً ينقطعون له. ويحيون به ويموتون عليه ، وهم درجات تبنى فى تاريخ الانسانيّة : فالاسلام كما ترى يفرض على اهله ان ينبوا فى هذه الانسانيّة ، والامم تفعل ذلك تطوعاً وللحاجة. وبهذا يكون الاسلام اصلاً فى التشريع الاجتماعى وماعداه كالفرع .

على ان الحياة الحاضرة نفسها لاتسمح قطّ لاحد بالبقاء بمعزل تام عن تأثيرها على اختلاف مناحيها . فالعالم الّذى يصح ان يقال انه منقطع عن الحياة فى برجه العاجى لاوجود له اليوم . فان الحياة الحاضرة لها

من القوة على النفاد ماليس لاحد دونه مناعة ، فنحن سواء اردنا ام لم نرد ـ ممتزجون بها ولا مندوحة لنا من ان نحياها ونفكّر فيها مع ساير العالمين . وكما ان المتوفّر على الادب الّذى لايلمّ بطرف من العلم يعتبر اليوم بعيداً عن الرّقى ، فكذلك شأن العالم الّذى لم يتذوّق شيئاً من الفنّ والأَدب .

الفرق بين العلم والفنّ : ان مرجع الاول الى العقل والمنطق والنواميس الطبيعيّة ومرجع الثّانى الى المشاعر والعواطف . ولذلك ترى ان المسائل العلميّة ـ كالحسابيّة مثلاً لايختلف إثنان على طرق حلّها او على نتايجها . فمجموع اثنين واثنين اربعة لاخلاف فيه . وتأثير السموم فى الأحياء معروف لايتطرّق الشك اليه . ونواميس الكيمياء وعلم الهيئة والطبيعة وغير هذه ثابتة لاسبيل الى الريبة فيها وعلى هذا فالشعر والقصص والنقد والبحوث الاجتماعيّة والتاريخيّة والفلسفيّة تسمّى ادبا وبحث الظواهر المادّيّة على اساس الملاحظة والتجربة يسمّى علماً .

ولقد كان ادب الاروبى فيمامضى لايحفل بالعلم وابحاثه ونتائجه وكان الاديب ينظر الى الطبيعة فيستملح جمالها الظاهرى وهو لايدرى من سرّ هذا الجمال شيئاً وكان ينظر فى النفس البشريّة وخفاياها ومعضلاتها نظرة الملاحظ الّذى لايَسْتند الى ايّ كشف علمى والّذى لايهتدى الا بخياله وتصوّره فقط . فلما تقدّمت الحركة العلميّة فى القرن السّابق وازدهرت العلوم الطبيعيّة احسّ الادباء انّ من واجبهم الانتفاع بهذه الحقايق الجديدة الّتى كشف عنها العلم . فاخذوا يطالعون آخر ما اهتدى

اليه العلماء فى مختلف مناحى الحياة ويسترشدون به فى وضع القصص على نحو ما فعل هوجو وأميل زولا فإن الادب كسائر الفنون[1] ينبع من الغريزة قبل العقل وهو شعور قوىّ بالحياة اكثر منه معرفة عاقلة بها.

وقد يكون الاديب على جهل تام بعلل ظواهر الطبيعة واسبابها الّتى يعرفها العالم. ثمّ يكون فى مقدوره ان يحسّ تلك الظواهر احساساً عميقا ويرسّم لنا منها صورة صادقة.

والحقيقة ان الاديب يؤدّى ماقد خفى عنّا من صور و ألوان الظواهر الطبيعيّة المحيطة بنا والعالم يجمعُ ملاحظاته الخاصّة وملاحظات الاديب وصوره المتعلّقة بتلك الظّواهر ثمّ يرتّبها وينظّمها ويحدّدها ويستخلص منها نظريات عامة تهدى المفكر والفيلسوف فى دراستهما الحياة وقيمة الانسان هى فى بحثه عن حقيقة نفسه وقيمة الاديب هى فى عثوره على هذه الحقيقة. ومن المحال ان يتمّ ذلك بدون معرفة حقائق الغير فالاقبال على دراسة العلم ومختلف فروع الثقافة من شانه ان يطهّر عقل كلّ اديب من جراثيم الخيال الزائف. ويدنيه من الحقائق الواقعيّة وتحكّم الصلة بينه وبين الحياة الدّنيا. ويوسّع دائرة تفكيره ويصقّل ملكاته ويشحذها ويساعده على اكتشاف نفسه وتوكيد شخصه المستقل.

١ـ الفن واحد الفنون وهى الانواع والفن الحال. والفن الضرب من الشىء والجمع افنان وفنون يقال رعينا فنون النبات وأصبنا فنون الاموال ترى ان كلمة فن تدلّ بالوضع اللغوى على النوع والحال ويدل الفعل منها (فنن) ويفنن الكلام على الاشتقاق فى فن بعد فن اى التصرف فيه.

ليس الفنّ امراً كماليّاً ولكنه امر ضرورى للحياة الّتى لو خلت من الفنّ لكانت بالعدم اشبه والى الفناء اقرب بل العالم صورة للفنّ فى اروع مظاهره .

وليس كلّ اديب فناناً فهناك الاديب الصادق فى فنّه وليس الفنّ فى الشعر وحده او الادب وحده او الكتابة وحدها فالمزارع فنّان حين يزرع ارضه على نحو يشعرك لاوّل وهلة انه يجب الجمال . والطاهى فنّان حين يقدّم طعامه على وجه ترتاح فيه الى تذوّق الطعام من يديه انّما يراد به الحذق فى اىّ عمل كان ممّا يدخل السّرور على النفس ويبعث الانشراح فى الصدور ان الانسان اذا اراد ان يعمل عملاً فاوّل شىء يقوم به هو التفكير فيما يستعمل. وهذا التفكير مركزه المخّ اى العقل . ويلى ذلك اعداد المادة ثمّ العمل فيها امّا بنفسه او بوساطة غيره وامّا بآلة او بغير آلة هذا مع وجود الارادة للعمل والقدر عليه فهذه العناصر مجتمعة او أىّ عنصر منها مع الحذق تكون الفنّ فيرى القارى من هذا ان الفنّ عمل من اعمال المخّ الابتكاريّة وفى الوقت نفسه يحتاج لفعل من الافعال الجثمانية أى للحذق ما الفنّ والادب الا قوة التعبير عمّا يكمن خلف المرئيات من جمال ابدى وحقايق خالدة ـ ما الفنّ الا قوة التعبير عن ضمير المادّة وروح الأشكال ولكى يستطيع الاديب او الفنّان ان يذهب فى هذا التعبير الى حدّه الاكمل يجب ان يحذق دراسة نفسه اوّلاً . وملاحظة العالم الظاهرى ثانياً . والإندماج فيماوراء هذا العالم الظاهرى ثالثاً . ويجب ان يعرف كيف يكتشف

شخصيّته ويستجلي بواطنها ويرقب انفعالاتها وميولها ويحسّ مافيها من فتنة الغرابة والاستقلال أوفى شعور وأبلغه – ثمّ يجب ان تكون نفسه من الخصوبة والرحابة بحيث تتّضع وتتضاءل وتشعر بنفوس النّاس جميعاً والوان واشكال الكون جميعا كى تحبها وتفهمها وتحاول التعبير عنها جميعاً .

كلمة فنّ او مايعادلها فى اللّغات الاغريقيّة اواللّاتينيّة تستعمل فى معنى الجمال والظّرف وهو التفسير الّذى وضعه المفكّرون المحدثون . وكانت معناها الوسيع فى القديم يتضمّن معنى المهارة والمقدرة . فقداستمدّ من الأناة والصبر فى التمرّس والمزاولة واتجه نحو غاية بعينها كائنة ماكانت الغاية . جماليّة او اخلاقيّة او نفعيّة . وتبعاً لمايقصدون اليه من اغراض وتنطبق على الفنون الجميلة بمعناها الحديث وعلى الرغم من أننا نتكلّم بطريقة مجازيّة عن فنّ الطهى . وفنّ الحياة وفنّ الحرب وماالى ذلك فانه لافن الطهى ولاالحياة والحرب ممايمكن ادراجه تحت قائمة الفنون مثل العمارة والنحت والتصوير اوالشعر والخطابة والكتابة فى ضوء التفكير .

قد تكون معرفة الفنّ اسهل من معرفة العلم وبعبارة اخرى اسهل من معرفة الحقيقه لان الفنّ عمل والعلم فهم . ونحن على العمل اقدر منا على فهم الحقايق . ولذلك سهلت الحياة لانها فنّ وصعبت معرفة الحقايق لأنّها علم وانك تستطيع ان تعلم انك اذا صنَعْت القطار على نمط صحيح لايصطدم ولاتخرج عجلاته . وتستطيع بقدر الامكان ان تتّقى الاحداث . وتستطيع ان تترقب النجاح فى عمل اذا سرت فيه سيراحسناً لان هذه كلّها

فنّ لاعلم وحتّى انت فى هذه عرضة للخطأ فقد يحدث ماليس فى الحسبان
ويخرج القطار عن القضيب ويصطدم بجاموسة مرت عرضاً فى الطريق.
وتصطدم سيّارتك بمالم تقدر مطلقا انها تصطدم به فكيف الحقايق المجهولة
ان كان ذلك كذلك فكيف نأمل ان نعرف العقل والنفس وحقيقة
الشّعور ومالى ذلك، كلّ مانتحدّث به عن هذه الاشياء ألفاظ جوفاء
وتشدّق سخيف لاحقيقة وراءه. ولوانصف مؤلّفوا المعاجم. ومحاولوا
التّعريفات، لكفوا عن ذلك لانهم لايصلون الى حقيقة، وانما يدورون
حول انفسهم ولو دقّقت النّظر فى تعريفاتهم، لوجدتها تعريفا بالمثل لاتعريفا
بالحقيقة وشرح الاسم لاالحد والرسم. واكثر النّاس يعيشون بعقايدهم
لابعلومهم وبصائرهم. وبخرافاتهم واوهامهم لا بعقولهم وافكارهم.
فكيف وعقلهم لايدرك حقيقة ما حوله. مااعجز الانسان يجهل نفسه
ولا يعرف شخصه ثمّ هو يؤلّف ويصنّف ويدّعى انه العالم الكبير
والفيلسوف النّحرير ويزعم انّ الّذى يعتقده حقّ لاباطل فيه وعقيدة
غيره باطلة لاحقّ فيها رحم الله امرءً عرف قدره ولم يتعدّ طوره.

الاحكام الفنّيّة والادبيّة لاترجع الى اصول مقرّرة يجرى تطبيقها على
نمط واحد بين جميع النقاد لان الآداب والفنون ترجع الى الاذواق وهى
مختلفات، والى الاحساس وهو يتغيّر فى الانسان الواحد مرّات والى
التّعبير والنّاس يختلفون فى العبارة عن المعنى الواحد باختلاف الملكات
والاساليب ولكنّنا نبالغ كثيراً فى تصوّر هذه الحالة فنحسب انها هى

الفوضى وليست هى كذلك فالنّاس لا يتّفقون على استحسان الحَسن من ثمار الآداب والفنون وهذا يخيّل اليهم ان الامر فوضى لامقائيس له ولاضوابط فيه .

ولكنهم كذلك لم يتفقّوا قطّ على استحسان القبيح والاعجاب بالمبذول الوضيع وانما يظهر لنا اذا نحن قابلنا بين المقائيس الفنيّة وبين المباحث الّتى هى مضرب المثل فى الحكم المضبوط والدعامات المؤسّسة والاصول المتّفق عليها . ولنقابل اولاً بين الفنّ والقانون فى حدود الاحكام فكثيراً مايتّفق ان تعرض القضيّة على احد القضاة فيبدى فيها رأياً يعارضه الاستيناف ثمّ يأتى النقض فلايستريح الى حكم الاستيناف ويبدى فيها راياً يخالف الرّأيين. ثمّ يأتى واضع الشّريعة فيلغى القانون الّذى صدرت هذه الاحكام على اساسه ويضع فى مكانه قانونا جديداً يجعل المجرم فى عرف الشّريعة الاولى بطلاً فى عرف الشّريعة الاخيرة فَهْل يقال ان الامر فوضى بل لكلّ حالة من هذه الحالات سبب معقول وتعليل سائغ فى اصل من اصول القانون وهناك حدود قائمة وان اختلفت اماكن هذه الحدود. وندع القانون ونضرب المثل بالطّعام وهو شىء تلمسه الايدى وتمضغه الافواه وتحسّه المعدات . فهل يتّفق النّاس فيما يأكلون ؟ وهل يتّفقون فيما يجلب الصّحّة من الغذاء وفيما يضعّف الجسم ويجلب الدّاء كلّا ان ماهو شفاء لانسان سمّ لانسان آخر وان مايشتهيه هذا يعافه ذاك وان مايؤكل فى بلد قد يرمى فى بلد آخر . ولكنّنا لن نرى مع ذلك طعاماً واحداً يأكله

انسان واحد الّا وفيه مادّة غذاء تصلح للاجسام الحيّة فلا اتّفاق على الاصناف المأكولة او المختارة ولكن هناك اشياءِ متّفق على نبذها بغير مراء لأنهاليست من الغذاء لايقال يوجد فى النّاس من يأكل الطّين ويطعم منه فانّه مريض والكلام فى الانسان المستقيم ومن له ذوق سليم

ومن يك ذا فم مريض يجد مرّاً به الماء الزّلالا

وما الشأن فى الآداب والفنون غيرهذا وذاك .

ففى الآثار الادبيّة اشياء حسنة ينكرها بعض القرّاء مافى ذلك ريب ولكن هذا لن يجعل الحسن قبيحاً ولا القبيح حسناً وان تفاوت التّقدير وهنا يرد علينا سؤال السّائل من الحكم الّذى نرجع اليه اذن فى تقدير الفنّ والادب والجواب الموجز عن هذا السؤال ان الحكم فى تقدير الفنّ والادب هو الّذى يستطيع تعليل حكمه ، وهو الّذى اذا عجز عن الحكم استطاع ان يعلّل عجزه بكلام سائغ فى الافهام .

ورجوع الرّأى الى هذا الحكم لن يمنع الجمهور ان يقرأ مايشاء ويستحسن مايشاء ولكن استحسانه ليس بحكم صحيح او مشروع على حدّ تعبير القانونيّين لان الحكم لابد له من اسباب .

كذلك الطّعام يأكل النّاس مايشاءُون منه ولكن الحكم فى صلاحه للغذاء وبيان عناصره وتحليل الموادّ الّتى تقابل منه موادّ البنية الحيّة امر لايسمع فيه كلام الآكلين عامّة وانما يسمع فيه كلام الطبيب القادر على التحليل والتبيين .

نعَمْ يحدث احياناً ان يرى الطّبيب غذاء مجهولاً لديه شائعاً بين أفراد امة من الامم ثمّ يحلّله فيهتدى الى صلاحه لتركيب الاجسام. فكلّ ماتدلّ عليه هذه المصادفة ان الجمهور يصلح للاكل ولكنه لايصلح للحكم فى المأكولات والفرق ظاهر بين الامرين كذلك يحدث أحيانا ان تشيع قصيدة بين العامّة . فاذا التفت اليها الناقد رأى فيها مايستحق الشّيوع. وربما غفل عنه النّاقد فى بداية الامر ترفّعاً عن ذوق العامة فكلّ ماتدلّ عليه هذه المصادفة انّ الناقد عرضة للخطأ فى بعض الأحيان او غير معصوم فى أحكامه على العموم ولكنّنا لاننكر على القاضى انّه قاض لانه غير معصوم .

ولايغرّنكم شيوع اسم كالمحيي الدّين بن العربى ولاشهرة كتاب كالفتوحات مثلاً فان شيوعه تقليد لايدلّ على كبير طائل واكثر من يذكرونه لايقرأونه واكثر من يقرأونه لايفهمونه واكثر من يفهمونه لم يكونوا يفهموه حقّ الفهم لولا الشرح والتعقيب من جانب الخاصّة والنّقاد والشعراء من اهل الفنّ والعرفاء .

واذا كان سعدى وحافظ قد اشتهرا فى زمانهما بين عامّة النّاس فهذا دليل على ان العامّة والخاصّة قد يلتقون فى الآراء والمشارب .

والخلاصة ان محاسن الاداب لاتخفى كلّها عن العامّة ولاتظهر كلّها للنقّاد والشّعراء والكتّاب غير ان الشأن فى ذلك كالشأن فى جميع المباحث ومعارض الآراء . والفطرة الانسانية هى المرجع الأَخير فى جميع هذه الامور وهى موجودة فى العوام والخواص أمّا الخواص فلهم حق الحكم لانهم

يعرفون اسبابه ويعرفون اسباب عجزهم عنه حين يعجزون . ولن يحجر ذلك على حق العوام فى الاستحسان فليس لنا حجز الافكار فقد مضى ذلك الزّمان وفنت تلك الأيّام والأوان والّذى نقوله ولا يجوز لنا الكتمان ان الاستحسان شيء يصدر عن العقائد لا المشاعر وما هو بقول شاعر وللنّاس فيما يعشقون مذاهب وقد تكلّم فى هذا بعض علماء الاجتماع وحقّق الامر وفرّق بين الرّأى العام والشّعور العام ونقتطف منه مايفيدنا وهذه الحقيقة قد خفيت على الأكثرين فافهم وكن من الشّاكرين .

كثيراً ما ترد كلمة الرّأى العام فى معرض الكلام عن حركات الجماهير واتجاه تيّاراتها وفى رأينا ان اطلاق هذه الكلمة فى هذا المعرض فيه كثير من التجوّز . فإن هذا الّذى تصدر عنه الجماهير ليس بالرأى العام بل هو الشّعور العام . وذلك ان الراى لا يكون الّا بتقليب النّظر واعمال الرّوية فى مجموع الوقائع وهو ما لا يتسع له الوقت ولا تسمح به طاقة الذّهن ومستوى التّعليم عند الدهماء والعامة .

ثمّ ان المفكرين مهما يكن اجتماعهم على جملة الراى فانّهم مذاهب شتى فى تفصيله . فالتّفكير مؤداه التّميز الفردى فى الاصول او الفروع .

واما الّذى يؤلّف الالوف من الجماهير فهو الشّعور الواحد يعمها ويملك عليها مشاعرها والجماهير يسهل تحريكها على من يعرف مخاطبتها باللّغة الّتى تفهمها وتؤثر فيها . وهى لغة حاجاتها ورغباتها وأمانيها . واحيانا لغة مطامعها وشهواتها ومثارات اعجابها او احقادها . وهو بتهييجه مافيها من هذه العواطف الطيّبة او الخبيثة عواطف الإثرة او الإيثار ، يذهلها

عن عقلها ويستولى على قيادها .

ثمّ انه كلما كان اتجاه الخطيب لخطابه الى السواد الاعظم حيث الجهل اعم كانت الفرصة انسب للكلام المفخم الاجوف والتوكيدات المتعسّفة والمبالغات الحسّية . وان خطيباً يجتمع له فى خطابه للجماهير بساطة الافكار ووضوحها ولهجة اليقين وقوة العبارة وحرارتها لقمين ان يسترعى أسماع الجماهير ويملك عليهم حسّهم . فاذا هو عاودهم كلّ حين ولم يزل بهم يردد عليهم نفس الافكار بنفس هذه الحرارة وهذا اليقين . فانه لامحاله بالغ من تحريك عواطفهم واستجاشتهم الى غرضه من مشاطرتهم رايه والتفافهم حوله وتفانيهم فى سبيل نصرته وتغليب مذهبه وان المرء ليعجب ولاينقضى له عجب من سلطان الالفاظ على الجماهير وحلولها فى اذهانهم محل الحقايق . وهم ابداً مصدّقون لها منخدعون بها وذلك لانهم انما يحكمون على الظّواهر ولايستقصون قطّ أمرا . فاذا استراحوا الى اللّفظ المطمئن لم يذهبوا وراءه الى الحقيقة الّتى لاتتفق والطمانينة كما انهم يهتاجون ويطير طائرهم ويفور فائرهم فلايلوون على شىء حين يكون اللّفظ المستعمل مقترنا فى اخلادهم بمايكرهون من مزاعم مغررة اوذكريّات اليمة ويروى التّاريخ ان القوم فى فرنسا كانوا فى غم شديد حين شاع فيهم ان نابلئون قلب الادارة الشعبيّة ونادى بنفسه ديكتاتوراً . ولكنهم تنفّسوا الصعداء حين علموا انه انّما نصب نفسه قنصلا أول[1] ومثله كروميل

١ــ فى الموسوعة كان القناصل الثلاثة هم بونابرت . كمباسيريس . ش ف لبران وبونابرت عين قنصلا اول مدى الحياة ١٨٠٢ .

فى بلاد الانجليز حين خلف الملك شارل الاول . فانه تسمى باسم السّيّد حامى الحمى . ومثلهما كريم خان زند لقّب نفسه وكيل الرّعايا .

ونحن نرى ساسة اليوم فى انحاء العالم يعمدون الى تسمية ماهو مستكره من الاجراءات باسماء جديدة مستساغة فاذا زادوا الضّرائب زعموا أنّها اعادة نظر فى التّقدير مقصوداً بها الى تصحيح الخطا وتسوية الحال.

فاسموها (تحرير الضّرائب) كما ان قولهم ضغط المصروفات وتوفير الايرادات قد يكون كناية عن التخفيض فى مرتبات الوظايف و الزّيادة فى الضّرائب . ولقد حذفوا اخيراً كلما ارادوا التّسليم النّهائى بتدهور سعر العملة الى حيث تدهورت . أن يتظاهروا بمواصلة الجهد ليل نهار . ثمّ لاتسمع منهم عن اعادة السعر الى سيرته الاولى شيئاً وانّما تسمعهم يتنادون (بتثبيت العملة) ويدّعون لانفسهم فى ذلك فضلاً .

والحق ان استحسان الجماهير رخيص . ويعرف ذلك خطباؤهم كلّ المعرفة فيضمنون خطبهم طائفة من هذه العبارات المحبوبة المرددة الّتى تعوّد الشعب التهليل لها كلّما ارتفع بها صوت القائل فى جهارة وطنطنة .

وليس أدّل على مبلغ آلية الاستحسان عند الجماهير ممّا يرويه الرّواة عن هذا الممثل الّذى كان يقوم بدور المتطبّب الدّعى فى احدى مهازل موليير وذلك فى اعقاب الثّورة الفرنسية واوّل العهد بقيام الجمهورية . فان المتطبّب فى الرّواية يبغى التسمع على قلب المريض شأن الاطبّاء جميعاً فيعمد الى ناحية الصّدر اليمنى فاذا أظهر القوم دهشتهم وروجع المتطبّب

ان موضع القلب فى الجانب الايسر صاح بالمتعجّبين من حوله (نحن نسخنا كلّ هذا) الّاان صاحبنا الممثل الجمهورى خطر له ان يزيد (نحن نسخنا كلّ هذا . . . (منذ قامت الجمهورية) ولاتسل وقتئذ عن حماسة الجمهور البالغة وتصفيقه القاصف لهذه الكلمة على الرّغم من سخافتها ومايحمله مدلولها من الاشارة الى قلب الاوضاع حتّى لتصلح تعريضا بالجمهوريّة لا اشادة بها ولكنّه الجمهور يهتزّ للكلمة الّتى يحبّها ولا يعنيه سياقها وقد صوّر الكاتب القدير والعبقرىّ الشّهير مصطفى لطفى منفلوطى فى روايته يوليوس قيصر تأثر الرّأى العام ببلاغة زعمائه الّتى يستغلون بها سذاجة موقفه ويمتلكون بها عقول قومهم الّتى بها يفكرون . وعيونهم الّتى بها يبصرون فلايصدرون الّاعن ارادتهم ولايفكّرون الّابعقولهم وقد ابدع ايّماابداع فى موقفى بروتس قاتل قيصر ومخلّص الرّومان وانطونيوس مؤبّنه وراثيه واظهر الى أىّ مدى افتتن بهما الجمهور والى اىّ مدى تناقض فى حبّه وبغضه وإكباره وتألّمه، شكر الرّومان بروتس قاتل قيصر لأجل الرّومان وفى سبيل الرّومان فاسلموا له القياد وطلبوا اليه ان يتبوّأ العرش مكانه وحمل على الأعناق بعد ان تبوّأ منهم حبّات القلوب ثمّ استمعوا الى انطونيوس يرثى قيصر . ومااستمعوا له الّا لان بروتس طلب اليهم ان ينصتوا لان قيصر الطاغية غير قيصر الراحل فانصتوا وتكلم انطوتيوس فحرك من شوونهم وأنساهم انفسهم واستغل فى موقفه مابثياب قيصر من دماء وثقوب . ومابجسمه من طعنات وجروح حتّى اضطرمت

الفتنة وكان نصيب بروتس ماتعلم بعد حمله على الاعناق .

في قليل من ظواهر الحياة يكون للعقل حكم وللارادة سلطان . وفي كثير منها لا يكون لهما حكم ولا سلطان لا حكم للعقل ولا سلطان للارادة الّا اذا كان ثمة وقت للتفكير والتعليل والتأنّي والاستنتاج وأمّا في الأحوال المفاجئة وفي أوقات الحماسة او الإنفعال فيغلب التقليد على التعقل واذا كان الجهل سائداً يكون السّلطان للتقليد ومتى تسلّط التقليد والمحاكاة انهزم التعقل على هذا النحو ينتشر زيّ حلق الشّوارب وتعرية السّواعد والسّاقات وقص شعر النّساء يقول الاستاذ نقولا الحدّاد الانسان كالقرد يقلّد والتقليد ناموس طبيعي اذا صفّق مصفّق لخطيب صفّق الآخرون معه من غير حكم الإرادة واذا غنّى شخص غنّى معه الآخرون واذا رقص راقص تمايل الآخرون معه وقد يهبون جميعاً للرّقص اذا لم يكن ذلك مستهجناً في آدابهم واذا بكى باك بكى معه الآخرون واذا تثاءب تثاءبوا الى غير ذلك فاذا رآى فرد جماعة تنهزم او تعدو نحو غرض عام يبتغيه اى انسان جرى معهم لا اعتقاده بصواب عملهم من غير ان يتحقّق ان كان عملهم صواباً او ضلالاً . واذا تألب بضعة افراد على فرد يتّهمونه بفرية تجمع الجمهور حوله يشتركون معهم في إتّهامه من غير ان يتحقّقوا ان كانت التّهمة صحيحة او زوريّة وقد ينكلون به وهو بريئ والّذين اتّهموه مجرمون ، لم تنتشر الضّلالات بين العوام الّا بسبب تأثير عقلية الجمهور على عقل الفرد فالفرد يستمدّ معظم افكاره وآرائه من الجمهور وقليلون هم المفكرون الّذين يستقلّون بأفكارهم وأحكامهم

العلم والادب

يقصدون بالأدب أوسع ماينطوى تحت الكلمة من المعانى. وبعبارة وجيزة واضحة اعنى كلّ ماليس علماً . واذا صحّ لهم ان يقولوا انّ العلم مادّى محسوس من جهة . ويعزّز بالتّجارب فى معامل فنّيّة من جهة اخرى . جاز لنا القول ان الادب معنوىّ روحى ، لايستند على مقائيس مضبوطة ، ولايدخل فى دائرة المعامل التجريبيّة الدّقيقة وبناءً على هذا التّقسيم يكون الشّعر أدباً ويكون التكلم عن الصّدق والأمانة والعفّة والحرّية والنزاهة والاحسان والكذب والخيانة والفسق والإستبداد والمحاباة ادباً . ويكون الكلام عن الكهرباء والسّيّارات . والآلات البخاريّة والطيران والمحراث والذّكاء والغرائز والفحم الابيض وقانون العرض والطلب وخواصّ الموادّ واشعّة اكس اولتلغراف السلكى واللاسلكى والذّرّة والدّرة علماً . متى كان الكلام عن هذه كلّها نتيجة بحوث وتجارب عمليّة لقائلها ، اونتيجة بحوث سواه وتجاربه .

وقد تخرج الموضوعات الاولى ، كلّها او بعضها عن دائرة الادب ، وتدخل فى دائرة العلم متى كان الكلام عنها مبنيّاً على اساس علمى . اساس التّجارب العلمية . كما اذا فحصت طائفة من علماء النّفس والاخلاق الوفاً من النّاس فى مختلف اعمارهم فى مسائل واقعيّة . ودوّنوا لنا ارقاماً واحصاءات عن مبلغ صدقهم وكذبهم . والاعمار الّتى يكثر فيها الكذب . والاعمار الّتى يقلّ فيها . والطبقات الاجتماعية الّتى تكون اكثر ميلاً للصّدق من سواها . وتحديد الصّدق تحديداً يمكن اتّخاذه مقياساً عاماً

بعد استفتاء عدد كبير ممّن يعوّل عليهم فى مسائل واقعيّة تحتمل الصّدق والكذب . وقد تخرج الموضوعات الثّانية عن دائرة العلم وتدخل فى دائرة الأدب الشّرقى كالذّرّة او السفر الى القمر اذا وصفهما اديب الشّرقى ناطقاً اوكاتباً يقول معجزه القرن العشرين اعجوبة الكون والزّمان درّة فى جبين الدّهر وما الى ذلك من الصّفات والالفاظ والعبارات الّتى لاتحوى معنىً جديداً عن ماهيّة الذّرّة وكيفيّة السّفر ولاتحمل للقارى شيئاً للماهيّة وبالماهيّة على حدّ قول الحكماء ولاتفيده نفعاً علميّاً او عمليّاً قام هو اوسواه به فانّ هذا الكلام لايسمّى علماً .

بهذه المقدّمة اردت ان امهّد للقارى الاسباب الّتى حدت بى ان اسميّه الادب الشّرقى . وان هذا النوع من الأدب خلو فى الغالب من النزعة العلميّة — معدوم من الرّوح العلمى . اجوف كثير الزّهر عديم الثّمر سطحى فقير المعنى منمّق خارجه . فارغ داخله .

ان موضوعات الأنشاء فى مدارسنا أمّا خياليّة (فلسفية) عنواناً . او حسّيّة عنواناً ومعنوية موضوعاً . اعنى انها فى كلتا الحالتين لاتشمل حقايق ومعارف، كذلك كتب المطالعة كذلك طائفة كبيرة ممّا نكتبه يوميّاً فى الصّحف والمجلّات . اقرء عنوانات الموضوعات الانشائيّة الّتى تعطى للطلبة فى اوربا وامريكا — الكيمياء فى الصّناعة . الكيمياء فى الزّراعة . كيف يولع الاطفال بالطّيور الداجنة وكيف يربّونها ؟ تحسين النسل فى الحيوان وفى الانسان . معنى المدنيّة . الفنون الجميلة فى اثاث المنازل .

تطوّر فنّ المعمار فيما يناسب وسائل الرّاحة وهذه كما يرى القارى متّصلة بالحياة اليوميّة. ومايكتب فيها أيضاً متّصل بالحياة اليوميّة.

وربما كان نوع التّربية الّتى نشأنا عليها فى مدارسنا سبب ابتلائنا بهذا الضّرب من الأدب فمعلّم الانشاء فى معاهدنا فى عزلة عن العالم الخارجى. بل عن المعهد الّذى هو فيه. فالطالب يتعلم الكهرباء. والتّاريخ. وعلم الصّحّة. والاقتصاد السّياسى. وعلم سياسة الدّول. ولكنه لا يستمدّ منها آراء فى كتابة الانشاء. لان معلمه فى الغالب يعدّ التكلم فى هذه الموضوعات خروجاً عن دائرة الانشاء لان الانشاء فى نظره لاتتجاوز حدود الأدب. وكان هذا المعلم يريد تلاميذه ان يفكّروا فى فراغ إنّنا احوج الى العلم والصّناعة منّا الى الأدب وربما يدهش القرّاء اذا علموا ان الادب الصّحيح قد كثر اليوم فى اوربا واميركا. ورغم كونه ادباً صحيحاً فى مجموعته فان تلك الممالك الاوربيّة والاميركيّة لاترحب به ترحيبها بالعلم. فاساتذة الكيميا والنبات والحيوان والطبيعة. وساير العلوم لايكفون حاجة المدارس والكلّيّات. وذلك لان جميع المصانع والمصالح تحتاج اليهم بعكس زملائهم المشتغلين بالأدب[1] ومن الغريب ان الطلبة أيضاً لايحاولون التّعبير عن آرائهم فى غير حصة الانشاء بلغة سليمة ظنّاً منهم ان مثل هذه اللّغة خلقت للانشاء، لأنهم اعتادوا ان يشاهدوا معلّم الانشاء يعنى

١ــ وقد كان المأسوف عليه مينورسكى استاذ الادب فى اكسفورد يشتكى عدم عناية الانجليز به وأدبه ولكنّهم يصرفون كلّ الهمّ فيما ينفعهم فى الحرب وميدان التنازع فى البقاء.

بزخرف اللّفظ وتزويق الكلام دون المعنى . فهم معذورون اذا نظروا الى الكتابة نظرة مجرّدة عن العلم وقرّاء الصّحف والمجلّات معذورون اذا كان همّهم منصرفاً الى بلاغة الكاتب . وجلال الفاظه ، وضخامة مفرداته . وجمال عباراته . وحلاوتها وانسجامها ، وقوافيها ومحسّناته البديعيّة ومجازاتها واستعاراتها بغضّ النّظر عن آراء صاحبها وطريقته العمليّة فى التّفكير .

إنّى لا اعيب جمال الكتابة وبلاغة التّعبير وحلاوة اللّفظ . ولكنّنى اعيب انصرافنا الى هذا النّوع من الأدب . وبقاءنا نحلّق فى سماء الخيال اجيالاً طوالا ، وبعدنا عن عالم الحقيقة . عالم الحياة والعمل . ان الشّعر بديع جميل ، كذلك الصّور والتّماثيل جميلة كذلك الموسيقى والغناء كذلك التّفكير فى الرّوحيّات والابديّة والعالم الآخر . ولكن اذا وجّهنا كلّ همّنا وصرفنا كلّ جهدنا الى هذه كلّها . وتجاهلنا الحركة العلميّة والعمليّة حولنا قضينا الحياة فى عالم الخيال بدلاً من عالم الحقيقة وعشنا فى الآخرة بعقولنا وارواحنا . وان كنا فى الدّنيا باجسامنا .

وربما كانت اكبر الفروق بين الكتابة فى الشّرق والكتابة فى الغرب ، ان الغربيّين ينظرون الى اللّغة كوسيلة الى غاية ، عربة نقل ، تحمل المعانى على جناح الكلمات . أمّا نحن الشّرقيّين فننظر اليها كغاية فى ذاتها . الغربيّون يعدّون اللّغة مطيّة تحمل اختبارات الماضى ، الى المستقبل وعلوم السّلف الى الخلف . وتنقل عجائب العلم والصّناعة الى اجسامنا . ومنازلنا وشوارعنا وانديتنا ومدارسنا وسائر مظاهر الحياة بيننا . امّا نحن

الشّرقيّين فنتّخذ اللّغة شعراً نتغنى به مدحاً وقدحاً ومداهنة ومجاملة .
وترنّحاً وطرباً . وخيالاً نسمو به فى عوالم غير العالم الّذى نعيش فيه .
ونرتزق منه ومن الغريب ان الغرب والشّرق كليهما قد ابتليا بالمبالغة
والتطرف فى ناحية من النّواحى فبينما نجد الغرب اليوم يعبد الآلات
والصّناعات ويسجد للسّيّارات والبخار والكهرباء . ويقدّم الذّبائح
والضّحايا للمصانع وعوامل المادّيّة والنفعيّة . تجد الشّرق مكبّاً .

وممّايؤسف له ان الفقر فى التّفكير العلمى والنزعة العلميّة قد تناول
حتّى طلّاب العلم كما لا يخفى وانّ مايشاهد يوميّاً لا يبعد عن هذه الحكاية
كثيراً وقد حكى أحد كبار المربّين فى القاهرة وهو ناظر مدرسة عالية انه
كان معلّماً للعلوم فى احدى المدارس . وكان الدّرس فيزيكا وبعد ان تعب فى
تحضير عدّة زجاجات من الاوكسيجين، وقام بتجارب عدّة لإثبات خواصّه
وطبيعته . اعطى طلبته فرصة لتوجيه الاسألة اليه . وكان أوّل سؤال
ينبئ عن البعد عن الرّوح العلميّة فقد كان منطوق هذا السّؤال . الاوكسيجين
ياأستاذ طاهر أم نجس . ونقل نظير ذلك الشّيخ محمّد جواد مغنيّه .

ان الاستاذ خالد يدرس كتاباً كبيراً فى الفقه يضمّ بين دفتيه حشداً
من المسائل التّافهة ، منها ـ مسألة من صلى وهو يحمل قربة فساء ، فهل
تصح صلوته ام تكون باطلة وذكر مأساة حصلت له . قال خالد زارنى
احد المفتّشين وانا ادرس فى بعض المدارس الدينيّة . فسأل الطلبة
فى نواقض الوضوء هذا السّؤال رجل من غير دبر وفتحنا له فتحة فى بطنه

فما الحكم ونقل أيضاً صورة لعالم يحمل الشّهادة العالمية من الازهر قال جرت مسابقة لوظيفة الامامة فى وزارة الاوقاف العامة وكان فى ضمن الاسألة هذا السّؤال . ماذا تعرف عن قرطبة فاجاب الشّيخ بخطّ يده مانصّه بالحرف . قرطبة على وزن فعللة وهى امرأة صحابية جليلة تزوّجت صحابيّا جليلا وانجبت منه تابعين واتباع التّابعين .

ان الفاصل بين العلم والأدب ليس واضحاً وضوحاً تامّاً يمكن القارى من ان يقول هذا علم وهذا أدب . لان الواحد متداخل فى الآخر فى كثير من الاحوال فالعلم ادب من بعض الوجوه والادب علم من بعض الوجوه . وكما ان العلم فى حاجة الى ادب يحمل رسالته الى القراء من جميع طبقات النّاس . حتّى يستطيعوا الانتفاع به فى حياتهم واعمالهم اليوميّة . كذلك الادب يحتاج للعلم حتّى تكون عبارته مؤيّدة معزّزه مستندة على عمد فولادية متينة من الحقايق الواقعيّة والآراء الواقعيّة التّى فحصت فحصاً . وخرجت من بوتقة التّجارب ناضجة ووزنت فى الموازين الفنّيّة فوجدت كاملة يفرق الغربيّون بين الأدب والعلم . فالأدب عندهم دراسة الحياة من طريق الاحساس بها والتّفكير المجرّد فيها والعلم دراسة الحياة من طريق الاحساس بها والتفكير المجرّد فيها والعلم دراسة الحياة من طريق التّجارب العلميّة المطبقة على الواقع المحسوس، فكلّ مظهر للاحساس والتّفكير المجرّد يعتبر ادباً وعلى هذا فالشّعر والقصص والنقد البحث والحياة باسرها فنّ جميل فضلاً عن انها فى القرن الاتم والذّرّة يغلب عليها

الطابع العلمى . ولكن من منّا يريد ان تكون حياته علميّة محضة خالية من الجمال . لتأخذ الطعام مثلا . الطعام من الوجهة العلميّة يلزم ان يكون مركباً من عناصر معيّنة وان يشمل مركبات خاصّة . فالمواد الدهنيّة والنشويّة والمعدنيّة وكمّيات من الفوسفور واليود والحديد والفيتامين من نوع الف او باء او جيم الخ كلّها لازمة للطعام من الوجهة العلميّة . ولكن اذا اهملنا النّاحية الفنّيّة . أولم نجد لها فى طعامنا من فائدة فعلينا بعلماء الكيمياء فى طاقتهم ان يقدّموا لك هذه جميعا وكلّ مايحتاج اليه الجسم فى برشامة او حبوب صغيرة تضعها فى فمك وتستعين بكوب من الماء على بلعها . وبذلك توفر عليك مؤونة الطهى والمضغ ... وفى مقدور العالم الكيمياوى ان يصنع لك من قطعة الفحم كميته من الزّبدة . وفى عصرنا هذا يستطيع أن يزودك بطعام يكفيك عدّة شهور فى علبة صغيرة تضعها فى جيبك .

غير ان الطعام فنّ فوق انه علم . لذلك نستعين بالفنّ والجمال فيجعله لنا مهرة الطهاة شهيا منظراً . سائغاً طعماً . منبهاً للشهية . ولم نبالغ فى تَجْميل المائدة ونغطّيها بالاقمشة البيضاء الانيقة ونضع فوقها الادوات الفضّيّه اللّامعة والزّجاجات البلوريّة الشفافة . ونكسو جدار غرفتها ثوباً من الجمال بكلّ مظاهره ؟ وكثيراً مايغطى هذا الجمال فى الوان الطعام الشهى عيوباً علمية كثيرة . فارباب المطاعم والفنادق الكبرى لماخبروه من صنوف

الجمال وفنونه يستطيعون ان ينبهوا شهيتك الى (كفتة) فاخرة مصنوعة من احطّ انواع اللّحم واشدّه خطراً على الصّحّة ، وفى طاقتهم ان يقدموا لك افخر المأكولات واشهاها خالية من الموادّ الأوّليّة الّتى ينبّئنا العلم بضرورتها للجسم الانسانى .

كذلك نستطيع ان نضرب الأمثلة العدّة فى الملابس والمساكن والاندية والفنّ والقطرات ونبين المبادى العلميّة الّتى تنطوى عليها والجمال الّذى يراعى فى صنعها .

فالفنون الجميلة اذا عدمت الفكرة العلميّة اصبحت تماثيلها جوفاء وصورها جرداء مجدبة وموسيقاها خاوية خالية والعلم اذا خلا من الفنّ كان جافاً جامداً لا يصلح للمجتمع ولا يقبل عليه النّاس كالدّواء المرّ ذوقاً الكريه رائحة ، القبيح لوناً تعافه النّفس ولا يقبل عليه المريض قبل ان تصل اليه يد الفنّان فتستحيل مرارته حلاوة ورائحته الكريهة أريحاً عبقا ولونه القبيح زاهيا . والماء فى عرف العلم المجرّد لا يزيد على كونه مركباً من عنصرى الهيدرجين والاكسوجين بنسبة ٢ - الى - ١ ومالم يستعن العلم بالجمال والفنّ لم يخرج الماء عن كونه مركباً لا غير . واندثرت معالم الشّلالات المتدّفقة على الصّخور وفات النّاس جمال قوس قزح وألوانه السبعة البديعة ونسوا الانهار وخريرها والبحار وزرقتها وقطرات الندى وتألقاتها وندف الثلج وبياضها الناصع والنور الكهربائى من الناحية العلمية كما اخترعه العالم الاميركى اديسون لا يخرج عن كونه تيّارا اوقوّة

جهولة تلقى مقاومة فى سلك معدنىّ دقيق بين قطبين احدهما موجب والآخر سالب فتستحيل ضوءًا. وهذا الاختراع العجيب عينه كما نشاهده فى القصور والحدائق والملاهى والمخازن التّجاريّة الكبرى فى الوانه المتعدّدة وثرياته المنتشرة المتلالئة وشموعه الشّفّافة وتنسيقاته الأنيقة ومظلّاته الحريريّة الغالية. لم يبلغ مابلغه من الجمال والعظمة والجلال قبل ان يمسّه الفنّ بعصاه السحريّة فاستحالت تلك القوّة الّتى أخرجها لنا العلم بعبقريّة اديسن نجوماً ساطعة متألقة، تنتشر فى سماوات ربوعنا فتبدو غياهب الظّلمات وتكسبها فوق ذلك جمالا يكاد يزرى بجمال الكواكب فى القبة الزّرقاء.

واذا درسنا الصفات المعنويّة درساً علميّاً بحتا. ولم ننظر اليها من الجهة الفنّيّة ظهرت لنا هيا كل عظيمة لايكسوها لحم ولا يجرى فيها دم. فالحب مثلاً اذا درسناه علميّا اضطررنا أن نبحث عن الجثمانيّة والنفسيّه الّتى تدفع المرء الى الولوع بغيره، غير أن الحب من الناحية النفسية تعجز المباحث العلمية عن تعريفه. وتضيق عباراتها عن تحديده فهو تلك الجذوة المتقدّة والصفة الشريفة السامية كما صوّرها الناشعر ائنا الفنّانون فى مجنون وليلى ويوسف وزليخا ووامق وعذرا وشيرين وفرهاد، وكان افلاطون على نزعتها العلمية الفلسفية مولعاً بالجمال حتّى فى التحدث عن الرّياضيّات والعلوم الطبيعيّة وكان من رأيه ان تكتب هذه العلوم شعراً وتنشد إنشادا بدلا من ان تقرأ قراءة وتصقّل فى قالب طلىّ جميل.

وتكتب بعبارات مزخرفة محلّاة بالمحسّنات البديعيّة منمقة بالقوافى والاوزان. حتّى تصبح سهلة الهضم شهية للمتعلّمين وعلماء التربية فى العصر الحاضر يضربون على وتر نظرية يسمّونها نظريّة التّشويق وما هى فى الحقيقة الّاتنبيه المعلّمين الى وجوب العناية بالجمال والفنّ فى جميع موادّ الدّراسة حتّى لاتقدم للطلبة جافّة مقصورة على الحقايق العلميّة.

اذا وازنّا بين الكاتوليكيّة والبروتستانيّة وجدنا ان الاولى على العموم عنيت بالفنّ الجميل اكثر من عنايتها بالعلم وان الثانية اهملت الفنّ الجميل ووجهت جهودها الى التفكير العلمى وأبنا كيف ان العلم وحده بغير فنّ جميل جاف جامد لاتقبله الطّبيعة البشريّة وقلنا كذلك ان الفنّ الجميل اذا خلا من العنصر العلمى كان فاضحاً فضفافاً مبتذلا فالتّقاليد ومغالاة الكاتوليكية فى الفنون الجميلة وانصرافها عن النزعة العلمية دفع بالبروتستانية الى مدى بعيد تجاه الناحية العلمية فاهملت الناحية اهمالا معيباً وقد ادرك البروتستانيت غلوّهم فى الواحدة اخذوا يجولون الدفة نحو الثّانية وان كان بعضهم يقدّم رجلا ويؤخّر اخرى بدعوى انه من المشاهد ان فى الفنون الجميلة خطراً على الاخلاق وان العناية بالجمال تستحيل عادة الى عبادة. فيضيع الغرض من الجمال والفنون الجميلة فليس من البر ان تحول اماكن العبادة الى متاحف فنيّة للصور والتّماثيل وقاعات واسعة للغناء والموسيقى كما انه ليس من البرّ ان تحوّل منابر الوعظ والخطابة الى كراسى علميّة تلقى منها محاضرات جامعيّة علميّة محضة. من الواضح

ان الغلوّ فى كلّ شىء غير محمود وخير الامور الوسط . واذا شئت ان تشاهد جميع الأنواع التى يمكن ان تتصوّرها من هذا القبيل من الجنوح الى العلم المجرّد الى الإغراق فى الفنون والإسراف فى التجميل الى العبادة الدينيّة الخالية من آثار العلم والفنّ الى التوسّط بين هذا وتلك اذا شئت رؤية هذه جميعها فعليك بامريكا ففى بعض اماكن العبادة فيها يخيّل اليك انك فى متحف فنّى جميل. فى بنائه ونظامه واستاره الحريريّة وزجاجه الملوّن واضوائه المتعدّدة الالوان الّتى تتغيّر وتتبدّل وتسطع وتتضاءل من حين الى حين. والآته الموسيقية الكثيرة وفرق المترنّمين والمترنّمات والرّاقصين والرّاقصات. وفى بعضها يخيّل اليك انك فى قاعة محاضرة تسمع الى فيلسوف اواقتصادى اوعالم نفسانى، فلنرجع الى ما كنّا فيه فالعلم يزودنا بالحقايق ويطرد من رؤسنا اباطيل العادات واضاليل التّقاليد ويقودنا للبحث عن الحقيقة اينما وجدت فالحكمة ضالّة المؤمن يأخذها اينما وجدها. والأدب او الفنّ الجميل يصقّل لنا الحياة ويزيّنها ويزخرف لنا المنتجات العلمية وينمّقها . ويرسّم لنا طريق السّعادة والسّرور والغبطة . ويخلق لنا جنّة عدن فى الأرض الّتى عليها نعيش وفردوساً ونعيماً فى الدّنيا ، ويصوّر لنا الجمال بكلّ ماتنطوى عليه الكلمة من المعانى السّامية .

والأدب العربى غنىّ بالأمثلة والشّواهد الدالة على اتّجاه العرب الى الجمع بين العلم والأدب والرّياضة والفنّ وكانوا كثيراً ماينظمون المسائل الحسابيّة نظما كما فى قول الشّاعر :

غزال قد غزا قلبي بالحاظ واحداق
له الثلثان من قلبي وثلث ثلثه الباقي
وتبقى اسهم ستّ تقسّم بين عشّاق

وقال آخر

الحب ناموس طبيعيّ ظهر بتبادل مابين انثى وذكر
فكأنّهُ والجاذبيّة واحـد في كلّ حيّ او نبات او شجر
ودليل فرط الحب كم من عادة بجمالها سلبت عقول بني البشر
وعليه لاعجب لقبلات اذا ظهرت على وجهين في وجه القمر[1]

وقال الحكيم المعروف بالمعلّم الثّاني وهو الفارابي :

أخي خلّ حيِّزَ ذي باطل وكن للحقايق في حيِّز
فما الدّار دار خلود لنا ولا المرء في الأرض بالمعجز
وهل نحن الّا خطوط وقعن على كرة وقع مستوفز
يناقش هذا لهذا على اقلَّ من الكلم الموجز
محيط السّموات اولى بنا فكم ذا التزاحم في المركز

كنّا[2] وكان الأدب حالا قائمة بالنّفس تمنع صاحبها ان يقدم على شرّ او يحدّث نفسه به . او يكون عوناً لفا عليه عليه . فان ساقته اليه شهوة

---

١ ـ وقال بعض شعراء الفرس :

از پرده برون آكه كست روى نه بينند بنيوش دليل و مشو از بنده مكدّر
گويند حكيمان كه رود خط شعاعى ازچشم سوى آنچه بچشم است برابر
تا خط شعاعى به بصر باز نگردد درباصرهٔ رويت نشود صورت مبصر
آنخط شعاعى كه چو برروى تو افتد برگشتنش از فرط وله نيست ميسّر

٢ ـ من مقالات لطفي منفلوطي في النظرات .

من شهوات النّفس . اونزوة من نزوات العقل . وجد فى نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ماينغصّه عليه ويكدّر صفوه وهناءه ثمّ أصبحنا واذا الأدب صور ورسوم وحركات وسكنات واشارات والتفاتات . لادخل لها فى جوهر النّفس ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها . فاحسن النّاس عند النّاس ادبا واكرمهم خلقا واشرفهم مذهبا . من يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً . ومن يخلف الوعد على ان يحسن الاعتذار عن إخلافه . ومن يبغض النّاس جميعاً بقلبه على ان يحبّهم جميعاً بلسانه . ومن يقترف ماشاء من الجرائم والذّنوب على ان يحسن التخلّص من نتائجها وآثارها . وافضل من هؤلاء جميعاً عندهم اولئك الّذين برعوا فى فنّ (الاداب العالية) اى فنّ الرّياء والنّفاق . وتفوّقوا فى استظهار تلك الصّور الجامدة الّتى تواضع عليها جماعة الظّرفاء فى التحيّة والسّلام . واللّقاء والفراق والزيارة والاستزارة والمجالسة والمنادمة . وامثال ذلك ممّا يرجع العلم به غالباً الى صغر النّفس واسفافها . اكثر ممّا يرجع الى ادبها وكمالها فكأنّ النّاس لايستنكرون من السّيئة الّا لونها فاذا جاءتهم فى ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا اليها . ولا يعجبهم من الحسنة الّا صورتها . فاذا لم تأتهم فى الصّورة الّتى تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها . اى انهم يفضلون اليد الناعمة الّتى تحمل خنجراً على اليد الخشنة الّتى تحمل تحمل بدرة ويوثرون كاس البلور المملوءة سمّاً على كاس الخزف المملوءة ماء زلالاً . ولقد سمعت بأذنى من اخذ يعدّ لرجل من اصدقائه من السيّئات

ما الموزع على الخلق جميعاً للموّث صحائفهم . ثمّ ختم كلامه بقوله . وانّى على ذلك احبّه واجلّه لانه رجل ظريف واغرب من ذلك كلّه انهم وضعوا قوانين ادبيّة للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأنّ جميع هذه الاشياء فضائل لاشكّ فيها . وكأنّ الرّذيلة وحدها هى الخروج عن تلك القوانين الّتى وضعت لها . وما عهدنا ببعيد بذلك القاضى المصرى الّذى اجمع النّاس فى مصر منذ ايّام على احتقاره وازدرائه لالانه لعب القمار بل لانه تلاعب باوراق اللّعب فى احدانديةالقمار وسمّوه لصّاً دنيئاً . والقمار لصوصيّة من اساسه الى ذروته .

اعرف فى هذا البلد رجلين يجمعها عمل واحد . ومركز واحد احدهما خير النّاس والاخر شرّ النّاس وان كان النّاس لايرون رأيي فيهما .

امّا الاوّل فهو رجل قد اخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الاخلاق والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصّدق والامانة والعفّة والزّهد والسّماحة والنّجدة والمروءة والكرم وقصص السمحاء والاجواد . والرّحماء والمؤثرين على انفسهم وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً . ثمّ دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقرّ فى نفسه ان الناس قد عرفوا من الادب مثل ماعرف . وفهموا مثل مافهم . واخذوا منه بمثل الّذى اخذ فغضب فى وجه الاشرار وابتسم فى وجه الاخيار والاوّلون اكثر عدداً واعظم سلطة وجاهاً . فسمّى عند الفريقين شرساً متوحّشاً . وامتدح احسان المحسن وذمّ إساءة المسيئ والمحسنون فى الدّنيا قليلون . فسمّى وقحاً بذيئاً

حتّى بين المحسنين وبذل معروفه للعاجز الخامل ومنعه القادر النابه فلم يشعر بمعروفه أحد فسمّى بخيلاً. واعتبر النّاس بقيمهم الادبيّة لا بمقاديرهم الدنيويّة فلقى الأغنياء والأشراف مثل مايلقى به العامّة والدهماء فسمّى متكبّراً. وقال لمن جاءه يساومه فى ذمّته انى احبّك ولكن احبّ الحقّ اكثر منك. فكثر اعداؤه وقلّ اصدقاؤه امّا الثانى فاقلّ سيئاته انه لا يفى بوعد يعده ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه احد مخلافاً. ومارآه النّاس فى يوم من ايّامه عاطفاً على بائس او منكوب ولكنه يبكى لمصاب البائسين والمنكوبين. ويستبكى لهم. فعدّ من الاجواد السمحاء. وكثيراً ما أكل اموال اليتامى واساء الوصاية عليهم ولكنّه لا يزال يمسح رؤسهم ويحتضنهم الى صدره فى المجامع والمشاهد. كأرحم الرّحماء واشفق المشفقين. فسمّى الوصىّ الرّحيم. ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من اعراض النّاس ويستنزل من اقدارهم الّا انه يخلط جدّه بالهزل ومرارته بالحلاوة فلم يعرف النّاس عنه شيئاً سوى انه الماجن الظريف.

ذلك هو الأدب الّذى اصبح فى هذا العصر رايا عامّاً يشترك فيه خاصّة النّاس وعامّتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم. ويعلّمه الوالد ولده والاستاذ تلميذه ويقتتلون اقتتالاً شديداً على انتحاله والتجمّل به كما يقتتلون على اعزّ الاشياء وأنفسها حتّى تبدّلت الصّور وانعكست الحقايق واصبح الرّجل المخلص احرج النّاس بصدقه واخلاصه صدراً واضلّهم بها سبيلا لا يدرى أيكذب فيسخط ربّه ويرضى الكاذبين ام يصدق فيرضى نفسه

ويسخط النّاس اجمعين . ولا يعلم أيهجر هذا العالم الى عزلة منقطعة يقضى
فيها بقيّة ايّام حياته غريباً شريداً أم يبرز للعيون فيموت همّاً وكمداً .
إعلم أنَّ اطّراد النسق وعموم القانون وشمول البحث قواعد العلم الاساسية
وعناصره المحتومة ونسبيّة الرّأى وجزئيّة الصّورة وخصوص الخبرة
ابرز مزايا الادب والصقهابه . والعلم لا يكون علماً حتّى تطرّد قواعده
ويعمّ تطبيقه وتنسق قضاياه والادب بطبيعة موادّه وخصايص تكوينه
يتعصّى على الشمول ويأبى الاطراد ووحدة النّسق .

فقواعد نيوتن فى سقوط الاجسام وقوانين داروين فى تطوّر الاحياء
ودساتير فارادى فى الكهرباء لا تكون فى العلم ولا تحسب عليه اذا لم تطرّد
على دوام وتتسق عند كلّ حادث وتصدق فى كلّ تجربة والّا فهو العلم النّاقص
الّذى لم يتمّ بعد ، فكم من قضايا يعدّها القدماء حقائق وجدناها اوهاماً .

امّا فلسفة خيّام والمعرّى وصور فردوسى والنظامى وحكمة زهير
والمتنبّى واوصاف همر وشكسبير الى الآن تدرس ولا تدرس لأَنّها تتجدّد
كالشّمس فى السّماء ولا تزداد مع الأَيّام الا رسوخاً وإنّما تحتاج الى الصقل .

فلابدّ لعلماء الحياة اليوم من ان تكون لهم افكار عامّة عن الطبيعيّات
وعن الكيمياء بل والرّياضيّات . وكذلك شأن رجال الاقتصاد والاجتماع .
ولابدّ للرّياضيّين من تحصيل اصول العلوم الطبيعيّة وان تكون لهم
فوق هذا استعدادات فلسفيّة . وهكذا حتّى ليصحّ القول على سبيل
المفارقة ان اقلّ النّاس تخصّصاً اليوم هم المتخصّصون .

نحن لاننكر، ان الحسنات البديعة والمحسّنات البديعيّة او النكات الادبيّة والخصائص اللسانيّة وان كان لها تأْثير عظيم على النّفس فهى لم تزل كالحلى والحلل ولها المحلّ الثّانى لا الاوّل فالعاقل يجتهد بان تكون عروسه من ربّات الجمال والدلال والادب والكمال فان وجد معها شيئاً من الحلى فبها ونعمت ونعمّا هى والّا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها فهى الضّالّة الّتى ينشدها.

فالمقصود من الكلام بيان المعانى والمقصود من المعانى اظهار اسرار الكون وخير اللّفظ ما جاء بالطّبع والبداهة بلا تكلّف فى العبارة فالاصل فى الكلام للمعانى لا الالفاظ. لان اللّفظ قالب او ظرف للمعنى يتّخذه المتكلّم لسبك ما يصوّره فى نفسه ويشكله فى قلبه من المعانى فينقل بذلك مقصوده للسّامع وحيث كان المعنى سابقاً للّفظ وجب ان تكون الالفاظ تابعة للمعانى وخادمة لها. وليس المعنى تابعاً للّفظ كما حكى عن صاحب بن عبّاد انه ولى أحدهم قضاء قم ولمّا عزله وكتب اليه ايّها القاضى بقم قد عزلناك بقم يعنى بلفظ قم فقال القاضى واللّٰه ما عزلنى الا محبّة الامير فى التزام السجع.

ولا يكمل علم الادب للمتبحر فيه الّا بعد ان ينظر فى ادب الامم المتمدّنة ولو نظرة عامّة يطلع بها على مجمل تاريخ ادبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمّو الادراك وبلاغة المعانى ويعرف اساليبهم فى النّظم والنّثر وتصرّفهم فى الكلام.

فاذا احاط علمه بذلك فهم الغرض الّذى يتطلبه أئمة البلاغة من ايّ لسان وملّة ورأى الهدف الّذى يروم كلّ منهم اصابته فيصوّب نحوه القلم لان البلاغة لا تختص باللّسان العربىّ وحده وكلّما ارتقت الامة

فى سلّم الحضارة كان لسانها ابلغ وادبها اوسع واكمل فالبلاغة هى مطابقة
اللّفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى افادة المعنى
المقصود الّذى يقتضيه الحال والمقام . وفى المثل لكلّ مقام مقال وانت
خبير بأنّ لكلّ مقام من مقامات الكلام بياناً يحسن به ولا يحسن بغيره
ولا يحسن هو فى غيره . فهذا الباب لا يصلح الا بسطوة القول وحدّة القلم.
وهذا الباب لا يجوز اداؤه الّا الابلين اللّفظ ورفق التعبير . وهذا الباب
لا يحمد الكلام فيه الا بالاجتماع لتجويد الصّياغة واحكام النسج .
والاصابة من فنون البديع بما لا يستهلك الغرض او يسيئ الى المعانى. وهذا
الباب لقد يرذل فيه مثل هذا ويعاب كلّ العيب . فان من يستنفر قومه
للجهاد ذياداً عن شرفهم ودفاعاً عن حريمهم لا كمن يصف مجلس لهو
فى روضة معطار . قد لعب النسيم باغصانها ، وغرّد الهزار على أفنانها .
وان هذا لسمج كلّ السمج بالمرء يرثى ولده ، ويصف ما أوجد له الاسى
من الوان البرح وما احدث الثكل فى كبده من صدوح وقرح .

وليست بناحاجة الى التقصّى وطلب الصّور المختلفة لمقامات
الكلام . فذلك من القضايا المفروغ عنها .

ان اطايب هذه الدّنيا شهيّة لذيذة ولهذا اهتّم العربى باختيارها والتفنّن
فى ممارستها ولما كانت أطايب الدّنيا حلالاً فقد وسع المسلم على نفسه نطاق
الرّغائب والحاجات وبرّر الترف ، وهذه بدورها ادّت الى استنباط
الوسائل للحصول على دواعى الرّغد للفوز بالعيش المترف الناعم .

فتقدمت من ثمّ التجارة وارتقت الفنون الصّناعية وعلم الكيمياء وغيرها من العلوم الّتى تساعده على تحقيق هذه الرّغائب حتّى ان الحجّ الى مكّة ادى الى مضاعفات مجدية فى العيش .

وبهذه الطّريقة غيّر الدّين الاسلامى حياة البدوى البسيطة البدائية الى حياة مليئة بالمطالب والحاجات . لكن هذا الدّين نفسه كان بدوره استجابة للتركيب الحياتى الخاص الّذى وجد العربى نفسه فيه ذلك التّركيب الحياتى الّذى لايزال لغة البدوى كما كانت قبل الاسلام مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً واللغة مرآة المجتمع لأنّها ليست الفاظاً فحسب ، بل هى آداب وعادات وعرف وتقاليد وطرق تفكير ولون من الوان الشّعور علاوة على كونها وسيلة من وسائل التعبير فالصحراء بخشونتها وقسوتها واثر ذلك فى نفوس ساكنيها والرّوابط الاجتماعية بين الافراد والقبائل كلّ هذه تكون واضحة اذا ماقرأنا الادب الجاهلى وباشراق نور الاسلام تعلو الامة العربيّة وتنهض من غفلتها وتزدهر الحضارة ازدهاراً واستحدثت الالفاظ الجديدة ليدّل بها على مسمّيات جديدة لم يعرفها العرب من قبل والالفاظ رقّت لتلائم العيش الناعم الّذى عاشه اصحاب ذلك العصر والتّرف الّذى كانوا به يتقلّبون .

واذا كان المجتمع متمسّكاً بالاخلاق ومكارمها رأيت لغته معبّرة عن ذلك خير تعبير فالامور المستهجنة يعبّر عنها بالفاظ ذات ايحاء جميل

كى لايخدش السّمع والذّوق ففى القرآن الكريم نجد الاشارة الى اجتماع الرّجل بامرأته رقيقة دالّة على ذوق رفيع . اولا مستم النّساء .

واتّبع المسلمون دستورهم فى هذا المضمار متّخذين لذلك سبيل المجاز فى التّعبير واستبدال الكناية بصريح القول . ولقد ادرك علماء التربية اثر اللّغة فى شخصيّة المرء وخلقه فى مرحلة الطفولة الّتى فيها ترسم الخطوط الرئيسيّة للشخصيّة فقالوا ان اللّغة عامل مهم فى توجيه الطفل لانها مسيطرة على العادات وبدون هذه السيطرة تصبح هذه العادات متهوّرة مذّاعة ولاشك ان تكرار استعمال الالفاظ الجميلة امام الاطفال يبذر فى نفوسهم بذور الخير وفى عقولهم افكاراً رفيعة وجميلة قال بعض علماء التّربية

علّموا اولادكم الحياة ، عند ما كنت فى العاشرة من عمرى أرانى والدى خيارة فى زجاجة . وكان عنق الزّجاجة من الضّيق بحيث لايمكن ان تنفذ منه خيارة بهذا الحجم الكبير وسألت والدى . كيف نفذت الى جوف الزّجاجة؟ فتناول والدى زجاجة وقادنى الى الحديقة ، فرايته وانا شديد التطلع ، يدخل خيارة صغيرة عالقة بفرعها فى جوف الزّجاجة . وعندئذ فهمت ان الخيارة نمت وهى فى جوف الزّجاجة .

والتفت والدى إلىّ وقال كثيراً ما أرى يابنىّ من عادات النّاس مايجعلنى اعجب كيف يطيق شخص عاقل أن يعتادها ، واغلب ظنى ان هذه العادات تنمو فيهم كما تنمو الخيارة فى جوف الزّجاجة فلايستطيعون الخلاص منها ـ فاحذر يابنىّ مثل هذه العادات ولم انس الى اليوم تلك الكلمات

ادورد سنفورد مارتن والديرشدولده الطالب

انك ياولدى بدخولك الجامعة قد خرجت من دائره سلطتى بما كان فيها من ارشادات ونصايح مفيدة ومضرّة . انت الان فى الثامنة عشرة من العمر اى انك قد صرفت سبعة عشر عاما من حياتك تستقى من منبع ابيك واننى والحق يقال . ياولدى العزيز متأسّف للنقائص الّتى فىّ والّتى كنت انت تحت نفوذها ولاهى خفيت عنك لانك تعلم ان رجلاً مثل والدك لم يكن زاهداً فى ملاذ هذه الحياة وملاهيها لهو بعيد عن درجة الكمال ولكن ثق بأنّنى سأذكر ذلك ممّا يجعلنى ان اكون اكثر تساهلاً فى معاملتى ايّاك حينما ارسلنى والدى لأكمل دروسى فى الجامعة لم يزودنى بشىء من النصح ولكنه زوّدنى بمحبّته والضّرورى من المال وهذا لم انله منه بسهولة كحصولى على محبّته .

واتذكر ان عمّه الّذى كان حيّاً حينئذاك زوّدنى بدعائه وقال لى ان من جهة الفائدة الّتى سأحصلها من درس الكتب فأننى استطيع الحصول على تلك الفائدة عينها بدون الذّهاب للمدرسة ولكن رغماً عن ذلك فهو لم يشر علّى بعدم الذّهاب . نعم انه كان مصيباً فى قوله كان بوسعى ان استفيد من درس الكتب خارج المدرسة اكثر من استفاداتى منها هناك واظن انك انت ايضاً تقدر على ذلك ولكن هذه ليست الرّواية بكاملها ولاهى تصدق على جميع النّاس .

عند دخولى الكليّة وجدتها ملآى بارتباكات وصعوبات شتّى ولاشكّ

انك انت تجدها كذلك وكان فىّ ميل شديد للتعرّف بالنّاس والمعاشرة فلم اضنّ بصرف قسم كبير من وقتى للحصول على ذلك وان انت وجدت بنفسك ذلك الميل فاعلم انك ورثته عن ابيك . ان التعارف بالنّاس والمعاشرة فرع مهم لاكثرنا ولكنها ليست الافرعاً واحداً . ومن الخطأ ان ينفق الانسان عليها كلّ وقته واهتمامه . مهمّ جدا ان تتعرّف بالنّاس ولكن الأَهمّ من ذلك ان يكون الواحد منا اهل لان يتعرّف به . وان الجامعة تسهّل لك ايجاد امرين مهمّين الاول تهيّى لك قسماً كبيراً من النّاس لتتعرّف بهم والثّانى تهيّئ لك وسايط متنوّعة كثيرة ، تزيد فى اهليّة نفسك وكفائتها للاختلاط بالنّاس وانى أؤمل يابنىّ انك تستخدم كلا هذين الامرين مدّة اقامتك فيها ، ان عصرنا هذا عصر ميكانيكى واشهر مثال للمركب الميكانيكى اليوم هو السّيّارة وان السّيّارة مصاريع واسطوانات توفّر لها القوّة والسّرعة .

ادب المحاورة

المراد بادب المحاورة مايجب على الجلساء مراعاته فى اثناء احاديثهم فيطلب ممّن يميل الى المحادثة فى المجالس العمومية الحافلة بالنّساء والرّجال ان يكون ملمّاً بالحوادث الجارية وله اطّلاع على مواضيع عمومية ومعرفة كافية فى ماذا يتكلّم وكيف يتكلّم ويظن البعض انهم يرضون جلساءهم بكثرة الكلام وتنميق الالفاظ . ولكن ذلك يكون بالعكس اذا كان المتكلّم لايعرف كيف يسرد حديثه او ماذا يهمّ جليسه . فاذا كان جليسك تاجراً فلاتكلّمه فى الفلسفة او كان

من ارباب الصّنايع فلاتقلقه باخبار البورصة واسعارها من الصّعود والهبوط ـ لان الانسان انما يميل الى المحادثة فى مايتعلّق بمهنته او يطابق امياله ـ ومن الامور المستنكفة ان تخوض فى قصّة طويلة لايّهم جليسك سماعها فعليك اذا حادثت أحداً ان تنتقل فى حديثك معه الى مواضيع ملذّة بغير ان تتعرّض للكلام فى شؤونه الخصوصيّة وعلاقاته الدّاخليّة ـ واياك ان تسأل احداً من زائريك او محادثيك عن شغله او مهنته او ارباحه وخسائره الّا اذا حادثك هو فى ذلك فاذا كان طبيباً مثلا فلاتسأله عن عدد مرضاه وماهيّة امراضهم واذا كان محاميا فلاتسأله عن اصحاب القضايا الّتى يحامى فيها ولامواضيعها واذا كان جليسك سيّدة اياك ان تسألها عن ثمن فسطانها اوبرنيطتها الا اذا كانت من اصحابك الاخصّاء واذا حدّثت حديث النعمة وعلمت انه كان فى اوائل عمره يسكن بيتاً حقيراً اويعيش عيشا دنيئاً فايّاك ان تذكر ذلك بين يديه تلميحاً او تصريحاً . ولاسيّما اذا كان حديثك مع سيّدة فان تلك الذكرى تثقل على سماع السّيّدات بنوع خاص الّامن كان فيه شجاعة ادبيّة تدفعه الى ذكر ذلك من تلقاء نفسه لايخشى ان يحطّ ذكره من مقامه وهناك اناس يناقضون كلّ رأى ويشكّون فى كلّ حقيقة . يكلّمونك كلام محام يتفحّص شهادة الخصم فى مجلس القضاء فيترصدون هفوة تقع منك يتوسّمون بها ضعف برهانك وهم ينظرون اليك نظر الناقد لايتركون لك سبيلاً ان تقول هذا النّهار مشرق الّا طلبوا برهانك على ذلك فمثل هؤلاء قلّما يجدون من يحب

مجالستهم او يرتاح الى حديثهم .

واذا قصّ بعضهم عليك قصّة حدثت له وكانت غريبة فلا تبالغ في استغرابك اياها كقولك مثلا لم اسمع بمثل هذه الحادثة في عمري لئلا يدل ذلك على قلّة اختبارك وضيق دائرة معارفك . اذ يغلب ذلك الاستغراب في من لا يدركون من العلم الّا ما في كتابهم ولا يعرفون من حوادث الدنيا غير ما في قريتهم — ومن الامور المستهجنة في الحديث ان يبدء جليسك بقصّة فتبتدره بقولك انيّ سمعت هذه القصّة قبل الآن فان آداب المحادثة تقضي عليك بالاصغاء كأنّك لم تسمع من قبلها وعلى السيّدة اذا سمعت رجلاً يمدح سيّدة اخرى لجمالها وكانت تعتقد غير ما يقوله عنها ان لا تعارضه باظهار ما تظنّه عيباً فيها ولو باسلوب لطيف كقولها مثلاً لو لم يكن شعرها مستعاراً لكانت اجمل مما هي عليه او لو لم تكن بعض اسنانها صناعيّة لكان نطقها افصح فان ذلك يدل على الغيرة والحسد وكلّما قصدت تحقيرها كلّما زادت مقاما في عيني مادحها وانقلب التحقير الى تلك واذا سمعت طعنا بعادة من عادات قومك فلا تجعل للحدّة سبيلاً اليك لئلا تخرج في اعتراضك الى ما لا ترضاه لنفسك وقد يكون ما سمعته من الطعن حقيقة لا جدال فيها لان لكل قوم عادات واخلاقا منها الحسن ومنها القبيح وعلى السيّدات ان يتجنبن الدّخول مع الرّجال في حديث سياسي او تجاري ولا سيّما على سبيل المجادلة لان معرفة المرأة في امور كهذه سطحية . لكن لا بأس من دخولها في الحديث على سبيل الاستفادة .

واذا دار حديث بينك وبين مولف فى موضوع كتاب من مؤلّفاته فلاتبد حكمك فيه عمالم تستحسنه حكماً قطعياً . ومن باب اللباقة والادب ان تكون على ملاحظاتك صيغة الاستفهام كقولك مثلاً يظهر لى كذا وكذا ولعلّى لم افهم المراد او نحو ذلك وانتظر جوابه لعلّه يقنعك والافغيّر الموضوع باسلوب ولباقة ويقال مثل ذلك اذا كان جليسك شاعراً او مصوّراً او صانعاً فى ایّ صنعة من الصّنائع الدّقيقة . فان ارباب هذه الفنون اعلم بدقائقها من سواهم – وخلاصة القول يجب على المتكلّم ان يتجنّب كلّ مايشمّ منه رائحة الادّعاء او احتقار رأى جليسه بغير ان يسلك فى حديثه مسلك التمليق اوالرّياء[١] .

المعنى الواحد يختلف تأْثيره فى النّفس جدّاً بسبب قبح الاداء وحسنه فربّما يؤدّى المضمون بعبارة اشهى من رؤية الحبيب مع غفلة الرّقيب ويؤدّى ذلك المضمون بعينه بعبارة اخرى اصْعب من الهجر وامّر من تجرّع كاسات الصبر كما يحكى عن بعض الخلفاء انه راى فى المنام ان اسنانه سقطت باجْمعها فقصّ رؤياه على بعض المعبّرين فقال يموت كلّ اقاربك واهلك وتبقى وحدك فتشّأم الخليفة من هذا التّعبير وغضب وامر بقلع جميع اسنان المعبّر واراد قتله لولا شفاعة الشّافعين ثمّ قصّ الخليفة رؤياه هذه على معبّر آخر فقال المعبّر ابشر أيّهاالامير فان عمرك يكون اطول من اعمار سائر اقاربك فهشّ الخليفة واخذ فى تكريمه

١– عن الهلال مترجمة عن بعض المجلات الانكليزيه وليست من بنات افكارى .

وانعامه والبسه خلعاً جليلة واجازه بجوائز كثيرة قال المتنبّى فى حكمه .

لاخيل عندك تهديها ولامال
فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

تجارة اللطف

لاتضع فرصة يتسنى لك فيها ارضاء النّاس واعجابهم وكن انيساً رقيقاً لطيفاً مااستطعت . فان الادب لايكلّف شيئاً ويشترى كلّ شىء فجرّب اذاً فى الاخذ والعطاءِ والبيع والشراءِ فى اسواق الحياة أدعى للنجّاح والفلاح من ساير الرأسماليّة إِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِىْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيْمٌ .

وقد نصح احدهم لبعض الملوك ان يكسب قلوب النّاس بالرّقة واللّطف فقلوبهم وجيوبهم وكلّ مالهم تصير اذ ذاك بين يديه ولنعتبر ذلك بمغزى هذه القصّة :

هبّت الريح من جناها يجرّ — العجب منها من الغيوم ذيولا
ومضت تهصر الغصون بعنف — وتجرّى من السّحاب سيولا
وتقول : اعلمى أيا شمس أنّى — منك اقوى اصيّر المستحيلا
واجابت من سمتها وعلاها — أنا اخشى جدالنا ان تطولا
ليس اقوالنا تدلّ علينا — فليكن فعلنا علينا الدليلا
ان هذا مسافر قد تردّى — لاتّقا شرّنا رداءً ثقيلا
فليكن أن من يعرّيه منه — يحرز الفخر والمقام الأثيلا
فاهيجت لذلك الرّيح تبغى — بقرين مكابر تنكيلا

وانبرت تجذب الرّداء وتعلي عِثيَر الدرب فى الفضاءِ تلولا
وابن ذاك السّبيل يشتدّ أزرا برداه يطوى السّبيل عجولا
ثمّ قالت للشّمس مثّلت دورى دورك الآن مثلّى تمثيلاً
سكن الجوّ والغيوم اضمحلّت وكثير الغبار عاد قليلا
وتبدّت مليكة الجوّ تسدى بسناها شأن الكريم جميلا
واستمرّ المعهود يمشى الهوينا ليس يخشى لحاله تبديلا
ورأى الحرّ محرقا فتعرّى من رداء وراح يطوى السّبيلا
علمت عند ذلك الريح ان اللـ طف يولى عنف القوى تذليلا

فالافضل فى كلّ الاحيان ان تستميل وتستدعى لاان ترغم وتجبر، ورب إبراق اسرّة واشراق محيّا وتبشير بوعد يكون أفعل من ضربة سيف واربداد وجه وانذار بوعيد وكثيرون من الناجحين المفلحين ما كانوا كذلك لولا رقّة فى شمائلهم ودماثة فى اخلاقهم وظرف فى سلوكهم كما ان كثيرين من ذوى الوزنات الرّاجحة واصحاب النيّات الصالحة يكثرون اعداءهم ويقلّلون أصدقاءهم بخشونة فى ملمسهم وقلّة لباقة فى حركاتهم ناهيك بما فى العمل على مسرة الغير من السرور الشخصى للفاعل .

روى أنّ عبد الحميد لقى ابن المقفّع فقال له بلغنى عنك شىء أكرهه فقال لا ابالى قال وَلِمَ قال لانه ان كان باطلاً لم تقبله وان كان حقا عفوت عنه.

روى ان حامد بن العبّاس سأل على بن عيسى الوزير فى ديوان وزارته عن دواء الخمار وقد علق به فاعرض عن كلامه وقال : ما انا وهذه

المسألة فخجل حامد ثمّ التفت الى قاضى القضاة ابى عمرو محمّد بن يوسف
فسأله عن ذلك فتحنح القاضى لإصلاح صوته ثمّ قال : قال الله تبارك
وتعالى وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وقال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم استعينوا على كلّ صنعة بصالح اهلها والاعشى هو المشهور بهذه
الصّناعة فى الجاهلية وقد قال : وكاس شربت على لذّة واخرى تداويت منها بها
وقد تلاه ابو نواس وهو القائل :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء وداونى بالّتى كانت هى الداء

فاسفرّ حينئذ وجه حامد وقال لعلى بن عيسى : يابارد ماضرّك ان
تجيب بما اجاب به قاضى القضاة وقد استظهر فى جواب المسألة بقول الله
تعالى ثمّ بقول الرّسول ثانيا وبيّن الفُتيا وادّى المعنى وتنصّل من العهدة
فكان خجل على بن عيسى من حامد بن العبّاس بهذا الكلام اكثر من خجل
حامد منه لمّا ابتدأه بالمسألة[1]. قال الشهرستانى ره فى مجلّة المرشد

قد جالت الاقلام والالسن حول الخمر فقال شعراء الشّرق على
عكس دينه فمدحوا الخمرة مدح نشوان بها حتّى بلغوا مبلغ العبادة
والتقديس. وبالغ كتّاب العصر الحاضر فى اوربا وامريكا بالضدّ من
اسلافهم فالّفوا فى ذمّها كتباً وجمعيّات تحارب المسكرات وحسبك
اجماع اولى العلم والحكمة ضدّ الخمرة ومعاقرتها حتّى سمّاها حكيم الهند سمّ
العقل ومثّلها حكيم الفرس بشراء الجنون[2] :

١ــ لباب الآداب ص ٣٣٨. ٢ــ تو بدو دين و بخردى داده او به تو ديوى و ددى داده
چيست دانى سوى شراب شدن اوّلش شرّ ودوم آب شدن

وشبّه الخمر والميسر مفتى الديار المصريّة بمقراضين يقرضان الامة. وقرّضها حكيم الآلمان بقوله، اقفلوا بيوت الخمر تخلوا بيوت السجن. واجمل فى وصفها حكيم فرنسه ريشه، اذ قال انى لاعجب من الحكومات تمنع بيع السّموم ولاتمنع بيع الخمور. وافشى سرّها القائد الفرنساوى هنرى. فقال ان الخمور آخر سلاح لقتل المستعمرات وتمزيق شعار العشائر، وقال نبتام الانجليزى النبيذ فى الاقاليم الشماليّة يجعل الانسان كالابله وفى الاقاليم الجنوبيّة يصيره كالمجنون. وينتظر اطبّاء الآلمان لمدمنى الخمر اضطراب الجهاز الدماغى وتسمّم المعدة وتشمع الكبد. ونقصان ثلث القوّة الغريزيّة بحيث يرى ابن الاربعين كإبن السّتين فى ضعف بنيته ويتوقّعون فيه السلّ له والتدرن واستعداد احتراق نفسه بنفسه وكنّاها حكماء الاسلام بأُمّ الخبائث – وان الشرّ كلّه مجموع فى بيت مفتاحه شرب الخمر. وقد اجمع العلماء من شيعة آل محمّد على ان المسكرات كانت ولاتزال محرمة فى كافّة الشّرايع الالهيّة. ولااباح الوحى للعقلاء يوماً مابتخمير عقولهم. أليس الإثم اذهاب العقول. وانّ الله لايأمر بالفحشاء والمنكر وعليه فلا نستغرب المغالاة والمبالغة من شرع الاسلام فى ذمّ الخمور ومنع تعاطيها. ولعن بايعها وساقيها. وجلد شاربيها. وقتل مستحلّيها. اذ هو شرع العقل ومذهب العلم ودين الحكمة والمصلحة وقد جاهد فى سبيل ابطال الخمر والميسر جهاده المشهور وسعى فى صيانة العقول سعيه المشكور.

قد يوخذ على الشريف الرضى[1] فى زهده وتقويه وصفه الخمرة ومجالس الغناء وذمّه لبعض كمغن ثقيل بارد الغناء، ولكنّا اذا تحقّقنا ان الشريف لم يشرب قطّ ولم يسمع الغناء ولم يجالس ارباب اللّهو والمهازل

١ــ ما وجدت هذا البيت فى ديوانه وقد فحصت جداً ولكن الشعراء يقولون ما لايفعلون وليس من العجب ان الحكيم او الرّياضى جمع بين العلم والادب وانّما العجب من الفقيه الاصولى والمجتهد الجامع لشرائط الفتوى وصاحب اليد الطولى فى الدّين رجل العلم والتقوى واليقين حجّة الاسلام والمسلمين الحاج سيّد حبيب الله الخراسانى كما نقلنا شعره من قبل وسنأتى بما يناسب الكتاب فيما بعدُ ممّا كان فى مذكّراتنا من ايّام الشباب واوان التّحصيل فى مشهد الرضا (ع) بمدرسة النوّاب وكان استاذنا فى الادب الشيخ عبدالجواد المعروف بالاديب النيسابورى رحمه الله انشد لقائله نقيب الممالك الشيرازى .

ساقيا فصل زمستان آمد و ماه صيام / باده در اين فصل واجب گشت و در اين مه حرام
امر دائر شد ميان حرمت و حكم وجوب / خيز كاستفتا كنيم از حضرت شيخ الانام
شد محرّم واجب و واجب محرّم چاره چيست / مجتمع شد امر و نهى آخر چه ترجيح از كدام
گفت از مى خرق اجماع مركّب لايجوز / از دو كار آخر يكى بايد تأمّل فى المقام
يا بفتواى عمر خيّام و حكم بونواس / بود بايد معتكف در پاى خم هر صبح و شام
ياطريق احوط و راى من و دستور شيخ / هر شب احيا از مى و هر روز اغما از صيام
كم قرأتم سادتى الخمر رجس فى الكتاب / فاقرأوا ياويلكم لاتقربوا مال اليتام
گر شود مى داروى شرك و ريا و حرص و آز / نوش جانش باد هر شب شيخنا چون شير مام
ور بنوشد مى ز مال رشوه و ايتام و وقف / تا ابد بادش حرام اندر حرام اندر حرام
خلق مدهوشند و خم در جوش و مطرب در خروش / شهر رى پرشور و شيخ شهر قاضى يا امام
رزق خويش از زرق جوئى يا ز رزّاق كريم / حرمت از خاصان حق خواهى تو يا خيل عوام
باده نوش آماده نوش از دست تركى ساده نوش / اندكى آسوده شو كاسوده گردند از تو عام

شيخنا خوبك زمستانى است فكر باده كن
باده گشت آماده فكر يار كار افتاده كن

ولم يتّخذ الندمان . ولم يستعمل الملاهى ، فانا نعذره فى الاوصاف سيّما مايكون منهامصرّحاً عليه لانّها تقع فى زمنها الاسباب مجهولة لايصحّ الحكم عليهابشىءو الوصف بمجرّده لايقدح بصاحبه فباليقين نقطع انه لا يتجاوز الصناعة والفن وان اظهره كمظهر الحاضر المشاهد كما نجده يقول :

ولربّ يوم هاج من طربى ولقد يضيق بغيره ذرعى
من منظر حسن ومن نغم ندعوه قيد العين والسمع

وقف مرة الاستاذ آينشتاين العالم الكبير عند درج صغير فى اسفل مكتبته

وقال : ان نسبة ماأعلم الى مالاأعلم . كنسبة هذا الدّرج الى مكتبتى . ولوانصف لقال انه اقل من هذه النسبة . فانّا لانعلم اىّ شىء هو ؟ انانعيش فى عالم مملوءٍ بالحقائق والقوى ولانعلم اى شىء هى ؟ وهذا فى الدّنيا الّتى نعيش فيها ونَلْمسها ونزاول شؤننا فيها فكيف بالعوالم الاخرى البعيدة عنّا ؟ نقول ان العالم مكوّن من ذرّات . ونقول ان الذرّة مكوّنة من الكترونات . او من نواة وشحنة ، كهربائيّة سالبة وموجبة . ويتغيّر رأينا فى تكوين الذرّة بمعدل مرّة فى كلّ اربع سنوات . ونبتجّح فنعمل من الذرّة قنابل ذريّة . ونحن لانعلم عن حقيقها شيئاً . نقول ان الاجسام تسقط لقانون الجاذبية . والمصباح يشتعل بالكهرباء . ونسخّر الكهرباء فى ايجاد الحرارة والبرودة والحركة . وايجاد الامواج واستقبالها . ولكن ما الكهرباء ؟ لانعلم حقيقتها . وان كانت تسكن فينا وكل ماحولنا لانعلم حقيقته وانما نعرف اعراضه . وبعبارة اخرى نعرف كيف ؛ ولانعرف ما ولماذا .

ما الحب . ما الجمال . ما القبح . ما الحرّية . ما كلّ شيء معنوى ؟ كلّ هذه لا نعرف عن حقيقها شيئاً . وكلّ ما يستطيعه العقل ان يعرف صفاتها ما الدّين ما الخوف ما الامل ما الشجاعة ما الفضيلة ما الرذيلة ؟ لاشيء غير الصفات . قد نعلم ان اثنين واثنين اربعة ثمّ نعلم اجزاءها ومضاعفاتها ، امّا ساير الأشياء فنعرف اعراضها . ولا نعرفها . وكانا منحنا عقلا ليس من طبيعته ان يعرف شيئاً عن الحقايق وكلّ الذّى يعرفه الانسان لوكان ذكيّاً ان يوجّه سلوكه فى الحياة حسب طبائع الاشياء وحقايقها . ولذلك انصف اصحاب مذهب البراجما تزم[١] اذ أنكروا قدرة العقل على معرفة الحقيقة وقصروه على معرفة الوسايل للغايات .

والّذين يشتغلون بالعلوم ويقولون انهم وضعوا قوانينها كقوانين الجاذبيّة وقوانين الطّبيعة والكيمياء لا يزعمونها شرحاً للحقايق ولكن شرحاً لاوصافها وحتّى هى شرح لصفاتها الظّاهرة لا صفاتها الباطنة انك تقول ان فلاناً يحبّنى وفلاناً يكرهنى ولكن ماحقيقة الحب والكره ؟ لا نعرف . قد يكون الانسان مفتوناً بنفسه مغروراً بعقله لا يعرف من الامور الاظواهرها فيظن انه ادرك بواطنها فيتيه اعجابا وينأى بجانبه تمرداً من الاقوال المأثورة ان كلّ انسان امّا ان يكون افلاطون او ارسطو . يعنون بذلك انه ان غلب عقله عواطفه كانت نزعته ارسطاطالية . وان غلبت عواطفه عقله فنزعته افلاطونية . صوّر افلاطون مشيراً الى السماء وارسطو الى الأرض .

---

١ – براجماتيه مذهب فلسفى ، يقيس صدق القضيّة بنتائجها العمليّة التى تحل ˜ مشكلات البشريّة

نستطيع – قياساً على هذا – ان نقول – ان كل متصدّ للاصلاح وقيادة امور النّاس امّا ان يكون عليّاً او معاوية. فان غلب عليه تحرّيه للعدل المطلق فى كلّ صغيرة وكبيرة وعدم رضاه عن أىّ ظلم مهما كانت نتيجته فهو اقرب الى نزعة علىّ. فعنده أن الخط امّا ان يكون مستقيماً او اعوج ولاشىء بينهما . ويحبّ علىّ السير فى الخطّ المستقيم دائماً من غير نظر الى العواقب امّا معاوية فشىء آخر يرى (ان الغاية تبرّر الوسيلة) وهو يعلن عن سياسته بقوله (انا لانصل الى الحق الا بالخوض فى كثير من الباطل)[1] فمن سار على هذا النهج وارتكب الظلم احياناً بغية الوصول الى نفع كبير فهو اميل الى خطّة معاوية والسّياسيون – عادة من قبيل معاوية ينحرفون عن الحق احياناً بحجّة انهم يقصدون الى منفعة كبرى وينظرون الى المسائل السياسيّة نظرة البايع والمشترى يدفع الثمن ظنّاً فى الربح فهم يضحون بالحق احياناً أملاً فى تحقيق حق أكبر . وقد يخدعون بذلك انفسهم[2] فالسياسى والقائد لابد أن يأْخذ ويعطى ويتنازل ويصعد .

قال العلّامة (ريبر) المدرّس بجامعة هارفارد بالولايات المتّحدة الامريكية فى كتابه. المنازعة بين العلم والدّين ، ان اشتغال المسلمين بالعلم يتّصل باوّل عهدهم باحتلال الاسكندريّة سنة ٦٣٨ اى بعد وفاة محمّد بستّ ستين . ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتّى استأنسوا بجميع الكتب العلميّة اليونانيّة . وقدّروها قدرها الصّحيح . وان المسلمين انتهت اليهم

١ – احمد امين ج١ مجلّة الكتاب ص٨٣٣ ، ٢– فريد وجدى فى رسالة الاسلام .

زعامة العلم فى العالم كله . وكانت مدنهم فى آسيا واوربا مثابة للامم كافّة يقصدها مريد والاستفادة من سائر بلاد العالم . فيشركونهم فيما حصلوا عليه من انوار المعارف ليخرجوا بلادهم الاوربيّة من ظلمات الجهل . وقد شهد علماء اوربا وفلاسفتها ان بلادهم مدينة للمسلمين بعلومها وفلسفاتها وصنائعها ، وهى شهادة تؤيّدها الأسانيد التاريخيّة ، والكتب المترجمة عن العربية الّتى لاتزال ماثلة فى مكتباتهم ، والّتى لايزال بعضها يدرس فى جامعاتهم الى اليوم .

ليس غرضنا هنا ان نبيّن مدى تأْثير العلوم الّتى أقام دولتها المسلمون فى مدنية اوربا . وانما مقصدنا ان نجلّى ان العلم لم يجد داعيا اليه ومحبّباً فيه ، فى جميع بلاد العالم من اوّل عهد النّاس به الى يومنا هذا مثل ماوجده فى نبيّنا الاكرم . ذلك لانه ادرك ان العاطفة الدينيّة المجرّدة عن العلم ، قد تستجيب لباطل مموّه ، وقد تصبو لهوى مزخرف ، وقد يدعوها حب البحث الى الخوض فى الشؤون العلويّة . فتتردى فى مهاوى الضّلالات وتجمد عليها ؛ وانت خبير ان الاديان السابقة على الاسلام قد خرجت بتحريف الجاهلين عن جادّتها القويمة بل استحالت الى وثنيّة بحتة . ويريد الحق أن يحفظ للاسلام طابعه الالهى . ولايتأتّى ذلك الّا اذا احيط بسياج من العلم . وتجلى كلّ هذا على حقيقته لمحمّد ﷺ فكان باعثاً قويّاً على الدعوة اليه . فى الوان شتّى من البيان ، فكان مما أثر عنه انّه قال اطلبوا العلم ولو بالصّين ، فان طلبه فريضة على كلّ مسلم . وهذا اوّل

تصريح لداعية دينى بان يستنفد الانسان وسعه لطلب العلم حتّى لو كان لاسبيل اليه الّا بالانتقال الى ابعد بلاد العالم .

وانظر الى قوله ﷺ ليس منّى الا عالم او متعلّم . وقوله ، كن عالماً او متعلّما ولا تكن الثّالثة فتهلك ، تجده يجرّد من الانتساب الى الدّين . الجاهل الّذى رضى بجهله فجمد عليه . وينذر بالهلاك . من اكتفى بالدّخول فى الاسلام واهمل ان يزداد علماً ـ ومن اعجب مايؤثر عن النّبىّ ﷺ قوله ﷺ من ظنّ ان للعلم غاية فقد بخسه حقّه ووضعه فى غير منزلته الّتى وضعه الله بها ، ومن ذلك قوله ، ليس الحسد والملق من خلق المؤمن الّا فى طلب العلم ، وقال بين العالم والعابد سبعون درجة . وقال لموت عالم أيسر من موت قبيلة اى ان المجتمع ينكب من موت عالم اكثر مما ينكب من موت قبيلة .

قال ابن خالوية . دخلت على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لى اقعد ولم يقل اجلس فتبيّنت من ذلك اعتلاقه بأهداب الادب واطّلاعه على اسرار كلام العرب وانما يقال فى المختار عند اهل الادب للقائم اقعد وللنائم والساجد اجلس .

ولذلك تعليل بديع ذكره بعضهم ان القعود الانتقال من العلو الى الاسفل ولهذا قيل لمن اصيب برجليه مقعد والجلوس هو الإنتقال من السفل الى العلو ومنه قيل لنجد جلساء لارتفاعها وقيل لمن أتاها جالس.

قال ابو سليمان الخطّابى حكى لنا عن النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلّم فقال له المأمون : اجلس

فقال : یاامیر المؤمنین ماانا بمضطجع فأجلس قال: فکیف تقول ؟ قال أَقول، اقعد، فامر له بجائزة قلت وبیان ماقاله النضر بن شمیل انّما یصحّ اذا اعتبرت احدی الصفتین بالاخری عند المقابلة فتقول : القیام والقعود کماتقول: الحرکة والسّکون ولا نسمعهم یقولون القیام والجلوس وانّما یقول قعد الرّجل عن قیام وجلس عن ضجعة ونحو ذلک .

قال الحریری صاحب المقامات[1] بإسناده عن الاهوازی قال حدثنی النضر بن شمیل قال کنت أدخل علی المامون فی سمره فدخلت ذات لیلة وعلیّ قمیص مرقوع فقال یانظر ماهذا التقشّف حتّی تدخل علی امیر المؤمنین فی هذه الخلقان قلت یاأمیر المؤمنین أنا شیخ ضعیف وحرّمرو شدید فاتبرّد بهذه الخُلقان قال لا ولکنّک قشف ثمّ اجرینا ذکر الحدیث فاجری هو ذکر النّساء فقال حدثنا هُشیم عن مجالد عن الشعبی عن ابن عبّاس قال قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم اذا تزوّج الرّجل المرأة لدینها وجمالها کان فیها سَداد من عَوز فأورده بفتح السّین فقلت صدق یاامیرالمؤمنین هُشیم حدثنا عوف بن ابی جمیلة عن الحسن عن علی بن ابیطالب قال قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم اذا تزوّج الرّجل المرأة لدینها وجمالها کان فیها سِداد من عَوز قال وکان المامون متکّئاً فاستوی جالساً فقال کیف قلت سِداد قلت لان السَّداد هنا لحن قال وتلحننی قلت انّما لحن هُشیم وکان لحّاناً فتبع امیر المؤمنین لفظه قال: فما الفرق بینهما قلت السَّداد بالفتح القصد فی الدّین والسّبیل والسّداد بالکسر البلغة

١ــ المزهر سیوطی . مجالس العلماء لابی القاسم ابن اسحق الزجاجی . من مطبوعات کویت

وكلّ ماسددت به شيئاً فهو سِداد قال أوتعرف العرب ذلك قلت نعم هذا العرجي يقول: أضاعُونِي وَأيَّ فتىً أضاعُوا لِيَوْمٍ كَرِيْهَةٍ وَسِدادِ ثَغْرٍ

قال المأمون قبّح الله من لا ادب له وأطرق ملياً ثمّ قال مامالك يانضر قلت اريضة لى بمرو أنصابها وأتمزّزها قال أفلا نفيدك معها مالاً قلت انى الى ذلك لمحتاج قال فاخذ القرطاس وأنا لا ادرى مايكتب ثمّ قال كيف تقول اذا امرت ان تترب الكتاب ؟ قلت أتربه، قال فهو ماذا قلت مُتْرَب قال فمن الطِّين، قلت طِنْه، قال فهو ماذا قلت مَطِيْن، فقال هذه احسن من الاولى ثمّ قال ياغلام أتربه وطنه، ثمّ صلى بنا العشاء وقال لخادمه تبلغ معه الى الفضل بن سهل قال فلما قرأ الكتاب قال يانضر ان امير المؤمنين قد امر لك بخمسين الف درهم فما كان السبب فيه فاخبرته ولم اكذبه، فقال ألحنت امير المؤمنين فقلت كلّا وانما لحن هشيم وكان لحّانة فتبع امير المؤمنين لفظه وقد تبع الفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثمّ امر لى الفضل بثلاثين الف درهم فاخذت ثمانين الف درهم بكلمات استفادها منّى.

وفى كتاب مجالس العلماء اضافات فى الالفاظ وتغيير فى العبارات فمنها بعدما أنشد بيت العرجى قال قبّح الله اللحن. قلت. ياامير المؤمنين انما لحن هُشيم وكان هشيم لحّاناً فاتّبع امير المؤمنين لفظه وقد تتبع الفاظ العلماء - ثمّ قال لى يانضر هل تروى من الشعر شيئاً؟ قلت. نعم ياامير المؤمنين قال فانشدنى أخلب بيت قالته العرب قلت قول حمزة بن بيض فى الحكم بن ابى العاص.

تقول لى والعيون هاجعة أقم علينا يوما فلم أُقم

ایّ الوجوه انتجعت قلت لها وأیُّ وجه الا الى الحكم

متى يقل صاحبا سُرادقه هذا ابن بيض بالباب يتبسم

قد كنت أقسمت فيك مقتبلاً فهات وادخل وأعطنى سلمى

فقال احسن والله ماشاء : فانشدنى اقنع بيت قالته العرب قال .

قلت قول عروة المدنى حيث يقول :

أطلبُ مايطلب الكريم من الرِّز ق بنفسى وأُجمل الطَّلبا

واحلب الدِّرة الصَّفىَّ ولا أُجهد اخلاف غيرها جَلَبا

انى رأيت الفتى الكريم اذا رَغَّبْتَهُ فى صنيعة رَغِبا

والنَّذلُ لايطلب العَلاءَ ولا يعطيك شيئاً إلّا اذا رَهِبا

مثل الحمار الموقّع السَّوء لا يحسن مشياً إلّا إذا ضُرِبا

قد يُرزق الخافض المقيمُ وما شَدَّ لعنسٍ رحلاً ولا قَتَبا

ويُحرم الرّزق ذو المطيّة والـ رّحل ومن لا يزال مغتربا

فقال : احسن والله ماشاء ، فانشدنى أَنصف بيت قالته العرب قال .

قلت قول الراعى حيث يقول :

انى وان كان ابن عمى غائباً لَمزاحمُ مِن خَلْفِهِ وورائه

ومعدُّه نصرى وان كان امرأً متباعداً فى ارضه وسمائه

واكون والى سِرِّه فاصونه حتّى يكون علىّ وقت أدائه

واذا الحوادث أُجحفَت بسوامه قرّبت مُجحَفها الى جربائه

واذا دَعا باسمی لیرکب مَرکبا صَعْباً رکبتُ له علی سِیسائه
واذا رأیت علیه بردا ناضراً لم تُلفنی متوسِّماً لردائه

فقال احسن والله ماشاء ثمّ بعدقوله مترب ومطین قال فمن السَّحاة؟
قلت. اسحِهِ قال هو ماذا قلت مسحیٌّ ومسحوٌّ، قال یاغلام أترب واسح وطِنْ.

انما الاحاطة بالعلم من صفات الله الخاصة به وقد امر الله رسوله الخاتم بطلب المزید من العلم بقوله وَقُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً فکلّ ما کسبه البشر وکلّما یکسبونه ما کان ولن یکون الا ناقصاً قابلاً للکمال الّا من عصمه الله وکان فضله علیه عظیما. وَذٰلِکَ فَضْلُ اللهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ

فالعلم الصحیح ما کان صفة للنفس والعلم النافع ما کان باعثا علی العمل الصّالح والعمل الصّالح ماصلحت به نفس العامل وکانت قدوة حسنة لکلّ من عرفها. إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ یَرْفَعُهُ، السّعی فی تحصیل جمیع العلوم والفنون الّتی یتوقّف علیها حفظ کیان المسلمین من العقاید الدینیّة علی وجه التوسّع والقدرة علی دفع جمیع الشبهات والعلم بالاحکام الشرعیّة علی وجه التوسّع والاجتهاد وتحصیل ملکة الاستنباط من الکتاب والسنّة فاذا قام من تحصل به الکفایة سقطت عن غیره والا اثم الجمیع.

وکذا یجب العلم بالفلسفة والتاریخ العام والفیزیاء والکیمیاء والطب وفروعه من التّشریح والفسیولوجیا والصیدلة وتحصیل جمیع علوم الطّبیعیّة والفلک والمیکانیک وعلم النبّات ومعرفة الارض وعلم

الحيوان والحياة وعلم النّفس وكلّ مايسمّى علما ويمكن تعلمه حتّى السّحر والكهانة وفروعهما ممايتوقّف عليه دفع شبه المشعوذين ولابد من وجود علماء فى كلّ فنّ وعلم بين المسلمين تقوم بهم الكفاية ليرتفع العقاب عن جميعهم.

وكذا يجب بالصنايع بأسرها من دون استثناء كالحياكة والخياطة والنجارة والهندسة والبناية والتنجيم والطيران وصنع الطائرات والسّيّارات والمدافع وسائر الآلات الحرب وتركيب المواد الكيمياوية وتحليلها واستخدامها وركوب الخَيْل والرماية وكلّ صنعة عرفها النّاس ممايتوقّف عليها معاشهم او تكون لها فائدة فى الحروب او ادارة الملك او التجارة والاقتصاد وتنظيم امور المال وفنون الحرب وكلّ مايوجب قوّة للمسلمين حتّى الرّياضة البدنيّة والسباحة. فاذاجهل المسلمون شيئاًمماعرفه غيرهم من الصّنائع والفنون والامور الّتى تزيدفى قوّة المسلمين استحقّ جميع المكلّفين منهم العقاب لانه يجب على المسلمين ان يعدّوا لعدوّهم كلّ مايمكن اعداده ممايطلق عليه لفظ القوّة حتّى يرهبون به اعدائهم وهذا لايحصل الاان يفوّقوا جميع الامم قال الله تعالى وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبٰاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّاللهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَقَالَ وَقَاتِلُوْهُمْ حَتّٰى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ ويجب السّعى قدماً وقلماً وقولاً وفعلاً فاذا قصر المسلمون توجّه العقاب الى جميعهم هذاهو الدين والواجب على المسلمين وليكن من حق العقلاء ان يمقتوا الدّين وينبذوا تعاليمه يوم يكون الدّين مرادفاً لجمود الفكر وقسوة الطبع وبلادة العاطفة؟ ويوم يكون استيلاؤه

على زمام الحياة عودة بها الى الوراء وانتكاساً عن الجادّة وتغييراً لفطرة الله في النّفس ومنطق الحق في الجماعة لانه يومئذ لايكون ديناً من عند الله بل يكون أهواء من عند النّاس ولن يكون السير عليه تقوى ومثوبة بل معصية وعقوبة ولا يكون الدين الذى اكمله الله واتمّ به النعمة ورضيه للناس

ان الهزائم الّتى منى الاسلام بها في ميدان الثقافة والتعليم انكى من الهزائم الّتى منى بها في ميدان السّياسة والحرب فان دعامته الاولى كتاب يخاطب اولى الالباب وعدّته الكبرى، فتح مغاليق النّفس واحياء موات الفكر - ان حاجته الى المعرفة المطلقة كحاجة الطير الى الهواء كيما يسعى ويحلّق. فاذا فقد هذا الهواء فان جناحيه لن تشلّا فحسب بل سوف يختنق ويموت، ان دين الاسلام يسير امام العلم بمراحل ولايمكن ان يلحقه العلم فضلاً عن أن يَسْبقه فان شعاره (الله اكبر) وجوبا في كلّ يوم خمس مرّات عند افتتاح الصّلوة وكلما اكتشف العلم عظمة المخلوقات او تدبيراً دقيقاً اوحكمة بالغة اوقانونا بديعا في الطّبيعة يرى الاسلام امامه، الله اكبر، فلا يمكن ان يصل العلم مرتبة الّا ويرى الاسلام فوقها وأمامها ولذا قال سيّدنا وامامنا امير المؤمنين عليه السلام في بيان اوصاف المتّقين عظم الخالق في انفسهم فصغر مادونه في اعينهم.

ان تحقير العلم والعقل في نظر الاسلام - يعنى أن لاينشأ في القلوب ايمان صحيح، ذلك انّ صدق الايمان انما يقوم على حسن التّأمّل في الكون وحسن الادراك لمظاهره واسراره لكن العلم وحده لم يحقّق الخير للبشر.

بل قد رأينا طبائع السوء تستغله فيما يرد الناس وحوشاً لاتربط بينهم عاطفة رحمة ، يَقْطَعُوْنَ مَاأَمَرَاللهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُوْنَ فِى الْأَرْضِ وَلَايُصْلِحُونَ. ولا يزال الاسلام يوثق العلائق بين الايمان والفكر . ويجعل العقائد الصّحيحة هى الحقائق الثّابتة . ولايزال — فى الوقت نفسه . يزيّن البشر بالتقوى . ويقومهم بالسعى والجدّ وأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّامَاسَعٰى

ونحن نعلم ان الخصومة الّتى تسود بها ضمائر البعض ضدّ الاسلام — علّتها الدفينة هى الجهل الاعمى او الجهود المكابر . وان محاولة القضاء على هذا الدّين انما ينشط فيها اقوام يعملون سرّاً وجهاراً ليلاً ونهاراً . ان الاستعمار الّذى يسانده علم لاضمير له قد جمع بين الأضداد اى جمع بين الحضارة العلميّة والضغائن الصليبيّة ثمّ انطلق فى اقطار الارض ليذل العباد ويخرب البلاد على ان الانجليز لم يستطيعوا ان يستروا غرضهم ذاك من اول يوم . فهذا قائدهم (اللّنبى) يقول يوم دخل القدس غازياً فى اخريات الحرب العالميّة الاولى (اليوم انتهت الحروب الصليبيّة . فكانت كلمته هذه نميمة تكشف عن الحقد المضطرم فى قلب القائد الصليبى الأخير ضدّ العرب والمسلمين .

قَدْبَدَتِ الْبَغْضَاءُمِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَاتُخْفِى صُدُوْرُهُمْ أَكْبَرُ، تلك نذر التاريخ الّتى لم تزل تتكرّر مرةً بعد اخرى منذ حاول اول صليبىّ أوروبى ان يضع قدمه على هذه الارض المقدّسة الى عهد اللنّبى على ان كبر هذه الجريمة لايقع على بريتانيا وحدها . فلم تزل امريكا تبذل الجهد — مسرفة

فى معونة أصحاب السبت بالمال والعتاد والضغط السّياسى والوسائل الاخرى ولم تزل الاموال الامريكيّة واسلحتهم تتدفق على موانئ اسرائيل لتتمكّن وتقوّى وتستكمل اسباب الغلبة أذلك لان امريكا امّة صليبيّة بالمعنى المنحرف الّذى تفهمه اوربا من كلمة الصّليب . وهو ضرورة البطش بالعرب مسلمين ومسيحيّين لتكون الغلبة كاملة لاوربا وخُلفائها على اهل المشرق .

أم تفعل امريكا ذلك لأنّها امة طارئة على وطن غريب ليس لها فيه جذر ، فهى بهذه العقدة النفسيّة فى الشعب الامريكى تريد ان تجعل توطين الاجانب فى غير وطنهم قاعدة ؟

ونحن لانجيب . اىّ الاحتمالين ادنى الى الصّواب ؟ وندع الجواب على ذلك للآمريكيّين الابرار الّذين يعطفون علينا من وراء البحار فيرصدون القناطير المقنطرة لدعم حملات التّبشير فى بلادنا حتّى لاتبقى او تبقى بلااسلام نحن ندلّ القرّاء جميعاً على كتب التّاريخ ليقارنوا بين احوال المسلمين واساليب الحكم فيهم ، وبين احوال الصّليبيّة الغربية . وماوقعته بالخلائق من مناكر ومآثم ضجّت لها الارض والسّماء — وسيرى اىّ قارى ذى لب ان دويلات المماليك كانت انزه يداً واعفّ نفساً وارقى فكرة من الدّول الضّخمة الّتى بناها البابوات والأباطرة فكان علاجها للامور سُبَّة فى فنّ الحكم الى قيام السّاعة .

ونحن نستمسك بهذه المقارنة لان قاهرى المسلمين فى العصر

الحديث . والّذين يمكرون بالاسلام وامّته لا يزالون يفخرون بنسبهم القديم ويجعلون من الاستعمار الجديد امتداداً للصليبيّة الاولى وهم يحتالون على بلوغ مآربهم بوسائل شتّى .

ان هناك لفيفاً من الادباء تتفاوت جرأتهم فى خصومة الاسلام . ومحاولة القضاء على عقائده وشرائعه، واخراج الامّة من نطاق كتابه وسنته. انهم يريدون ان تنسى الامة اسلامها . وان تخلع لباسه القديم عن نهضتها الفتيّة . وان تتبع الغرب اتّباعاً . يجعل دوله الكبرى ترضى عنا وتعجب بنا . وقد علمنا ان هذه الدّول لن ترضى عنا ولن تعجب بنا الّا كما قال الله تعالى فى كتابه وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .

والعناوين البرّاقة لحمل الامة على اطراح الاسلام فى سهولة واستكانة هى فصل الدّين عن الدّولة . فصل الدّين عن القانون . فصل الدّين عن المجتمع . فصل الدّين عن الاخلاق . والدّين هنا هو الاسلام . ومعنى فصل الاسلام عن هذه النّواحى الهائلة من حياة النّاس الحكم عليه بالاعدام .

والعجيب ان خصوم الاسلام يبدون امام النّاس وكأنّهم سدنة التطوّر الواسع فى اساليب الحياة وغاياتها . وعشّاق المعرفة الشاملة والتجديد البعيد . وان ركائزهم فى نبذ الماضى بما حوى من دين وتقاليد هى احترام العقل وحده والإعتراف بما يقر وهجران ماينكر .

قبل مائة سنة ترى الابرار الكرام ! من الامريكيّين جاؤا من وراء البحار وبنوا المستشفيات واسّسوا المدارس والجامعات والمعاهد الثقافيّة

وهذا غير عشرات المدارس التبشيريّة فى المدن والقرى الصّغيرة وينفق عليها الكرام البررة من الامريكيّين وغيرهم من الاتقياء والنجباء ! من الانجليز والصّالحون من الفرنسيّين واهل الورع والإيثار من سائر الدّول !

يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا بِطَانَةً مِنْ دُوْنِكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالاً وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِيْ صُدُوْرُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ .

فى الأدب الإفرنجى كتب قيمة جدّا تبحث فى التّاريخ الخاص والعام وتاريخ الأُمم والنهضات العلميّة لأنّهم يتكلّمون فى التّاريخ القديم والحديث بروح المورّخ ، امّا اذا تكلّمت عن الجزء الاسلامى او عن حياة نبيّنا الأكرم ترى تحريفاً ظاهراً وكذباً واضحاً وتشنيعاً كبيراً فالنبىّ العظيم يوصف بانه مؤسّس دين حربىّ لاصلة بينه وبين الفضيلة بل اكثر من ذلك ، قرأت فى فصل من تاريخ العالم العام ان سيّدنا محمّد ﷺ هو ابن عبدالله وعبدالله يطلق على الوالد المجهول وربما كانت هذه التسمية من هذا القبيل . وبحثت عن اسم الكاتب فاذا هو مستشرق انجليزى معروف وهو استاذ فى جامعة اكسفورد[1] هو (مرجوليوث) اوّل مانلاحظ فى تلك الآراء مجرّد تشنيع خال من الحق ومن العدل ويتمشّى فيها سوء النيّة بصفة جلية واضحة لاتقبل تأويلاً اوتعليلاً . ومن محاسن الكتب الافرنجيّة انها تكتب المصادر الّتى اعتمد عليها فى ابداء آرائها وتشير الى المراجع

١ ـ وعضو بالمجمع العلمى بدمشق نشر كثيراً من امّهات الكتب العربية وقدّم لها ١٨٥٨ ـ ١٩٠ ٤

الّتى استقت منها تلك المعلومات واذا تصفّحت تلك المصادر تجدها راجعة الى بيئة واحدة هى جماعة المستشرقين .

اذا ألّف مستشرق كتاباً او نشرة ظهرت هذه النشرة بثلاث لغات حيّة فى وقت واحد تقريباً الالمانيّة والانجليزيّة والفرنسيّة مع ان طبع هذه الكتب يتكلّف نفقات باهظة قد تستنزف ثروة المستشرق نفسه . وترى فى مقدّمة كلّ كتاب من كتب المستشرقين اسماء زملاء له فى البلدان الاخرى يقومون بالترجمة والطبع والنشر والمراجعة . وفى كلّ عام ينعقد لهؤلاء المستشرقين مؤتمر ليتفقّوا فيه على خطّة العام الجديد وكنت اعلم ان المستشرقين ينقصهم فى مباحثهم عن الاسلام الرّوح العلميّة وان لهم فى الاستقصاء طريقة لاتشرف العلم ، وهى انهم يفرضون فرضاً ثمّ يتلمّسون اسبابه فاذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبسوها. واذا وجدوا آيات لاتتناسب مع اغراضهم تجاهلوها . وقالوا إنّها غير موجودة فى القرآن . فيخرج القارى من كلامهم . وهو ، يتّهم الاسلام بالتلفيق كما يتّهمونه ــ ولذلك لم أتوان ان أناقش (فنسنك)[١] رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلاميّة هذا الحساب وان اظهر مساوءه لانّه كرئيس تحرير لهذه الدائرة يعتبر له قيمة . ولا بأْس ان نناقشه فى ميدان العلم مناقشة علميّة واضحة . وان نظهر ان طريقة المستشرقين فى البحث طريقة شعوذة فلا يحترم آراءهم بعد اليوم اوروبى ولا شرقى . واذا ما خلعنا

١ ـ ١٨٨١ـ١٩٣٢ هلندى خلف هرجرونيه فى كرسى استاذ العربية بجامعة ليدن وله دراسات

عنهم تلك الزّخارف البّراقة من الوهم الّذى احاطوا به انفسهم فقد أظهرنا للناس حقيقتهم . هم قوم ضعاف فى العلم لهم فى الاسلام مآرب سيّئة ولفنسنك مبحثان فى دائرة المعارف الاسلامية هما انموذج لشعوذة المستشرقين. اولهما عن ابرهيم . وثانيهما فى كلمة الكعبة . وجاء سنوك هرجرونيه[١] بعد ذلك بزمن فتوسّع فى بسط هذه الدعوى . فقال ان ابرهيم فى اقدم منازل من الوحى فى الذاريات آية ٢٤ ومابعدها ـ الحجر آية ٥٠ ـ الصّافات آية ٨١ ومابعدها ـ الانعام آية ٧٤ ومابعدها ـ مريم آية ٤٢ ومابعدها الخ هو رسول الله من الله أنذر قومه كما تنذر الرّسل ولم تذكر لاسماعيل صلة به ـ والى جانب هذا يشار الى أن الله لم يرسل للعرب نذيرا (السجدة آية ٢ ـ سبا آية ٤٣ ـ يس آية ٥) ولم يذكر قطّ ان ابرهيم هو واضع البيت ولا أنّه اوّل المسلمين ـ أما السور المدنيّة فالامر فيها على غير ذلك فابرهيم يدعى حنيفاً مسلماً وهو واضع ملّة ابرهيم رفع مع اسماعيل قواعد البيت المحرّم (البقرة آية ٨٨ ومابعدها ـ آل عمران آية ٦٠ ومابعدها) الخ سرّ هذا الاختلاف ان محمّداً كان قد اعتمد على اليهود فى مكّة فما لبثوا ان اتّخذوا حياله خطّة عداء فلم يكن بدّ من ان يلتمس غيرهم ناصراً . هناك هداه ذكاؤه مسدد الى شأن جديد لأبى العرب ابرهيم . وبذلك استطاع ان يخلّص من يهوديّة عصره ليصل حبله بيهودية ابرهيم . تلك اليهوديّة الّتى كانت ممهّدة للاسلام . ولما اخذت مكة تشغل جلّ تفكير الرّسول

١ ـ ١٨٥٧ ـ ١٩٣٦ مستشرق هلندى له دراسات فى اصول الفقه الاسلامى وله كتاب عن مكة

اصبح ابرهيم ايضاً المشيّد لبيت هذه المدينة المقدّس – يتراءى لك عند قراءة هذه القطعة ان فنسنك، باحث عميق يستقصى آيات القرآن واحدة واحدة. ويخيّل اليك ان الرّجل صادق فى اقواله وانه يعتمد على المستندات من الآيات الّتى احصاها واحدة واحدة.

ولكن لم يغب عنا مواضع الضعف فى قوله لانه كالخادع المماذق الّذى يستر كذبه بالقسم، ولذا لم يخدعنا هذا المظهر البراق، لاسيّما واننّا نَعْلم تماماً اغراض المستشرقين. فلا يمكن ان يكون هذا صحيحاً. فنحن نتمشّى معه فى البحث فقد انكر ان الآيات المكّيّة فيها اشارة الى ان ابرهيم هو واضع البيت وانه لا يوجد اشارة او ذكر لصلة اسماعيل به.

امّا الآيات المكّيّة الّتى فيها ذكر البيت وان اسماعيل هو ابن ابرهيم فهى موجودة فى سورة ابرهيم فى آية ٣٤ ومابعد، رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ الى قوله تعالى أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِىْ وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ – فهذه آيات مكّيّة لا نعرف لماذا حذفها فنسنك. ولكن النّظريّة الّتى شرحناها لك تضئ لك الموضوع. فانه يفرض الفرض ويتلمّس الدّليل فاذا وجد ما يهدم نظريّته حذفه وهذا يدلّ على عدم الأمانة فى العلم لاسيّما فى موضوع دقيق يهم عقيدة، يدين بها ستمائة ميليون مسلم ولا يمكن ان نلتمس لفنسنك فى هذا حسن النيّة لان هناك قواميس للقرآن واذا بحث عن كلمة ابرهيم فانه يعثر على هذه الآية

ويقول فنسنك . ان الآيات المدنيّة هى الّتى اختصّت بذكر ملّة ابرهيم . ولكن هذا غير الواقع فالآية ١٦٠ من الانعام مكّيّة وهى قُلْ إِنَّنِى هَدٰانِى رَبِّى إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفاً وَمٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ والاية ١٢٢ من سورة النّحل مكّيّة وهى ثُمَّ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفاً وَمٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ويهودا الّذى تنسب له اليهوديّة هو من احفاد احفاد ابرهيم فليس معقولاً ان يوصف دين ابرهيم باليهوديّة الّتى اتت بعده بمئات السنين . مٰا كٰانَ إِبْرٰهِيمُ يَهُودِيّاً وَلٰا نَصْرٰانِيّاً بَلْ كٰانَ حَنِيفاً مُسْلِماً .

ومع اشتغال الإفرنج بنقل العلم عن الكتب العربيّه فى القرنين الحادى عشر والثّانى عشر للميلاد واختلاطهم بالمسلمين فى قرطبة وطليطلة وغيرهما فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبي فيكتبونه تاره مفمت وآونة بفمت وحيناً بافون وكانوا يظنّون محمداً صنماً يعبده المسلمون حتّى يولوجيوس احد كهنة قرطبة العلماء مع مخالطته المسلمين فى تلك العاصمة فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا اصل لها فى كتبهم ولا فى تعاليمهم كقوله مثلاً ان النبيّ أعلن لأصحابه ان الملائكة ستحمله الى السماء بعد موته بثلاثه ايّام — زعم انه نقل ذلك من مسوّدات لاتينيّة عثر عليها فى بمبلونة — فقس عليه ماقد يختلقه غير العارفين كما حدث ويحدث كلّ يوم الى عهد غير بعيد حتّى الّذين يقيمون بين اظهرنا اعواماً فقد ينقلون عنّا الاكاذيب الّتى ما أَنْزَلَ اللهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها

بعض النّاس عن جهل او اتّفاق فيعدّونها من القواعد المرعيّة عند ساير افراد الامّة . وبين ايدينا رحلات عديدة كتبت ونشرت فى اثناء القرنين الماضيين عن ايران وسوريا ومصر وفيها من المفتريات ما لا اصل له الّا فى ذهن الكاتب او ملقّنه . ولو لا انتشار الطّباعة وخروج النّاس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات لرسخ فى اذهان اهل الغرب ان الشرق يكدّ امرأته للحراثة وانه يزرع القوارما (اللحم المقلى) وهو يعتقد انه سيستغل خرفاناً ويزرع الفحم ليستغل عبيداً وذكر المارشال فى كتابه (الزواج) ان الامّ فى مصر لا يباح لها ان ترى وجه ابنَتْها بعد سن الرّابعة عشرة من اثر الحجاب فى الاسلام وجاء فى هذا الكتاب ايضاً من ان الفتاة المصريّة يباحُ لها ان تعرى جسمها كلّه امام الرّجال ، امّا وجهها فلا يراه انسان . اذا قلّبت اىّ كتاب اجتماعى او عمرانى باللّغة الاجنبيّة يتكلّم عن ايران او الشرق او الاسلام وجدت اشياء كثيرة لا يقرّها عقل ولا يستسيغها منطق وليست من الحقيقة فى شىء والكتّاب الاوربيّون يصوّرون الاسلام بصورة بشعة غريبة لا تكاد تقرأها حتّى يقشعرّ بذلك من هول ما تقرأ وهى تتلخّص فى انّ الاوربيّين لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الشّرق بصفة عامّة وعن الاسلام بصفة خاصّة .

نعم فيهم مَنْ قصر فهمه لانّهم ما يعرفون اللّغة العربيّة وإن عرّفوا بمعلّمى اللّغات الشّرقيّة والعلوم الأدبيّة قد زار احدهم طهران عاصمة ايران قبل ثمانين سنة ، بعد ان تعلّم اللغة الفارسيّة فى مدارس الألسنة

الشّرقيّة ، وكان يحاول ان يضع تاريخاً عن حالتها الاجتماعيّة والاخلاقيّة كما يشاهدها . فرأى يوماً حمّالين فى الشّارع وعلى رؤسهم أوان مذهّبة واشياء فاخرة وامامهم الدفوف والمزامير فسأل المستشرق عن ذلك فقال له احد من العابرين انهم يحملون جهاز عروس فسأله المستشرق عن اسم العريس فقال له (ماذا يهمّك) وفى المساء رأى المستشرق رجلاً يضرب امرأة فى الشّارع فسأل رجلاً عن هذا الشّخص فقال له الرّجل انه زوجها وقد تركته بغير حقّ فسأله عن اسم الزّوج فقال له (ماذا يهمّك) فظنّ المستشرق انّ اسم الرّجل (ماذا يهمّك) وانه العريس الّذى راى جهازه فى الصّباح فكتب المستشرق فى كتابه تاريخ أيران انه رأى فى عاصمتها بعينى رأسه عريسا يقترن صباحاً ويضرب عروسه فى الشّارع ليلاً وان اسمه (ماذا يهمّك) هذا حال المستشرقين فى الحسّيّات والمشهودات فكيف يكون حالهم فى النظريات الدقيقة الغامضة ؟ وهذا مقدار صحّة مايوردونه فى كتبهم فى قضايا لايتعمّدون التّحريف فيها فكيف فيما يتعمّدون .

فالمستشرقون جماعة من مدرّسى اللّغات الشّرقيّة فى جامعات اوربا . وهؤلاء الطلبة الّذين يتلقّون تلك العلوم ليسوا مغرمين بسواد عيون الشّرق . وليسوا مولهين حبّاً بجمال اللّغات الشّرقيّة . ولكنّهم جماعة فى الاجانب يربون انفسهم تربية استعماريّة ليعملوا فى المستعمرات . وكان لابدّ لهذه الجامعات ان تعلّمهم على اسلوب يضمن لها قوميّة هؤلاء الطلبة وتحذّرهم من العطف على الشّرق او الميل الى الاسلام . ولا استطيع أن أفهم

من مهنة كهذه ان يكون الاستاذ منصفاً للشّرق او دعاية للاسلام . بل بالعكس يجب ان يقوم بالدور المطلوب منه سواء كان فى الكلّيّة مع الطلبة ام خارجاً عنها فى مؤلّفاته .

وممّا لا ريب فيه ان رجال الغرب عموماً الّذين يعيشون فى الاقطار الشّرقيّة لهم غرض سياسى يتحرّونه لانفسهم او يتحرّاه لهم القائمون على السّياسة البريطانيّة او الاميركانيّة فكم من جواسيس جاؤا من وراء البحار وعرفوا بلاد الاسلام والعرب وعاشروا المسلمين وتقلّد بعضهم المقامات الرّسميّة اقلّها المشاورة كلورنس[1] صاحب الملك فيصل وفيلبى[2] صاحب الملك ابن السّعود وبعضهم لم يقتصر على بلاط واحد ولا على جهة واحدة من جهات البلاد الإسلاميّة كصاحب كتاب العرب وهو برترام توماس فقد عمل حيناً فى العراق وعمل حيناً فى شرق الاردن وتقلّد رآسة الوزراء لسلطان مسقط وعمّان وقضى فى الاقاليم المختلفة اربع عشرة سنة خرج منها بمحصول قيم من معرفة التّاريخ وفهم الاخلاق ومراس الشّعوب .

فمن الخطأ ان يظن فى هؤلاء الرّجال انهم عاملون سياسيّون فحسب

---

١ — توماس ادوارد ١٨٨٨ — ١٩٣٥ جندى باحث تعلم باكسفورد انضم الى بعثة بريطانية للتنقيب عن الآثار فى العراق بقى بالاقطار العربيّة يتعلم اللغة الدارجة واوقد جذوة الثورة وقطع سكة حديد المدنية .

٢ — ١٨٨٥ — ١٩٦٠ درس العربية والفارسية عين رئيس البعثة السياسية لدى السعودية سمّى نفسه عبدالله وصار ذا نفوذ كبير لدى الملك له مؤلفات قيمة عن شبه الجزيرة العربية والحركة الوهابيّة .

وكفى ، أو انهم يصلحون للمقاصد الحكوميّة ولا يصلحون لشيء غيرها . فانّ الحقيقة انهم لا يوجدون فى مكان الّا بذلوا قصارى الجهد فى استطلاع كلّ مايتسنّى لهم ان يستطلعوه من مباحث الاصول والآثار وحقايق الاجناس والمجتمعات فى حاضرها وغابرها ومايقابلها من احوال الامم المشابهة لها . بحيث يستفيد التّاريخ الانسانى كلّه والعلم الانسانى كلّه ويستفيد ابناء البلاد انفسهم من نتائج ما كشفوه ويعتمد عليه المحقّقون فى تصحيح الآراء عن ماضى بلاد العرب وعن مكان القبائل العربيّة من السلالات البشريّة ولصاحب كتاب العرب قبل هذا كتاب عن الربع الخالى ، معدود من احسن المراجع فى بابه فضلاً عن طلاوته وامتاع اسلوبه .

وكان فى ايران منهم رجل معروف اسمه براون ادّى مهمته السّياسيّة احسن اداء وكتب فى الآداب كتاباً فى اربع مجلّدات ، وقد اعترف جاسوس فرنسىّ ونقل السيّد هبة الدّين الشهرستانى فى المرشد من جريدة الفتح .

اعترافات جاسوس او ثلاثون عاما فى الاسلام

ندبت الحكومة الفرنسيّة فى القرن الماضى المسيو (ليون روش) ليكون جاسوساً على الأمير عبد القادر الجزائرى واوعزت اليه ان يتظاهر بالاسلام عنده ، وان يتوصّل الى ان يكون موضع ثقته ومحلّ امانته .

ففعل ذلك ونجح واقام فى ديار المسلمين ثلاثين عاماً تعلّم فى أثنائها اللّغة العربيّة وفنونها والاسلام وعلومه واختبر الاوطان الاسلامية المهمّة : الجزائر وتونس ومصر والحجاز والقسطنطنيّة . ثمّ الّف كتابا اسمه

ثلاثون عاماً فى الاسلام . قال فيه .

اعتنقت دين الإسلام زمناً طويلا لأدخل عند الامير عبد القادر دسيسة من قبل فرنسا . وقد نجحت فى الحيلة . فوثق بى الامير وثوقاً تاماً واتّخذنى سكرتيراً له . فوجدت هذا الدّين الّذى يعيبه الكثيرون منا — افضل دين عرفته، فهو دين انسانى، طبيعى، اقتصادى، ادبى — ولم اذكر شيئاً من قوانيننا الوضعيّة الّا وجدته مشروعاً فيه . بل انّنى عدت الى الشّريعة الّتى يسميها (جول سيمون) الشّريعة الطبيعيّة فوجدتها كلّها اخذت عن الشّريعة الاسلامية اخذاً . ثمّ بحثت عن تأثير هذا الدّين فى نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً، بل وجدت هذه النّفوس على مثال مايحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرّحمة والمعروف . فى عالم لايعرف الشّرّ واللّغو والكذب فالمسلم بسيط لايظن باحد سوءًا ثمّ هو لا يستحلّ محرّما فى طلب الرّزق . ولذلك كان اقلّ مالامن الاسرائيليّن . ومن بعض المسيحيّين . ولقد وجدت فى الاسلام حلّ المسألتين الاجتماعيّتين اللّتين تشغلان العالم طرّاً . الاولى . فى قول القرآن إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَة فهذا اجمل مبادى الاشتراكيّة . والثّانية فرض الزّكوة على كلّ ذى مال . وتخويل الفقراء حقّ اخذها غصباً ان امتنع الاغنياء عن دفعها طوعاً . وهذا دواء الفوضويّة .

ان الاسلام دين المحامد والفضائل . ولو انه وجد رجالا يعلّمونه النّاس حقّ التعليم . ويفسّرونه تمام التّفسير لكان المسلمون اليوم ارقى

العالمين واسبقهم فى كلّ الميادين . ولكن وجد بينهم شيوخ يحرّفون كلمه ويمسخون جماله ويدخلون عليه ماليس منه وانى تمكّنت عن استغواء بعض هؤلاء الشّيوخ فى القيروان والاسكندرية ومكّة ، فكتبوا الى المسلمين فى الجزائر يفتونهم بوجوب الطّاعة للفرنسيّين وبان لاينزعوا الى الثّورة . وبأنّ فرنسا خير دولة اخرجت للنّاس . وكلّ ذلك لم يكلّفنى غير الانية الذّهبيّة .[1] وفى مقالته فى التبشير والالحاد مايفيد الانذار والإبعاد[2] .

ان المستشرقين الّذين يتوافدون على بلادنا لدرس تعاليم الدّين الاسلامى ينظرون الى اعمال المسلمين ويذهبون الى تدوين مايرونه كأنّه فلسفة الاسلام وتعاليمه ثمّ تأْتى جماعة من الشّيوخ والشّباب فيدرسون مؤلّفاتهم ويحكمون بان دين الاسلام يضع العراقيل فى سبيل الرّقى والتّعالى ويظنّون انه لايصلح ان يتّخذ اساساً فى الحياة وان نيل السّعادة وبلوغ الحضارة وتأْسيس الدّول الرّاقية المجهزة بالعلم والفنّ لايتمّ الّا برفض الدّين فانصرفوا عن الدّين الى الالحاد وعبادة المادّة تقليداً للغرب ثمّ اجترأوا على الاسلام ايضاً فاتّهموه عمداً او جهلاً بانه كغيره من الأديان لايصلح للحياة وان مايدعيّه له انصاره فانما هو اشياء جمدوا عليها ومضى زمنها وقدم عهدها ولكنهم لو انصفوا ودقّقوا النّظر لوجدوا ان كلمة الدّين فى اوربا معناها المسيحيّة لا الدّين فى ذاته ولاينطبق على الاسلام فانّهم تعلّموا تعاليم الاسلام من المستشرقين الّذين يستنبطونها من المسلمين

١ ــ المرشد ج ٣ ص ٢٣٤ نقلاً عن الفتح ٢ ص ٢٧٤ من المرشد .

والحال ان المسلمين شيء والاسلام شيء آخر ولو انّهم اخذوها من اهلها
ودَخَلُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وسألوا اهل الذّكر كما امر الذّكر اى علماء الدّين
الاسلامى المتخصّصين فى معرفته وفلسفته واسرار تشريعه واسرار كتابه
الخالد لأذعنوا بان الاسلام يجب ان يكون المبدأ الّذى نصدر عنه
نهضتنا ، والأساس الّذى ننشئ عليه حياتنا لانه جاء بالاعتدال التّامّ
فكان لاشرقيّة ولاغربيّة اى لامادّيّة صرفة ولاروحيّة محضة فقد جاء
موسى بما كان يقتضيه زمانه من الشّريعة المتكفّلة للسّعادة الدنيويّه
المادّيّة ذكر القسّيس ابوالفرج العبرى فى تاريخه مختصر الدّول :
يااسرائيل ان عملت بوصايا الهك بوركت فى قريتك بوركت فى حقلك
بورك ثمار كرومك وولد بعيرك وان خالفت تنقلب بركاتك لعنات
ويبدّدك الله فى جميع الامم ويعطيك قلباً فزعاً ووجع العين ورماك بالنظر
ولتكون مرعوبا باللّيل والنّهار هذا شيء يمثّل الدّيانة الموسويّة فكلّ مَنْ
تصفّح كتب العهدين يظهر له جليّاً بان الدّيانة الموسويّة جسمانيّة
محضة والشّريعة العيسويّة روحانيّة والدّيانة الوسطى الّتى جمعت بينهما
الشّريعة الاسلاميّة المُحمديّة وقال الدكتور شبلى شميل فى مجموعته فلسفة
النشوء والارتقاء مانصّه شريعة موسى مادّيّة عمليّة لكنّها غير مستوفاة .
كما قال الله وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ . والغرب
رمز المادّة وجاء المسيح ودينه مشبع بملكوت السّماء والرّوحيّات الّتى تفضل
السّعادة الاخرويّة من الزّهد وترك الدّنيا كما فى الانجيل ان دخول جمل

فى ثقب ابرة ايسر من ان يدخل غنىّ ملكوت السّماء وفى القرآن الشّريف وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً والشّرق رمز الرّوح ، وبانضمام قوله تعالى وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً يتمّ الاستدلال اذ كان حقّ العبارة ان يقول آيتين لأنّهما اثنان ولكن لما كانت جهة الاعجاز فيهما واحدة اتى باللفظ المفرد وفى ذلك اشارة الى جواز نسبة ما ورد فى شأن احدهما الى الأخر .

فالاسلام متكفّل لجميع مصالح البشر المادّيّة والأدبيّة والدنيويّة والاخرويّة ومحتوٍ لاسرار سعادة الانسان الابديّة وهو دين الحياة ويوافق جميع وسايل الرّقى والسّعادة ، ومن المستشرقين من عرفوا فلسفة الاسلام واعترفوا امثال كارليل وولز وتولستوى ومونتيه وجبر ضومط فى كتابه الخواطر الحسان والفيلسوف المادّى شبلى شميّل كما فى مكتوبه الى السّيّد رشيد رضا مدير مجلّة المنار ، انت تنظر الى محمّد كنبيّ وتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل واجعله اعظم ونحن وان كنا فى الإعتقاد (الدّين او المبدأ الدّينى) على طرفى نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص فى القول وذلك اوثق بيننا لعرى المودّة (الحق اولى ان يقال)

دع من محمد فى سدى قرآنه ماقد نحاه للحمة الغايات

إنى وان اك قد كفرت بدنيه هل أكفرنّ بمحكم الآيات

أوما حوت فى ناصع الالفاظ من حكم روادع للهوى وعظات

وشرايع لو أنّهم عقلوا بها ماقيّدوا العمران بالعادات

نعم المدبّر والحكيم وانّه ربّ الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجى رجل السياسة والدها بطل حليف النصر فى الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الأبطال فى كلّ الورى من سابق او لاحق اوآت[1]

وهذا كما يقول نفسه دأبه وديدنه بل فكره وطبعه وليس هو مداهن او رجل مهادن وان اردت نقل تعبيره بعينه فها أناقد اديت الامانة فيما يكتب ويقول فى المقالة الثامنة من مجموعته .

اما انا فآفتى - اذا كان ذلك يعدّ آفة - إنّه متى بدت لى حقيقة تستهوينى حتّى لا اعود اضبط نفسى عن ابدائها وعذرى فى ذلك ان الحقيقة لا يكفى ان تعلم بل يَجِب ان تقال ايضاً وإلّا بقى الناس فى العمى وساؤا مصيراً . وقلت اذا كان الاجتهاد الّذى هو ركن من اركان الدّين الاسلامى لا يذلّل هذه الصعوبات فالذنب ليس على القرآن بل على الرّؤساء الّذين بيدهم الحلّ والرّبط فى هذه الأَحكام وباب الإِجتهاد لا يجوز ان يقفل مهما قال المتقوّلون من انصار التقهقر مادام الدين ديناً والعمران عمراناً ولا بد لى كيف كان الأمر من نصر القرآن اعجاباً به وبصاحبه وان كنت خارجاً عن دينه فالحقيقة اعمّ من ان تكون ضالّة المؤمن وحده كما يفهمون ؟ ونصرها واجب على كلّ منصف وكيف لا يحقّ لى الاعجاب بصاحب هذا الكتاب والنّاس قد بلغ اعجابهم برجل مثل نابليون الى ان عدّوه

١ - المنار المجلّد الحادى عشر ص ١٠-١١ .

من خوارق الطّبيعة ولولا انقلّت عاطفة التقى لألّهوه والظاهر ان النّاس لايعظّمون الّا كلّ فتّاك بهم والفرق بين الاثنين اجتماعياً كالفرق بين الثّريّا والثّرى . وهل يقاس بالمصلح الحقيقى رجل سفّاح كنابوليون ضحى لمطامعه كل غاية اجتماعية وبنى على انقاض الثورة الفرنسية الجليلة المبادىء الّتى هدمها بيده بعد ان استخدمها لمقاصده ملكا متداعى البنيان لاغاية فيه الافخَر الفتح وتأييد المطامع الذاتيّة وحدها وشاد قانوناً عدّه النّاس آية فى المرامى الاجتماعيّة وماهو كما قلت فيه ولو كبر على مريديه الّا مجموع شبهات وظنون فيما هو كائن ومايكون على مابين ذلك المصلح ونابوليون من التباين العظيم فى روح العصر الّذى قام كل منهما فيه . ومامن احد يستطيع أن يقدّر الضّرر الّذى أحدثه نابليون قدره بتحويله مبدأ الثورة الفرنسيّة الى خدمة اغراضه وبضربه على يد العمران بقانون كان كالغلّ فى عنقه والقيد فى رجله حتّى اذا مشى مشى به متثاقلاً . وهل ينكر التمدّن فضل دين القرآن عليه يوم كانت الشعوب المعوّل عليها فى ذلك العهد منغمسة فى الترّف لاهية به عن العلم فكان الاسلام محيي رفاته وناشر لوائه وحافظ كنوزه ولولاه لربما كان قد قضى على علوم اليونان وآدابهم وفلسفتهم ولااقول انه هو الّذى نقلها كلّها وانّما صانها من ايدى اولئك الّذين لوبقوا وشأنهم لعبثوا بها ولم يدعوا شيئاً منها يصل الينا . وامثال شبلى شميل كثيرة من اشبال الادب شهدوا بفضل القرآن واعترفوا بعظمة محمّد ﷺ والاسلام ومدحوه نظماً ونثراً .

واليك ماقاله رياض معلوف من شعراء المهجر الجنوبى نظماً :

وحّد الله ! فالمؤذن وحَّد   وبذكر النبي فى العيد أنشد
يارسول الانام ، انت وعيسى   خيرمن يصطفى ويرجى ويقصد
ايه بغداد والمآذن تشدو   ودمشق فيها الصّلوة تردد
و فلسطين و العراق ومصر   شرقنا كله بعيدك عيد
اينما سرت ركّع لصلوة   ودعاء كانما الشرق مسجد
عيدك اليوم غبطة وابتهاج   لجميع الاعراب والله يشهد
ايه قرانك الكريم كتاب   رائع كلّه ودر منضّد
عبر كلّه وقول كريم   كلّما طال عمره يتجدّد
وكفى العرب فخرهم بانتساب   لنبيٍّ هو النبيّ محمّد ﷺ

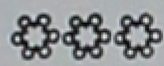
وهذا رشيد أيوب يقول :

فمن ياترى أعلى الورى كمحمّد   وأرفعهم مجداً وأسمى مناقباً

ومحبوب الشرتونى يقول :

ومحمد بطل البريّة كلّها   هو للاعارب اجمعين إمام

وجورج صوايا : ساعة الدهر تقرع ايّها الصحب فاسمعوا
كل يوم اضعتم راحلاً ليس يرجع

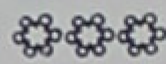


يارفيق الشباب يامحيي الليل   بقربى ان ملّ منى الجليس
وانيس الغريب قد أوحشته   ساعة غاب فيها الأنيس
ياصديقا يبشّ فى ساعة اليسر   وفى العسر والصديق عبوس

ورشيق الحديث يفعل فى نفسى ما ليس تفعل الخندريس
يا اناء الرشاد بين البرايا يا غذاءً تقتات منه النفوس
بين لوحيك قد قضَيْنا ربيع العمر وهو العهد الجميل النّفيس
وسجدنا لديك فى خلوة النفس نناجيك ايّها القدّوس
ينصت الليل معجبا بجوانا وينام الورى ونحن جلوس
انت مرآة ذا الزمان رأينا فيك مافيه لم يمت رعمسيس
خالد فيك افلاطون وهوجو والمعـرّى حىّ وجالينوس
يستوى النّاس فى مقامك سيا ن لديك الرّئيس والمرؤس

وقد شد شعراء العصر فى قيثارتهم وتراً جديداً وفى طنبورهم نغمة اخرى للحكمة والحق انهذا الوتر وتلك النغمة ليس بجديد فى الادب العربى فهو قديم منذ قال زهير الشاعر الجاهلى كلمته ومشى

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم النّاس يظلم



لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

والحكمة وان كانت لها أصول وقواعد لا تندرس بمرور الدهور وفى العصور والاقوام الّا انّها حقايق وفيها دقايق كثيرة، وكم ترك الاوّل للآخر، وربّما تحققّوا بما فيها من وجهى الخير والشرّ والجمال والقبح

قال ايليا أبوماضى : وهو من شعراء المهجر الشمالى

من كان يشرب من جداول وهمه قطع الحياة بغلة لم تنقع
ومن عصبت عيناه فالوقت كله لديه ـ وان لاح الصباح ـ غروب

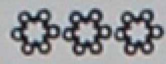
وقال آخر: مامضى فات والمقدّر غيب   ولك الساعة الّتى أنت فيها

ومن حكم الياس فرحات:

ومن سدّ مجرى النهر يوماً ولم يكن   اعدّ له مجرى جديداً تندّما

للترب ما ياخذ الانسان من بلد   قد مرّ فيـه و للتاريخ ما يذر

لو لا الجذور المطمئنة فى الثرى   ما كانت الأغصان ترفع هامها



لوكان عند الضأن بأس ضراغم   مااستمرأ الانسان لحم الضان

وهذا شاعر مسيحى اخر يستحثّ عزائم المسلمين فى ذكرى المولد النّبوى لاستعادة المجد القديم:

عيد البريّة عيد المولد النبوىّ   فى المشرقين له والمغربَيْن دوىّ

عيد النبيّ ابن عبد الله من طلعت   شمس الهداية من قرآنه العلوى

بدا من القفر نوراً للورى وهدىً   يا للتمدن عمَّ الكون من بدوى

يا صاحب السيف لم تفلل مضاربه   اليوم يقطر ذلاً سيفك الدموى

يا فاتح الارض ميدانا لقوّته   صارت بلادك ميداناً لكل قوى

ياحبّذا عهد بغداد وأندلس   عهد بروحى أفدى عوده وذوى

من كان فى ريبة من ضخم دولته   فليتل ما فى تواريخ الشّعوب روى

يا قوم هذا مسيحىٌّ يذكّركم   لا ينهض الشرق الّا حبّنا الأخوى

فان ذكرتم رسول الله تكرمة   فبلّغوه سلام الشاعر القروى

وقال الياس فرحات فيه ﷺ:

غمر الارض بانوار النبوّة   كوكب لم تدرك الشمس علوّه

لم يكد يلمع حتّى اصبحت ترقب الدّنيا ومن فيها دنوّه
بينما الكون ظلام دامس فتحت فى مكّة للنور كوّة
وطمى الاسلام بحراً زاخراً بأواذىّ المعالى والفتوّة
من رأى الاعراب فى وثبتهم عرف البحر ولم يجهل طموّه
إنَّ فى الاسلام للعرب علاً إنَّ فى الاسلام للنّاس أُخوّة
فادرس الاسلام يا جاهله تلق بطش الله فيه وحنوّه
يا رسول الله إنّا أُمّة زجّها التضليل فى أعمق هوّة
ذلك الجهل الّذى حاربته لم يزل يظهر للشرق عتوّه
قل لأتباعك صلّوا وادرسوا انما الدين هدىً والعلم قوّة

الاحسان دين الاحسان

ليس من غرضنا البحث فى الاحسان و وجوبه من حيث الدين فان الكلام فى ذلك من قبيل تحصيل الحاصل اذ ما من ديانة الّا وهى تأْمر بالاحسان وتفرض على النّاس اعالة المساكين وتخفيف مصائب بنى الانسان والاحسان يشمل كل حسنة يأْتيها المرء لابناء نوعه سواء كان ذلك بسدّ عوزهم اومداواة اسقامهم اوتثقيف عقولهم اوتخفيف احزانهم اوانقاذهم من ظلامة او غير ذلك فهذا كله تأْمر به الاديان وتعد فاعليه ثوابا وهم يفعلونه التماساً للثّواب او تكفيراً عن ذنب . وقد انشأوا لذلك المستشفيات والمدارس ودور العجزة والضّيافة وغيرها فى كل العصور ومامنهم من

يفعل ذلك الّا وهو يحسبه تفضّلاً يلمتس عليه أجراً ونحن نقول انه واجب قد اجر عليه سلفا ودين لامناص له من ادائه فاذا لم يفعل ذلك فقد قصر لوفائه لأنّه خلق النّاس لا كماشاؤا بل كما شاءت الاقدار وكما اقتضت نواميس الطّبيعة وفيهم الضعيف والقوى بدناً اوعقلاً ممن يحمل القناطير الى من لايقوى على حمل نفسه وفيهم من يحلّ المعضلات بمضاء عزيمته ويكشف الغوامض بنور بصيرته ومن لايميّز خيره من شرّه وماهم مخيّرون فى ذلك ولاملومون لان شأن قصير البصيرة مثل شان قصير البصر.

فهل اذا ولد الانسان كفيفاً يلام لقصر نظره ؟ او اذا ولد كسيحاً يؤاخذ على قعوده ؟ فالمولود صغير العقل ضعيف الراى لايلام لتقصيره فى ميدان الارتزاق واذا فرض ان التربية تقويّه وتعوض عن ذلك النقص فيه فهو غير مسؤول عن تربية نفسه وانما التبعة فى ذلك على أهله وذويه – على ان الفقر كثيرا ماتكون علّته من مجارى الطّبيعة الّتى لاسبيل الى دفعها – وكذلك الّذين يولدون اقوياء العقول والابدان وفيهم النشاط والهمّة مما يخولهم كسب الاموال او الارتقاء فى المناصب او غير ذلك من مطامع بنى الانسان . فهؤلاء لافضل لهم فى كسبهم وارتقائهم للاسباب الّتى ذكرناها .

الايكفى الفقراء مابلوابه من الضعف الطّبيعى اومعاكسة الطّبيعة حتّى نثقل كواهلهم بالتعنيف ونمسك عن الاخذ بيدهم فى طريق هذه الحياة . فكما نعدّ قيادة العميان فى طريقهم فرضا واجباً لافضل لنافيه

فقيادة ضعفاء القوى العقلية فرض اوجب لان كفيف البصر قد لا ينقصه الارؤية الطريق الى منزله وأمّا كفيف البصيرة فكلّ طرقه مظلمه . اذا رأيت كفيفا يتلمّس الطريق ويتعثر بالحجارة او يلطم وجهه بالجدران فانك لا تتمالك عن ان تمديدك لإرشاده — وكم يكون غضبك لو سمعت احداً يعنّفه على تعثره وقصر بصره . اما اذا رأيت فقيراً يشكو ضيق يده وهو صحيح البدن كامل الاعضاء فانك تنقم عليه وتكثر من تعنيفه ولا تقبل له عذراً لانه كامل السن تامّ الاعضاء . وقد يكون عذره ادعى الى القبول من عذر ذلك الاعمى لانه لم يعجز عن التكسّب الا لضعف من قواه او لمعاكسة الاحوال له او للسببّين جميعا — وعمى البصيرة شرّ من عمى البصر والنّاس اخوة وفيهم القويّ الرابح والضعيف الخاسر وبين ذلك مراتب . فالضعيف يكفيه من نكبات الدهر عجزه عن التكسّب وحسب القويّ من النعم السابغة ان يكون عوناً لأخيه الضعيف . ومن الجهل ان يتيه الغني بغناه وهو اذا كان وارثا فالفضل في جمع المال لابيه واذا كان قد اكتسبه . بجدّه وسعيه وحسن نظره فالفضل لما خلق فيه من المواهب — وما هو موجدها ولا فضل له فيها على ان الثروة كثيراً ما تكون علّتها صدفة لا يقتضي اغتنامها بعد نظر ولا سداد راى فالفقير عالة على الغني ويكفي الفقير ذلّاً ان يكون سائلاً والغني يكفيه فخراً ان يكون مسؤولاً — اذ ماذا عسى ان تكون حيلة ذلك الغني لو انّه ولد ضعيفاً او تعيساً وكان هو العالة على اخيه ومن العار الفاضح ان يكون بين بني الانسان اغنياء ارزاقهم واسعة

واموالهم طائلة حتّى يعجزهم التصرّف بها ولا يعرفون وسيلة لاستنفادها
وبين ايديهم اناس اذا حصلوا على حكاكة تلك الاموال كانت فيها سعادتهم
وبناء بيوتهم وتربية اولادهم . ماالّذى يضر صاحب الالوف اذا بذل
العشرات وصاحب مئات الالوف اذا بذل المئات . وبين اظهرنا مئات
يزيد دخلهم على مئات آلاف وفيهم من يزيد على ذلك فينفق معظمها
فى ما لا طائل تحته من اسباب البذخ والترف ممّا يسبب الامراض ويعجل
الاجال — وهل من العدل ان يموت ذلك الغنى من التخمة والفقير بجانبه
يموت من الجوع فالغنىّ مطالب باعانة الفقير طبعاً بلا منّة ولا فضل ناهيك
بالاوامر الدينيّة والشرايع الالهيّة والنظامات المدنيّة فانها مجمعة على ذلك
ايضاً فضلاً عما يجده المحسن من اللّذّة فى انتشال ابناء نوعه من وهدة
الفقر او من هوّة الجهل او انقاذهم من الامراض او تخفيف احزانهم
ومصائبهم . فان فى مثل هذا الشعور لذّة عظمى — اذا كان المحسن من اهل
الشعور الانسانى والّا فيكفيه مايناله من الشهرة البعيدة وحسن الاحدوثة
وما من طبيعة بشريّة الا وتطلب المدح وترتاح اليه وما فى ذلك عار
ولا نقيصة — واذا لم يكن المدح يهمّه وكان من اهل الدّين فيكفيه ما يرجوه
من الثّواب العظيم — واذا لم يكن يهمّه هذا ولا ذاك فما هو من بنى الانسان
اذا تقرّر ذلك بقى علينا النظر فى سبل الانسان وقد جرت عادة اهل البرّ
فى بلادنا اذا همّوا باحسان ان يجعلوا وجهته غالباً تخفيف الالام ومعالجة
الامراض اوسدّ عوز الجائعين او تسهيل اسباب العبادة بانشاء المستشفيات

ودور العجزة والتكيات والمعابد ونحوها وهو برّ يشكرون عليه ولكنا نرى البرّ من طريق التعليم اكبر فايدة واغزر نتاجا. لانك ترى فى شوارع طهران ومشهد وغيرهما من مدن ايران غلماناً صحاح الابدان يطوفون الشوارع يسألون النّاس فضلات موائدهم.

اذا بذلت العناية فى تعليمهم خرج من بينهم رجال يخدمُون بلادهم وامّتهم خدمة ذات بال فضلاً عما لاريب فيه من تحسين احوالهم وتخفيف اثقالهم عن الهيأة الإجتماعية.

فنوجّه التفات المحسنين الى المدارس فإنّنا فى حاجة اليها أكثر كثيراً من حاجتنا الى المستشفيات او بيوت العبادة لأنّ الانسان اذا مرض ولم يكن فى بلده مستشفى لايعدم وسيلة للمعالجة واذا اراد الصلوة وكان المعبد بعيداً صلّى فى منزله او اىّ مكان كان. وامّا التربية والتعليم فلاتكونان الا فى منازل تشاد لهذه الغاية يتردّد اليها الأحداث اعواماً عديدة يتلقّون العلم والادب ويكتسبون الفضائل وهى المدارس وعلى ان الفائدة الّتى نرجوها من المستشفيات او نحوها إنّما هى قصيرة ووقتيّة قد لاتتجاوز المحسن اليه أمّا المدارس فقد تخرج رجالاً ينهضون ببلادهم وامّتهم من الحضيض والذلّة الى الرّفعه والعظمة ويقول ابن عبد ربّه:

يا من تجلّد للزما ن اما زمانك منك اجلد
سلّط نهاك على هوا ك وعدّيومك ليس من غد
والنّاس لاتبقى سوى آثارهم والعين تفقد

او ماسمعت بمن مضى هذا يذمّ وذاك يحمد
المـال ان اصلحته يصلح وان افسدت يفسد

وقال ايليا ابوماضي :

كن بلسما ان صار دهرك أرقما وحلاوة ان صار غيرك علقما
ان الحياة حبتك كل كنوزها لاتبخلنّ على الحياة ببعض ما
احسن وان لم تجز حتّى بالثنا ايّ الجزاء الغيث يبغي ان همى ؟
من ذا يكافئ زهرة فوّاحة أو من يثيب البلبل المترنّما ؟
عدّ الكرام المحسنين وقسهم بهما تجد هذين منهم اكرما
ياصاح خذ علم المحبّة عنهما انّى وجدت الحبّ علماً قيّما
لو لم تفح هذى وهذا ماشدا عاشت مذممة وعاش مذمما
أيقظ شعورك بالمحبة ان غفا لولا الشعور النّاس كانوا كالدمى
احبب فيغد والكوخ كوخاً نيّرا وابغض فيمسى الكوخ سجنا مظلما
ما الكاس لولا الخمر غير زجاجة والمرء لو لا الحب الّا أعظما
كره الدجى فاسودّ الاشهبه بقيت لتضحك منه كيف تجهّما
لو تعشق البيداء اصبح رملها زهراً وصار سرابها الخدّاع ما
لو لم يكن فى الأرض الامبغض لتبرّمت بوجوده وتبرّ ما
لاح الجمال لذى نهى فأحبه ورآه ذو جهل فظنّ ورجما
لاتطلبن محبة من جاهل المرء ليس يحبّ حتّى يفهما

وارفق بابناء الغباء كانهم مرضى فان الجهل شئ كالعمى
واله بورد الروض عن اشواكه وانس العقارب ان رأيت الأنجما

كثيراً مانقرأ ونرى ان بعض كتّابنا الافاضل وعلماءنا الاماثل امسكوا عن التأليف او التحرير لأنّهم يرون الأُمّة جاهلة لا تدرك قدر العلم والعلماء وان احدهم اذا الّف كتاباً او نشر صحيفة لايصادف اقبالا ولا يلقى كسبا . ولا يخفى ان من واجبات الكاتب الحقيقى ان يعوّد النّاس على المطالعة بطلاوة اسلوبه وحسن اختياره فيتطامن قليلا ليأخذ بيد العامى وينهضه اليه لاان يجلس على كرسيّه متشامخاً ويباعد مابينه وبينه ثمّ يعنّفه لانه لم يفهمه . وشكوى اولئك الكتّاب لاتقتصر على الطعن بالقرّاء ولكنها تتناول كل كاتب راجت صحيفته اوكتبه لانهم يزعمون ان العامّة لايروج لديهم غير السفاسف والمواضيع التافهة . وهذا وهم ، اذ لا يعقل ان يكون سبب هذه النهضة اشتغال الكتّاب بالسفاسف والتوافه والقول الهراء ولا يزيد ان نقول تقاعد اولئك الناقدين اوترفعهم فسببه قلّة البضاعة اذ قد يكون بينهم علماء فطاحل وانما نقول انهم لم يتعودوا العمل فلما ارادوا خدمة الامة لم يؤسّسوا علمهم على قواعد عمليّة فاكتفوا بما يبدو من حسن مشروعهم لاوّل وهلة لما يسمعونه من اعجاب مريديهم ومتملّقيهم فلما صدرت نفثات اقلامهم لم يؤانسوا اقبالاً سريعا فالقوا التبعة على القرّاء المساكين وطَعَنوا فى الكتّاب الاخرين واحتقروا مايكتبونه وينشرونه ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ، والحال انّ

الفلسفة الاجتماعيّة الجديدة قد ابطلت مزاعم القدماء والفكرة الفاسدة الّتى تقول عدوّ المرء من يعمل عمله بل اثبتت ان عون المرء من يعمل عمله ـ واعتبر ذلك فى ارباب المهن والمخترعين هؤلاء يشتغلون فى معاملهم صامتين حتّى اذا وفق احدهم الى اختراع او اكتشاف اظهره واكتفى باظهاره اعلاناً واطراءً فاذا كان عمله عظيما قرّظه النّاس وخلّده التّاريخ واذا كان حقيراً لايزيده اطراء صاحبه الّا احقارة واما الّذين كلّما خطرلهم خاطر من اختراع او رأى جديد تصدّوا لنشره وبيان مايرجى من نفعه فهؤلاء يغلب ان يأوبوا بالفشل. قال الله تعالى لاتَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِمٰا أَتَوْا وَيُحِبُّوْنَ أَنْ يُحْمَدُوْا بِمٰا لَمْ يَفْعَلُوْا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَةٍ مِنَ الْعَذٰابِ وَلَهُمْ عَذٰابُ أَلِيْم.[١]

يظنّون أنّ العظمة والشهرة صديقتان يغلب ان تتصاحبا فلا تكون احديهما بدون الاخرى ولكنهما كثيراً ماتفترقان فتكون العظمة بلاشهرة والشهرة بلاعظمة. فترى بين اهل الشهرة الواسعة من اذا لقيتهم وسبرت اغوارهم رأيتهم كالطبل يدوى صوته الى بعيد وجوفه فارغ. وانهم انّما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل الى نشر محاسنهم ومحامدهم فى الصحف ليقرأها النّاس ويتحدّثوا بها وقد ينفقون المال ويتحدوا اوعر اسباب السعى فى هذا السبيل وترى بينهم من لامحمدة له فينتحل محامد غيره او تكون له حبّة منها فيجعلها قبة، فاذا نشر ذلك عنه فى صحيفة اونشرة

---

١ ـ سورة ٣ آية ١٨٥.

او كتاب حمله وطاف به في الاهل والاصدقاء يترنّم بقراءته عليهم ويتلذّذ
بما يلقى من آيات الاعجاب وخصوصاً في هذه البلاد - بلاد المجاملة التّى
يزداد فيها المغرور غروراً اذ لا يسمع من النّاس الّا اطراءًا واعجاباً ولو كانت
حاله تدعو الى التقريع والتعنيف - يعدّون ذلك من آداب الحديث
فما كلّ شهير عظيم ولا كلّ عظيم شهير فكم بين ظهرانينا من رجال توفّرت
فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الاسباب لأتوا بالامور العظام . وقد تظهر
مواهبهم من خلال اعمالهم وان ضاقت دائرة العمل ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة
لا يعرف اسماءهم الا القليلون فاذا اصابهم سوء اذاع مريدوهم أخبارهم
وتحدّثوا بافضالهم واذا ادركهم الموت صاحوا واستصرخوا وبكوا وشكوا
ورجعوا الى انفسهم واسترجعوا وحوقلوا وتعوذوا ولكن برجالات من الجن.
لاشك أن كلّ من يأْتي عملاً حسنا يميل طبعاً الى التنويه به التماساً لحسن
الاحدوثة لان الانسان مفطور على حبّ الشهرة فيلذّ له ان يسمع ثناء
النّاس على اعماله والاعجاب باقتداره وقد ينوّه بعمله ليستدّر الثناء
من سامعيه . فاذا رأى النّاس يثنون على اعماله من عند انفسهم امسك هو
عن ذكرها والغالب في النّاس ان لا يكلفوا رجل العمل ان يتكلّم عن
نفسه بل هم يذيعون فضله . ويزدادون رغبة في اذاعته كلّما رأوه ساكتاً
عنه فاذا اكثر من تحدثه باعماله مالوا الى تنقيصه وان كانت جليلة .

والغالب في رجال الاعمال ان ينقطعوا للعمل واعمالهم تترجم عنهم .
فمن لم ينل اعجاب الآخرين عمد الى مدح نفسه وتعظيم عمله فاذا لم يوانس

اصغاءً او تأميْنا استجهل النّاس ونسبهم الى غمط النعمة . واذا سمعهم يثنون على فاضل من ابناء مهنته بما يشّف عن تفضيله اصبح همّه تنقص ذلك الزميل فيشتغل بالطعن وذاك مشتغل بالعمل .

واذا تدبّرت احوال النّاس ودرست اخلاقهم رأيت اكثرهم انتقاداً للاعمال اعجزهم عن الإتيان بمثلها كأنّ النّاس رجلان قوّال وفعّال

خلق الله للحروب رجالاً ورجال لقصعة وثريد

وقد لايجد العاجز لنفسه عملاً يطربه ومع ذلك فهو يكلّف النّاس امتداحه فينتحل عملاً لم يعمله .

وقد يرجع الى الافتخار بالاباء واعمالهم . ولا يخلو ان يكون لابيه اوجدّه او احد من اهله عمل يستحقّ الذكر فياخذ فى إطرائه ويفتخر به. ولو عقل لاقتدى بذلك السلف وعمل مثل عمله. واذا لم يجد بين اسلافه من يفاخر بعمله فتشّ عن شىء يميّزه عن سواه وان كان لايّهم النّاس سحنته او رشاقة قدّه او رخامة صوته او فصاحة لسانه . وقد يتفاخر بما يأْكله او يلبسه وهو منتهى السخف والصغار ، وكبير النّفس يلتمس الشهرة من طريقها الحقيقى - يلتمسها بالعمل والجد واذا امتدحوه فوق استحقاقه خجل وازداد تواضعاً وواصَلَ السّعى حتّى يدرك مبلغ ظنّهم فيه . وهو فى كلّ حال يحرّك يده ويعمل فكرته ويشغل وقته بالعمل. ويقول اللّهم اجعلنى احسن ممّا يظنون واغفر لى مالا يعلمون وقال على عليه السلام فى جواب من كان يمتدحه بالاطراء انا دون ماتقول وفوق مافى نفسك .

واسعد الامم حالاً امة كثر فعّالوها وقلّ قوّالواها. واذا نظرت طبايع الامم رأيتها تتفاوت قولاً وفعلاً ورأيت اكثرها تصدّراً فى مصاف الدول العظمى اكثرها اعتماداً على الاعمال دون الاقوال يقول جرجى زيدان عن الانجليز[1] حين كانوا شيئاً مذكورا .

هذه دولة الانكليز والانكليزى لايتكلّم الّا قليلا ولكنّه يعمل كثيراً تجالسه فتراه هامداً بارداً اذا تكلّم خفض صوته لا يرفعه ولو غضب ولا يهمّه من اقوالك الا مايترتّب عليه العمل . فاذا علم انه لايخرج عن الكلام لايهتزّ له ولو كان فيه سباب او تقريع . وتمثّل اقتصار الانكليز على العمل دون القول حادثة، ذكروا انّها جرت لجندىّ من جيش الاحتلال ركب حماراً الى العباسيّة والسائق يعدو فى اثره وهو يشتم حماره وراكبه اعتماداً منه على جهل الراكب اللغة العربيّة فسمع شتمه رجل يعرف اللسانين فاستوقف الراكب واخبره ان الحمّار يشتمه . فقال وهل شتمه هذا يحول دون وصولى الى العباسيّة قال: لا قال فما الّذى يهمّه من كلامه اذاً

قال جرجى زيدان : الانكليزى لا يفوق الفرنسى ذكاء وحدّة وربما كان دونه فيهما ولكنه يسبقه بالعمل فيعمل ويواصل العمل كما يقولون فى اصطلاحهم (بطيئاً ولكن ثابتا) والفرنسى قد تسوقه حدّة مزاجه الى مزاعم ووعود لايقوى على القيام بها فيظهر قوله اكثر من فعله . والشّرقيّون اقرب مزاجا الى الفرنسيين وهم يقلّدونهم باخلاقهم وآدابهم

١ــ الهلال ج ١٦ .

فغلب القول عندنا على العمل فىرانا اذا خطر لاحدنا مشروع سياسى او
علمى او فنّى ضاق صدره عن كتمانه فيعمد الى التحدث به وربما اعلنه
قبل ان يتحقّق اقتداره على القيام به فيذهب كلامه ضياعا وقد تكون
علّة الفشل بعد المشروع عن الامكان او ان يكون من قبيل النظريّات الّتى
لاتنطبق على العمل كرأى بعضهم ونحن فى هذه الازمّة المالية وغلاء
المساكن ان يعتصب السكّان على اصحاب الاملاك حتّى يخفضوا
الاجور . وهو رأى جميل ولكنك لو اردت تطبيقه على العمل لما وجدت
الى ذلك سبيلا لان الاعتصاب لافائدة منه ان لم يكن مصحوبا بقوة
يخافها المعتصب عليه على حياته او على ماله كأن يهددوه بالقتل مثلاً .
وهذا لايفيد فى حكومة منظمة او ان يخلوا المساكن والمخازن لتبقى خالية
لايقتضى عليها اجرة فيتدارك هذه الخسارة باسترضاء المستأْجرين
بتخفيض الاجرة وكيف يمكن اجماع سكّان بلد اوحىّ من احيائه على
اخلاء مساكنهم واين يسكنون وقد نقع فى هذه الأخطاء لاننا نقلّد الامم
المتمدّنة باعمال لاتلائم احوالنا فيجنى علينا اجتهادنا . وفى النّاس طائفة
من الاذكياء ارباب الهمم ينقصهم تطبيق النظر على العمل اذا خطر لهم
مشروعٌ اكتفوا بتطبيقه على احكام العقل فيشيعونه فى الملأ ويسعون فيه
فاذا ارادوا اخراجه الى حيّز العمل ظهر لهم مستحيلاً اوقريبا من المستحيل.
وذلك كثير فى النّاس وهو علّة الفشل غالباً فى مشروعات اهل الذكاء
والنشاط لانهم يشيعونها قبل تطبيقها على العمل وانما يبعثهم على ذلك

كونها حسنة بذاتها او بالنظر الى احوال ليس لنا مثلها .

وربما اكتفى بعضهم من لذة العمل بطنطنة الجرائد وحديث المادحين وقد يكون العمل بنفسه قابلاً للظهور لو اقتصر اصحابه على السعى فيه سرّاً وصبروا على الافتخار به حتّى يتمّ . ولكنّهم يضيعون حماسهم واندفاعهم بالقيل والقال وكثيراً مايثير الحسد ضغائن بعض النّاس فيضعفون عزائمهم فيقضون اوقاتهم بالجدل بلاطائل كما اتفق لنا فى كثير من مشروعاتنا ممّا لايحتاج الى تفصيل ولو تكتمنا ودرسنا كل مشروع درسا كافياً ووضعنا اساسه على صخر ثمّ اخرجناه كاملاً لما خفنا فشلاً وفى الحديث استعينوا على حوائجكم بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود ، وفى التاريخ شواهد كثيرة تؤيّد ماقلناه فلاتكاد تجد بين عظمائه عظيماً فاز بمشروع سياسى او علمى او اجتماعى الّا وكان الكتمان معتمده ولاتجد قوّالاً استطاع عملاً عظيما ولاسيّما فى السّياسة ومن اهمّ شروط الدهاء فيها الكتمان فرجال العمل منهم يتستّرون فى مساعيهم فيولّفون الاحزاب ويدّخرون الاموال ويبثّون الدعاة سرّاً حتّى اذا تحققوا نجاح امرهم ظهروا وفازوا — كذلك مؤسّسوا الدول وكبار القوّاد وقد يتقارع العظيمان ويتساجلان فيغلب الكتوم .

اعتبر ذلك باعمال ابى مسلم الخراسانى ناقل الملك من الامويّين الى العباسيّين فانه بثّ الدعوة العباسيّة تحت طى الخفاء فى خراسان وفارس والامويون غافلون حتّى انتبه لها عاملهم نصر بن سيّار فكتب اليهم

اری خلل الرماد ومیض جمر ويوشك ان يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكو وان الحرب اوّلها كلام

ولم يصدق الامويون قوله حتّى كان ما كان من ذهاب دولتهم. وابو مسلم ينسب فوزه الى التكتّم يدلّك على ذلك قوله من قصيدة .

قدنلت بالحزم والكتمان ماعجزت عنه الملوك بنو مروان اذ حشدوا

ولم يفز المنصور عليه ويتمكّن من قتله الا بالتكتّم كماهومشهور .

وتوارث العباسيون ذلك حتّى صارت الاسرار من قواعدسياستهم وشاعت الجاسوسية حتّى فی صدر دولتهم ولم يفوزوا الابذلك ولوتكتّم جعفر البرمكی لم يبلغ الرشيد خبره ولو لم يتكتّم الرشيد لعلم جعفر عزمه على قتله فتدارك امره واعتبر ذلك فی ساير دهاة العرب وغيرهم .

دع السّياسة وانظر فی ساير اعمال النّاس فانها تفتقر الى العمل اكثر ممّا الى القول . فمن عزم على تأْليف كتاب مثلاً اذا كان من اهل العمل اشتغل بدرسه وتأليفه ولاينشر خبره حتّى يتمّه الّا ماتقتضيه الحال من مشورة او التفاتة . فاذا رای بعد الشروع به ان يعدل عنه لاتخجله الخيبة . على ان مجرّد التحدث بالكتاب قبل اتمامه قد يدعو الى اخفاقه . ولكن جرت عادة بعض الكتاب عندنا ان احدهم اذا خطر له ان ينشئ كتابا اعلن عزمه واخذ فی اطراد عمله والغالب فی القوّال أن لايكون فعّالا .

بعض الشعوب تعتقد بصولة القضاء والقدر والف الفرس ان

ينسبوا سعادتهم الى يزدان روح الخير وشقاءهم الى اهرمن شيطان الشرّ ولكن المحقّق عند الانسان المحقّق ان سقطات المرء وهفواته وزلّاته سواء اتت عمداً اوعفواً ، هى لاغيرها ، مدعاة لمصائبه وبلاياه ان العدوّ لابن آدم هو ذلك الكامن بين ضلوعه المتربّص فى قلعة صدره كما فى الحديث اعدى عدوّك نفسك الّتى بين جنبيك .

إنّما الحكمة كلّ الحكمة ، فى ان يعرف المرء ان له نفساً . هو نفسه المسؤول عن تهذيب اخلاقها وتشذيب عواطفها وتَثْقيف مواهبها . ان طول حياة الانسان وسعادته له وعليه لا للاحوال والاحكام ، وان الّذين يبحثون عن حتفهم بظلفهم ويستعيضون عن بلسمهم بسمهم لأكثر من ان يحصى من اولئك الّذين تسوقهم الاقدار الى مناياهم عوضاً عن امانيّهم ويظلمهم دهرهم بقضاء مبرم وحكم نافذ ولئن دكّت الصواعق منازل ودمّرت الزلازل اقطاراً فلطا لما طالت يد الانسان الاثيمة الى ثلّ عروش واعدام اكواخ وابادة بلدان وهلاك اقوام .

قال محمّد الغزالى المعاصر سألنى سائل هل الانسان مسيَّر ام مخيّر ؟ فنظرت اليه فى ضيق شديد وقررت ان ألتوى معه فى الاجابة كما التوى هو مع فطرته فى هذا التساؤل وقلت له الانسان نوعان : نوع يعيش فى الشرق . ونوع يعيش فى الغرب والاول مسيّر والاخر مخيّر . ففغر الرجل فاه عن ابتسامة هى بالضبط نصف تثاوب الكسالى والعجزة والثرثارين الّذين ينتشرون فى بلادنا ثمّ قال : ماهذا الكلام ؟ إنّنى اسألك . هل للانسان

ارادة حرّة وقدرة مستقلّة يفعل بهما مايفعل ويترك مايترك . ام هومجبور؟
فقلت له قد اجبتك . الانسان فى الغرب مستقل وفى الشرق مستعمر .
هناك له ارادة وقدرة . وهنا لاشى له! ان القوم فى الغرب شعروا بأنّ لهم
عقولا ففكروا بها حتّى كشفوا المساتير من بدائع الكون .

وشعروا بان لهم ارادة فصمّموا بها حتّى التقت فى ايديهم مصاير
الامم وازمّة السّياسات وشعروا بان لهم قدرة فجابوا المشارق والمغارب
وصنعوا العجائب ، الرّجل فى الغرب التى به فى تيّار الحياة فعلم ان له
اعضاء يستطيع ان يعوم بها فظلّ يسبح مع التيّار تارة وضدّه تارة اخرى
حتّى وصل الى الشاطى .

امّا هنا فلما التى بالرّجل فى معترك الامواج بدأ يسائل نفسه . هل
أناحىّ ام جثة هامدة هل انا حرّ، ام اعضائى مقيّدة ؟ ولكن التيّار الجارف
لاينتظر نتائج هذه السفسطة فلايلبث ان يطويه اليمّ مع الهالكين .

(من كتاب عيون اخبار الرّضا وقد ذكر عنده عليه السلام الجبر والتفويض) .

فقال عليه السلام ألا اعطيكم فى هذا اصلاً لاتختلفون فيه ولا يخاصمكم
عليه احد الّا كسرتموه قلنا ان رأيت ذلك فقال : ان الله عزّ وجلّ لم يطع
باكراه ولم يعص بغلبة ولم يهمل العباد فى ملكه وهو المالك لماملكهم والقادر
على ما اقدرهم فان ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً ولا منها مانعاً وان
ائتمروا بمعصيته فشاء ان يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وان لم يحل وفعلوه
فليس هو الّذى ادخلهم فيها ثمّ قال من ضبط حدود هذا الكلام فقد خصم .

وهنا قد يسأل بعض النّاس عن حدود الارادة الانسانيّة والمشيئة الالهيّة هناك امور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا وهى تنفذ فى النّاس طوعاً اوكرهاً كالعقول ومقدار مايودع فيها من ذكاء او عناء والامزجة والاجسام من طول او قصر وجمال او قبح .

ان الانسان هو ربّ امور نفسه فله ان يجعل حياته مواكب فخر وانتصارات ، اومآتم تقصيرات واندحارات وان هذه الّامشيئة الله جلّت حكمته فى الجبلة البشريّة وحسبناماوهبنا ايّاه مع العقل والنطق من شعائر ضمير حىّ هو لنا بمثابة وزير خبير محنّك سديد الرأى صائبه أو ليس من الافعال الوخيمة العواقب ، مانعرفه حتماً كذلك ولا نرتدع عنه ، ومايلتبس علينا امره ، فتسوّل لنا النفس الإقبال عليه ، على غير بصيرة من نتائجه ؟ وان فى الطبيعة البشريّة المتنسّمة الصلاح من روح الله ، او ذلك الضمير المدعوّ بصوت الله فى الانسان لخير وازع ورادع للمرء ، يأمره بالمعروف المفيد ، وينهاه عن المنكر المضرّ ولنا فى قوّة الادراك وقوّة المقابلة والتعليل ، المبنىّ عليها الحكم والاختيار معين آخر يرشدنا الى الحسن وينكب بنا عن السيّئ – ولاخفاء ان هذه القوى لاتخلق فى المرء كاملة بل ان الثقيف بالعلم والاختبار مما يدنيها من الكمال الضرورى لدرجة تمييز الغثّ من السمين والخبيث من الطيّب أو لم نعمّركم مايتذكّر فيه من تذكّر .

ان الشقاء ليس من الدنيا بل من البشر أنفسهم فانهم لايمشون مع

الحياة كما هى فمن خالف الطبيعة شقى. هل تنكر ان الشقاء موجود؟ — منذ وجود الانسان والحكومات تقاصّ السارق والزانى والقاتل والجانى بالنطع والقطع والحدّ والحبس والموت والجزاء النقدى. فهل منعت الشقاء من العالم بل هل منعت الحروب من بينها نفسها؟ وما المنفعة من الحكومات اذا لم يكن بوسعها منع الشرور والحرب؟ وماذا اذا كانت هى تبعثهما وتضرمها؟ فاذن الفساد من الحكومات الموجودة والحكومات هى من متعلّمى الشعب — فاذن التعليم الموجود فاسد. واذا كان التعليم فاسداً يجب اصلاحه واصلاح التعليم لم تيأْت الّا اذا غيّرت نفوس المعلّمين — ونفوس المعلّمين لايمكن تغييرها اذا لم تتغيّر مبادى الكتب الموضوعة للتعليم فمن يغيّرها — الطبيعة لاتساعد من لايساعد نَفْسه. ما الفاسد من العلوم الموجودة الّذى يجب تغييره منها؟ — لم يظهر فساد الفاسد منها الّا من الحالة الحاضرة الّتى وصلنا اليها. احتيال. كذب. رياء. استبداد. حرب. سرقة. قتل. سلب. تعب. جوع. خرافات. شقاء. ضربات سخنة. هذه النتيجة الّتى اخذنا. التعاليم تسبق الاعمال — التعاليم تقود الافكار، والافكار تسبق الاعمال فكلّ ماصلح اوفسد من الامور، وكلّ العلائق الّتى تربط بين البشر وكلّ ماتعدّه الطبيعة من اسباب الخير والشرّ، ومثله الحرب والسلم ترجع على الدّوام الى ماتشرّبته افكار البشر من صلاح او فساد وخير وشر. لانه لايمكن ان يعمل الانسان عملاً على الارض قبلما يمرّ فى فكره وتتشر به امياله. فقَبْلما يخرج العمل الى حيّز

الفعل تكون روحه مسطورة فى الكتب، فى المدارس، فى الجامعات العلميّة.

وحسب المدارس منفعة أنها تحفظ الاولاد الميّالين الى التقليد والتشبّه من مشاهدة مفاسد ومساوى اهل البطالة والكسل المنتشرين فى الازقّة وحوشاً ضارية تغتال اطفال الانسانيّة. حسب المدارس انها بمجرّد تنفيذ قوانينها تقلّل فرص معاشرة طلبتها للاوباش والاجلاف وبالنتيجة فرص اقتباس عاداتهم. هذا فضلاً عمّا فيها من الرياضة على الحسن الشريف من العادات ولاشك انهامن احسن العبادات. إنما الكلام فى ان مجرّد القراءة والكتابة ومعرفة اصول الحساب وصرف اللّغة ونحوها ليست تهذيباً كما ان السكّين والشوكة والملعقة تجعل على الخوان ولاتكون الطعام المطلوب.

والمعلمون عظيمة هى واجباتهم وثقيلة هى المسؤوليّة المنوطة بأعناقهم اذا التسلية وتمضية الوقت مع التلامذة امر بسيط هيّن أمّا تعليمهم وتربيتهم وتهذيبهم وتثقيف أذهانهم وترقية مداركهم فهذا هو الفرض المقدّس المرسوم عليهم.

نعم ان التعاليم تسبق الاعمال. فقدابدلوا التعاون على البقاء بتنازع البقاء. ولم يميّزوا بينهما فتجسم هذا الوباء برؤوس فتيانهم على مقاعد المدرسة ولما يفطنوا لمايجرّه هذا الفساد من الويلات على الانسانيّة. واهاً لو انهم علّموهم ان الدنيا هى تعاون ومساعدة على البقاء.

الم تر ان الرغيف ماصار رغيفا لولا التعاون. فان اكثر من خمسين

الفاً من الايادى تعاونت على صنع الحبال وباقى الآلات والادوات للحرث والزرع والطحن والعجن والخبز حتّى صار رغيفاً .

نعم الاساتذة والصحافيون والخطباء هم الّذين ينشرون الصلاح والفساد والخير والشر والسلم والحرب فى العالم ـ الامة اذا كانت لم تزل فى دور الهمجية تفاضل افرادها بالقوّة البدنيّة فاذا ارتقت تفاضلت بالعلوم والمعارف . امّا اذا بلغت حدّاً رفيعاً من الارتقاء تتفاضل بالاخلاق . لننظر بما ذا تتفاضل الامم الان لكى نعلم اين بلغت من الرّقى . تتفاضل بقوة السلاح بالمدرّعات الضخمة ، بالمدمّرات المهلكة ، بالمدافع الكبيرة ، بالغازات الخانقة . بالمهارة فى التجسّس . بالتفوّق بالاعتداءِ والافناءِ والتّخريب . راى النبى اوسمع انّهم يصارعون قال صلّى الله عليه وآله وسلّم ماتعدّون الصَّرعَة فيكم ، قالوا : الّذى لايصرعه الرّجال قال صلّى الله عليه وآله وسلّم هو الّذى يملك نفسه عند الغضب ويقهرها[1] . وقال الصُّرعَة كلّ الصُّرعَة الّذى يغضب فيشتدّ غضبه ويحمّر وجهه ويقشعرّ شعره فَيَصْرَع غضبه[2] .

فانه اذا ملكها كان قد قهر اقوى اعدائه وشرّ خصومه ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم اعدى عدوّ لك نفسك الّتى بين جنبيك .

رايت زيداً يعمل كثيراً ويربح قليلاً اولا يعمل البتّة ويربح كثيراً .

رايت زيداً المجتهد يعمل ويجد ويتعب ويعرق وغيره لايتعب ولايشقى ويأْكل اتعاب زيد بحيله ضمن قواعد القانون وطبقاً لنظام

١ ـ نهاية اللغة لابن اثير . ٢ ـ مختصر شرح الجامع الصغير .

السلطات، أليس ذلك هو من الفساد فى ما علّموهم ايّاه: بعرق جبين غيرك تأكل خبزك . هم يقولون للمضروب لاتبك وقلّما يقولون للضارب لاتضرب ، جعلوا القوة فوق الحقّ وبالقوّة صارت المعاهدات اوراقاً لاقيمة لها . اوصى اله النصارى ! ان يحبّ بعضهم بعضاً . امّا الآن فمزقوا المعاهدات خرقوا الحياد . اغرقوا السفن المتحايدة بمن فيها . اطلقوا القنابل على الشيوخ والنساء و الاطفال و المعابد والآثار و المتاحف والمستشفيات وهم يصلون الى الله ويستنزلونه الى ساحة الحرب للنصر على الاعداء . فى كل سنة اختراع جديد و طريقة جديدة لفتك الانسان بأخيه.

أليست المعاهدات الّا اذا كانت فى مصلحة القوى . وليست حقوق الضعيف بما تعلموه من قواعد تنازع البقاء الكاذبة ولا ذنب له ولا جريمة الّا انّه ضعيف وفقير . فلاحق الّا بيْن الاكفاء والمتساوين فى القوّة . زمن نسخت فيه القوانين والنظامات الّا اذا كانت لتقييد الضعيف ليستحكم منه القوى — ورب قائل يقول انّى انظر الى الدنيا من وجهها الاسود فى الجواب عليه إنّى أتألمّ مع الّذين يتألمون من اخوانى فى الانسانيّة .
قيل ان الفيلسوف ديموقراط كان يضحك من جهل البشر وحمقهم بينما هريكليط كان يبكى من اجل ذلك ولكن لسقراط هو الحكيم الفرد الّذى كان يؤدى الواجب الى حدّ التضحية فان الانسان لايعيش لنفسه فحسب . بل يعيش له وللناس . ومن حق كلّ هاد ان يقول ويكتب ويعلن ويخطب مايعلم صوابه برهانا . يفتخر طلّاب الجامعة بكونهم احراراً على

ان الحرّية حريّتان الباطلة وهى ان تفعل ماتشاء والحقّة وهى ان تفعل مايجب وَلْيَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وقال النبى ﷺ اذا ظهرت البدع فى أُمّتى فعلى العالم ان يظهر علمه والّا فعليه لعنة الله وقال ﷺ مثل راكب فى سفينة يطوف على جماعة بماء وكلّ ينفر ممّا معه فقال لهم انى فى حاجة اليه وذهب ينقر فى السفينة فان اخذوا على يده نجوا ونجى معهم والّا هلك وهلكوا جميعاً وهم كثيرون ولكن اكثرهم لايكتبون وللدعة والرّاحة يميلون وبالخوف من غوائل السّياسة يتعلّلون .

اليك أيّها الشعب يساق الحديث فالامر جلل والحالة تستدعى التدارك السريع فانهض فى كلّ شىء نهضة صادقه واطرح عنك اثواب الخزى والعار تنكب من طريق الفساد والضلال وتجنّب مسالك الغىّ ومآزق التقليد الاعمى . تمسك باذيال الاخلاق الفاضلة والشيم العالية واثبت ثبات الاطواد الّتى لاتزلزلها الحوادث ولاتوهنها الكوارث عند مطالبتك بالحقوق الشرعيّة الّتى تكفل لك الحياة بصفة امة ممتازة .

وانتم ايّها الجانون على انفسكم وبلادكم وبنى جنسكم اماان ترجعوا عن غيّكم وتقلعوا عن ضلالكم وتعملوا لصالحكم وصالح ابنائكم وامّتكم وبلادكم باتّباع أوامر دينكم والعمل بنصايح مرشديكم اتقوا الله ايها المغرورون فى انفسكم وابناءكم وامّتكم فانكم على الجميع تجنون . . . وعلى خراب دياركم تعيشون ولنقض اركانها تعملون وستعلمون اى منقلب تنقلبون وهاهى دروس الكون امام انظاركم ارجعوا وَأَنِيبُوا إِلَىٰ

رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَاتَشْعُرُوْنَ.

ان دام هذا ولم تحدث له غير | لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

قال سيّدنا امير المؤمنين على بن ابيطالب عليه السلام : لاتقسروا اولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم. قال الشهرستانى: هذه الكلمة مروية عن امـير المؤمنين عليه السلام فى اواخر شرح ابن ابى الحديد لنهج البلاغة من الكلمات الّتى استدركها الشارح على الكلمات الّتى عزّاها الشريف الرضى الى سيّدنا على عليه السلام ولها مغزى عام النفع ومعنى اجتماعى ينطوى على حكمة خالدة. وذلك ان الاداب الاجتماعيّة فى كلّ عصر ومصر محكومة لذوق الجمهور كيفما يتبدّل وللرأى العام اينما يتوجّه. فترانا نستحسن من الزينة مالايوافقه ذوق السلف ورأيناهم يستعذبون نحواً من الانشاء يعافه الذوق الحاضر وكم وجدنا الآباء ربحوا من التّحرف بمهن وبضاعات كسدت اسواقها فى عهد أبنائهم وراجت عند الأبناء تحيّات وملاطفات لم يعرفها آباؤهم من قبل. وكان الاوائل يعظّمون بملابس نستهزى بها اليوم الى غير ذلك من المظاهر الادبيّة العامّة واساليب المعاش والعشرة الّتى يختلف فيها ذوق السلف واستحسانه عن ذوق الخلف واستحسانه ولربّما عدّ إجبار الآباء لابنائهم فى بعضها ضرباً من الظلم والعسف واخلالاً بسعادة الحياة فاشار الامام عليه السلام الى هذا الادب النافع بقوله: لاتقسروا اولادكم على ادابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم اى انهم يستقبلون من الحياة دوراً يختلف عن دوركم فى اساليب المعاش،

فى اطوار المعاشرة ، فى استحسان العبارات والاشارات ، فى الاوضاع والاذواق الى غير ذلك فالانسان يتأثّر بالزّمان والمكان وأن اخيلة سكّان المدن والحواضر يجب ان تختلف عن اخيلة سكّان البوادى بل الشاعر الواحد ينقل الفكرة من وضع الى وضع ويصنع بها مايصنع المصوّر الّذى يراعى دقائق المعانى . وهو يضع اللّوحة الفنّيّة لاشك ان اذواق اهل العلم والادب فى البلد الواحد تختلف باختلاف المعهد الّذى يتخرجون فيه مع وحدة الزّمان وتقارب المشارب وتقارن المذاهب .

الانسان مدنى بالطبع اى انه لم يخلق ليعيش كالوحوش فى البرارى والقفار بل ليجتمع مع اخيه الانسان ويعيشا معاً فى محيط واحد متساندين متكافلين فيتألّف منها المجموع الّذى نراه والفرد فى هذا المجتمع كالعضو فى الجسد عليه واجبات وله حقوق وهو مانسمّيه بآداب الاجتماع وكما ان الجسد لايصلح الّا بصلاح اعضائه كذلك المجتمع لايبلغ رقيه الا برقى افراده .

وان اهمّ هذه الآداب بل الاساس الّذى تبنى عليه هو اعتبار الوقت ومعرفة المحافظة عليه اذ كل عمل يحتاج الى وقت لإتمامه فاذا عرف الانسان كيف يرتّب اوقاته ويقسّمها على اعماله وعرف كيف يستفيد من هذا التقسيم بلغ غاية النجاح فى اشغاله ومعاملاته . فيصير اذا ضرب ميعاداً يجد الوقت الكافى لإنجازه واذا ورده خطاب لايتأخّر فى الرّد عليه . فتتيسّر الاعمال وتروج الاشغال وقديما قالوا أفضل الاعمال حفظ الأوقات

وفى الحديث ردّ الكتاب واجب كردّ السلام[1] وممّا هو جدير بالاعتبار فى الحرص على الوقت واستعماله استعمالاً نافعاً فعل ذلك العالم الآلمانى ، فى القرن الماضى إذ راى ان يستعمل مدّة الانتظار الّتى لا يخلو منها انسان بين جلوسه على المائدة وحضور الطعام فى عمل نافع فكان يصرفها فى التأليف حتّى صدر عنه كتاب من اعظم الكتب نفعاً وقدراً سمّاه (الدقائق الخمس قبل الطعام) ولو أنّنا حسبنا مايتجمّع من هذه الدقائق الخمس الّتى نصرفها عبثاً فى مدّة عشرين سنة لكان خمسة وسبعين يوماً من خالص الزّمن ولبابه[2] فانظر الى هذا العاقل كيف قضى مايضيعه كلّ انسان من مثل هذه المدّة فيما ينفعه وينفع النّاس ولذا قالوا ان العمر طويل بالتدبير قصير بالتبذير .

فاذا كنت تحبّ الحياة فلاتسرف بالوقت لان الوقت هو المادّة الّتى تتركب منها الحياة متى شاخ الانسان نراه يتأسّف كيف مضت الحياة وتصرّمت الأيّام ولو فطن لادرك ان الوقت باق لم يمض بل هو الّذى يمضى الى ابديّة لايعود منها .

يقول الفتى انى لازال حدثا والايّام الّتى امامى احسن من الماضية فيدع امره ويلهو ويلعب وماهى الاهنيهة من الزّمن حتّى يستفيق فيرى نفسه شاباً فيبكى ايّام الحداثة وبعد قليل يرى نفسه كهلاً فيتأسّف

١ـ فى «كشكول» نقله شيخنا البهائى رواية .　　٢ـ ادب النفس .

على الشباب وتولّى الكهولة فاذا به شيخ هرم ينظر الى الماضى بعين الحسرة والندم لانه لم يستغنم الفرصة ولم يحسن استعمال الوقت .

يقول بعض النّاس وما اكثر هذا البعض سأبدا بعملى غداً ويجيئ الغد فيؤجل الى مابعده يقف الجمعة للراحة والسبت لوضع خطط اليوم التالى والاحد لتقرير المشاريع والاثنين لنقدها وتمحيصها والثلاثاء لدرسها فلسفيّاً وللتأمّل فى سرعة الزّمن ويوم الاربعاء يرى الأسبوع على وشك النهاية وبالخميس يحتضر الاسبوع فيستعد لراحة الجمعة وهكذا دواليك تمرّ الايّام وتعبر الاسابيع وتنقضى الأشهر وتتصرّم السنون وتطوى الحياة وهو واقف مكانه لايبدى ولايعيد .

ويقضى بعض النّاس ايّامهم يبحثون عما يجرى غداً وبعد غدومتى يعود الرّخاء الى العالم وهل تعود الفرص الّتى توفرت لشيوخنا الثلاثة الاوائل والشيوخ الثلاثة الاواخر والسيّدين الشريفين والعلّامة الحلّى والمحقّق او الشيخ الرّئيس ابن سينا وعمر الخيّام و نصير الدّين الطّوسى وامثالهم ويتساءلون ما ذا تعمل الحكومة ؟ ماذا تعمل الصين وروسيا واليابان والرأسماليون والشيوعيون ؟ ولايبحثون عما يجب ان يعملوه هم . ليسأل من يرغب الخروج من مأزقة ماذا يجب ان يعمله هو لاغيره وماذا يجب ان يعمل الآن .

استعمل الوقت اذا كنت تعتبر الابديّة فامس الّذى مضى لايعود والغد لاتملكه وليس لك الا اليوم الّذى انت فيه

مافات مضى وماسيأتيك فاين　　قم فاغتنم الفرصة بين العدمين

فاذا اجلت خسرت وندمت وخسارتك لاتعوض الى الابد دقيقة في عمل بات حاسم افضل من تفكير سنة دون قصد وتصويب .

ولاأوخّر شغل اليوم عن كسل　　الى غد إنَّ يوم العاجزين غد

الايّام تطير سراعا والانسان يمشى معها الى الوراء وليس الى الامام . وكلّما طلعت الشمس وغربت تنقص الحياة يوماً ومن الايّام تتألف الاسابيع ومنها الأشهر والسنون والادهار . يظنّ الشاب ان الحياة ربيع باسرها فلايستفيق الّا بعد ان تكون يدالزمان قد مزّقت من كتاب الحياة المع صفحاتها ويرى ان الصفحات الباقية قليلة العدد .

يقول خرّيج المدرسة لقد احرزت التهذيب الكامل ، شهادتى فى يدى وعلمى فى رأسى ولا اجد عملاً فالمكاتب مكتظّة بكتابها والمدارس باساتذتها فماذا اعمل ؟ اذا كنت لااجد عملاً . وقد فات هذا الشاب ان النّاس الّذين سبقوه فى الايّام وعمروا العالم قبله لم يتربوا فى المدارس ولا احرزوا الشهادات لكنهم عرفوا كيف يستخدمون الوقت ولم تكن شهاداتهم الا العزيمة الصادقة ومعرفتهم بعض الحقائق ، ليس الانسان قطعة من آلة تصلح لمكان مخصوص ولاتنفع فى غيره وهو لم يوجد ليدبّره غيره بل خلق ليدبّر نفسه وينفع نفسه بنفسه .

يظنّ البعض ان العالم مديون لهم لوجودهم فيه . ولو فطنوا لعلموا

ان العالم لايحسّ بوجودهم اكثر ممّا نحسّ بالجراثيم والميكروبات الّتى تتعلّق بأَطراف ثيابنا .

الانسان مدين لادائن ، مدين لنفسه بالعمل الشاق ، مدين لها بمعرفة قيمة الوقت ، وكلّ مايحصله فهو لنفسه والتمدّن احتراماً لمركزه يسعى ليرد غائلة الموت جوعاً فى أرض الخيرات عن الكسالى البطّالين .

لما كان اديسن يعمل فى ادارة التلغراف كان همّه اختراع طريقة لإرسال اكثر من رسالة على سلك واحد . وكان الى جانبه موظّفون آخرون يقولون لامجال لتقدّم الشبّان اليوم .

ولما كان هنرى فورد يعالج اختراعه وينفق عليه من راتبه الضئيل الّذى لايتجاوز الخمسة دولارات فى الاسبوع كان يخيّل للناس انّه قد انقضى عصر الفرص — ان الفرص لاتزال سانحة كما كانت بالامس وكلّ يوم فيه فرصة للّذين يريدون اغتنامها — استعمل أيّامك فانها تفرّ بسرعة فاذا لم تتوفّق الى العمل الّذى تريده فانصرف الى غيره لان المهم أن تريد وتعمل .

شيئان يملكها الانسان لاغير ارادته وقليل من الوقت والنّاس لاتعوزهم القوّة بل الارادة كثيرون الّذين كانوا منذ سنوات قليلة اغنياء واليوم اصبحوا فقراء . وفى العالم ملايين من العاطلين يشتهون العمل والشبع والاغنياء اليوم لايعرفون الى متى يدوم غناهم فهم بسبب تقلّب النقد والاضطرابات العالمية وكساد التجارة مهدّدون بالفقر .

ولكن ليس كلّ مافى العالم يدعو لليأس ولا يقولنّ قائل ان الاحوال لم تكن يوماً اشأم مماهى الآن. لقد ساءت الاحوال مراراً فى التاريخ وكثيراً ماعمّت المجاعات والاوبئة والحروب. والحرب العظمى قصيرة بالمقابلة مع حرب السبع سنوات وحرب الثلاثين سنة وحرب المئة سنة وقد كانت الحروب فى الماضى شرّاً من الحاضر اذ كانت تقضى على سكّان مدينة باسرها بنسائها واطفالها وشيوخها اوتقضى باستعبادهم واذلالهم. فاذا تحرجت الحال اليوم فلا بد ان تنفرج غداً فلا يستسلم الانسان الى اليأس بل ليسع ويعمل.

كلّ انسان يملك مقداراً من الارادة وفى الارادة قوة خفيّة كما ان خزّان السيارة المملوء بالبنزين يحتوى مقداراً من السرعة والقوة ومتى وقفت الارادة وقف العقل عن التفكير والجسم عن الحركة.

الإرادة لازمة فى كلّ عمل فهى الّتى تهيب بالانسان للنهوض من فراشه الى عمله وهى الّتى تحثّه لينهب الارض نهباً فى طريقه اليه وهى الّتى تدفعه لبذل جهود لإنجاحه وتقدّمه.

لو نظرت الى محرّك السيّارة فى عمله لرأيت عدداً لا يحصى من الشرارات تشّع وتتفجّر تفجراً متواصلاً فتولد القوّة والحركة ولو نظرت الى دماغ الرجل المجتهد وقدرت ان تفهم مايجول فيه لرأيت إنفجارات متواصلة من قوّة الارادة الدائمة تسوق الجسم فى طريق العمل وتدفعه الى الجد والاجتهاد والى مواصلة السير. ملايين من النّاس يسقطون فى ميدان الجهاد وملايين يخرجون من العالم كما دخلوا اليه بدون ان يحسّ

بهم لا في يوم دخولهم اليه ولا في يوم انصرافهم منه أمّا بعضهم فينجحون وهم اصحاب الارادة القويّة الّذين عرفوا كيف يستخدمونها .

الانسان هو الوحيد فى الأرض يستطيع ان يميّز بين الخير والشرّ وبين الحسن والقبح ويعمل مايريده. والجزاء او القصاص يتوقّفان على الارادة فان اهملها يقاصّ وان استعملها للنفع جوزى فاذا كان لك قوّة ارادة فضعها فى العمل . واذا كان لك مقدرة على عمل فلتكن الارادة اوّل عامل فيه فما هى الاهنيهة من الدهر حتّى تنقضى الحياة فاستعمل ارادتك فالسنون قصيرة وليست العبرة بعدد السنين فحياة قصيرة مع العمل خير من حياة طويلة مع الكسل .

الفرج بعد الشدّة

قرأت ان سرياً امريكيا كان له مصانع ومتاجر كافخم مايكون من مصانع ومتاجر فاحترقت وقدرت بملايين وكان فى ٦٧ من عمره ليس له قوّة الشباب ولا امل الشباب ولا طموح الشباب والثروة نتيجة العمر .

أتى اليه مراسل يسأله عن الكارثة واسبابها فاجاب لست افكّر فى شىء من ذلك انّما فكرى ماأصْنع غداً .يعجبنى هذا التّفكير فانه دليل الحياة وعنوان القوّة والنشاط فمادمت حيا ففكّر فى وسايل الحياة والسعادة وتلك امامك لقد دلّ هذا الثرى بجوابه على انه يقتنى عقلية اقوى ممّا رعته النّار ونفسية خالدة لاتفنى بفناء المال .

انّ الحياة الناجحة تفكر فى الغد والفاشلة تبحث فى الامس

وقديما قالوا (اذا افلس التاجر فتشّ فى دفاتر القديمة) وقال الشاعر وقد راى بنى تغلب لايعملون عملا جديداً مجيداً و يكتفون برواية قصيدة قالها عمروبن كلثوم فى مدحها

ألهى بنى تغلب عن كلّ مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كان اوّلهم يالّلرّجال لشعر غير مسؤوم

ولأمر ماخلق الله الوجه فى الامام والعين تنظر القدام ولاتنظر الى الخلف واراد ان يجعل لنا عقلا ينظر الى الامام والى الخلف معاً وان يكون نظره الى الخلف وسيلة يحسن النظر الى الامام فعكس قوم الفطرة الانسانية ونظروا بعقولهم الى الخلف وحده . من هولاء الّذين نكسوا فى الخلق من اذا حدّثتهم فيما هم صانعون غداً حدّثوك عن صنع آبائهم وكيف انتصروا وكيف سادوا العالم وكيف وكيف . وهذا حق لواتخذ وسيلة لعمل مستقبل واستحثت به الارادة لعمل مستقبل وضُرب مثلا لمعالجة مشاكل المستقبل امّا ان يكون غرضا فى نفسه فحديث العجزة ومن اصِيبوا بانيميا الفكر وضعف الارادة وممّن نكّسوا فى الخلق هؤلاء الّذين يثيرون العداوات والاحقاد القديمة بين رجال الامة وقادتها فاذا طالبتهم ان ينظروا الى الامام ويتكيّفوا بما يتطلّبه المستقبل ابوا الّا ان يذكروا تاريخ الامس وحزازات الامس وسخائم الامس ومادروا انّهم بهذا يعطّلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل اودروا ولكنهم الماكرون الخادعون فليس يصح النظر الى الامس الّا لتجنّب الاغلاط فى المستقبل

والانتفاع بصواب الامس وخطأه فى المستقبل .

وممّن نكسوا فى الخلق هؤلاء الّذين جمدت عقولهم فاعتقدوا ان كلّ شىء كان خيره فى الامس وشرّه فى الغد فخير النحو ماوضعه سيبويه وخير البلاغة ماقاله الجاحظ ، وخير الفلسفة ماقاله ابن سينا وابن رشد والفارابى، وخير عصور الدّين ماسبق من العصور، وخير الاخلاق اخلاق آبائنا ، وانه لم يبق فى هذا الزّمان الّا الحثالة من كلّ علم وادب ودين وخلق، وان العالم فى ذلك كلّه سائر الى التدهور دائما فأمس خير من اليوم واليوم خير من الغد، هذه العقليّة لاتنفع للحياة وانما تنفع للصوامع ولاتنفع للجهاد وانما تنفع للفناء ولاتنفع لمن اراد ان يتبوأ مقاعد للقتال ومكانا فى الحياة وانّما تنفع لمن اراد ان يسكنوا القبور، ان النحو الّذى ننشده فى المستقبل لافى الماضى واللّغة الّتى تصلح لنا وتؤدى مطالبنا فى الحياة هى فى المستقبل والاخلاق الّتى تلائم الموقف الاجتماعى الّذى نقفه اليوم فى المستقبل والادب الّذى يمثّل نزعاتنا حق تمثيل هو فى المستقبل وليس لنا فى الماضى الّا مايصلح للمستقبل واحسن مثال له هو الدين الاسلامى .

وممّن نكسوا فى الخلق هؤلاء الّذين وقفوا ينتظرون القدر اولئك لم ينظروا للمستقبل ولكن ينظرون الى مايفعل بهم المستقبل اولئك احجار ينفعلون ولايفعلون. انما مستقبلك فى يدك فان شئت تكن فقيراً وان شئت تكن غنيّاً سعيداً أوشقياً ، لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى .

لقد كان اتى على النّاس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان الولاية ورمز القداسة وكلما امعن الانسان فى التجرّد عن الدّنيا تبرّكوا به ويبالغون فى تعظيمه لكن هذا تقدير المسيحيّة امّا تقدير الاسلام فالولاية والقداسة فى العمل والولى والقديس هو العامل. والمصلح وهو الّذى يبنى المجد بعمله لامّته وللانسانيّة. وهو الّذى يواجه العمل فى شجاعة واقدام لا الّذى يفرّ من الميدان وهو الّذى يرسم خطة العمل وينفّذها لا الّذى يعزّى عن الكوارث. ويعود المرضى. ويشقّ الطريق لمحو الفقر لا الّذى يذرف الدمع ويوصى بالصبر على احتمال الفقر من غير حثّ على العمل والتفكير فى طريق الخلاص من البؤس.

مضى الزمن الّذى كنا نرصد فيه النجوم لنتطلّب السعادة من سلطانها ونجتنب الشّقاء فى اوقات نحسها بل اصبحنا نشعر فى الاسلام بأن النحس نحس الخلق وموت الارادة والسّعادة حياة النفس والمشى فى مناكب الارض واعمال اليد والعقل فى جلب الرزق والخير.

خير لك ان كنت فى ظلمة ان تتأمل طلوع الشّمس غداً. من ان تتذكر طلوعها امس فلكلّ من الظاهرتين اثر نفسى معاكس للاخر ففى ترقّبك طلوع الشّمس غداً الأمل والطموح الى ما هو آت وهذا معنى الحياة وفى تذكر طلوعها امس حسرة على مافات.

فرق كبير بين من يلطم اللطمة فلا يكون له وسيلة الّا البكاء وبين من يستجمع قواه للمكافحة والحياة كلّها لطمات واعجز النّاس من

خارت قواه امام اوّل لطمة فهرب . وقيمة المرء بمقدار كفاحه لا بمقدار فشله وبمثل هذا يفضل الغربيّون الشرقيين ويسبقونهم فى ميدان العمران لافرق من ذلك بين اغنيائهم وفقرائهم بل الاغنياء عندهم قدوة من دونهم فى المحافظة على هذه الآداب .

أمّا الشرقى فمن الأسف انه يقلّد الغربى فى كلّ شيء الّا فى هذه الأخلاق الّتى يتوقّف عليها نجاح الشعب فاذا اغتنى الشرقى ، حسب انه بلغ غاية الغايات وان غناه يرفعه الى مرتبة اسمى من مرتبة من هو دونه فى الثروة . فيقل اهتمامه بهذه الآداب . وقد يغويه المال حتّى يصبح لا يعتبر الّا من كان غنيّاً مثله . والسبب فى ذلك نقص فى تربيتنا نحن الشرقيّين وهو علّة انحطاط الشرقى عن الغربى . وذلك ما ادركته فئة منّا لا تعيبها قلّة العدد اذ نشطت من العقال وجالت كلّ مجال فأثبتت لأبناء الغرب ان الشرقى اذا توكّل فعزم لم يقف دونهم .

فاذا ادركنا ذلك وتنبّهنا اليه قبضنا على اوقاتنا قبض البخيل على دراهمه وانفقنا منها ويدنا ترتعش كما ترتعش يد الشحيح عند الإنفاق . ولئن كان البخل بالمال رذيلة فالبخل بالعمر فضيلة فاذا فعلنا ذلك كانت اوقاتنا حاضرة لدينا بملكنا . وانحلّ عنا ارتباطنا بالمستقبل المجهول . وعشنا فى حقيقة ما نملك فى الحاضر .

قال لامارتين : لقد ماتت نفسى الف مرّة ولكنها ماماتت مرة الّا وفى اليوم الثالث قامت . فى هذه الكلمة لأرق شعراء فرنسا فى القرن

التاسع عشر وعظيم من عظماء مجاهديها السياسيّين حكمة بليغة . اجل لا يموت الانسان مرّة واحدة والموت انواع واشكال وما انفصال الروح عن الجسد الّا احد انواعه وآخرها ـ يموت عقل الانسان اثناء حياته متى اظلمت عليه السبل وحار بين المشاكل ووقف جامداً لا يجد له من مصائبه مخرجا .

يموت قلب الانسان متى خانه صديق احبّه وغدر به خليل وثق به او نأى عنه من كان يأنس بقربه او ثوى فى رمسه من كان له بهجة ولذّة حياته ولله در المتنبّى :

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت   لها المنايا الى ارواحنا سبلا

وتموت ارادة الإنسان متى اخفق فى مساعيه وفشل فى اعماله ولبث لا يدرى الى اين يمدّيده ولا كيف يتصرّف فى اموره ـ ويموت الانسان متى فاجأته نائبة شديدة او أضنى جسمه داء عياء ومتى مرّت الاعوام فاوهن الكبر أعضاءه واضعف قواه .

ليست الحياة نهاراً ليله القبر بل هى للناس كلّهم تعاقب صباح ومساء وانوار وظلمات وافراح واحزان والعاقل يدرك ان الموت يبدأ منذ تبدأ الحياة وان الحياة لها مجال للبقاء حتّى بعد ان يثوى الجسد فى التراب ويغدو رفاتا (فالعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم موجودة)

ومن النّاس من يموت فى حياته ولا يعود اليها ضعيف الارادة خائر العزيمة نزر القوّة قصير الخيال والادراك اذا ألّمت به مصيبة او بلى بخسارة عظيمة رمى بنفسه الى الأرض ناحباً وتولّاه الياس والقنوط

وغدا بين الاحياء كانه شبح ليس له ساعد به يصول . ولا له صدر تخفق فيه آمال . ومن كان هذا شأنه فهو من بلاء الى بلاء اعظم ومن شقاءٍ الى شقاء اكبر . لان الهناء لايدوم لانسان فمَنْ ماتت قوّته بزوال هنائه فقد دفن نفسه وهو حيّ فى مقابر الجبناءِ الخاملين .

ان فى صدر كلّ انسان من القوّة اكثر مما يخال وفى روحه من الهمّة اكثر مما يحسب وفى العالم حوله من الفرص المناسبة اكثر مّما يظن ولكن بعض النّاس تعميهم المصيبة او الخسارة فيقولون قد غاب كلّ نور وقد تكون الانوار حولهم وقريبة منهم ولكنهم باتوا لايبصرون وانما ابطال الانسانية هم الّذين يموتون مرات عديدة ولكنهم يهبّون بعد كلّ موتة الى حياة جديدة فلايتلاشى فى صدورهم الامل ولاتفنى من أرواحهم الهمّة ولاتخفى عن ابصارهم المسالك العديدة الّتى يقدرون ان يسيروا فيها .

بل هم كلّما توالت عليهم البلايا والمحن زادوا همّة واكتسبوا حكمة واعتباراً . ان الالم وهو موت القلوب يعلّمهم ان يكونوا ذوى صبر وجلد وسعى وثبات وجهاد واقدام فان عاندتهم الاقدار ارتدّوا عليها بعزيمة المحارب الّذى لايهاب عدوّاً ولا يفرّ من قتال . اين تجد فى تاريخ الإنسانية الرّجل الّذى بلغ مقاما منيفاً بغير ان مات على الطريق مراراً ان النجاح فى الحياة يسير اليه الفائز على طريق قد غشاها دمه وقطع فؤاده ومن اراد ان ينتصر بغير موت فقد عاش خاملاً مجهولاً كما ان من مات مرة ولم يقم فقد مات الى الابد مغلوباً ذليلا .

فلاتقل اذا لم تفز فى عمل من اعمالك قد ذهب كلّ امل ولم يبق فى اليد حيلة فقد بقيت لك مسالك كثيرة لم تسلكها وبقى فى نفسك قوى كثيرة لم تستخدمها وبقى فى الوجود مجال لابتسامة لك وان حسبت كلّ الوجود ظلاماً وشرّاً . لاتقعنّ البحر إلّا سابحاً

كلّ انسان ميّال ان يصيب النجاح العظيم بعناء قليل ولذلك ترى النّاس ألّايستخدمون فى الغالب إلّاقسماً قليلاً من قواهم لان استعمال كلّ القوى جهاد عنيف وعناء مضن فاذا اخفقوا فى مسعى حسبوا ان ليس لهم من القوه الا مااستخدموه فيه فلصقوا بالتراب حيارى وماتوا ولم يقوموا . على ان الرّجل الحازم لايفقد ابداً الثقة بنفسه والاعتماد عليها فاذا خانه القدر من جهة مال الى ثانية . واذا سدّ فى وجهه باب من ابواب الفلاح فتح هو لنفسه باباً جديداً . واذا قيل فيه يوماً انه قدمات . هب مثل لامرتين ينادى اجل قدْ.مت ولكنها لاتمرّ ايّام ثلثة الّا وانا عائد من الموت الى الحياة .

نعم : الامل هو الحافز الشخصى الّذى يدفعنا فى قوة وعنف او فى ليونة وضعف ، الى اقتحام المخاطر والمغامرة فى الاهوال واستصغار العظائم ، وهو الرائد الّذى يسبقنا فى طريق الحياة إمّا الى المجد وامّا الى الهلاك ، وهو احلى مافى الحياة لانه حلم النفس اللّذيذ الّذى يسكرها بنشوته ويطربها بنغمته . والحياة بدونه اقفر من الصحراء واحقر من ان نقيم لها وزنا او ان نفرض لنفسها وجوداً فى أخيلتنا وافكارنا وعواطفنا ترى ماذا يكون مصير هذا الكون العامر اذا احللنا كلمة اليأْس محلّ

كلمة الأمل الغالبة ؟ اذن لانطفأت فيناجذوة النشاط وتعطّلت قوانا العاقلة ، واستولى علينا الجمود وانحطت ميزاتنا الانسانيّة الى درجة من الحيوانيّة لايرضاها الإنسان لنفسه ، واذن لانقلبت الحركة سكوناً والوجود عدماً والحياة موتاً . واستولت علينا الخيبة وصارت تلك الدوافع ، الّتى تحرّكنا الى التقدم حثيثاً ، الى وقوف اشبه مايكون بوقوف الفلك الدوّار اذا مااختلّت نظمه واعتلّت قواعده .

لماذا يقولون فى امثالهم الحكيمة : (سبحان من اودع فى قلب ماشغله ثم لماذا كنّانسمع من خطباء الشرق وزعمائه هذه الكلمة الخالدة تتجاوب اصداؤها فى اجواء الممالك العربيّة فيتلّقاها الكبير ويلقيها الصغير ويتواصى بها البعيد والقريب وهى (لامعنى لليأس مع الحياة ولامعنى للحياة مع اليأس) ان قلبنا ليشبه الصحراء المشتعلة بوهج الشمس المحرومة من النبات . وان الأمل فى شعاب هذا القلب اشبه مايكون بالشجرة الإلهيّة المقدّسة تظلّل الوافدين اليها من كلّ حدب وصوب وتعطيهم الثمرة والظل والحياة . إنَّ مع اليوم غداً يامُسعِدَه

فايّة قيمة لهذه الصحراء بلاشجرة واية لذّة لهولاء المكتوين بنارها اذا لم يكن الظل . وأية فائدة ترجى من اتساعها مالم تكن الثمرة ؟

فالأمل وحده هو المهيمن الحاكم على هذه الحياة والمصباح الساطع فى ظلماتها والنور الالهى المنبعث فى طوايا انفسنا ، والّافمن اجل اىّ شىء

يستمرّ الطالب ساهراً على تحصيل درسه . ويذبل نضارة عمره فى الكدّ والتحصيل ؟ أليس من اجل الأمل فى الحصول على النجاح ؟ ولماذا يبيت التاجر مشغولاً مهموماً لتدبير شؤون المكسب والخسارة واختيار انفس البضائع واكثرها رواجاً وايسرها قبولاً واعظمها ربحاً ؟ أليس ذلك من اجل الأمل فى ان يصير من اصحاب الملايين ؟ ثمّ لماذا يكدّ الشاعر ذهنه ويجهد فكره ويعمل خياله ؟ أليس من اجل الأمل فى ان يصير الى الخلود ، وان يذكر فى عداد الشعراء الّذين يذكرون فى المحافل ويتمدّح بذكرهم فى المجالس وترتّل اشعارهم امام ركاب الزّمن فى طريق السعادة والمجد ؟ ثمّ لماذا تجيش الجيوش وتعدّ العدد وتحشد الحشود؟ أليس من اجل الأمل فى الفتح او الغلبة او النكاية بالأعداء . لعمرى ایّ خيال مجنون استولى على عقل اسكندر المقدونى او نابليون بونابرت فطوح بهما فى المهامه المتلفة والمهالك الرهيبة وجعلهما يسخّر ان كلّ ما يملكان من قوى مادّيّة ومعنويّة فى الإغارة على ممالك الشرق والغرب ؟ أليس هو الأمل الّذى خيل لهما أنّ فى امكان الإنسان الصغير ان يحوّل رقعة الأرض ومساحتها الى رقعة شطرنج يلعب بها ويلهو فيكسبها مرةً ويخسرها اخرى .

قالوا ان عالما عظيماً وفيلسوفا حكيما كان له ولدان ربّاهما فاحسن تربيتهما وثقفّهما بما يثقف به العظيم أبناءه من العلم النافع والخلق الكريم، فلما تهيّأ له ذلك وظنّ انهما اصبحا قادرين على فهم رسالتهما فى الحياة رغب فى اختبارهما فاستدعى احدهما وهو الأكثر ثقافة والقى عليه السؤال الآتى

ماذا تأمل ان تكون من الرّجال العظماء ؟ فقال : آمل ان اكون فى منزلة
والدى علماً وحكمة فقال : والله ياولدى لقد خاب أملى فيك ولقد ظننت
أنّك تطلب غاية أسمى من تلك وأعظم وتتمنّى منزلة اشرف من هذه وارفع
فاذا بك قصير النظر . ضعيف الأمل . واهن العزيمة ، انّنى يوم ان كنت
صغيراً ماطلبت لنفسى منزلة اقلّ من منزلة احد نوّاب الائمّة الخاصّة وقد
جعلت ذلك دأبى فاوصلنى جدّى واجتهادى الى هذه المنزلة الّتى هى اقلّ من
نيابتهم العامّة ـ ضرب لنا هذا العالم مثلاً اراد به ان يلقى فى روع ولده انه
لايلزم ان نقصر آمالنا على الغايات القريبة الّتى فى متناول كلّ الناس .
وانما نسمو بآمالنا الى اسمى الغايات واشرفها ثمّ نسعى فى طلبها جهد ما
استطعنا . فاذا لم ننل غاية املنا فلا اقلّ من ان ننال الغايات الوسطى فان القناعة
مذمومة هنا ولاشك انّ المرء يطير بهمّته قال الله تعالى وَفِى ذٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ . وممّا قرأت فى مجلّة الهلال القديمة . مناسباً للأمل والعمل

قيل ان البطل العظيم تيمور لنك عند ماخابت آماله فى بعض
المعارك لجأ الى ناحية قصية مهموماً حزيناً وقد ضاقت الدّنيا فى عينيه
واحسّ بمرارة الحسرة تدبّ فى روحه . وبينما هو جالس ورأسه بين يديه
وفكره مشرّد ، بصر بنملة كانت تحمل حبّة قمح من الأرض لتوصلها
الى بيتها فى الصخرة فلم تستطع حملها فى المرّة الاولى فعالجت ان تحملها
ثانية فسقطت فرجعت ثالثة ففشلت وهكذا . فجعل تيمور لنك يعدّها
المرّات الّتى حاولت ان تحمل فيها الحبّة ولم تستطع فعدّ . لها سبعين مرّة

وفى المرّة الحادية والسبعين استجمعت النملة كلّ قواها وجذبت الحبّة جذبة المستميت فنقلتها وحقّقت بذلك أملها. عند ذلك تهلّل وجه تيمورلنك وقد ألقت عليه النملة، درساً نافعاً فى التجلّد والثبات وقوّة الارادة فنهض واقفاً والأمل يتخايل امام عينيه والدنيا تتّسع له. وقال: ان النملة لم تيأس. وقد فشلت سبعين مرّة أفيعتريني اليأس لانكسارى وفشلى مرّة واحدة ؟ ثمّ جمع فلول جيشه ونفخ فيه من شجاعته وهجم به على عدّوه فانتصر ايّما انتصار ونال الأمل الّذى ظنّه مستحيلاً[١]. قال الطغرائى[٢]

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

مجدى اخيراً ومجدى اولاً شرع ... والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل

فيم الاقامة بالزوراء لاسكنى ... بها ولا ناقتى فيها ولا جملى

ناء عن الأهل صفر الكف منفردٌ ... كالسيف عرّى متناه عن الخلل

فلا صديق اليه مشتكى حَزنى ... ولا انيسٌ اليه منتهى جذلى

أريد بسطة كف استعين بها ... على قضاء حقوق للعلى قبلى

والدهر يعكس آمالى ويقنعنى ... من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل

حبّ السلامة يثنى همّ صاحبه ... عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

فان جنحت اليه فاتّخذ نفقاً ... فى الأرض اوسُلَّماً فى الجوّ فاعتزل

ودعْ غمار العلى للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهنَّ بالبَلَل

فادرأ بها فى نحور البيد جافلة ... معارضات مثانى اللجم بالجُدُل

١ـ الهلال لسنة ٤٥ ص١٠٤٦ . ٢ـ الوزير الاصفهانى فى القصيدة اللاميّة .

ان العُلى حدَّثتنى وهى صادقة ... فيما تحدِّثُ ان العزَّ فى النُّقَل

لو انّ فى شرف الماوى بلوغ مُنى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

اهبت بالحظ لو ناديت مُستمِعاً ... والحظّ عنىّ بالجهال فى شغُل

لَعلَّهُ ان بدا فضلى ونقصهم ... لعينه نام عنهم او تنبّه لى

لم ارتض العيش والأيّام مُقبلة ... فكيف أرضى وقد ولّت على عجل

اعلّل النفس بالامال ارقبها ... مااضيق الدهر لو لافسحة الأمل

غالى بنفسى عرفانى بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

وعادة النصل ان يزهى بجوهره ... وليس يعمل الّا فى يدى بطل

ماكنت أُوثر ان يمتدَّ بى زَمَنى ... حتّى ارى دولة الاوغاد والسفل

تقدّمتنى اناس كان شوطُهم ... وراء خطوى اذا أمشى على مَهَل

هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا ... من قبله فتمَّنى فسحة الأجل

وان علانى من دونى فلا عَجَبٌ ... لى أُسوة بانحطاط الشمس عن زحل

فاصبر لها غير محتال ولاضجر ... فى حادث الدهر مايُغْنى عن الحيل

أعدى عدوّك أدنى من وثقت به ... فحاذر النّاس واصْحَبْهم على دَخَل

وإنّما رجل الدنيا وواحدها ... من لايعوّل فى الدّنيا على رجل

غاض الوفاءوفاض الغدروانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعمل

وحسن ظنِّك بالأيّام مَعْجَزة ... فظن شرّاً وكنْ منها على وجل

وشأن صدقك عند الناس كذبهم ... وهل يطابق معوّج بمعتدل

ان كان ينجع شىء فى ثباتهم ... على العهود فسبق السيف للعذل

يا وارداً سؤر عيش كلُّه كدَرٌ أنفقت عمرك في ايّامك الاول
فيم اقتحامك لُجَّ البحر تركبُه وانت يكفيك منه مَصَّة الوَشَل
ملك القناعة لايخشى عليه ولا يحتاج فيه الى الأنصار والخول
ترجو البقاء بدار لاثبات لها فهل سمعت بظلٍّ غير مُنتقل
ويا خبيراً على الاسرار مُطلّعاً أنصت ففي الصمت منجاة من الزلل
قد رَشّحوك لامر ان فطنت له فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهَمَل

لقد اكثر الشعراء في الرّجاء والأمل والاعتماد على فضل الله والثقة بجميل كرمه ولطيف عنايته من الفرج بعد الشدّة ، ومن ابلغ ماقرأته واشدّه تأثيرا في النفوس قول حبيب بن اوس المعروف بأبي تمّام الطائي :

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
واوطنت المكاره واطمأنّت وارست في مكا منها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضرّ وجهاً ولا اغنى بحيلته الاريب
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب
فكلّ الحادثات وان تناهت فموصول بها فرج قريب

ولهذا قال توماس كارليل . الشاعر نابغة ولّدته الاجيال . النبي الذى يرى مالا يرى . الفيلسوف الذى يدرك مالا يدرك ، نفثت فيه القوّة العلياء روحها فاخترق حجب الحقائق وقرأ كتاب الوجود وفهم السرّ الأعظم وقد جعلت ما جمعت من اخبار هذه الطائفة بين حكم وامثال واخبار واشعار ونثر وآثار وهزل وجد وخلاعة وزهد ومبك ومضحك وموعظة ونُسْك

من كلّ معنى يكاد الميت يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم

ختام الجزء الاوّل من هذا الكتاب فان الشعر ديوان العرب والصدق إيوان الأَدب فالشاعر لا يحاكى اشياء موجودة فعلاً او يمثّلها او يعبّر عنها اويعرضها . بل انه يبتكر اشياء جديدة . فالعالم الفلكى يتأمّل النجوم ، واعتماداً على مايرى ، يسجّل النظام الّذى وضعته الطبيعة هناك . وهكذا يفعل الهندسى والرّياضى فى انواع الكمّيات المختلفة عندهما والفيلسوف الأخلاقى يقف على الفضائل والرذائل والطبيعى يستمدّ لقبه من هناك ورجل القانون يقول بما اقرّه النّاس والمورّخ يتحدّث عما فعلوه والطبيب يقدر طبيعة الجسم البشرى . ولكن الشاعر وحده لايكون مقيّداً بأىّ قيد فالابداع هو الخاصّة المميّزة للشاعر انه يبدع اشياء جديدة معتمداً على فطنته الخاصّة بجعله الأَشياء خيراً ممّا هى عليه فى الطّبيعة او يأتى بها جديدة كلّ الجدّة اشكالاً لم يسبق لمثلها ان وجد فى الطّبيعة وهكذا عند مايسير جنباً الى جنب مع الطبيعة لايقيّد نفسه بما تقترّه عليه من هباتها . ولكنّه يدور فى فلكه ،[1] من ذلك ان أحد الادباء دخل على بشّار وهو نائم فى دهليز داره فقال يا ابامعاذ من القائل

إن فى بردى جسماً ناحلاً لو توكّأت عليه لانهدم

قال أنا . قال من القائل

فى حلّتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال أنا . قال وماحملك على هذا الكذب . والله انى ارى لو ان الله

١ـ مناهج النقد الادبى .

بعث الرّياح الّتى اهلكت الامم الخالية لما حرّكتك من موضعك . فهذا الرجل اقتحم دار الشاعر للهزء به ولايفقه أنّ هذين البيتين يعبّران ظاهراً عن جسده بينما هما يعبّران ضمناً عن نفسه وروحه فالجسد رمز للذّات.

ومن هذا الباب التفاتنا الى احسن ما فى صديقنا . وتنويهنا بمواضع الاحسان فيه دون مواضع الاساءة ـ فاذا ما قال رجل لزَوْجته انّ لها وجه كفلقة القمر وزهرة كالزُهرة وهى ربّة الجمال وقوام الجلال وإلهة الحسن والكمال.

فإنّه يكون كذّابا وتعلم هى انه يكذب واما اذا قال لها انّها جميلة فى عينه. فانها تعلم صدق هذا القول ولعلّها تقول كالمعترضة (عجبا ما انا الاعجوز كرشاء مكتنزة) ولكنّها مع هذا عليمة كل العلم بأن الحبّ وليس هو بالاعمى كما يقولون ـ يرى من المحاسن ما قد يخفى على غير المحب وفى الوسائل عن النبي ﷺ قول الرجل للمرئة إنّى احبّك لايذهب من قلبها ابداً.

وانى لأفهم واعطف على زوجة الفلاح الّتى يحكى انها قَضت سنوات قائمة على الطهى والخدمة فى البيت فلم تسمع كلمة ثناء واحدة. فذات يوم قدمت اليهم الغداء من علف الماشية . فلما احتجّ القوم كان جوابها لهم ما سمعت منكم قطّ كلمة افهم منها انكم تعلمون فرق ما بين هذا وذاك.

وليس المرء كما يتصوّر نفسه فحسب بل هو كما يتصوّره الناس ايضا ـ وقد جاء فى لوحة معلّقة على بعض المخازن فى بوسطن موظّفونا جميعا مؤدّبون ومقتدرون فمن ذا تراه من هؤلاءِ الموظفين يرضى لنفسه ان يخرج على هذه الكلمة الطيّبة ويثبت على نفسه كذبها.

مختار من المختار
كلمات سحريّة[١]

قال بعض الأدباء منذ عهد قريب كان صديقي القديم الشاعر والمحرر تشارلز هانسون (تاون) يمشي في الشارع الخامس بنيويورك فوقع نظره على امرأة رائعة الحسن في منعطف الطريق . ولقد حدّثني عنها فقال هي امراة نَصَف[٢] ولاشك في انها غريبة ولكنّي – بعد ان تردّدت قليلاً – قلت لها لاتؤاخذيني اني رجل كهل . ولامراء في حسن نيّتي فلعلّك لاتجدين بأسا في ان أقول لك انّك من اجفل من رأت عيناى من النّساء .

فضحكت وقلت مامن شك في انها حسبتك مجنونا فقال شارلي (بل انا نفسي حسبتني كذلك ولكنّني لم ألبث ان قرّر رأيي على أنّي مافعلت في حياتي شيئاً احكم من هذا – لقد اشرق وجهها سروراً . فهي قد بلغت تلك المرحلة من الحياة الّتي نحتاج فيها جميعا الى بعض مايشدّ ازرنا – فنحن يومئذ نبدأ نرتاب في استطابة النّاس لعشرتنا وميلهم الينا . ومن الخير ان نجد من يقوّى ثقتنا بأنفسنا – غير ان اكثرين من النّاس يضنّون بهذه الفيتامينات الى تنعش النفس – ولاجدال في ان شارلي كان مصيباً . فان اشدّنا تواضعاً ليحسّ بالغبطة حين يسمع كلمة تقدير – واكبر الظن انه يضاعف جهده ليكون لها اهلاً وليس يخلوا حدمنّا من تلك الفترات الاليمة الّتي يسائل فيها نفسه (أترانى حقا قد اجدت العمل

---

١ – المختار من ريدرز دايجست سبتامبر ١٩٤٤ . ٢ – من كان متوسط العمر رجلاً كان اوإمرأة

او قد استطابت الجماعة هذه الليلة مجلسي وفي مثل هذه اللحظات يكون وضع يد على كتفك تشجيعا أيّ تشجيع وليس فيمن يؤبه من الرجال من يطلب مدحاً لم يكسبه بعمله او ملقاً لايخفى كذبه .

كنت على يقين بانّى ادّيت عملى احسن الاداء . فلمّا لم ينوّه بى احد من رؤسائى انفثات كبريائى وتبدّدت سعادتى . لولا ان جاءنى بعد الظهر كتاب حارّ اللّهجة ظاهر الحماسة من رئيس التحرير . وهو تعلّق على الحائط أمامى وانا اكتب هذه الكلمة ولايستطيع احد ان يتصوّر ما افادنيه هذا الكتاب من عزيمة وايمان بالجهد المبذول مدى خمسة واربعين عاماً .

كلّنا محتاج ان يشعر بحاجة النّاس اليه وكلّنا يحبّ ان يحبّ ويودّ . واكثرنا لاينالوا جهداً فى اتقان عمله . ولكن كيف نوقن بأننا مفتقدون محبوبون وانّنا من خيرة العاملين . اذا لم يقل ذلك لنا أحدٌ ؟ انه لينذر بين النّاس من لايأسف على كلمة جارحة قالها . ولكنّنى لااعرف احداً لم يرض عن تصريحه بالحبّ او الاعجاب .

ولعلّ اصدق مايقال من هذا المقام كلمة صديق لى صينىّ حييّته بكلمة طيّبة فعقب عليها بقوله (ان الازهار تترك بعض شذاها فى اليد الّتى تهديها) قال الله تعالى خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ بِهَا وَتُزَكِّيهِم وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ .

وقديماً قالوا حبّ الشهرة من دعائم العمران قال جرجى زيدان . على ان حبّ الشهرة لايقتصر على منع المظالم والمنكرات ولكنّه كثيراً

مايكون حاثّاً على الفضائل حتّى فى المتديّنين . فانّ اكثر المحسنين واهل البرّ يلتمسون مع الأجر فى الآخرة حسن الاحدوثة فى الدّنيا . ناهيك بالّذين يحسنون التماساً للشهرة فقط وقلّما يهمّهم امر الأجر والثّواب وهم كثيرون . ولو دقّقت النظر واعملت الفكرة لرأيت الجانب الأعظم من اهل الاحسان انما يحسنون فى سبيل الصيت الحسن والاشاعة بالاذاعة

حتّى الحكام انفسهم فانهم انما ينصفون النّاس عملاً بالواجب ومفاد هذا الواجب انهم اذا لم يعملوا بالحق اضرّوا بشهرتهم . فالاسباب الحاثّة على الفضيلة كثيرة ولكنّك اذا تدبّرتها وحلّلتها رأيتها ترجع الى حبّ الشهرة والتماس حسن الاحدوثة فى أثناء الحياة او بعد الممات. وقد يفعل بعض النّاس الخير لانه خير بما تمكّن فى نفوسهم من حبّ الفضيلة بالتربية الحسنة او العادة وهم قليلون فحبّ الشهرة الّذى يعدّه الدين من قبيل المجد بالباطل ويعتبره العلم من الاوهام الفارغة ويعدّه اهل الحقيقة من قبيل العبث انّما هو من اكبر دعائم الفضيلة ومن اقوى لوازم العمران فالرّجل القوىّ اذا لم يكن متديّناً ولا طلّاباً للشهرة فانّه بعيد عن الفضيلة مضرّ فى جسم العمران على حدّ قول الشاعر

اذا كنت لا مال لديك تفيدنا ولا انت ذو دين فنرجوك للدّين
ولا انت ممّن يرتجى للكريهة عملنا مثالاً مثل شخصك من طين

ان اوّل الصفات الّتى يجب ان يتحلّى بها طالب السعادة هى اعتماده على نفسه وتقوية ارادته واحترامه لشخصه ولغيره وإجهاد نفسه فى العمل

والتفكير فى كلّ مايراه صالحا لنفسه ولبلاده . فان اعتقاد الواحد منا بحسن طالعه ونظره للمستقبل بالأمل والرجاء لمن العوامل الرئيسيّة والخطوات المدنيّة للفوز فى معترك هذه الحياة فالامل يطيل الحياة

امّا اذا اعتقد الانسان بنفسه العجز وحكم عليها بانها اقلّ من غيرها قدراً او جعل نفسه فى مستوى التعاسة والشقاء فقد اضاع ثروة طائلة وضلّ طريق السعادة . مثل هذه النفس مثل الطفل ذى الخلق الجامح لايهدأ حتى تضع فى فمه قطعة من الحلوى وكذلك النفس لاتروضها بأحسن من ان تغذّيها بالامل فهو كما قال البحترى

كالكوكب الدرّى أُخلص ضوءه حلك الدجى حتّى تألّق وانجلى

حدّث ماشئت عن فساد التربية الاهلية . فلذلك اصبحنا من فرط الجبن نحترم الجوامد من الاشياء . الامر الّذى يبعدنا جداً عن الوصول الى السعادة أحسب النّاس ان السعادة تأتى اليهم وهم عن طريقها معرضون . وفى جهلهم يعمهون

تريدين ادراك المعالى رخيصة ولابدّ دون الشهد من ابر النحل

وخل الهوينا للضعيف ولاتكن نؤوما فان الحرّ ليس بنائم (بشّار)

ثق بنفسك ثقة تامّة واعتقد انك انسان مفكر مدبّر عاقل قابل لدرس كلّ مايلقى اليك مميّز بين الحسن والقبيح والضّار والنافع قادر لان تدير شؤونك بنفسك كلّ هذا مما يرشدك الى طريق السعادة

واذ اثبت انّ لنا بعض السلطة على حاضر امورنا ومستقبلها ترتب علينا ، ان نسبر غور انفسنا وان نمحّصها تمحيصاً ، فان الطبيعة قسطاس

العدل ، لاتعرف الرحمة ولا المحاباة ومن النواميس الطبيعيّة ، ان تزّل القدم بماش يسرع ولو كان طفلاً فيقع ويدّق عظمه ويرّض لحمه . ان لكلّ شيء زماناً ومكانا لايحسن الّا فيهما .

ان السعادة ليست نتيجة ائتلاف ظروف واتّفاق احوال ، بل هي حالة من احوال النفس لا اكثر فالسعادة في داخل الصدور لا في خارجها.

نعطي جسماً صحيحاً . فلانعتّم ان نتركه معتلاً . وعقلاً سليماً فلا نلبث ان نغادره سقيماً . مغدقات النعم تكتنفنا من كلّ جهة ونحن عن التمتّع بها غافلون . نفتخر بمالنا من العقل . ايّ سعادة نستدرّها من ضرع العقل ونغذّي بها نفوسنا قال احد ساسة سويسرا (اغلب او لا ادنا يولدون فقراء ولكنّنا لانتركهم ينشأون ويترعرعون ويعيشون جهلاء) ونحن ايضاً والحمدلله صرنا نرى اهميّة تعليم كلّ ابن انثى من تعاليم الاسلام بل من مبتكراتها ومفاخرها . اذ ليست تربية اطفال اليوم . اي رجال الغدو تثقيف عقولهم وتهذيب نفوسهم من الكماليات بل انها من الزم مايلزم فالعلم هو اساس العمران في الاسلام وبه تقوّى اركان الامّة . وكلّ امّة جاهلة يتهدّم بنيانها وتتقوّض اركانها لامحالة . بل لان سنّ الشرائع يستدعي علماً بالتاريخ وبفلسفة الاجتماع وكلّ العلوم العمرانيّة ، ولان تنفيذ الشرايع يستدعي تهذيباً يشرب النفوس حبّ العدل وكره الظلم ، حبّ العفّة والنزاهة واحتقار الهوى والرشوة ، ولان الشعب اذا تعلّم احبّ الوطن ورعى حرمة قوانينه كيف لا . واذا نظرنا في احصاآت الجرائم واحصاآت المدارس لسنين

معيّنة وجدنا معدّل عدد المجرمين يقلّ بنسبة زيادة عدد المتعلّمين وسببه ان جزءًا من الجرائم الفظيعة ينتج عن ميل الانسان الغريزى الى الشرّ وعن ضعفه لدى التجارب . امّا المصدر ان الكبيران فهما السكر والجهل .

قد يتوهّم البعض ان العلم مصدر الشرور ويعتبرون العيشة الطبيعيّة أُمّ الفضيلة . وماتوهّمهم هذا الّا لقلّة مايفرّقون بين حقيقة الجهل وبين البرارة وسلامة القلب . فانهم يزعمون ان البارّ سليم القلب صافى النيّة كالطفل فى سريره الّا ان الواقع خلاف مايتوهّمون ويزعمون . فان المرء بعد بلوغه اشدّه ورشده . اذا سلبته معرفته وجدته فى طور الهمجيّة لافى طور الطفولة وكان لك منه وحش ضار بشكل انسان هذا لان العلم هو دليل الانسان وقائده فى هذا العالم يميل به الى الخير تارة وعن الشرّ اخرى . ومن لاعلم له فالشهوات والاميال الحيوانيّة متغلّبة عليه . وخلاصة القول ان العلم للنفس كالبرارة والقداسة والطهارة ـ اللّهم إن لم يشب ويفسد، وقد يجرب السليم ويخبث الطيّب فلنسهر على تهذيب ناشئتنا وتعليم اولادنا كل السهر لئلا ينشأ الطفل على اعوجاج فى المبادى والاخلاق وهذا ماعبّر عنه القرآن بالتزكية وقدّمها على التعليم فقال هُوَ الَّذِىْ بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّيْنَ رَسُوْلاً مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِىْ ضَلَالٍ مُبِيْنٍ .

بحيث يشبون على شريف الخصال ومستقيم المبادى ويصيرون رجالا عالمين . عاملين . قد ينفع الادب الاحداث فى صغر وليس ينفع بعد الكبرة الادب

ان الغصون اذا قوّمها اعتدلت ولا يلين اذا قوّمته الخشب

اساطير الاوّلين وكتب المتأخّرين وكتابات المعاصرين واقوالهم جميعا مجمعة على الإقرار بفضل التهذيب والتهذيب هو التناسب بين القوى والمواهب الانسانيّة انماءً وترقية وهو يبتدى مع اوّل ادوار الحياة ويستمرّ على تواليها . فالمربّية او الام تكون اوّل مهذّب للولد . ثمّ الاب فالمعلّم . فالاختبار والايّام والتجارب . وكم من آدميّ خرج الى حيّز هذا العالم ولم يعرف امّاً ولا اباً ولا عرفه معلم – فاتّخذ الوقت الثمين أباً والفرصة العزيزة أمّاً والأيّام والظروف اخواناً واعواناً وعاش ماعاش سعيداً وترك هذا العالم حميداً . ولكلّ انسان تهذيبان تهذيب يحدثه فيه الغير وتهذيب اهمّ واجدى هو يحدثه فى نفسه قال رسول الله ﷺ ليس العلم فى السماء ليهبط اليكم ولا فى تخوم الارض ليصعد اليكم ولكنّه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء، فمن يتصوّر ان الافكار لاتوجد الّا فى الكتب وان فى الكتب كلّ الافكار فما هو الّا متصوّر .

لقد تلقنتم فى المدْرسة بعض العلوم واللّغات ووجهت افكاركم الى المبادى الطيّبة والغايات السامية . وطالماحثّكم اساتذتكم على طاعة الله وعمل الخير لاخوانكم فى الانسانيّة فانطبع فى نفوسكم روح الشعار المبنى على الآية الشريفة إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ غير انه لاينبغى ان تتوقّعوا انه متى خرجتم من المدرسة الى العالم تجدون سبل الحياة مفروشة كلّها بالرياحين . فانكم ستصادفون اشواكاً مؤلمة وابناء آدم الّذين تلتقون

بهم هم طبقات مختلفة. فمنهم الكرام البررة طيّبوا السيرة والسريرة .
ومنهم اللئام فاسدوا الاخلاق الّذين يبطنون غير مايظهرون قال القيني

اذا كان فى صدر ابن عمّك إحنة فلاتستثرها سوف يبدو دفينها

ومنهم الحمام والنعاج صحاح النيّة والطويّة . ومنهم الثعالب والذئاب الّذين دأبهم مهاجمة الاخيار والفتك بهم ، كلّت بصائرهم وسقمت ضمائرهم

امّا الاخيار من بنى آدم فنوعان – اخيار على بركة الله مخلصون فى اعمالهم مندفعون فى سبيل الخير صابرون على احتمال المشقّات ولكن لاقوّة لهم على المدافعة عن انفسهم تجاه اهل المطامع الشرهين الماكرين الغادرين إن مثل هذا النوع من الاخيار مثل الحمار الّذى مع كلّ صبره وطاعته وخدماته للانسانية لم يستطع ان يرد هجمات الوحش الضّارى .

امّا النوع الثانى من الاخيار فهم المهذّبون الحقيقيّون الّذين عرفوا مالهم وماعليهم واستعدّوا تمام الاستعداد للقيام بواجباتهم والمدافعة عن حقوقهم فالتهذيب الصحيح يكون من اثماره ارباب العزم والاقدام المتسلّحون بالقوّة والرجولية الّذين يستطيعون ان يخدموا الانسانيّة ويدافعوا عن انفسهم واوطانهم بشرف .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يتّق الشتم يشتم

نعم ان العلم حياة القلوب وضياء العقول وحاجة المرء الى العلم كحاجة عينيه الى الضوء غير ان فنون العلم وحدها لاتتدرّج بالحياة الى آفاق أعلى مالم تصاحبها وسائل اخرى تغيّر من طبائع المتعلّمين بل قد رأينا

طبائع السوء تستغلّه فيما يردّ النّاس وحوشاً لاتربط بينهم عاطفة رحمة

فالعلم وحده لم يحقّق الخير للبشر . الّا أنْ يسير مع الدين جنباً لجنب

ولا يغترن خرّيج اىّ مدرسة باحرازه قصب السبق على اقرانه وبنيله

اىّ شهادة او رتبة علميّة . فان الاختبار قد كشف القناع عن حقيقة نيّرة

باهرة . جديرة بان ترسم باحرف من ذهب على باب كلّ معهد علمى ، ألا وهى .

ان المنتهى من كلّ مدرسة هو المبتدى فى العالم . المنخرط فى سلك كثيرين

من امثاله وان عليه كغيره ان يفتح ابواب صدره من جديد . وهذه المرة

على ملئها ، ليتلقى الدروس الّتى يلقيها الزمان . والمسائل الّتى تلقّنها الأيّام .

قد اشتهر بيننا ان الغنى والفقر انما يكونان بالحظوظ والاقدار .

لامدخل فيهما لعلم المرء وعقله ولا لذكائه وسعيه . بل اشتهر بين الادباء

ان العلم والحجى ضد ان للثروة والغنى . وهيهات مع حرفة الادب بلوغ

وطر أو ادراك أدب او مع عبوس الحظّ ابتسام الدهر الفظّ وقد نظم

ادباؤنا فى القديم والحديث كثيراً من الشعر فى هذا المعنى تداوله النّاس

وحفظوه فصارت به المسألة عندهم من القضايا المسلّمات الّتى يتوهّمون

انها من البديهيات وكيف لاتكون كذلك عند الجمهور وهى مدعمة بظواهر

ماجاء فى الدّين من اسناد كلّ شىء الى مشيّة الله عزّ وجلّ وللعلماء والحكماء

ما هو اشد تأْثيرا فى النفوس من كلام الشعراء والأدباء قال الشافعى

لكنّ من رزق الحجى حرم الغنى ضدّ ان مفترقان اىّ تفرّق

ثمّ انّهم يرون ظواهر الحوادث الجزئيّة تؤيّد هذا الرّاى وتُثبته

اذ يرون مثل فلان وفلان يعبثون بالالوف والملايين من الدنانير وهم على مايعرفون من الجهل والغباوة . فاذا قيل لمن يعتقدون هذا الاعتقاد ان لتدبير الثروة علماً يبحث فيه عن ينابيعها ومواردها ومصادرها فيعلم الواقف عليه طرق تحصيل الثروة وحفظها وتوزيعها . ولماذا كانت تلك الامة غنيّة و هذه الأُمّة فقيرة ولماذا تزاحم فى البلد الواحد شعبان اوشعوب متعدّدة فيسبق قوم ويتخلّف آخرون — اذا قيل لهم هذا . قالوا ان العلم لاشأن له فى هذا ، وانما هى الحظوظ والاقدار ويسردون مايحفظون من الآثار والأشعار . والآيات والروايات ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

الاقدار هى المقادير والموازين الّتى اقام البارى بها نظام الكون فهى تقتضى الأسباب لاتنافيها ، وان اشتهر استعمالها بيننا فيما جهل سببه غالبا والحظّ فى الأصل هو النصيب الّذى تناله من الشىء بسعى اوبغير سعى . وان غلب استعماله فيما يناله بغير سعى منه اليه . ولاننكر ان بعض الأفراد ينالون الغنى والثروة باسباب لايعرفونها ولايسعون اليها سعيها . ولاننازع فى تسمية ذلك حظّاً جاد به القدر على مابيننا وبين اولئك النّاس من الخلاف فى فهم معنى القدر وانا نقول فى اقناع المنكرين لفائدة علم تدبير الثروة الّذى وضع له اسم الاقتصاد . ان الواضعين لهذا الاسم والمصنّفين فى هذا العلم والدّارسين له والعاملين به يعرفون من احوال اهل الحظوظ ماتعرفون ومنهم من يؤمن بالقدر كما تؤمنون ولكنّهم معذلك يعلمون من احوال العالم مالاتعلمون فضمّوا علمهم الى علمكم ثمّ لكم بعد ذلك

حكمكم . اذا كنتم تعذرون فيما يحكمون على ثروة الافراد فى كل امّة فلاعذر لكم اذا قستم عليها ثروة الشعوب والامم فَسِيْرُوْا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوْا كيف صارت الامم الّتى عنيت بهذا العلم أغنى الامم واعزّها وكيف يدخل افراد منها فى بلاد امّة اخرى فلايلبثون ان يكونوا هم المستقرّ والمستودع لثروتها بل القابضين على روح الحياة الماليّة والاجتماعيّة فيها ــ ألاان امّتنا احوج الى هذا العلم منها الى جميع العلوم الدينوية لانه روح جميع العلوم والأعمال.

قال ابويزيد البسطامى ليس الزاهد من لايملك شيئاً انّما الزاهد من لايملكه شىء .

فى بلادنا اغنياء كثيرون ولكنهم أشدّ بؤسا من الفقراء المعوزين لاينتفعون بثروتهم احياء . ولا ينتفع النّاس بثروتهم بعد موتهم هم لايملكون الثروة وانما يحملونها على ظهورهم لينقلوها من جيل الى جيل يحملون الثروة من آبائهم لينقلوها الى ابنائهم . ليعبروا بها النهر. وكثيراً ماتنوء بهم هذه الثروة فتغرق ويغرقون معها ولايظفر أبناؤهم منها الّا بالتّعس والبؤس وسوء الحال ومن هنا قال رسول الله ﷺ نعم المال الصالح للرجل الصالح .وقد رأينافى اميركا واوربا اغنياء ولكنهم ابعد النّاس عن الفقر وأدناهم الى الغنى الحق لانهم يملكون الثروة . ويحسنون التصرف فيها لايشترون بها الطعام والشراب واللباس فحسب . وانّمايشترون بها الحبّ والعطف والإجلال وحسن الأُحدوثة فى الحياة وبعد الموت . ليسوا أنعاماً ينقلون

الثروة من جيل الى جيل. وانّما هم ناس يملكون الثروة ويثمرونها، فيفيدون ويستفيدون . ليسوا عبيداً للمادة . وانما هم سادتها يملكونها ويسخّرونها لحياة الانسان والترفية عنه ـ انّ رجلاً يستخدم المال والثروة ويصرّفها فيما يفيده حيّاً وميّتاً هو الّذى يشترى جنّته فى الدنيا هو الّذى يملك الجنّتين جنّة الموحّدين وجنّة الملحدين[1] وان شئت فقل جنّة العارفين وجنّة العابدين وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فللجنّة مراتب ودرجات وفقاً للاغراض والنيّات . ان للجنة باباً يقال له المعروف فلايدخله الااهل المعروف[2] .

ان رجلاً ـ أهدى الى جامعة باريس عشرة ملايين من الدولار لإنشاء حيّ خاص يسكنه الطلبة الّذين يدرسون فى هذه الجامعة، بحيث يُتاح لهولاء الطلبة ان يعيشوا فى منازل صحّية يجدون فيها مايمكنهم من الدّرس النّافع بين ضروب الرّاحة والنعيم .

واقرأ ان امرأة اوصت بثروتها كلّها لجامعة باريس . وثروتها تكاد تبلغ خمسة عشر مليونا . وان هذه المرأة . قبل ان تموت أهدت الى كثير من الجامعات مقادير مختلفة من المال . وانها اهدت مرة الى جامعة باريس مقداراً من المال تنفقه فى طبع الرّسائل الّتى يقدّمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه وقد أخذوا هذه التعاليم من أكابر المسلمين خدّام العلم والدين

كان السيّد المرتضى واخوه الشريف الرّضى قدس الله روحهما قبل الف سنة يجريان على التلاميذ وكان السيّد المرتضى قد وقف على كاغذ الفقها

١ـ النظرات منفلوطى .   ٢ـ قاله الامام الحسن العسكرى عليه‌السلام

قرية : كان للشيخ ابى جعفر الطوسى ايّام قرائته على السيّد المرتضى كلّ شهر اثنى عشر دينارا ولابن البرّاج كلّ شهر ثمانية دنانير[١] وكان قدّس الله روحه يدرس فى علوم كثيرة وفى بعض السنين اصاب النّاس قحط شديد فاحتال رجل يهودى فى تحصيل قوت يحفظ به نفسه فحضر يوماً مجلس المرتضى واستأذنه فى ان يقرء عليه من النجوم فاذن له السيّد وامر له بجراية تجرى عليه كلّ يوم فقرأ عليه برهة ثمّ اسلم على يده وحضر المفيد مجلس السيّد يوماً فقام من موضعه واجلسه فيه وجلس بين يديه فاشار المفيد بان يدرّس فى حضوره وكان يعجبه كلامه وقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم نعم العون على تقوى الله الغنى ومن العجب انّ اهل الدنيا متّفقون على ذمّ الدنيا بألسنتهم ومتمسّكون بها فى أفعالهم ولا غرو اذا اسمعتم انهم جهلوا الدنيا ولم يعرفوا الدنيا المذمومة فى دين الله وعلى لسان شريعة العقل والفطرة .

فليت شعرى ان كانت الدنيا المذمومة هى الثروة والنقود فكيف يبتهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى ربّه قائلا أعوذ بالله من الفضيحتين الفقر والدّين. ويقول الفقر سواد الوجه فى الدارين ، ويقول كاد الفقر ان يكون كفراً. وتواترت الادعية بطلب الغنى وتوسعة الرزق قال الله تعالى رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً . وقال . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِىْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ اه . فالتحقيق ان الدّنيا والآخرة هما حالتان للإنسان اولاهما ما قبل الموت والثانية ما بعد الموت فكل شىء يكون للانسان فيه حظّ وغرض ونصيب وشهوة

١ ــ كشكول بهائى لقد تولى ابن البرّاج قضاء طرابلس عشرين سنة او ثلثين .

ولذّة فى العاجل قبل الوفات فهى الدّنيا فى حقه الّا أنّ جميع ذلك لم يكن مذموماً بل ينقسم الى ثلاثه اقسام :

الاول مايصحب الانسان قبل موته وتبقى ثمرته بعد الموت معه وهو العلم والعمل . والمراد بالعلم هنا العلم بالله وصفاته وافعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت ارضه وسمائه والعلم بشريعته ونبيّه والمراد بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله . وقد يأْنس العالم بالعلم حتّى يصير ذلك ألذّ الاشياء عنده فيهجر غيره من الملاذ لاجله ، وبهذه اللّذّة الّتى يلتذّ بها العالم صار العلم له حظّاً عاجلا فى الدّنيا، وكانوا يقولون اين الملوك وابناء الملوك .

والقسم الثانى كلّ حظ فى العاجل معين على اعمال الآخرة ابقاء على حياته وصحّته ليتوصّل الى العلم والعمل وهذا ضرورى للانسان فهذا ليس من الدنيا كالأوّل بل هو وسيلة اليه فسالك طريق الآخرة لاتنال العلم والعمل الّا بالحياة وصحّة البدن ولاتنال بهما الّا بالقوت والملبس والمسكن. وان كانت الدنيا المذمومة هى الحياة فكيف تأْمر الشريعة بالمحافظة عليها وتواترت فيها الادعية بطول العمر وتأْخير الآجال ودفع الآفات والعاهات .وان كانت الدنيا المذمومة هى الصحبة واجتماع الاحبّة والألفة مع الناس فالشرايع من بدايتها الى نهايتها سلسلة اوامر تترى بذلك وتنهى عمّا يخالف ذلك القرآن فى الآيات والأحاديث والرّوايات استفاضت بمدحها ونفعها والترغيب اليها .وان كانت الدنيا المذمومة هى المناكح والمواليد والمساكن والسواكن فحاشا الدّين ان يتبرّء منها وقد

دعى الاسلام إلى التواصل والتناسل فانكحوا ماطاب لكم من النّساء ـ وَأَنْكِحُوا أَلْأَيَامٰى مِنْكُمْ آه. وقال النبي ﷺ النّكاح سنّتى، وقال تنا كحوا تناسلوا تكثروا. فلم يدع الدّين نعمة من نعم الله الّا وقد دعى اليها، ولاترك فائدة فى الكائنات الّا وحثّ الناس عليها ولو لاانتفاعنا من هذه النعم والخيرات لماراج سوق السعادة والعبادة ولو لااستعمالنا لوازم الحياة اوالضرورات لم يخضر للدين عود ولااستقام للاسلام عمود.

والقسم الثالث كلّ مافيه حظّ عاجل ولاثمرة له فى الآخرة كالتلذّذ بالمعاصى والتّفاخر بالاموال والتكاثر والتنعّم بالوجوه الغير المشروعة وتشغل الانسان على الفوائد العظيمة كما قال تعالى زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ اه فكلّ ماليس لله فهو للدنيا وانكان فى الظاهر عبادة اوطلب العلم وكلّ ماهو لله فليس من الدّنيا وان كانت صورته الدنيا ويتّضح هذا من قوله ﷺ من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيمة ووجهه كالقمر ليلة البدر، فالدّنيا حظّ النفس من العاجل ويعبر عنه بالهوى فالاعمال بالنيّات وقد سمع سيّدنا امير المؤمنين على عليه السلام رجلاً يذمّ الدّنيا فقال: ايّها الذّام للدّنيا المغترّ بغرورها المنخدع بأباطيلها، بم تذمّها؟ أأنت المتجرّئ عليها ام هى المتجرّئ عليك؟ متى استهوتك ام متى غرّتك أبمصارع آباءك من البلى أم بمضاجع امّهاتك تحت الثرى؟ كم عللت ولديك وكم مرضت والديك؟ تبغى لهم الشفاء وتستوصف لهم الاطبّاء لم ينفع احدهم اشفاقك

ولم تشف لهم بطبّك ولم تدفع عنهم بقوتك ، قد مثلت لك بهم الدنيا نفسك وخيلت لك بمصرعهم مصرعك ، انّ الدّنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزوّد منها ودار موعظة لمن اتّعظ بها ، مسجد احباب الله ومصلّى ملائكته ، مهبط وحى الله ومتجر اولياءه اكتسبوا فيها الرّحمة وربحوا منها الجنة ، فمن ذا يذمّها وقد اذّبت بنيها ونادت بفراقها ونعت نفسها واهليها فمثلت لهم ببلائها البلى وشوقتهم بسرورها الى السّرور راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيبا وترهيبا ، فذمّها رجال غداة الندامة وحمدها آخرون ، ذكرتهم الدّنيا فذكروا وحدّثتهم فصدّقوا ووعظتهم فاتّعظوا ، ونظم ابن ابى الاصبع معانى هذه الخطبة :

من يذمّ الدّنيا بظلم فانى — بطريق الانصاف اثنى عليها
وعظتنا بكلّ شىء وانا — حين جدّت بالوعظ من مصطفيها
نصحتنا فلم نر النصح نصحاً — حين ابدت لأهلها مالديها
أعلمتنا ان المآل يقينا — للبلى حين جددت عصريها
كم أرتنا مصارع الأهل والاحباب — لو نستفيق يوماً اليها
يوم بؤس لها ويوم رخاء — فتزوّد ماشئت من يوميها
وتيقّن زوال ذاك وهذا — تسل عما تراه من حادثيها
دار زاد لمن تزوّد منها — وغرور لمن يميل اليها
مهبط الوحى والمصلى الذى كم — عفرت صورة بها خدّيها

البيان والادب

البيان هو الحد الفاصل بين الانسان والحيوان لانه من أبرز آثار النفس الناطقة الانسانيّة والبيان بمعناه العام اى مايبيّن به الشيء من الدّلالة والفصاحة وغيرها شامل لجميع درجات الافصاح والتعبير والادب على اختلاف كيفيّاتها واقسامها.

ويعمّ النطق الظاهرى والنطق الباطنى اى ادراك الكلّيّات، ومن الواضح ان النفس الناطقة لاتستطيع ان تصل الى الكمال الّذى لها قوة الوصول اليه الّا بتأثير امر خارجى لان ذات النفس لوكانت كافية فى حصول كمالها المطلوب لحصل ذلك الكمال لها فعلاً حين وجودها ولم يكن بالقوّة. والمفروض بل المحسوس انه كمال لها بالقوّة لا بالفعل فلابدّ من محرّك خارجىّ يحرّك النفس الموجودة نحو الكمال المطلوب لها بالقوّة ليكون الكمال فعليّاً لها وهذا التحريك هو التعليم والمحرّك هو المعلم والكمال هو العلم الّذى صفة ابداعيّة للنفس الناطقة.

فالعلوم — وهى كمالات النفس الناطقة المجرّدة ذاتا — لاتتحيّز فى مكان ولاتختصّ بجهة لان المكان والجهة من لوازم المادّة فالعلوم كالنفس المتّصفة بها لاتوصف بالشرقيّة ولا بالغربيّة توصيفاً حقيقيّاً ولكنّها توصف بهما مجازاً لأجل ان تدوينها او تعليمها كان فى الغرب او فى الشرق. وهذا توصيف عرضىّ خارج عن حدود ذَواتها ومن باب وصف الشيء بصفة متعلّقه. فلايوجب تكثّراً ولاتبايناً فى جواهر العلوم. وبما

ان النفس مفطورة بطلب الكمال اى العلم مطلقا حثّت الاديان الالهيّة سيّما الدين الاسلامى العام الخالد على طلب العلم من المهد الى اللّحد وعلى كلّ مسلم ومسلمة ولم يحدّده مكاناً ولا زماناً. اطلبوا العلم ولو بالصين الحكمة ضالّة المؤمن ياخذها اينما وجدها . من دون تفريق بين ما كان تدوينه فى شرق او غرب فالعلم كالدين ليس له وطن .

ومن هذا البيان الموجز ظهر سرّ بديع فى ماجاء فى القرآن الكريم وكتاب الله المعجز الخالد من قوله تعالى : أَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ والسرّ فيه ان الله تعالى خلق الانسان وعلّمه البيان وخلق المثل الاعلى للانسان وهو الانسان الكامل ، رسوله الخاتم وعلّمه المثل الاعلى للبيان بان اوحى اليه القرآن رحمة منه تعالى على نوع الانسان وتذكيراً لهم برحمته الشاملة بدء السورة بكلمة الرّحمن ولما كان الانسان اجتماعى بالطبع ومعنى هذا ان الانسان مفطور على الصلّة بابناء نوعه مجبول على صداقتهم وكلّما تراصّت صفوف البشر وزاد بينهم التآزر والتعاون تقدّموا فى مضمار الحياة والطريق الموصل الى ذلك هو حسن المعاشرة واللطف وطيب الكلام هذا هو الحجر الاساسى فى السعادة الاجتماعية وبه يستطيع الانسان ان يكسب اكبر عدد من الأصدقاء ولعل اهمّ كتاب اخرج للنّاس فى هذا العصر لبحث هذا الموضوع هو كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى النّاس ؟ تأليف مؤسّس معهد العلاقات الانسانيّة بنيويورك الاستاذ ديل كارينجى وهو رجل عركته التّجارب

وحنكته الحوادث حتّى استطاع ان يستخلص منها اطيب النتائج .

روى انّ رجلاً قام الى امير المؤمنين عليه السلام بالبصرة فقال أخبرنا عن الاخوان فقال الإخوان صنفان إخوان الثقة واخوان المكاشرة فأمّا اخوان الثّقة فهم الكف والجناح والاهل والمال واذا كنت من اخيك على حدّ الثقة فابذل له مالك ويدك وصاف من صافاه وعاد من عاداه واكتم سرّه واعنه واظهر منه الحسن ، واعلم ايّها السائل انهم اقلّ من الكبريت الأحمر ، وامّا اخوان المكاشرة فانك تصيب منهم لذّتك فلا تقطعنّ ذلك عنهم ولا تطلبنّ ماوراء ذلك من ضميرهم وابذل لهم مابذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللّسان[1] قال الله وقولوا للنّاس حسناً وقال الصّادق عليه السلام للنّاس كلّهم مؤمنهم ومخالفهم أمّا المؤمنون فيبسط لهم وجهه وبشره وامّا المخالفون فيكلّمهم بالمدارة لاجتذابهم الى الايمان فان ييأس من ذلك يكفّ شرورهم عن نفسه وعن اخوانه المؤمنين ، قال الإمام ان مداراة اعداء الله من افضل صدقة المرء على نفسه واخوانه . كان رسول الله فى منزله اذا استأذن عليه عبدالله بن ابى سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بئس اخو العشيرة . إئذنوا له فاذنوا له فلما دخل اجلسه وبشَّ فى وجهه . فلما خرج قالت له عايشة يارسول الله قلت فيه ماقلت وفعلت به من البشر مافعلت . فقال صلى الله عليه وآله وسلم ياعويش ، ياللمرأة انّ شرّ النّاس عندالله يوم القيمة من يكرم اتّقاء شرّه . وقال امير المؤمنين عليه السلام انّا نشكر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتقليهم ، اولئك اعداء الله ، وعن جعفر بن محمّد ان عليّاً[2] عليه السلام

١ــ٢ العلويان منقولان عن كتاب السفينة للقمى ره فوالله لئن اخرّ من السّماء او يخطفنى الطير احبّ الى من اكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله

كان يقول لان تخطفنى الطير احبّ الىّ من ان أقول على رسول الله مالم يقل. سمعت رسول الله يقول لى يوم الخندق الحرب خدعة، ويقول تكلّموا بما اردتم . فى خبر حجّاج بن غلاط كما فى اسد الغابة مايدّل على هذا .

ليس البيان الّا الابانة عن المعنى القائم فى النّفس وتصويره فى نظر القارئ او مسمع السامع تصويراً صحيحاً لايتجاوزه ولا يقصر عنه فان علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العّى والحصر .

جهل البيان قوم فظنّوا انه الاستكثار من غريب اللّغة ونادر الاساليب فاغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها فى حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس عليها أنفاسها . فاذا قدّر لك ان تقرأها وكنت ممّن وهبهم الله صدراً رحباً . وفؤاداً جلداً . وجناناً يحتمل ماحمل عليه من آفات الدّهور ورزاياه. قرأت متناً مشوّشاً من متون اللّغة او كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات ، فالتقليد ممقوت فى الأَدب عامّا وفى البيان خاصّاً .

وجهله آخرون فظنّوا انه الهذر فى القول والتبسّط فى الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع . فلايزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها ، ويتلمظون بها تلمظ الشفاة بريقتها حتّى تسفل وتتبذّل وحتّى ماتكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً .

ولقد تخيّل لى ان اكثر الكتّاب فى هذا العصر يكتبون لانفسهم اكثر ممّا يكتبون للناس . وان كتابتهم اشبه شىء بالأحاديث النفسيّة

الّتى تتلجلج فى نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ويأنس بوحدته فإنّى لاأكاد أرى بينهم من يحسن ان يضع فمه على اذن السامع وضعاً محكماً فينفث فى روعه مايريد ان ينفث من خواطر قلبه وهو اجس نفسه .

البيان صلة بين متكلم يفهم وسامع يفهم . فبمقدار تلك الصلة من القوّة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط ، فان اردت ان تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة فى البيان قاعدتك واحرص الحرص كلّه على الّا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين .

مااصيب البيان العربى بمااصيب به الّامن ناحية الجهل باساليب اللّغة العربيّة . ولاادرى كيف يستطيع الكاتب ان يكون كاتباً عربيّاً قبل ان يطّلع على اساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم ومدحهم وهجوهم . ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل ان يعرف كيف كانوا يعاتبون ، ويؤنّبون ، ويعظون ، وينصحون ، ويتغزّلون ، ويستعطفون ، ويسترحمون ، وبأىّ لغة يحاول ان يكتب كتابته ان لم يستعدّ تلك الرّوح العربيّة استمداداً يملأ مابين جوانحه حتّى يتدفّق مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه انى لأَقرء ماكتبه الجاحظ وابن المقفّع والصّاحب والصّابى والهمدانى والخوارزمى وامثالهم من كتّاب العربية الاولى ثمّ اقرأ ماخطّه هؤلاء الكاتبون فى هذه الصحف والأسفار بمايشعر به المنتقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذها مسبلة ستورها الى جوّ يسيل قراً وصراً . ويترقرق ثلجاً وبرداً ، ذلك لانى اقرأ لغة لاهى بالعربية فاغتبط بها . ولاهى

بالعاميّة فاتفكّه باحماضها ومجونها .

عمرو بن سنان الاهتم التميمي المنقرى لقّب بالاهتم لانه هتمت ثنيته يوم الكلاب وعمرو من اكابر سادات بنى تميم وشعرائهم وخطبائهم فى الجاهليّة والاسلام وهو بليغ القول طلق العبادة وكان يسمّى المكحل لجماله . وفد على رسول الله ﷺ هو والزبرقان بن بدر فأسلما وكان رسول الله يكرمهما فسأل يوماً عمرواً عن الزبرقان بحضوره فقال مطاع فى ناديه شديد العارضة فى قومه مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان يارسول الله انه ليعلم منّى اكثر ممّا قال ولكنّه حسدنى فقال عمرو اما والله لئن علمت ماقد علمت فانه زمن المروة احمق الأب لئيم الخال ضيّق العطن حديث الغنى ، فرأى تغيّر النبى ﷺ لما اختلف قوله ، فقال يارسول الله لاتغضب ، لمّا رضيت قلت أحسن ماعلمت ولمّا غضبت قلت اقبح ماعلمت فوالله ما كذبت فى الاولى ولقد صدقت فى الثانية فقال ﷺ انّ من البيان لسحراً

واختلف فى معنى الحديث ، فقال قوم اريد به المدح فان البيان الفهم وانما سمى سحراً لحدّة عمله وسرعة قبول القلب له والتعجب منه كما يتعجّب من السّحر وقد اتّفق النّاس على ان تصوير الحق فى صورة الباطل والباطل فى صورة الحق من اعلى درجات البلاغة ، وقال قوم اريد به الذمّ لانّ السحر تمويه والبيان كثرة الكلام والنفاق واحتجّوا بقوله ﷺ الحياء والعىّ شعبتان من الايمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النّفاق والأوّل اصحّ ، وانما سمى البيان هنا نفاقاً اذ كان من البذاء فالحاصل انّ الاديب

بما أوتى من القدرة على البيان يستطيع ان يذكر لمخاطبه اقبح الاشياءِ
الّتى يستهجن ذكرها بعبارات مستملحة وان يصوّر القبيح حسناً والحسن
قبيحاً وان يذمّ لك شيئاً ويمدحه فى وقت واحد من دون ان يرتكب فى كلامه
كذباً ويبتعد عن كلّ معيب فى كلامه بأن يتصرّف فى البيان تصرّفاً
تستحسنه الاسماع وتقبله الطباع . كما مرّ آنفاً فى قصّة عمرو بن الاهتم
فالمنطيق البليغ من يحرّك الكلام على حسب الأَمانى ويخيط الالفاظ على
قدر المعانى والكلام البليغ كلاماً كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً .

وقال الفخر الرازى فى حدّ البلاغة انها بلوغ الرجل بعبارته كنه
مايقول فى قلبه مع الاحتراز عن الايجاز المخلّ والتطويل المملّ وقال
فيلسوف كما ان الآنية تمتحن باطنانها فيعرف صحيحها ومكسورها
فكذلك الانسان يعرف حاله بمنطقه ، وقيل البلاغة مارضيته الخاصّة
وفهمته العامّة . فالبلاغة صفة البليغ والفصاحة صفة الفصيح .

لن تقوم امة الّا بالكلام البليغ المملوء حكمة وصوراً جميلة من
المعانى البديعة ان نقش صور العجائب السماويّة والارضيّة وانارة
العقول بفهم الجمال فى اكناف العوالم احياءً لها وإخصاباً لمزارعها وإنماءً
لما أجنت من الفضيلة والحكمة . إن الأمم توابع لما يسمعون وهم ابناء
مايعطون إلّا ان الجمال فى الانشاء واختيار أحاسن القول والتطواف بالقارى
فى الانوار والظلمات والنجوم والبرّ والسهل والجبل وايرائه دقائق
الاشجار وبدائع الازهار واعاجيب الثمار وتلألأ الانوار وبهجة الاصباغ

ان ذلك لمحيي نفسه وشائق روحه الى التطّلع الى درجات المعانى فيرى الفضيلة خير مايبتغى ويحيط علماً بأمّته ويتعالى عن السفاسف ويتهيّأ للحكمة ولقيادة الأفكار فى القرى والامصار فأكثر المتعلّمين اليوم يتذوّقون البلاغة . ولذلك لايرضيهم من المؤلف والكاتب والخطيب ان يكتب وينشى موضوعه كيفما أتّفق . بل يرغبون اليه ان يصوغه فى قالب مقبول ويعرض عليهم زبدة ممّا مخض ومحّص وحقّق ، إنّ بعض الكتب لم يكتب لها القبول كما ان بعض الخطب لم يقَعْ فى النفوس لأَن الكاتب والقائل لم يرزقا من نعمة البيان مايؤهّلهما للاستحسان عند العارفين .

ان العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع الّتى تلتزمُها وتتكلّف استمرارها فان المعانى اقوى عندها واكرم عليها وافخم قدراً فى نفوسها فاوّل ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً الى اظهار اغراضها ومراميها اصلحوها وبالغوا فى تحبيرها ليكون ذلك اوقع لها فى السمع واذهب بها فى الدلالة على القصد ألا ترى ان المثل اذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه فحفظه فاذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس به النفس ولا اَنِقت لمستمعِه واذا كان لم تحفظه لم تطالب انفسها باستعمال ما وضع له وجئ به من اجله ربّ قول اشدّ من صول

ان قرشيّاً سأل خالد بن صفوان بن الاهتم التميمى عن اسمه فانتسب له فقال القرشى ان اسمك لكذب ما أحد فى الدنيا بخالد وان

أباك لحجر بعيد من الرشح، وان جدّك لأهتم والصحيح خير من الأهتم فقال له خالد: قد سألت فاجبتك فمن أَنت، قال من قريش: قال من ايّ قريش أنت قال من بنى عبد الدار، قال خالد لم تصنع شيئاً يا اخا عبد الدار فمثلك يشتم تميماً فى عزّها وشرفها وقد هشمتك هاشم وامتك أمية وجمحت بك جمح ورضخت رأسك فهر وخزمت انفك مخزوم ولوت بك لؤى وغلبتك غالب . ونفتك مناف . وزهرت عليك زهرة، واقصتك قصّى فجعلتك عبددارها ومنتهى عارها تفتح اذا دخلوا وتغلق اذا خرجوا فخرّ الرجل ميّتاً من شدّة الغيظ فكانت امرأته تنادى فى ازقّة البصرة صارخة خالد، قتل بعلى بلسانه وادّعى اهله على خالد بديته لانه مات بسبب كلامه.

دخل شريك بن الاعور على معاوية وكان دميماً فقال له معاوية انك لدميم والجميل خير من الدميم ، وانك لشريك ومالله شريك وان اباك الأَعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك : فقال له انك لمعاوية فما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت الكلاب وانك لابن صخر والسهل خير من الصّخر، وانك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وانّك لابن امّية وما امّية الا أمة فصغّرت فكيف صرت اميراً، ثمّ خرج من عنده وهو يقول: أيشتمنى معاوية بن حرب وسيفى صارم ومعى لسانى
وحولى من بنى عمى ليوث ضراغمة تهّش الى الطعان

كان القاضى ابوبكر المعروف بابن قريعة البغدادى من عجائب الدنيا فى سرعة الجواب حكى ان عضد الدولة أراد ان يبعث رسولاً الى الرّوم وقال

ان النصارى يسألون ويناظرون فمن يصلح ؟ قالوا اليس لهم مثل القاضى ابى بكر، فانه يناظرهم ويغلبهم فى كلّ مايقولونه . فبعثه الى قيصر الرّوم . فلما اراد الدخول عليه علم الرومى انه لايخدم كما هى عادة الرسل . فاتّخذ الباب الّذى يدخل منه الى قيصر باباً قصيراً ، من أراد دخوله ينحنى . فلمّا وصل القاضى الى ذلك عرف الحال فأدار ظهره الى الباب . ودخل راكعاً ظهره الى الباب فتعجّب قيصر من فطنتنه ووقع فى نفسه هيبته .

فلمّا ادّى الرّسالة رأى عنده بعض الرهابين فقال له القاضى مستهزئاً : كيف انت وكيف الاولاد فقال له قيصر . انك لسان الأمّة ومقدّم علماء هذه الملّة : أمّا علمت ان هؤلاء متنزّهون عن الأهل والولد ؟ فقال القاضى : إنكم لاتنزهّون الله عن الاهل والولد وتنزّهون هؤلاء . فهولاءِ اجلّ عندكم من الله تعالى ! وقال بعض طاغية الرّوم للقاضى : اخبرنى عن زوجة نبيّكم عائشة وماقيل فيها . قال القاضى قيل فى عائشة ماقيل فى حقّ مريم بنت عمران . ، وعائشة ماولدت ومريم ولدت وقد برّأ الله تعالى كلّ واحدة منهما . ولايخفى انّ القاضى ابن القريعة رجل عالم تفرّد فى بلاده بالفضل فكان ذا قريحة نادرة وناهيك عامّياً بل امّيا يجيب عن جميع مايُسأل عنه فى افصح لفظ واملح سجع .

ابوسليمان ايّوب المعروف بابن القرّيّة بكسر قاف وتشديد الراء والياء من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة كان قد

١ـ آثار البلاد قزوينى ص ٣١٣ . ٢ـ ج مواسم الادب ص١٩٢ .

اصابته السنة فقدم عين التمر، وبها عامل للحجاج بن يوسف وكان
يغدّى كلّ يوم ويعشىّ فوقف ابن القرّية ببابه فرأى النّاس يدخلون
فقال أين يدخل هؤلاء ؟ قالوا الى طعام الأمير فدخل فتغدّى وقال أكّل
يوم يصنع الأمير ما أرى فقالوا نعم فكان يأتى كلّ يوم بابه للغداء والعشاء
الى ان ورد كتاب من الحجّاج على العامل وهو عربىّ غريب لايدرى ماهو
فقال ليقرأ لى الامير الكتاب فانا افسرّه وكان خطيباً لسناً بليغاً فذكر
ذلك للعامل فدعا به فلمّا قرأ عليه الكتاب عرف الكلام وفسّره للوالى
حتّى عرف جميع مافيه فقال له أتقدر على الجواب قال لست اقرأ ولا
اكتب ، ولكن احضر كاتبا يكتب ما أمليه فكتب الجواب فلما قرئ على
الحجاج رأى كتاباً غريبا فعلم انه ليس من كلام كتّاب الخراج فدعا
برسائل عامل عين التمر فنظر اليها فاذا هى ليست ككتاب ابن القرّية
فكتب الحجّاج الى الوالى امّا بعد فقد أتانى كتابك بعيداً من جوابك
بمنطق غيرك فاذا نظرت الى كتابى هذا فلاتضعه من يدك حتّى تبعث الىّ
بالرّجل الّذى صدّر لك الكتاب والسّلام، فقرأ العامل الكتاب على ابن
القرّية وقال له تتوجّه نحوه فقال اقلنى ، قال لا بأس عليك وأمر له
بكسوة ونفقة وحمله الى الحجّاج ، فلمّا دخل عليه قال ما اسمك قال ايّوب
قال اسم نبىّ وقال اظنك امياً تحاول البلاغة ، ولا يستصعب عليك المقال
وامر له بنزل ومنزل فلم يزل يزداد به عجبا حتّى اوفده على عبد الملك
وقال الحجّاج لابن القرّيّة ماتقول فى التزويج ؟ قال وجدت اسعد النّاس

فى الدّنيا واقرّهم عيناً واطيبهم عيشاً ، وأبقاهم سروراً وارخاهم بالاً واشبّهم شباباً من رزقه الله زوجة مسلمة امينة عفيفة حسنة لطيفةً نظيفةً مطيعةً ان أئتمنها زوجها وجدها أمينة وان قتر عليها وجدها قانعة وان غاب عنها كانت له حافظة تجد زوجها ابداً ناعماً وجارها سالماً ومملوكها آمناً وصبيّها طاهراً قد ستر حلمها جهلها وزيّن دينها عقلها فتلك كالرّيحانة والنخلة لمن يجتنيها وكاللؤلؤة الّتى لم تثقب والمسكة الّتى لم تفتق قوّامة صوّامة ضاحكة بسّامة ان أيسرت شكرت وان اعسرت صبرت فافلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه . وانما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجرّه فى الأرض جرّاً فبعلها مشغول وجارها متبول وصبيّها مرذول وقطّها مهزول ، قال : يابن القرية قم الآن فاخطب لى هنداً بنت اسماء ولاتزد على ثلاث كلمات : فأتاهم فقال جئت من عند من تعلمون والأمير يعطيكم ماتسألون أفتنكحون أم تدعون ؟ قالوا انكحنا وغنمنا فرجع الى الحجّاج فقال : اصلح الله الامير صلاح من رضى عمله ، ومدّ فى الخيرات أجله وبلغ به امله جمع الله شملك وادام طولك وأقرّ عينك ووقاك حينك ، واعلى كعبك ، وذلّل صعبك ، وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات والتيسير والبركة وأسعد السعود وايمن الجدود وجعلها الله ودوداً ولوداً وجمع بينكما على الخير والبركة . فتزوّجها الحجّاج ثمّ انه دخل ذات يوم عليها وهى تقول :

وما هنــدُ إلا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّــةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ سَليلةُ أفراس تَجلَّلها بَغْلُ

فإن نُتِجَتْ مُهْراً كريماً فبالحرى   وإن يكُ إقرافٌ فما أنجبَ الفَحلُ

فخرج من عندها مغضباً ودعا ابن القريّة فدفع اليه مائة الف درهم وقال ادخل على هند وطلّقها عنّى ولا تزد على كلمتين وادفع اليها المال، فحمل ابن القريّة المال ودخل عليها . فقال ان الاميريقول كنت فبنت . وهذه المأة الف صداقك ، فقالت يابن القريّة ماسررت به اذ كان ، ولاجزعت عليه اذ بان . وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به، فكان القول اشدّ على الحجّاج من فراقها ، انتهى مافى المحاسن والأضداد .

ولمّا خلع عبدالرّحمن بن محمّد الاشعث بن قيس الكندى الطاعة بسجستان وهى واقعة مشهوره بعثه الحجّاج اليه رسولاً فلما دخل عليه قال لتقومنّ خطيباً ولتخلعنّ عبدالملك ولتسبنّ الحجّاج اولأضربنّ عنقك قال أيّها الأمير انّما أنارسول . قال هو مااقول لك. فقام وخطب وخلع عبد الملك وشتم الحجّاج واقام هنالك فلمّا انصرف ابن الاشعث مهزوماً كتب الحجّاج الى عمّاله بالرّى وأصبهان ومايليهما يأمرهم ان لايمرّ بهم احد من قبل ابن الاشعث الّا بعثوا به اسيراً اليه. فاخذ ابن القريّة فيمن اخذ . فلما دخل عليه قال اخبرنى عما اسألك عنه قال سلنى عما شئت قال: اخبرنى عن اهل العراق قال: اعلم النّاس بحقّ وباطل ، قال: فاهل الحجاز قال اسرع النّاس فتنة واعجزهم فيها . قال فأهل الشام . قال اطوع النّاس لخلفائهم قال فأهل مصر. قال عبيد من غلب . قال فأهل البحرين . قال: نبط استعربوا قال فأهل عمّان. قال عرب استنبطوا . قال فأهل الموصل. قال اشجع فرسانا

وأقتل للاقران. قال فاهل اليمن . قال اهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة
قال فأَهل اليمامة. قال أهل جفاء واختلاف أهواء وصبر عند اللقاء . قال
فأَهل فارس ، قال أهل بأس شديد وشرّ عتيد ، وريف كبير وقرى يسير
قال فأخبرنى عن العرب . قال سلنى قال قريش: قال أعظمها أحلاما وأكرمها
مقاماً قال فبنو عامر بن صعصعة قال أطولها رماحاً وأكرمها صباحاً . قال
فبنو سليم. قال أعظمها مجالس وأكرمها محابس .قال فثقيف . قال أكرمها
جدوداً وأكثرها وفوداً . قال فبنو زبيد. قال ألزمها للرايات وأدركها للثّارات
قال فقضاعة . قال اعظمها اخطاراً واكرمها نجاراً وابعدها آثاراً . قال
فالانصار. قال أثبتها مقاماً وأحسنها اسلاماً وأكرمها ايّاماً. قال فتميم. قال
أظهرها جلداً وأكثرها عدداً قال فبكر بن وائل قال أثبتها صفوفا وأحدّها
سيوفاً .قال فعبد القيس .قال أسبقها الى الغايات وأصبرها تحت الرايات
قال فبنو أسد. قال أهل عدد وجلد وعسر ونكد. قال: فلخم. قال ملوك وفيهم
نوك قال فجذام. قال يوقدون الحرب ثمّ يسعرونها ثمّ يلقحونها ثمّ يمرون
قال: فبنو الحارث. وقال رعاة للقديم. حماة عن الحريم. قال فعك قال ليوث
جاهدة فى قلوب فاسدة . قال فتغلب . قال يصدقون اذا لقوا ضرباً
ويسعرون الى الاعداء حرباً. قال فغسّان قال اكرم العرب احسابا واثبتها انساباً
قال فاىّ العرب فى الجاهلية امنع من أن تضام .قال قريش كانوا أهل رهوة
لا يستطاع ارتقاؤها وهضبة لا يرام انتزاؤها فى بلدة حمى الله ذمارها ومنع
جارها. قال فاخبرنى عن مآثر العرب فى الجاهلية .قال كانت العرب تقول

حمير . ارباب الملك وكندة . كتّاب الملوك . ومذحج اهل الطعان . وهمدان
احلاس الخيل والأزد آساد النّاس قال فاخبرنى عن الأرضين . قال سلنى
قال الهند . قال بحرها در وجبالها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر واهلها طغام
كقطع الحمام . قال . فخراسان . قال ماؤها جامد وعدوّها جاحد . قال . فعمّان
قال . حرّها شديد وصيدها عتيد . قال : فالبحرين . قال كناسة بين المصرين
قال . فاليمن قال : أصل العرب وأهل البيوت والحسب . قال فمكّة . قال
أهلها علماء جفاة ونساؤها كساة عراة قال فالمدينة . قال : رسخ العلم فيها . وظهر
اى انتشر منها فى الآفاق . قال فالبصرة . قال شتاؤها جليد وحرّها شديد
وماؤها ملح وحربها صلح . قال فالكوفة . قال ارتفعت عن حرّ البحرين
وسفلت عن برد الشام فطاب ليلها وكثر خيرها . قال فواسط . قال : جنة
بين حمأة وكنّة . قال وما حمأتها وكنتها قال البصرة والكوفة يحسدانها
وماضرها ودجلة والفرات يتجاريان بافاضة الخير عليها . قال فالشام
قال عروس بين نسوة جلوس . قال ثكلتك امك يا ابن القرّيّة لولا اتباعك
لاهل العراق وقد كنت أنهاك عنهم ان تتبعهم فتأخذ من نفاقهم ثمّ دعا
بالسيف واومأ الى السيّاف ان امسك قال ابن القرّيّة . ثلاث كلمات
اصلح الله الأمير كأنهن ركب وقوف يكن مثلا بعدى قال هات . قال لكلّ
جواد كبوة ، ولكلّ صارم نبوة ، ولكلّ حليم هفوة ، قال الحجّاج ليس
هذا وقت المزاح يا غلام أوجب جرحه ، فضرب عنقه هذا ما نقله ابن خلّكان
وقيل انه لمّا اراد قتله . قال له : العرب تزعم ان لكلّ شيء آفة . قال

صدقت العرب ايّها الأمير قال فما آفة الحلم ؟ قال الغضب . قال فما آفة العقل؟ قال العجب قال فما آفة العلم؟ قال النسيان قال فما آفة السخاء؟ قال المنّ عند البلاءِ . قال فما آفة الكرام . قال مجاورة اللئام .قال فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى . قال فما آفة العبادة . قال الفترة . قال فما آفة الذهن قال حديث النفس قال فما آفة الحديث ؟ قال الكذب . قال فما آفة المال ؟ قال سوء التدبير . قال فما آفة الكامل من الرّجال؟ قال العدم . قال فما آفة الحجّاج بن يوسف قال اصلح الله الأمير لا آفة لمن كرم حسبه وطاب نسبه وزكى فرعه قال امتلأت شقاقاً وأظهرت نفاقاً اضربوا عنقه . فلما رآه قتيلاً ندم .

وسأله بعض العلماء عن حدّ الدهاء فقال هو تجرّع الغصّة وتوقّع الفرصة ،ومن كلامه فى صفة العىّ التنحنح من غير داء والتثاؤب من غير ريبة والاكباب الى الارض من غير علة .

لما هزم المهلّب بن ابى صفرة عبد ربّه الحرورى قال هل من رجل حازم أبعث به الى الحجّاج مع رؤوس هؤلاء القوم فدلّ على بشير بن مالك الخَرَشى فوجّهه الى الحجّاج فلما دخل عليه قال له الحجّاج : ما اسمك قال بشير بن مالك فقال الحجّاج بشارة وملك ، كيف تركت المهلّب؟ قال تركته اصلح الله الأمير – قد أدرك ماطلب وامن ماخاف .

قال الحمد لله على ذلك ، فكيف تركت العدوّ ؟ قال كانت له الدولة ولنا العاقبة فقال الحجّاج : العاقبة للمتقين : فكيف تركت الجُند ؟

قال ارضاهم الحق واغناهم النّفَل وانّه مع ذلك ليسوسهم سياسة الملوك .
ويقاتل عنهم قتال الصعلوك ، قال : فكيف ابناء المهلّب ؟ قال اعباء البيات
حتّى يأمنوه واصحاب السرح حتّى يروّحوه قال فايهم افضل ؟ قال ذاك
الى ابيهم ، قال : وانت فقل : فانّى اراك عاقلاً . قال . هم كالحلقة المفرغة
لايدرى اين طرفها ، فقال الحجاج ، أكنت اعددت ماسمعتُ فقال لايعلم
الغيب الّاالله ، فالتفت الحجّاج الى جلسائه فقال هذا والله الكلام
الخالص لاالكلام المصنوع .

اللسان والقلم رسولا القلب الى النّاس اوهما جدولان صافيان
تنعكس عليهما صورة النّفس وماحواليها من الصّفات . وان شئت فقل
هما سلك كهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم او يكتب لهم . تنقل عنه
رسالة اخلاقه حرفا بلازيادة ولانقصان . والفضائل والرّذائل كامنة
فى الاشخاص لايورى زنادها الّا الاقوال والافعال .

فالمتكلّم والكاتب تظهر اخلاقهما جليّاً فيما يقولانه او يخطّانه وان
حاولا اخفاءها ، لان الطبع غالب والتطبع سمل بال قليل الستر وان وارى
شيئاً تظهر منه اشياء والفكرة وان جانبها الاتزال تحوم حواليك وترفرف
الى ان تجد لها مقرّا تستقرّ فيه من الجولان والاضطراب . والواجب على
كلّ انسان ان يستخرج من نفسه خير مافيها ويظهرها للملأ واذا تمكّنت
من معرفة حروف الهجاء ومن معرفة نفسك فقد امكنك كلّ شىء . ليس

الثانى بالسهل ولا الأوّل . وكم ينسى الكبار صعوبة تعلّم الالف باء[١] ... الّا انها تتعلّم مرّة فى الحياة وكلّنا تضلّعنا منها منذ الصغر ، اما التمكّن من النفس فيقتضى له مراقبة وسهر دائمان . وكلّ واحد يمكنه تحقيق هذه الامنيّة فيتغلّب على نفسه اذا هو قصد واراد . ومن كان لايستطيع التسوّد على نفسه فانى له ان يتطلّب السؤود على الآخرين وامّا سيّد نفسه واميرها فلايلبث ان يبيت سيّداً لما سواها ولقد يتعذر انيكون الجميع ساسة محنّكين اوفنّيين حاذقين اوفلاسفة دهاقين . ولكن الألزم والأهم والأولى . انكون فى عدادالاخيار الصّالحين وذلك لنا ان نختره فلنختره ونتوخّه غاية هى غاية الغايات حسن حالنا وسوءها متوقّفان علينا فالتسلّط على نفسك خير من الحكم على الآخرين والتسلّط عليهم وعدم الاذعان لاحد خير من الأمرة على كلّ احد .

---

١ ــ المشهور ان الحروف الهجائيّة ثمانية وعشرون بحذف الّلام الف قال بعض اهل الادب من العرب ان الاسم ثمانية وعشرون والمسمى تسعة وعشرون لأنّ الألف اسم له وللهمزة والفرق بينهما ان الالف ساكن والهمزة متحرّكة فالحرف الأوّل هى الهمزة لاالالف والابتداء بالساكن محال فلابدّ من التركيب مع احد الحروف الاخر فاختاروا الّلام لتعليم الأطفال كلمة لاإله الاالله انتهى ملخصاً من مقامع لآقا محمدعلى كرمانشاهى.

٢ ــ ماتت بنت ابن سكرة فى بغداد فامر هرون ان لايصلّى عليها الّا عبدالله بن الحجّاج وكان بن سكرّة كثير العداوة لعلى وفاطمة عليهما السّلام حتى هجاهما واكثر فى هجوهما فلما جاء للصلوة عليها وقف عليها وقال اصلّى على هذه الميتة والعنها والعن جدها واباها وامها واختها واخاها ومن احبّها وتولاها قربة الى الله الله اكبر

البقية تأتى

وقال احمد شوقى فى فضل البيان رحيق النَبيّين و ابريق العبقريّين وحظّ المزروقين ونصيب الموفّقين وذكرى الجمال وذرى الكمال والتوفيق الّذى لاينال بسلطان ولامال والجلد الّذى يوخذ باليمين وغيره يؤخذ بالشمال . صديق البشريّة وعدوّ الجبريّة حادى الانسانية السائق بالمطيّة حتّى تبلغ الطية . يمرّ، بها على الخير وربوعه . والبرّ وينبوعه ويقبل بها على الحق وقبيله ويعد، لها الى العدل وسبيله . ويلمّ، بها على الجمال ومعناه وعرف لفظه تحت حور معناه ويلج بها على العواطف . حنايا الظلوع اللواطف وهو الملك على كلّ اللغات . قد انتظم سلطانه اقطار البلاغات اذا انتقل من لسان الى لسان . فى امانة من الناقل وإحسان اسرع فى مضاهاته وتمكّن فى جهاته . تمكن اللفظ من لهاته فكانّه التغريد أو البغام . او منطق الانغام ترجع له الامم . وان ذهبت كلّ امة بكلام .

رايت اكثر الكاتبين فى هذا العصر بين اثنين : اما رجل يستمد

مسبّلة الفرجين غير عفيفة لها بين لحم الركبتى نخير : الله اكبر
ولو هبّت الارياح من نحو قبرها سحيلا تعفّنت الصبا ودبور. الله اكبر
ولو فتشّوا بين المقابر قبرها لما وجدت الاخصى وايور. الله اكبر

ثمّ قال اللهم ان هذه الملعونة امتك بنت امتك اكلت نعمتك وجحدت ربوبيتك وسبّت أئمتك اللهم العنها لعنا وبيلا وحاسبها حسابا جليلا دقيقا ادق من شعراستها واحشرها بين خصى فرعون وهامان فى اسفل درك الجحيم واعطها منها اوسع من فرجها : هكذا فلتكن الصّلوة عليها .

روح كتابته من مطالعة الصحف ومايشا كلها فى اساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة . وربما كان كتّاب تلك المخطوطات احوج الى الاستمداد من قارئيها فاذا هزل فى موضع الجد، وجدّ فى موضع الهزل، واسهاب فى مكان الايجاز ، وايجاز فى مكان الاسهاب ، وجهل يفرق مابين العتاب والتأنيب والانتقام والتأديب . والاستعطاف والاستخفاف. وقصور عن ادراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء والجهّال والعلماء حتّى ان الكاتب ليقيم فى الشوكة يشاكها ، مناحة لايقيمها فى الفاجعة يفجع بها . ويكتب فى الحوادث الصغار . مايكبر ان يكتب مثله فى الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بمايخاطب به عدوّه ويناجى أجيره ، بمثل مايناجى به اميره . وإمّا طالب قصارى ماياخذه ، عن استاذه نحو اللّغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسمها وإملائها ومفرداتها ومتونها ومؤتلفاتها وامثال ذلك من آلاتها وادواتها . أمّا روحها وجوهرها ، فان اكثر اساتذة البيان علماء غير ادباء . وحاجة طالب الادب الى استاذ يفيض عليه روح البيان واللّغة ويوحى له سرها ويفضى اليه بلبها وجوهرها ، اكثر من حاجته الى استاذ يعلّمه وسائلها وآلاتها وعندى انه لافرق بين استاذ الاخلاق واستاذ البيان .

فكما ان طالب الاخلاق لايستفيدها الّا من استاذ كملت اخلاقه وحسنت آدابه كذلك طالب البيان لايستفيده الا من استاذ مبين

وكل يدّعى وصلاً بليلى وليلى لاتقر لهم بذاكا

انى لا ارى لك يا طالب البيان العربى سبيلاً اليه الّا مزاولة المنشآت العربيّة منثورها ومنظومها والوقوف بها وقوف المتثبّت المتفهّم لاوقوف المتنزّه المتفرّج ، فاذا رايت انك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف اليها . وأن قد لذّ لك مايلذّ للعاشق والمحبّ الصادق

ولايزال بيننا ادباء وعلماء بالبلاغة ووجوه الكلام ، يعجبون كيف لايتهيّأ لاحدهم اسلوب كأسلوب ابن المقفّع اوعبدالحميد او الجاحظ على كثرة ماحاولوا تقليده والاخذ فى ناحيته ولايدرون انّ تركيب الكلام يتبع تركيب المزاج الانسانى وما الكلام الا صورة فكريّة من صاحبه وقد امعنّا فى هذا الاستنتاج حتى صار لنا ان نعلم اكثر اوصاف الكاتب من اسلوب كتابته كما يحكم علم الكف كلما أنعم النظر فى خطوط اليد يقول قاسم امين اذا قرأت الجرايد تجدها جميعها متّحده فى موضوعها متشابهة فى تحريرها بحيث لاتكاد تشعر باختلاف بين احداها والاخرى . ولا تجد فيها مايدهشك ويجذبك ولا أقلّ يعجبك واذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلاً من معارفك ، تسمع من التسعة عشر ماسمعته من الأوّل . ولا تجد فى الجريدة الّتى تقرؤها او تسمع من الصّاحب الّذى تقابله فكرة جديدة او تعبيراً جديراً بالتقدير وتقريراً مبتكراً او اسلوباً مبتدعاً هناك عدّة طرق للتعبير عن فكرة أحسنها ان نؤلّف بين العواطف وبين البئية

والعوامل الّتى تدعو اليها فى جميع مناحى الحياة وندرس طباع النّاس واخلاقهم ونفحص ميولهم ورغباتهم حتّى نعرف مواطن الضعف فيهم واسباب غرورهم وسرعة استهوائهم ، قد اتفق لكاتب هذه السطوران أبصرفى عصر احد الأيّام فى بيروت ، ولدين من ماسحى الأحذية يدعوان المارّة لمسح أحذيتهم . فكان أحدهم كلّما مرّ به عابر سبيل يدعوه قائلا ألايمسح آقاتى حذاءه ؟ أمّا الآخر فكان يخاطب العابرين بقوله ، امسحوا احذيتكم فغداً يوم التعطيل ، يوم الاحد ، يريد بذلك ان ينبّههم الى انه لن يجد من يمسح له حذاءه ولاحاجة الى القول بأن الثانى كان أكثر توفيقاً لأنّه يقابلهم بحسن التعبير وقوّة التفكير .

فهاك ماحدث بفرنسا قبل القرن العشرين . ذلك انهم اعلنوا ان تحضر الفتيات عاريات فى المراسِح ليطلع النّاس على الجمال بلا لباس فأعلن أحد علمائهم ان يلقى خطبة فى ذلك الامر واستقباحه فلمّا حضر واجتمع القوم رموه بالطماطم حتّى صارت ثيابه ملوّثة بلون الطماطم فلم يزد على أن قال ماكنت اعلم ان هذا يوم الكرنفال (معناه يوم يلبس الناس فيه الملابس المضحكة لمجرّد الفكاهة) فضحك القوم وانصتوا للخطبة فقصّ عليهم تاريخ الرومان قائلاً .

ان الرومان فى اواخر ايّامهم قد تمادى النّساء فى غوايتهن حتّى وقفت فتاة فى الشّارع و خطبت على عربه . وقالت والله لانرجع عن الزينة

والزخرف حتّى تكون عرباتنا من ذهب وتصبح المالية وقفاً على تفنّنا فى الخلاعة والزّينة وزاد الفجور والفسوق فانحلت تلك المدنية وذهبت فلما سمعه القوم اعرضوا عمّا عزموا عليه ومنعوا حضور النساء عاريات وذلك لأن الخطيب ذكرهم بذهاب مجدهم وانحلال ملكهم[1].

جاء فى كتب الرجال والتاريخ[2] عن معاذ بن مطر قال سمعت اسماعيل بن الفضل الهاشمى قال حدثنى بعض اشياخى. قال لمّا هزم على بن ابيطالب عليه السلام اصحاب الجمل بعث امير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عبّاس ره الى عائشة يأمرها بتعجيل الرحيل وقلّة العرجة، قال ابن عبّاس فأتيتها وهى فى قصر بنى حلف فى جانب البصرة قال. فطلبت الإذن عليها فلم تأذن، فدخلت عليها من غير اذنها فاذا بيت قفار، لم يعد لى فيه مجلس، فاذا هى من وراء سترين قال، فضربت ببصرى فاذا فى جانب البيت رحل طنفسة. قال فمددت الطنفسة فجلست عليها. فقالت من وراء الستر أخطأت السنة، دخلت بيتنا بغير اذننا، وجلست على متاعنا بغير اذننا، فقال لها ابن عبّاس نحن اولى بالسنة منك ونحن علمناك السّنة وانما بيتك الّذى خلّفك فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرجت منه ظالمة لنفسك غاشية لدينك عاتبة على ربّك عاصية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاذا رجعت الى بيتك لم ندخله الّا باذنك، ولم نجلس على متاعك الّا بامرك. ان أمير المؤمنين على بن ابيطالب عليه السلام بعث اليك يامرك بالرحيل الى المدينة وقلّة العرجة فقالت. رحم الله أمير المؤمنين

---

١ ـ تلخيص. ٢ ـ رجال ممقانى وشرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد

ذلك عمر بن الخطّاب . فقال ابن عبّاس . هذا والله أمير المؤمنين ولن تربدت[١] فيه وجوه ورغمت فيه معاطس . اما والله لهو أمير المؤمنين وامسّ برسول الله ﷺ رحماً وأقرب قرابة واقدم سبقاً وأكثر علماً واعلى مناراً واكثر اثاراً من ابيك ومن عمر. فقالت ابيت ذلك ، فقال اما والله ان كان إباؤك[٢] فيه لقصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشوم بيّن النكد مبين المنكر وما كان إباؤك فيه الاحلب شاة حتّى صرت ماتامرين ولاتنهين ولاترفعين ولا تضعين وما مثلك الّا كمثل ابن الحضرمى بن نجمان اخى بنى اسد حيث يقول :

ما زال اهداء القصائد بيننا شتم الصديق[٣] وكثرة الالقاب
حتّى تركتهم كأنّ قلوبهم فى كلّ مجمعة طنين ذباب

قال: فاراقت دمعتها وابدت عويلها وتبدى نشيجها، ثمّ قالت اخرج والله عنكم فما فى الأرض بلد أبغض الىّ من بلد تكونون فيه . فقال: ابن عبّاس فوالله ماذا بلاؤنا عندك ولا بصنيعنا اليك انا جعلناك للمؤمنين امّا . وانت بنت امّ رومان. وجعلنا اباك صدّيقا وهو ابن ابى قحافة، فقالت يابن عبّاس تمنّون علىّ برسول الله ﷺ فقال ولم لانمنّ بملك بمن لوكان منك قلامة منه مننت به ونحن لحمه ودمه ومنه واليه وما انت الّا حشية

---

١ ـ تربت . ٢ ـ اى امتناعك عن الرحيل وفى شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد . أما والله ماكان اباك الّا قصير المدة الى ان قال وماعسى ان يكون اباك ماكان والله امرك الّا كحلب شاة . ٣ ـ بث الحديث خ ل .

من تسع حشايا خلّفهن بعده. لست بابيضهنّ لوناً ولا باحسنهنّ وجهاً ولا بارشحهنّ عرقا ولا بانضرهن ورقا ولا باطراهن اصلاً فصرت تأمرين فتطاعين وتدعين فتجابين ومامثلك الا كما قال اخو بنى فهر

منننت على قومى فابدوا عداوة فقلت لهم كفوا العداوة والنكرا
ففيه رضا من مثلكم لصديقه واحجى بكم ان تجمعوا البغى والكفرا

ثمّ نهضت واتيت الى أمير المؤمنين فاخبرته بقولها وقولى فقال عليه السلام كنت اعلم بك حيث بعثتك.

قال ابوالحسن البيهقى فى شرحه لنهج البلاغة ما ظنّك بكلام على بن ابيطالب أمير المؤمنين عليه السلام وهو كلام اذا لحظه الطرف رأى حقائق العلم المكنون واذا تصفّحه الخاطر جنى ثمرات السرّ المخزون حتّى قال عمرو بن بحر الجاحظ، وددت انى اعطيت جميع مصنّفاتى وقطعت انسابها عنّى، واخذت بدلها ثلاث كلمات منسوبة الى على بن ابيطالب عليه السلام وصارت منسوبة الىّ - ومن عجب الجاحظ بتصانيفه انه قيل له هل لك ضيعة بالبصرة فقال وماحاجتى الى الضيعة، وقد خرجت من البصرة ومعى غلام وحمار فحسب، فاهديت كتاب البيان والتبيين، الى ابن ابى داود فاعطانى خمسة الف دينار، واهديت كتاب طبائع الحيوان، الى ابرهيم بن العبّاس الصولى فاعطانى خمسة الف دينار، فانصرفت الى البصرة ومعى ضيعة لاخراج عليها ولا مؤونة فمن كان حظّه من تصانيفه هذا الحظ اذا اعترف بان ثلاث كلمات لامير المؤمنين عليه السلام تزيد على جميع مصنّفاته

فهل يعترض ريب لمن دونه فى الزينة فى كلماته ومقاماته وخطبه واشاراته وقد جاء فى نهج البلاغة على اسلوب وصنى فى وصف الطاووس والخفّاش ووصف الأرض والملائكة والثّواب والعقاب ماهو فوق كلام المخلوق دون كلام الخالق قال ابو العيناء ان لعلى عليه السلام تسع كلمات فقأن عين البلاغة وقال ابوعبيدة ارتجل على بن ابيطالب عليه السلام تسع كلمات قطعت اطماع البلغاء عن واحدة منها ثلاث فى المناجات وثلاث فى العلم وثلاث فى الأَدب فأمّا الّتى فى المناجات فقوله: الهى كفانى عزّاً ان تكون لى ربّاً وكفانى فخراً ان اكون لك عبداً ، انت لى كما احبّ فوفّقنى لما تحبّ، وامّا الّتى فى العلم فقوله المرء مخبوء تحت لسانه، ماضاع امرؤ عرف قدره وتكلموا تعرفوا وامّا الّتى فى الادب فقوله امنن على من شئت تكن اميره واستغن عمّن شئت تكن نظيره واحتج الى من شئت تكن اسيره . قال ياقوت فى معجم الادباء وافتتح كتابه ففصل الأوّل بفضل الأَدب وقد احسن الابتدا .

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام كفى بالعلم شرفاً انه يدّعيه من لا يحسنه ويفرح اذا نسب اليه من ليس من اهله وكفى بالجهل خمولاً ، انّه يتبرّأُ منه من هو فيه ويغضب اذا نسب اليه .

فنظم بعض المحدّثين ذلك فقال :

كفى شرفاً للعلم دعواه جاهل ... ويفرح ان يدعى اليه وينسب

ويكفى خمولاً بالجهالة إنّنى ... أُراع متى أُنسب اليها واغضب

وقال ﷺ قيمة كل إنسان مايحسن فنظمه شاعر وقال

لايكون الفصيح مثل العَيّ لاولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
قيمة المرء قدر مايحسن المر ء قضاء من الامام عليّ

وقال ﷺ كلّ شيء يعزّ اذا نزُر ماخلا العلم فانه يعزّ اذا غزر .

فالاقتدار على الابانة عن المعانى الكامنة فى النفوس يسمى الفصاحة والبيان المتكلّم يفصح عمّافى ضميره ويبيّنه بكلمات عذبة سلسلة وبعبارات جليّة خفيفة على القلب واللّسان

ان الكلام لفى الفؤاد وإنّما جعل اللّسان على الفؤاد دليلا

١ـ وصف عند الحجّاج رجل بالجهل وكانت له اليه حاجة ، فقال فى نفسه لاختبرنّه . ثم قال له حين دخل اليه :

أعصامياً أنت أم عظامياً يريد أتشرفت أنت بنفسك

ام تفتخر بابائك الذين صاروا عظاماً . فقال الرجل انا عصامىّ وعظامىّ . فقال الحجّاج هذا أفضل الناس وقضى حاجته وزاده ومكث عنده مدّة ثم قاتشه فوجده أجهل الناس فقال له تصدقنى والّا قتلتك ، قال له : قل مابدا لك وأصدقك . قال : كيف اجبتنى بما اجبت لما سالتك عمّا سالتك ؟ قال له : والله لم أعلم . اعصامىّ خير ام عظامىّ . فخشيت أن اقول احدهما فاخطى. فقلت اقول كليهما فان ضرنا احدهما نفعنى الآخر . وكان الحجّاج ظنّ أنّه اراد افتخر بنفسى لفضلى و بآبائى لشرفهم . فقال الحجّاج عند ذلك : المقادير تصير العىّ خطيباً فذهبت مثلاً .

عن مجمع الامثال حرف النون نفس عصام سودت عصاما .

الشعر والادب

للشعر اثر معتبر فى نهوض الامم وبعث الهمم ولفحول الشعراء فى كلّ امة سلطنة على القلوب حكومة على الشعوب وورود حيث ارادوا، يتصرّفون فى الوجدان كما شاؤوا وماينفقون فى هذا السبيل الا جواهر الفاظ ينظمونها فى اسلاك من المعانى فيصيغون منها عقوداً تتطاول اليها الاعناق وتتجمّل بزينتها الثمينة فى جميع الآفاق.

ومرتبة الشعراء فوق مراتب الفاتحين لانّهم يحرّكون همة القائد فيقتحم الاخطار ويفوز بفوز الانتصار فالتاريخ لم يهمل ما كان للشعر والشاعر من الاثر المحمود فى الانقلابات السياسية والترقّيات الاساسية والتأْثير المحسوس فى سائر فروع العلم والمصالح العمومية وانتشال الامم من وهدة السقوط والاضمحلال والارتفاع بها الى الوحدة ومنها الى المنعة والاستقلال هكذا كانت مرتبة الشعر والشاعر عند الامة العربيّة الّتى نبغ فيها من الفحول من لم تزل اسماؤهم مشهورة وكلماتهم مأْثورة وهكذا عاش العرب بحياة شعرائهم وافتخروا بوجودهم.

فلما جاء الاسلام وسطع نوره فى جزيرة العرب ونزل القرآن باسلوبه المعجز ونطق النبي بدقايق الحكم وجوامع الكلم وحفظ الشعر والشاعر مكانه ومقامه لم يتزعزع امام ذلك الانقلاب العظيم بل زاد رسوخه بالتفات نظر صاحب الشريعة اليهما واليك عمل النبي فى بدر مع الاسراءِ من الشعراء اطلق منّا بدون فداء اباعزّة الجمحى الشاعر بعد

ان اخذ عليه عهداً ان لايكون ضداً للمسلمين بشعره ولم يأخذ عليه العهد ان لايكون ضدهم بسيفه .

ولاجل الشعر مثل النبي بالنضر بن الحرث الشاعر الّذى تغالى فى عداوة المسلمين وافحش فى هجائهم وابى ان يقبل منه الفداء اويمنحه العفو .

ولما بلغه بعد سبق السيف العذل شعر اخته قتيلة بنت الحرث قال عليه الصّلوة والسّلام لو سمعته من قبل لعفوت عنه ومن شعر قتيله بنت الحرث قولها بعد مقتل اخيها .

يا راكبا ان الاثيل مظنة	من صبح خامسة وانت موفق
ابلغ بها ميتا بان تحية	ماان تزال بها النجايب تخفق
منى اليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها واخرى تخنق
هل يسمعن النضران ناديته	او كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنئ كريمة	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرّك لو مننت وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

ولاجل الشعر عفا النبيّ ﷺ على كعب بن زهير بعد ان اهدر دمه واجازه ببردته الشريفة لمّا انشده

بانت سُعاد فقلبى اليوم متبول	مُتيَّم إثرَها لم يُفدَ مَكْبول
وقال كل خليل كنت آمله	لا أُلهينّك انى عنك مشغول
فقلت خلّوا سبيلى (لاابا لكم	فكلّ ما قدر الرّحمن مفعول
كلّ ابن انثى وان طالت سلامته	يوما على آلة حدباءَ محمول

أُنبئت أنّ رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأْمول
ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
مهلا! هداك الّذى اعطاك نافلة ال قرآن فيها مواعيظ و تفصيل
لاتأخذنّى بأقوال الوُشاة و لم أُذنب ولو كثرت فىَّ الاقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به يرى ويسمع ما قد اسمع الفيل
لظلّ يرعد الّا ان يكون له من الرّسول باذن الله تنويل
ما زلت اقتطع البيداء مُدَّرعا جُنح الظلام وثوب الليل مسدول
حتّى وضعت يمينى ما أنازعها فى كفّ ذى نقمات قيله القيل
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا إلّا اغنُّ غضيض الطَّرف مكحول
امست سعاد بارض لايبلُّغها إلّا العتاق النجيبات المراسيل
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لايشتكى قصر منها ولاطول
تجلو عوارض ذى ظَلم إذا ابتسمت كأنّه مُنهَلٌ بالرَّاح معلول
شُجّت بذى شَبَمٍ من ماء محنية صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمول

ولاجل الشعر ارسل النبى ﷺ من قتل كعب بن الاشرف اليهودى الطائى لما بلغه من انه حرّض قريشاً ضد المسلمين بشعره وشبب بالنّساء المسلمات ومن شعر كعب فى تحريض قريش وايقاد النار وايقاظ الفتنه قوله:

طحنت رحا بدر لمهلك اهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدو ان الملوك تصرّع
و يقول اقوام اسر بسخطهم ان ابن الاشرف طل كعباً يجزع

صدقوا فليت الارض ساعة قتلوا ظلت تسوخ باهلها وتصدّع

ولاجل الشعر عفت عايشه عن حسّان بن ثابت بعد الافك فاستجلب رضاها بقوله فى دفع مشاركته فى الإفك والاعتذار منها

حصان رزان لا تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فان كنت قد قلت الّذى قد زعمتم فلا رفعت سوطى الىّ اناملى
فان الذى قد قيل ليس بلايط ولكنّه قول امرءٍ بى ماحل

فمنحته عفوا وهى تعلم انه يغالط فى قوله ولكنها تعرف قيمة الشعر والشاعر وهى من المشهورات بكثرة الرواية للشعر خصوصاً شعر لبيد وهى القائلة رحم الله لبيدا حيث قال

ذهب الّذين يعاش فى اكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

ثمّ قالت فلو شاهد زماننا ماذا كان يقول واحدث بيت من الشعر فى نفس الزبرقان بن بدر وهو سيد قومه من التأثير والانفعال مادفعه الى رفع شكواه للخليفة الثانى وذكر له ان الحطيئة هجاهُ ببيت لم يجد قط اشد عليه منه وهو هذا

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسى

فقال عمر ما ارى به من باس ولكن سأبعث الى حسان لينظر، ان كان فيه ماتدعيه من الهجاء. فلما عرض على حسان قال هذا من افحش الهجو. بل سلح عليه، فامر بحبس الحطيئة وقال ياخبيث لأشغلنك عن اعراض المسلمين قيل انه ما كان عمر بالّذى يخفى عليه موضع الهجاء من البيت ولكنه

اراد ان يدعم الحكم بالاستناد على قول شاعر بصير تحرّيا فى السير على العدالة والّا فهو اعرف النّاس بقيمته وابصرهم بجيّده ورديئه وكان يستحسن شعر زهير بن ابى سلمى من اصحاب المعلقات ومن المشهرين بمدح هرم بن سنان ويقال انه دخل ابن هرم بن سنان على عمر فقال له ان زهيرا كان يقول فيكم فيحسن فقال: كذلك كنّا نعطيه فنجزل فقال ذهب ما اعطيتموه وبقى ما اعطاكم. وهذا يدل على ما كان للشعر من الاعتبار انتهى. اقول: هذا توجيه بما لا يرضى صاحبه ومن مدايح زهير فى هرم بن سنان

قوم ابوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الافلاذ ما ولدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم باولهم او مجدهم قعدوا

ويقال ان بيتاً من الشعر دفع الخليفة عمر بن الخطّاب الى مشاطرة عماله فى اموالهم لانه ثار فى نفسه ثائر الشك فى مورد اموال العمّال واثرائهم فاقدم على الانتصاف منهم بالمناصفة فى مكاسبهم مقدار الاصابة فى هذا الاجتهاد بعد ما سمع قول الشاعر

نحج اذا حجوا ونغز اذا غزوا فانى لهم وفر ولسنا بذى وفر

اذا التاجر الهندى جاء بفارة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى

فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون ان شاطرتهم منك بالشطر

والشواهد على ما كان للشعر من الاعتبار فى نظر الأُمّة العربية عموماً وفى اخبار الخلفاء من بنى اميّة وبنى عبّاس ومن عداهم من ملوك العرب خصوصاً نجد ما فوق ذلك وحتى ان ملوك الاعاجم شاركوا اسلافهم من العرب

فى الاحتفال بالشعر واجازة الشعراء وان كانوا ليسوا على درجة فى فهم اللّغة العربية ودقايق الشعر بحيث يتأثّرون ذلك التأثّر الّذى يحرّك الهمم وينبّه الشعور ولكنهم يريدون اكتساب المجد وتخليد الفخر ولا واسطة اضمن لبقاء الذكر من لسان الشاعر.

لماذا كان للشعر هذا التأثير العجيب على النفوس وبماذا امكن للشاعر ان يكتسب هذه القوّة القاهرة الّتى خضعت لها القلوب ودانت لسيطرتها الامم على اختلاف منازعها ومنازلها فهل هذا الشعر الّذى فعل فى الاحساسات ما فعل ينطوى على قوة كامنة خفيت على العلم فعجز عن اكتشافها وامتنع عليه ان يسخرها ويستخدمها فى المصالح العموميّة متى شاء أم هى قوة كامنة فى قريحة الشاعر استبد بتسخيرها على مقتضى مشيّته وارادته. فان كان كذلك فباىّ طريقة توصل الى الحصول على تلك القوّة، ذلك ماجعلنى اشتبه فى حقيقة الشعر ولم يقنعنى ماوضعوه له من الحدود والضوابط لانهم بذلك قد جعلوه علماً يقدر كل احد على الوصول اليه والنبوغ فيه باتقان ضوابطه وقواعده والتخرّج على تمييز جيّده من رديئه ومعرفة مافيه من عيوب فنّيّة ونقايص معنويّة وادراك مااشتمل عليه من لطايف البلاغة ومحاسن البديع. ثمّ انهم لايجدون بداً من الحكم على ان كل كلام منظوم مقفّى وموزون هو شعر مع ان الحسّ يشهد بان هذا التعريف لايخلو من تناقض يجعلنا فى ارتباك، دون ادراك حقيقة الشعر وتصور مصداقه لاننا وجدنا علم العروض والقوافى لاينتج شعراً

فى قريحة من انكب على دراسته واحاط باصوله وفروعه وتجد الشعر يندفع من قرايح لم تتوجه قطّ نحو هذا العروض ولم تلتفت اليها بعين ، ونجد كثيراً من الكلام المقفّى الموزون الجارى على الاساليب العربيّة الصحيحة لايستطيع الماهر فى علم العروض والقوافى ان يعثر فيه على قدح اوخدش مع كونه يشتمل على سخافة يتبرّأ منها الشعر ويابى الوجدان ان يسمع بنسبتها اليه فالشعر نور من الله كالجمال يكادان يكون طبيعة فى الانسان.

ولذلك أجزموا بان الشعر لايتوقف على الوزن والقافية وحكموا بان الشعر شىء آخر يرجون التوفيق الى ادراك حقيقة الشعر ولقد حاول بعض النّبهاء حلّ هذه المشكلة ، قيل للخليل بن احمد واضع فنّ العروض مالك لاتقول الشعر قال الّذى اريده لاأجده والّذى أجده لااريد فهو بهذا التصريح يقول بان الّذى يجده من الشعر هو ما كان مبنيّاً على الوزن والقافية وهو لايريده لانه خال من حقيقة الشعر وجماله والّذى يريده هو ما كان فيه رقّة الشعر وتأثيره ولكنه لايجده منطبقاً على قواعد فنّه ومعلوم انّ تفاضل الشعر بعضه على بعض انّما هو بمعانيه لا بأوزانه وقوافيه فاذا سمعنا بانّ فلاناً أشعر من فلان. لانفهم ان الأوّل اعرف بفنّ العروض والثانى دونه فى الوزن والقافية وانما نفهم ان الأوّل ابعد غوراً وأكثر تعمّقاً فى استخراج المعانى واوسع مجالا فى سماء الوصف والخيال والثانى دونه فى استجادة المواضيع واستعمال الاساليب الّتى تؤثر على النّفس وتستدعى انتباه السامع .

وان التعبير ليضيق عن تعريف الشعر تعريفاً يؤدّى حقيقته وماذلك الّالكونه من مدارك النفس تشعر به الرّوح ولاتحيط بحدوده الالفاظ وقد عرّفه بعضهم بانه جَزْل من الكلام يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة ويعطى به السائل وقال عبدالله بن رواحة هو شيء يختلج فى الصدر فينطلق به اللسان وفى هذه العبارة الوجيزة المحيطة بمعنى كبير مايؤكّد لك ان الشعر غير الوزن والقافية وانما هو شعور بالمعانى يترجم عنها اللّسان فيحصل منها ذلك الأثر العجيب وزعم بعضهم ان الشعر هو النظم المقفّى الموزون المتركّب تركيبا متعاضداً مقصوداً منه الشعر ولعلّ واضع هذا الحدّ للشعر ظنّ انه استوفى المقام حدّه من الايضاح وامن مناقضة من يدّعى عدم شمول هذا التعريف الّذى لاينقصه الّا كونه لايفيد حقيقة الشعر

يأبى الشعر ان يدخل تحت الحدود والضوابط المدوّنة لانه ابن النفس الحرّة وربيب الشعور الحي وترجمان الوجدان وهو موجود فى كلّ امة ومنطوق به فى كلّ لغة، ولقد قال بعض المطّلعين على لغة الأفرنج وآدابهم عن تعريف الشعر عندهم ومكانة الشاعر بينهم — ان للشعر عند الإفرنج قوانين لايتعدّاها، من حيث القافية على اسلوب مصطلح عليه مع مراعاة قواعد اخرى والإعتبار عندهم بما كان كاشفاً عن خيال واسع وتشبيه لطيف ووصف كامل الى غير ذلك ممّا يشتمل عليه الشعر من التأثير الفعال والحماس النامى وتحريك الهمم، وقلّما يلاحظون المحسّنات البديعيّة اللفظيّة لكنّهم لايهملونها اذا وردت فى المعانى عند انتفاء الكلْفة، والشاعر

عندهم ملهم لايكتسب الشاعريّة بمعاناة الدراسة أو ممارسة الفنون الادبيّة والقواعد الشعريّة وتظهر فيه ملكة الشعر بوسايط ادبيّة ترجع الى الفكر والذوق لاعلاقة لها بالقوانين والضوابط ، ولعلّ ابن خلدون يميل الى هذا القول فمن طالع ماقرّره فى ملكة اللّسان العربىّ والذوق فى مصطلح اهل البيان اتّضح له انّ التعاريف والحدود الموضوعة لاتأتى بنتيجة فى تحصيل ملكة اللّغة والشعر واقتنع بان تحصيل درجة الكمال فيهما انّما تحصل بممارسة كلام العرب والاطّلاع على منظومه ومنثوره حتّى يرتسم فى الخيال ذلك الاسلوب ويصير ملكة فى النفس فتنبّه القوى الفكريّة ويصدر عنها الكلام مؤثراً بليغاً سواء كان شعراً موزونا او نثراً وخطابة على طريقتى السّجع والإرسال .

ثمّ ان صاحب هذه الموهبة او الملكة يتلقّى ماترد عليه من الكلام مميّزاً بين جيّده ورديئه . جدّه وهزله ويحكم حكمه بمجرّد الذوق بدون توقف على عرضه على القواعد اللغويّة والقوانين والضوابط للنحو والعروض والقوافى وانما يحصل له ادراك الخلل بمجرّد السّماع لان الملكة اذا رسخت صارت كانها طبيعة وماانكره الذوق والطبيعة حرىّ بان تنكره القوانين الوضعيّة ، ويؤيّد هذا ماقيل فى وسايل اكتساب ملكة الشعر بطريقة التمرّن والمطالعة وملاحظة الاساليب ان الكثرة العظمى من الشعراء قد البسوا إنتاجهم الشعرى ثوباً من الانشاء الموزون الّذى نطلق عليه اسم النظم لكن ليس النظم الموزون الا زخرفاً لا يبرّر ان يجعل

من الكتابة شعراً . وحسبك ان تعلم ان كثيرين من أنبغ الشعراء لم ينظموا وانا نشهد اليوم حشداً من الناظمين يستحيل ان نسلكهم فى زمرة الشعراء .

ان القافية والوزن لا يجعلان من الرجل شاعراً كما لا تجعل العباءة الطويلة الواسعة من لابسها قاضيا ولا استاذاً ، وليس المحامى الّذى يرافع فى شكة حربيّة جنديا محاربا . انّما العلامة الّتى تميّز الشاعر هى تلك الصور الخياليّة الرّائعة الّتى يرسمها الشاعر للفضايل والرذايل وما اليها ، فيكوّن منها درساً تتلقاه النفس فى ارتياح . نعم ان قادة الشعر قد رأوا فى النظم أجمل ثوب يلبسونه انشاءهم وذلك لانهم يريدون ان يمتازوا عن سواهم فى طريقة الاداء كما يمتازون فى المعانى سواء بسواء فهم لا يرسلون الحديث كما يرسله المحدّثون ولا يلقون الالفاظ من أفواههم كما اتّفق كأنّما هم يحلمون بل تراهم يقدّون كلّ مقطع فى كلّ لفظة بنسب مضبوطة تتناسب مع جلال الموضوع فالشاعرية كالبطولة نعمة سامية نادرة .

من النّاس من يخلق شاعراً مطبوعاً فان ساعده الحظ ينبغ شاعرا ملسانا بليغا ولا غرو فى ذلك لان الطبيعة اوجدت فى دماغه القريحة الشعرية الغريزيّة فلو تعلّم الطب مثلا لما نبغ فيه ولما أستأنست نفسه بمهنته الّتى قضى لتحصيلها ثلث عمره ساهر الليل وباذل الجهد والجهيد وراءها ، ومن النّاس من لو قضى معظم ايّام حياته فى طلب الشعر لما تيسّر له ان يقال له يوماً ما شاعراً . فقد يمكنه ان يملأ مجلدات برمّتها من منظومه ولكن لو تدبرّتها لما وجدت بها اقلّ تأثير على عواطفك ولا مفعولاً لها فى عالم

الحس والخيال فلايكون لصداها تأْثير فى النفوس اكثر من تأْثير مرأى الحسناء المفقأة العينين وخلاصة القول ان للشعر ميزةً خاصةً فى المجتمع البشرى فهو العامل الاساسى على انهاض الشعب وتحريك الشعوب من كبواتها وحفر آيات الفضايل والشيم على صفحات القلوب وطبع خيال النخوة على فلذة الوجد ان فما لنا فى شرع السياسة والأدب سوى أن ندرس كلام العرب وان نحضّ الناشئة على التعليم، نهتم فى انتقاء من وهبتهم الطبيعيّة الغريزة الشعرية لينهضوا بالامة الى ذروات المجد والعمران .

فبقدر رقى الشعراء ترتقى الهيئة الاجتماعية ولا يمكن لامة ان تَربع فى دست الرّقى والحضارة قبل ان تزهر فى حدائقها قرائح الشعراء والادباء .

نرى حملة الاقلام يحملون حملات شعواء على ابناء الأُمّة العربية ويطعنونهم بالسنة حداد. لجهلهم معنى الوطنية والإسلام والاتحاد والوئام ولعمرى ان حكمهم هذا لمردود بحكم الطبيعة متى انبرى شعراؤنا المعاصرون لاستنهاض الامم الاسلامية وتلقين الشعب المبادى الوطنية الحقيقيّة .

ان الشعب اشبه بالطفل الّذى لايتكلّم فالشاعر يؤثر على عواطفه كما تؤثر الام على طفلها لتعليمه مبادى النطق والمباحث يرى ان الشعر أقدم عهداً عند كلّ الأُمم وكلّ شعب فى بداوته اول مايكون شاعراً وباكورة أثمار قريحته واعماله العقلية لاتكون الّا المنظومات كالراماياناوالمهابهارته عند الهنود والالياذة والاوذيسه عند اليونان والالياذة عند اللاتين

والمعلقات عند العرب وذلك طبيعى فان قرض الشعر ترسله القريحة عفواً فلا يقتضى رقيا فى المدارك وحنكة فى التجريدات الفلسفيّة ، فالبيئة الّتى جعلته فيها الطبيعة تعينه على الحداء والنظم فان الجولان فى البيد والإنفراد فى القفار من اشد الدّواعى الى اثارة التصوّرات المتنوعة والايغال فى عالم الخيال . وقد نشأ فى اعتقاد العرب ان لكلّ شاعر جنياً يلقّنه الشعر ويوحى اليه مايقوله فى العدو من هجاء يكيده وفى الحليف من مديح يكفّ عنه الاذى ومنزلة الشاعر عندهم كانت منزلة العالم والحكيم والخبير بخفايا الامور كأنّ الطبيعة انزلته من عالم الغيب يمناً اذا رغب وشوماً اذا غضب .

وكان العرب يفتخرون بشعرهم حتى نسبوا الى آدم بعض ابيات شعريّة ومن البديهى ان المرء كلّما وسع خياله ودقّ احساسه توفّر فيه استعداده للشّعر فالعرب من اعقاب سام بن نوح ، وجميع الامم السامية مطبوعون على الشعر والشعر فى مقدمتهم وهم اشعر من العبرانيين و السريانيين لاستقلالهم بحكم انفسهم فى بواديهم وهم على صهوات خيولهم معتقلين الرّماح الخطيّة متقلدين السيوف الهنديّة ينقرون على اوتار الطبيعة متغزلين متحمّسين مفاخرين مادحين هاجين متوعّدين وهم فى كلّ ذلك ينطقون بوحى السليقة وبحكم الفطرة فصبغتهم شعريّة ونفوسهم حسّاسة وقرائحهم سيّالة فمن كان منهم لا ينظمه حفظه واذا لم يكن انشأه انشده وكانوا يعقدون المجالس للمناشدة كسوق عكاظ فى الجاهلية .

ولقد ظل العرب الى عهد غير بعيد يتحدّون شعراء الجاهلية فى نظمهم الى ان انتقل الامر الى بنى العبّاس فاخذوا يفتكرون فى تقبيح تلك الطريقة واوّل من تجرّأ على نقدها من الادباء ابن قتيبة فى اواسط القرن الثالث فى كتابه الشعر والشعراء . يعتقد البعض ان شعراء الجاهلية لم يتركوا معنى ولابابا لم يطرقوه وفى الواقع انّهم طرقوا المعانى الّتى تخيّم فى ذاكرة ابن البادية فبين البداوة والحضارة بون شاسع فى توسّع الخيال وتفتّق القرائح ففى العصر العباسى الاول نضج فن الشّعر وكثر الشعراء تلذّذاً بالادب وبداعى الحضارة وفى هذا العصر وضع خليل بن احمد علم العروض وحصر اقسامه فى خمس دوائر يستخرج منها ابحراً ثمّ زاد فيه الاخفش بحراً واحدا سمّاه الخبب وقد كان للخليل معرفة بالانغام ولعل علمه بالالحان هو الّذى هداه الى استنباط المقاطع والحركات فالموسيقى والشعر علمان اخوان او اختان رضيعتا لبان عند جميع الامم حكى الشيخ البهائى فى كشكول . انه كان يقرّض بيتاً من الشعر وهو يوقّع باصابعه فاستغرب ابنه فخرج الى النّاس وقال لقد جنّ ابى فقال الخليل:

لو كنت تعلم مااقول عذرتنى　　　او كنت اعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتى فعذلتنى　　　وعلمت انك جاهل فعذرتكا

ولذا قالوا الشعر اغنية النفس واوتار العواطف ومرآة الشعور وصدى مزمار الازل ومسرح الابتكار والابداع وجد فطرة فى النفس وهو نتيجة تفاعل النفس والخيال سلافه يلعب بالعقول اكثر من ابنة

الكرم وطلاوته تنعش الأرواح أكثر مما ينعشها الراح .

ضروب الشعر كثيرة فقسمها ابن ابى الاصبع العدوانى الى ثمانية عشرفنا غزل و وصف و مدح و هجا او عتاب و اعتذار و ادب و زهد وخمريّات ومراث وبشارة وتهانى ووعيد وتحذير ومُلح وسؤال وجواب وزادوا عليها الزهريات والحكم والمجون والحماسة وترى شعراً يحاول اصحابه الخروج به عن الطريق القديم والدخول فى آفاق جديدة لأغراض عديدة وقد صبغوا الادب العربى بصبغة الادب الغربى ويسمّونه اللّقاح الفكرى من الرّوما نطقية والواقعية الحديثة والرمزية والسريالية والوجوديّة والالتزامية فالغزل نادى بالقارى او السامع الى عالم الخيال قاراة اسراب الارواح ترفرف على اغصان مروج الهوى سارحات فى رياض الغرام تستنطق بالدموع والزفرات والحنان كانها مع بشار تقول

لم يطل ليلى ولكن لم انم ونفى عنى الكرى طيف الم
و اذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفّسى يا هند عنى واعلمى اننى يا هند من لحم ودم
ان فى بردى جسماً ناحلا لو توكأت عليه لانهدم
ختم الحب لها فى عنقى موضع الخاتم من اهل الذمم

وكقوله ايضاً

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى

فقلت دعواقلبي وما اختار وارتضى　　فبالقلب لا بالعين يبصرُ ذوالحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى　　ولا تسمع الاذنان الا من القلب

وان كان حماسياً اسعر نار الحميّة وهيّج العصبيّة وحبب لثم الحسام ومكافحة الحمام كقول عمر بن كلثوم فى معلقته

بانّا نورد الرايات بيضاً　　ونصدرهن حمراً قدروينا
نطاعن ماتراخى النّاس عنّا　　ونضرب بالسيوف اذا غشينا
ورثنا الجد قد علمت معد　　نطاعن دونه حتى يبينا
كان سيوفنا منّـا ومنهم　　مخاريق بايدى لاعبينا
الا لا يجهلن احد علينا　　فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقول عنترة

حكّم سيوفك فى رقاب العذّل　　واذا نزلت بدار ذل فارحل
واذا الجبان نهاك يوم كريهة　　خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعص مقالته ولاتحفل بها　　واقدم اذا حل اللقا فى الاول
واختر لنفسك مَنزلا تعلو به　　اومت كريما تحت ظل القسطل

ولا يقتصر الشعر فى الكلام المقفى المنظوم فانه فى المنثور كما فى المنظوم وكل انسان شاعر وليس كل ناظم شاعرا فترى فى كلام الاعرابى المنثور معنى شعرياً بليغا وقد سئل عن مقدار غرامه بحبيبته قال انى لارى القمر على جدارها احسن منه على جدر ان الناس ويحتمل ان كلمة شعرية تستفزّ النفس الى اقتحام الاخطار والنوائب ومكافحة الابطال والكتائب كما

فعلت كلمة الاخيذة وهى امرأة أسيرة فى بلاد الرّوم (عموريه) احدى مدائنهم فى عهد المعتصم ثامن الخلفاء العبّاسيّين فصاحت وامعتصماه فبادرها احد علوج الرّوم بكلام يقرعها به وقال لها سياتيك المعتصم على جواد ابلق وخلفه خيول بلق فينتشلك من ايدينا . فنمى خبر هذا الكلام الى المعتصم وهو فى مجلس لهو والكاس فى يده فختم الكاس واقسم ان لا يشربه حتى يفتح بلاد الرّوم ويعود بالاسيرة ثمّ جرّد لوقته على بلاد الرّوم جيشاً كبيراً كلّه خيول بلق وتقدمه على جواد ابلق ولم يلو على شىء حتّى نكل بهم وفتح بلادهم ودخل على الأسيرة قائلاً لبّيك ها انا المعتصم قد جئتك على جوادى الابلق فاعادها الى بلادها وفيها قال ابو تمام قصيدته المشهورة : بل حكمه المنشورة .

السيف اصدق إنباءً من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى ان يحيط به ... نظم من الشعر او نثر من الخطب
فتح تفتّح ابواب السماء له ... وتبرز الارض فى اثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا مسعولة الحلب
ابقيت جدبنى الاسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب
امّ لهم لورجوا ان تفتدى جعلوا ... فداءها كل امّ بـرّة واب
وبرزة الوجه قد اعيت رياضتها ... كسرى وصدت صدوداً عن ابى كرب
من عهد اسكندر او قبل ذلك قد ... شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت اليها همّه النوب

جرى لها الفال نحساً يوم انقرة ... اذغودرت وحشة الساحات والرحب

لما رأت اختها بالامس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب

فالشمس طالعة من ذا وقد افلت ... والشمس واجبة من ذا ولم تجب

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهنّ جلاء الشك والريب

والعلم فى شهب الارماح لامعة ... بين الخميسين لافى السبعة الشهب

اين الرواية بل اين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرّصاً واحاديثا ملفقة ... ليست بنبع اذا عدت ولاغرب

عجائبا زعموا الايام مجفلة ... عنهن فى صفر الاصفار او رجب

وخوّفوا النّاس من دهياء مظلمة ... اذا بدا الكوكب الغربى ذوالذنب

وصيّروا الابرج العلياء مرتبة ... ما كان منقلباً او غير منقلب

يقضون بالامر عنها وهى غافلة ... ماداء فى فلك منها وفى قطب

لو بينت قط امراً قبل موقعه ... لم يخف ماحل بالاوثان والصلب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها وكأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان فى ضحى شحب

ما ربع مية معموراً يطيف به ... غيلان ابهى ربى من ربعها الخرب

ولا الخدود ولو ادمين من خجل ... اشهى الى ناظر من خدها الترب

سماجة غنيت منها العيون بها ... عن كل حسن بدا او منظر عجب

وحسن منقلب تبدو عواقبه ... جاءت بشاشته عن سوء منقلب

تدير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب فى الله مرتنب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب
ان الحمامين من بيض ومن سمر ... دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
لبّيت صوتا زبطريا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
هيهات زعزت الارض الوقوربه ... عن غزو محتسب لاغزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربى بكثرته ... على الحصى وبه فقر الى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها ... يوم الكريهة فى المسلوب لاالسلب

فى الاغانى وفد ابو براء ملاعب الاسنة وهو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب واخوته طفيل ومعاوية وعبيدة ومعهم لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر وهو غلام على النعمان بن المنذر فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسى وكان ينادم النعمان مع رجل من اهل الشام تاجر. يقال له سرحون بن نوفل وكان حريفا للنعمان يعنى سرحون يبايعه. وكان اديبا حسن الحديث والمنادمة فاستخفّه النعمان. وكان اذا اراد يخلو عن شرابه بعث اليه والى النطاسى متطبّب كان له. والى الربيع بن زياد وكان يدعى الكامل فلما قدم الجعفريون كانوا يحضرون النعمان لحاجتهم. فاذا خلا الربيع بالنعمان طعن فيهم وذكر معايبهم ففعل ذلك مرارا وكانت بنو جعفر له اعداء فصدّه عنهم فدخلوا عليه يوما فرأو منه تغيّراً وجفاءً وقد كان يكرمهم قبل ذلك ويقرب مجلسهم فخرجوا من عنده غضابا ولبيد فى رحالهم يحفظ امتعتهم ويغدو بابلهم كل صباح فيرعاها فاذا امسى انصرف بابلهم فاتاهم ذات

ليلة فالفاهم يتذاكرون امر الربيع ومايلقون منه فسألهم فكتموه فقال لهم والله لا أحفظ لكم متاعاً ولا أسرح لكم بعيرا أو تخبرونى. وكانت ام لبيد امرأة من بنى عبس وكانت يتيمة فى حجر الربيع فقالوا خالك قد غلبنا على الملك وصدّ عنّا وجهه. فقال لهم لبيد. هل تقدرون على ان تجمعوا بينهم وبينى فأزجره عنكم بقول ممض. ثمّ لا يلتفت النعمان اليه بعده ابداً. فقالوا وهل عندك من ذلك شىء قال نعم. قالوا: فانا نبلوك بشتم هذه البقلة. لبقلة قدامهم. دقيقة القضبان قليلة الورق لاصقة فروعها بالارض تدعى التربة فقال هذه التربة (كفرحة) الّتى لا تذكى نارا ولا تؤهل دارا ولا تسرّ جارا عودها ضئيل وفرعها كليل وخيرها قليل بلدها شاسع ونبتها خاشع وآكلها جايع والمقيم عليها ضايع أقصر البقول فرعا وأخبثها مرعى واشدها قلعا فتَعْساً لها وجدعا. القوا بى اخا بنى عبس أرجعه عنكم بتعس ونكس وأتركه من أمره فى لبس فقالوا نصبح فنرى فيك رأينا فقال لهم عامر انظروا غلامكم فان رايتموه نائماً فليس امره شىء وانّما يتكلم بما جاء على لسانه ويهذى بما يهجس فى خاطره واذا رأيتموه ساهرا فهو صاحبكم فرمقوه بابصارهم فوجدوه قد ركب رحلا فهو يكدم باوسطه حتى اصبح فلما اصبحوا قالوا انت والله صاحبنا فحلقوا رأسه وتركوا ذؤابتين والبسوه حلة ثمّ غدوا به معهم على النعمان فوجدوه يتغدّى ومعه الربيع وهما يا كلان ليس معه غيره والدار والمجالس مملوءة من الوفود فلما فرغ من الغداء اذن للجعفريّين فدخلوا عليه وقد كان تقارب أمرهم فذكروا للنعمان الّذى

قدموا له من حاجتهم فاعترض الربيع فى كلامهم. فقام لبيد يرتجز ويقول

يارب هيجا هى خير من دعه أكُلّ يوم هامتى مقزعه
نحن بنو أم البنين الاربعة ومن خيار عامر بن صعصعه
المطعمون الجفنة المدعدعه والضاربون الهام تحت الخيضعه
ياواهب الخير الكثير من سعه اليك جاوزنا بلاداً مسبعه
نخبر عن هذا خبيراً فاسمعه مهلاً أبيت اللعن لاتأكل معه
ان استه من برص ملمّعه وإنه يدخل فيها إصبعه
يدخلها حتى يوارى أشجعه كأنّما يطلب شيئاً أطمعه

فالتفت النعمان الى الربيع شزرا يرمقه فقال أكذا انت قال لا والله لقد كذب على ابن الحمق اللّئيم فقال النعمان أُف لهذا الغلام لقد خبث علىّ طعامى فقال ابيت اللّعن أما انّى لقد فعلت بامّه فقال لبيد انت لهذا الكلام اهل وهى من نساء غير فعل وانت المرء فعل هذا بيتيمة فى حجره فامر النعمان ببنى جعفر فاخرجوا وقام الربيع فانصرف الى منزله فبعث اليه النعمان بضعف ما كان يحبوه به وامره بالانصراف الى اهله وكتب اليه الربيع انّى قد تخوّفت ان يكون قد وقرت فى صدرك ماقاله لبيد ولست برائم حتى تبعث من يجرّدنى فيعلم من حضرك من النّاس انى لست كماقال. فارسل اليه انك لست صانعاً بانتفائك ممّاقال لبيد شيئاً ولا قادراً على مازلت به الالسن فالحق بأهلك فقال الربيع

لئن رحلت جمالى ان لى سعة مامثلها سعة عرضاً ولا طولاً

بحيث لو وزنت لخم باجمعها لم يعدلوا ريشة من ريش شمويلا
ترعى الروائم حرّاز البقول بها لامثل رعيكم ملحاً وغسْويلا
فابرق بارضك يانعمان متكئاً مع النطاسى يوما وابن نوفيلا

فكتب اليه النعمان

شرّد برحلك عنّى حيث شئت ولا تكثر علىّ ودع عنك الأباطيلا
فقد ذكرت به والركب حامله وردا يعلل اهل الشام والنيلا
فما انتفاؤك منه بعد ما خرعت هوج المطى به ابراق شمليلا
قد قيل ذلك ان حقّاً وان كذبا فما اعتذارك من شيء اذا قيلا
فالحق بحيث رايت الارض واسعة وانشر بها الطرف ان عرضاً وان طولا

قال ابو الفرج وهذا ربيع بن زياد هو الذى يقول الشعر فى مقتل مالك بن زهير وكان قتله فى بعض تلك الوقايع الّتى يعرف مبدؤها بداحس والغبراء وكان السبب فى ذلك فيما أخبرنى به على بن سليمان الاخفش ومحمّد بن العبّاس اليزيدى قالا حدثنا ابو سعيد من حديث داحس[1]. ويصل الى ان الربيع قال

نام الخلىّ ولم اغمّض حار من سيئ النبأ الجليل السارى
من مثله تمسى النساء حواسرا وتقوم معولة مع الاسحار
من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه يبكين قبل تبلّج الاسحار
قد كُنَّ يخبأن الوجوه تستّراً فاليوم حين بدون للنظّار
يخمشن حرّات الوجوه على امرئ سهل الخليقة طيّب الاخبار

١ - وهذه العبارات تلخيص من كتاب الاغانى ج ١٦ ص ٢٣ من يريد التفصيل فليراجع .

أفبعد مقتل مالك ابن زهير ترجوا النساء عواقب الاطهار
ماان ارى فى قتله لذوى الحجى الا المطى تشد بالأكوار
ومجنّبات ما يذقن عدوفة يقذفن بالمهرات والامهار

ان النابغة الذبيانى هو ابو امامة زياد بن معاوية بن ضباب وهو احد الأشراف الّذين غضّ منهم الشعر ينتهى نسبه لذبيان ثم لمضر من الطبقة الاولى المقدّمين على سائر الشعراء مات على الجاهلية ولم يبلغ الاسلام .

وفد عمر بن المنتشر المرادى فى جماعة على عبد الملك بن مروان فقام رجل فاعتذر من امر وحلف عليه فقال عبد الملك ما كنت حرّيا بان تفعل ولا تعتذر ثمّ اقبل على أهل الشام فقال أيّكم يروى من اعتذارات النابغة الى النعمان

حلفت ولم اترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فاقبل على المنتشر وقال أترويه قال نعم وانشده القصيدة بكمالها فقال هذا اشعر العرب .

وعن ابى عبيدة انّ النابغة كان خاصّاً بالنعمان وكان من ندمائه فرأى زوجته المتجردة يوما وقد غشيها شىء شبيه بالفجأة وقد سقط نصيفها فاستترت بيدها وذراعها فكان ذراعها يستر وجهها لعبالتها وغلظها فقال قصيدته التى منها .

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتّنا باليد
بمخضّب رخص كأنّ بنانه عنم على أغصانه لم يعقد
وبفاحم جعد أثيث نبته كالكرم مال على الدعام المسند

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السَّقيم الى الوجوه العوَّد

فانشدها النابغة ابن سعد القريني فانشدها مرَّة النعمان فامتلأَ غيظا وتوعَّد النابغة وتهدَّده فهرب ثمّ اتى ملوك غسّان بالشام وامتدحهم .

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه أتعلمون أن النابغة كان مخنّثاً قالوا وكيف ذلك قال أو ماسمعتم قوله ـ نظرت اليك لحاجة لم تقضها ـ البيت والله ماعرف هذه الاشارة الا مخنَّث .

قال الاصمعى . البيت عظيم فى التشبيه الا انه هجنه بذكر العلّة فى المرأة وكان يُقْوى فى شعره واحسن منه قول عدىّ بن الرقاع العاملى

وسنان اقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

انشد القاضى التنوخى لنفسه

لم انس شمس الضحى تطالعنى ونحن فى روضة على فرق

وجفن عينى بمائه شرق وقد بدت فى معصفر شرق

كانه مدمعى ووجنتها حين رمتنى العيون بالحدق

ثمّ تغطّت بكمّها خجلا كالشمس غابت فى حمرة الشفق

قال فى المعاهد ولم يزل النابغة نازلا عند عمرو بن الحارث الاصغر الغسّانى الى ان استعطفهُ النعمان فصار اليه ومن اعتذاراته للنعمان

أتانى ابيت اللعن ـ أنك لمتنى وتلك التى أهتمُّ منها وأنصب

فبتّ كأَنّ العائدات فرشننى هراساً به يعلى فراشى ويُقشَب

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلِّغت عنى خيانة | لمبلغك الواشى، أغشُّ وأُكذب
ولكنّنى كنت امرأً لى جانب | من الارض فيها مستماز ٌ ومذهب
ملوك و اخوان اذا ما أتيتهُم | أحكمَّ فى اموالهم و أقرَّب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم | ولم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
وانك شمس والملوك كواكب | اذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فلا تتركّنى بالوعيد كأنّنى | الى النّاس مطلىٌّ به القار أجرب
ألم تر ان الله اعطاك سورة | ترى كل مَلك دونها يتذبذب
ولست بمستبق أخا لاتلمُّه | على شعث اىُّ الرجال المهذَّب
فان أك مظلوما فعبداً ظلمته | وان تلك ذاعتبي فمثلك يُعتب

وقالوا: كانت المتجرّدة زوجة النعمان بن المنذر بن ماء السماء من احسن النساء وكان يهواها وقيل انها كانت زوجة ابيه فتزوّجها بعد موته بشريعة الهوى والتغلّب وكان النابغة الذبيانى والمنخّل اليشكرى لدى النعمان وكان النابغة مليحا عفيفا والمنخّل قبيحا فاسقا وكان يهواها وتهواه لفسوقه وكان النعمان مكرما للنابغة محباً له وخاف المنخّل ان تنظر المتجرّدة الى النابغة فتهواه وتتركه فاجتهد فى صرفه عن النعمان واتفق ان النعمان قال للنابغة امدح لى المتجرّدة عن عجبه بها فعمل الأبيات التى اوّلها

أمن آل ميَّة رائح او مغتد | عجلان ذا زاد وغير مزوَّد

وقد ذكر فيها بطنها وعكنها ومتنها وروادفها و ... فقال

وإذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ أَخْثَمَ جاثِماً | مُتَحيِّزاً بِمكانِهِ مِلءَ اليَدِ

واذا طَعنتَ طَعنتَ فى مُستهدَفٍ رابى المَجَسَّةِ بالعَبيرِ مُقرمدِ
واذا نَزَعْتَ نَزَعْتَ عَن مُسْتَحْصِفٍ نَزْعَ الحَزوَّرِ بالرِشاء المُحْصَد

فتخيّل النعمان من قوله وقال له المنخّل لو لم يعاين لم يذكر فتغيّر النعمان على النابغة وبلغه ماقال المنخّل فعلم انه يقتله . فقال يكون المنخّل الخائن أميناً وانا خائن فهرب الى الغسّان فأقام فيهم وامتدحهم فغمّ ذلك النعمان وبلغه قول النابغة فى قصيدته

أتانى أبيت اللّعن انك لمتنى وتلك التى تَستَكُّ منها المسامع
فبتّ كأنّى ساورتنى ضيئلة من الرقش فى انيابها السمّ ناقع
لعمرى وما عمرى عَلَيَّ بهيِّن لقد نطقت بُطلا عَلَيَّ الأقارع
أقارعُ عوف لا احاول غيرَها وجوه قرود نبتغى من تجادع
أتاك امرؤ مستبطنٌ لى بغضَةَ له من عدوٍّ مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذى هو ناصع
أتاك بقول لم اكنَ لأقوله ولو كبُلّت فى ساعديَّ الجوامع
حلفت فلم اترك لنفسك ريبة وهل يأثمنْ ذو أمَّة وهو طائع
بمصطحبات من لصاف وثَبْرَة يزرن إلالاً سيرُهُنّ التدافع
سَماماً تبارى الريح خُوصاً عيونها لهنَّ رذايا بالطريق ودايع
عليهن شعث عامدون لحجِّهم فهنَّ كاطراف الحنِيِّ خواضع
فَحمَّلتنى ذنب امرئ وتركته كذى العُرِّ يكوى غيره وهو راتع
فان كنت لاذو الضِّغن عنى مكذب ولا حَلفى عند البراءة نافع

ولا انا مأمون بشيء اقوله   وانت بأمر لا محالة واقع
فانّك كاللّيل الذى هو مدركى   وان خلت ان المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن فى حبال متينةٍ   تَمُـدُّ بها أيد اليك نوازع
أتوعد عبداً لم يخنك امانة   وتترك عبداً ظالماً وهو ضالع
وأنت ربيع ينعش الناس سَيْبُهُ   وسيف أُعيرته المنيّة قاطع
ابى الله إلّا عدله ووفاءه   فلا النكر معروف ولا العرف ضايع
وتسقى اذا ما شئت غير مصّردٍ   بزوراء فى حافاتها المسك كانع

وهى طويلة فلما وصلت النعمان وعلم الخيانة من المنخَّل فقال له اخلفنى فى اهلى حتّى امضى أتصيد وخرج ثمّ عاد الى بيته ليلا فوجد المنخّل والمتجرّدة يشربان الخمر وساقها بين ساقيه فقال يا منخَّل ألست القائل ان النابغة لو لم يعاين لم يقل : انشدنى فانشده وتمادى فى القول وقال

ان كنت عاذلتى فسيرى   نحو العراق ولا تحورى
لا تسألى عن جلِّ مالى   واسألى كرمى وخيرى
ولقد دخلت على الفتاة   الخدر فى اليوم المطير
فَدَفعتهـا فتدافعت   مشى القطاة الى الغدير
ولثمتـها فتنفّست   كتنفّس الظّبى الغرير
ونأت وقالت ما   بجسمك يا منخَّل من حرور
ماشَفَّ جِسْمى غير حُبِّك   فاهدئى عنىِّ وسِيرى
وأُحبّهـا وتحبُّنى   ويُحِبّ ناقتَها بعيرى

فقال صدقت لو لم تتحابا لما كنتما كذلك وقتلهما وكتب الى النابغة بالامان والبراءة مما اتّهمه به ودعاه الى العود فعاد وكان احبّ الناس اليه واوفرهم حظّاً عنده ومن قول النابغة واعتذاره له[1]

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهرا وهمّين همّاً مستكناً وظاهراً

احاديث نفس تشتكى مايريبها وورد هموم لم يجدن مصادراً

وقوله لايبعد الله جيراناً تركتهم مثل المصابيح جلو الليلة الظلم

هم الملوك وابناء الملوك لهم فضل على الناس فى الآراء والنعم

نعم كانت كلمة الشاعر هى الكلمة العليا وقوله امضى من السيف وأحدّ من السنان وحكمه نافذ كحكم الحق والقوّة وربما رفعَ الشاعر بالبيت الواحد عزّ القبيلة والبيت او هدمه كما وقع لبنى انف الناقة لان أباهم جاء برأس ناقة ويده فى أنفها كانوا اذا ذكر عند احد منهم انف الناقة. فضلاً عن ان ينسبهم اليه اشتدّ غضبهم عليه فما هو الّا ان قال الحطئية

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوى بأنف الناقة الذنبا

---

١ — لما انتصب بين يديه وحيّاه بتحيّة الملك وقال ابيت اللعن أتفاخر وانت ساند العرب وعزّة الحسب والّلات لأمسكك أيمن من يومه ولقفاك احسن من وجهه وليسارك اسمح من يمينه ولوعدك اصلح من رفده ولعبيدك اكثر من قومه ولاسمك اشهر من قدره ولنفسك اكبر من جده وليومك اشهر من دهره ثم قال

اخلاق مجدك جلّت ماله بالخطر فى الجود والناس بين العلم والخبر

متوّج بالمعالى فوق مفرقه وفى الوغا ضيغم فى صورة القمر

فتهلّل وجه النعمان بالسرور ثم أمر فحشى فوه جوهراً ثم قال بمثل هذا فلتمدح الملوك.

فصار احدهم اذا سئل عن نسبه لم يبدأ الا بأنف الناقة وهو جعفر بن قريع بن عوف بن كعب وكان بنوا العجلان يفخرون بهذا الاسم اذ كان عبدالله بن كعب جدهم انما سمى العجلان لتعجيله القرى للضيفان وذلك أن حيّا من طى نزلوا به فبعث اليهم بقراهم عبداً له وقال له اعجل عليهم ففعل العبد فاعتقه لعجلته فقال القوم ماينبغى ان يسمى الّا العجلان فسمّى بذلك فكان شرفا حتّى قال النجاشى واسمه قيس بن عمرو يهجوهم

اولئك اخوان اللعين واسرة الـ هجين و رهط الواهن المتذلّل

وما سمّى العجلان الا لقولهم خذ القعب واحلب ايها العبد واعجل

فصار الرجل منهم اذا سئل عن نسبه قال كعبى ويكنى عن العجلان

قال ابن رشيق فى العمدة استعدى بنُو العجلان عمر بن الخطّاب على النجاشى فقالوا هجانا فقال وماقال فانشدوه

إذا الله عادى اهل لؤم ورقة فعادى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال انما دعا عليكم فلعلّه لايجاب قالوا فانه قال

قُبيِّلةً لا يغدرون بذمّة ولا يظلمون الناس حبَّةَ خردل

فقال عمر ليتنى من هؤلاء اوقال ليت آل الخطّاب كذلك قالوا: قال

ولا يردون الماء الا عشيّة اذا صدر الوُرّاد عن كلّ منهل

فقال عمر وذلك اصفى للماء واقلّ للزّحام قالوا فقد قال

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعبُ عوف ونهشل

قال كفى ضياعاً بمَنْ تاكل الكلاب لحمه قالوا فقد قال

وما سُمِّى العجلان إلّا لقولهم   خذ القعب واحلب ايها العبد واعجل

قال كلّنا عبيد وخير القوم خادمهم فقالوا يا أَمير المؤمنين هجانا قال ما اسمع قالوا فاسأل حسان بن ثابت فسأله فقال ماهجاهم ولكنّه سلح عليهم فلما قال حسّان ماقال . سجن النجاشي وقيل انّه حدّه

فارب انف سليم قد وضع الشعر عليه حدّه فجدعه واسم رفيع قلب معناه حتّى حطّ به صاحبه ووضعه كما قال ابن الرومى فى سعد النوشرى

ياحاجب الوزراء انك عندهم   سعد ولكن انت سعد الذابح

ومن العجيب فى ذلك قول القائل فى كثير بن احمد من وزراء آل بويه وقضاتهم

لو علم الله فيه خيرا   ماقال (لاخير فى كثير)

كيف بالهوى اهدى البلاء اليه ومن اىّ مدخل دخل عليه وكثير هذا هو الّذى يقول فيه الصاحب بن عبّاد ويرثيه

يقولون لى اودى كثير بن احمد   وذلك رزء فى الأنام جليل

فقلت دعونى والعلا، نبكه معاً   ومثل كثير فى الزمان قليل

ومن عجيب مااتّفق فى هذا الباب قول ابن المعتز فى ذم القمر واجتراؤه بقدرة البيان على تقبيحه وهو الأصل والمثل وعليه الاعتماد والمعوّل فى تحسين كلّ حسن وتزيين كلّ مزين واول مايقع فى النفوس اذا اريد المبالغة فى الوصف بالجمال والبلوغ فيه غاية الكمال فيقال وجه كأنّه القمر وكأنّه فلقة قمر .

ذلك لثقته بان هذا القول اذا شاء سحر وقلّب الصور وانه لايهاب ان يخرق الاجماع ويسخّر العقول ويقسّر الطباع

ياسارق الانوار من شمس الضحى يا مثكلى طيب الكرى ومنغّصى
أمّا ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطايل متسلخ بهقا كلون الابرص

قال ابو العبّاس[١] : عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه فى الشعر مسند ابن حنبل عن جابر وقال كنّا نجلس الى رسول الله ﷺ فكانوا يتناشدون الاشعار ويتذاكرون أشياء من امر الجاهليّة ورسول الله ساكت فربما تبسّم وقال كنّا نتناشد الاشعار ونذكر اشياء من امر الجاهليّة فربما تبسّم[٢].

روى الترمذى عن جابر بن سمرة قال جالست النبي ﷺ اكثر من مأة مرة وكان اصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون اشياء من امر الجاهليّة وهو ساكت وربما يتبسّم معهم.

روى مسلم عن عائشة قال سمعت رسول الله يقول هجاهم حسّان فشفى واستشفى قال السيوطى فى الخصايص الكبرى اخرج البيهقى من طريق يعلى بن الاشد، قال سمعت النابغة نابغة بنى جعدة يقول انشدت رسول الله هذا الشعر فاعجبه فقال أجدت لايفْضُضِ الله فاك[٣]، فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيّف ومأة سنة ماذهب له سنّ، ثمّ اخرجه البيهقى من وجه اخر عن

١ـ مجالس ثعلب ص٣١٧، ج١. ٢ـ ج٥، ص١٠٥. ٣ـ فى الأغانى ايضاً.

النابغة وابن اسامة عنه وفيه فكان من احسن الناس ثغراً فاسنان النابغة ابيض من البرد لدعوة رسول الله حين انشده .

ولاخير فى حلم اذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه ان يكدّرا

ولاخير فى جهل اذا لم يكن له   حليم اذا ما اوردالقوم اصدرا

وقال النابغة الجعدى لقيت النبى ﷺ وانشدته

بلغنا السما مجداً وجوداً وسودداً   وانا لنرجوا فوق ذلك مظهراً

فقال ﷺ الى اين يا ابا ليلى قلت الى الجنة قال ان شاء الله وقال كعب بن زهير (له ذكر خاص عند ظهور الاسلام خلع النبى عليه بردته)

جاءت سخينة كى تغالب ربها   وليغلبن مغالب الغلّاب

فقال النبى ﷺ لقد مدحت الله يا كعب فى قولك هذا

وعقد البيهقى فى الدلائل بابا مستقلّاً فى الشعر وقال باب اختيار النبى ﷺ الشعر وذكر حديثاً طويلاً عن جابر معناه انه جاء رجل الى رسول الله ﷺ وقال يارسول الله ان ابى يريد ان يأخذ مالى فقال رسول الله ﷺ ائت بأبيك عندى فلمّا جاء ابوه قال سله يارسول الله: لامصرف لماله الّا عمّاته وقراباته أما اصرفه على نفسى وعيالى فساله رسول الله هل قلت فى نفسك شعراً فاعترف الشيخ وقال لايزال يزيدنا الله بك بصيرة ويقيناً وعرض سبعة ابيات نظمها فى نفسه وفى تفسير القرطبى ثمانية ابيات وبعض اختلاف .

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً ومُنْتُكَ يافعاً   تُعَلّ بما أخنى عَلَيْكَ وَتُنْهَلُ

اذا ليلةٌ ضاقت[1] بك السقم لم أبت لسقمك الّا ساهراً أتململُ
تخاف الرّدى نفسى عليك وانها لتعلم ان الموت حتم موكّل
كانى أنا المطروق دونك بالذى طُرقت به دونى فعينى تهمُلُ
فلما بلغت السنّ والغاية الّتى اليها مدى مافيه كنت أُؤمّل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنّك انت المنعم المتفضّل
فليتك اذ لم ترع حــقّ أبُوّتى فعلت كما الجار المجاور يفعل
فلو ليتنى حقّ الجوار ولم تكن علّى بمــال دون مالك تبخلُ

قال جابر، فقال رسول الله آخِذاً بتلبيب الابن اذهب فأنت ومالك لابيك.

لقدشاع فى الادب العربى القول الماثور (اعذب الشعرا كذبه) ويقول ابن رشيق القيروانى فى العمدة، من فضايل الشعر ان الكذب الذى اجتمع الناس على قبحه حسن فيه، وهكذا نجد فى كتب الادب من هذه الاقوال

ويمكن تفسيرها باحد الامرين او هما معاً الاول ان الشاعر فى كثير من مواقفه يعتمد على المبالغة والغلو لايدرى ايّهما أحمق المادح او الممدوح

وأخفت أهل الشرك حتّى انه لتخافك النّطف الّتى لم تخلق

قاله ابونواس وجعل مالم يخلق يخاف من هارون وكقول ابى تمام

فقد بثّ عبدالله خوف انتقامه على الليل حتّى ماتدّب عقاربه

جعل عقارب الليل لاتدبّ خوفاً من عبدالله وقول المتنبى

١ـ تفسير قرطبى ج ١٠، ص ٢٤٦. ٢ـ ضاقتك وفى الحماسة. اذا ليلة بانتك بالشكو لم ابت.

كأنى دحوت الارض من خبرتى بها	كأنى بنى الاسكندر السدّ من عزمى

ويقول الخبز أرزى

ذبت من الشوق فلوزجّ بى	فى مقلة النائم لم يَنْتبه
وكان لى فيما مضى خاتم	فالان لو شئت تمنطقت به

والذى اراه ان المبالغة ليست كلّها كذباً ولا كلّها صدقاً . فلو كان الممدوح شجاعا فجعل الشاعر له جرأة كجرأة الاسد لم يكن كاذبا ولو كان العاشق هزيلا فبالغ الشاعر فى وصفه حتّى جعله لا يرى الّا من صوته لم يكن كاذبا وقد عبّر الله وهو اصدق القائلين — وبلغت القلوب الحناجر فأمّا ان كان الممدوح بخيلا فجعله الشاعر سحاباً فيّاضا او عاشقا سميناً فجعله كعود الخلال اوجباناً رعديداً فجعله اسداً مقداماً فكلّ هذا كذب صريح يثير السخريّة بالممدوح لا الاعجاب والمعنى الثانى ان الشعراء يوصفون بالكذب لانهم ينسبون الى انفسهم اعمالاً جليلة لم يأتوا بها ويزعمون مزاعم لا تستند الى حقيقة . ثمّ يهجون فيصفون المهجوّ بكل رذيلة يمزّقون الاعراض ويقدحون فى الانساب ويتعرّضون للنواميس والحرم وهؤلاء هم الّذين عناهم القرآن بقوله وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُوْنَ اى السفهاء والرّواة فانّهم يتبعونهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الاعراض والقدح فى الانساب ومدح من لا يستحقّ المدح أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُوْنَ وَأَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ مَا لَا يَفْعَلُوْنَ — فهم حائرون وعن طريق الحق حائدون بالوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقّ والاطراء .

لكن ليس هذا ولا ذاك من الشعر الراقى فى شىء فلا الغلوّ فى المبالغة ولا نسبة الشىء الى غير فاعله مما يزيّن الشعر ويجمله وانّما نشأ قولهم (اعذبه اكذبه) من تصوّر ناقص لمعنى الشعر وهذا ما قاله احمد امين [1].

لقد كان الشعر عندهم يجول اكثر مايجول فى المدح والهجاء ورأوا ان هذا المدح وهذا الهجاء لايجودان بذكر الحقيقة المجرّدة انما يجود المدح اذا جعل الشاعر من الحبّة قبةً، ويجود الهجاء اذا قال الشاعر فأَفحش، وسبَّ فاقذع. ولكن عفى الزمان على هذه النظريّة، واصبح هذا النوع من الشعر أحطّ انواعه واقلها استحقاقا لاسم الشعر، فالشعر كما يقول (ورد سورث) هو الحق ينقله الشعور حيّاً الى القلب وكما يقول (رسكن) الشعر ابراز العواطف النبيلة عن طريق الخيال.

وليس هذا قاصراً على الشعر فكلّ الادب من هذا القبيل وتعريف ورد سورث ورسكن هما تعريفان للادب جميعه لا للشعر وحده.

فالّذى ارى ان رسالة الاديب هى من جنس رسالة الفيلسوف، كلاهما يرمى او يحبّ ان يرمى الى ابراز الحقيقة ونَقْلها الى السامع او القارى، وغاية مابين الفيلسوف والاديب من فرق، ان الفيلسوف ينقلها الى عقل السامع أو القارى. والاديب ينقلها الى قلبه. ومن اجل هذا يستعين الفيلسوف بالمنطق ومايتبعه من مقدمات محكمة ونتايج مستلزمة، فهى بالعقل اليق، والاديب يؤدّى الحقيقة من طريق الخيال الجميل والاسلوب

١ــ الهلال سنة ٤٦، ص٦٠٦.

الجميل والصدق بمعناه الواسع وكلّ ما تحتمله الكلمة من معنى مجال للأدب وشرط من شروط قوّته فلو عبّر امرؤ القيس عن شعوره نحو المرأة اوعبّر ابونواس عن شعوره نحو الخمر، فهو ادب صادق قوى، وان كانت الاخلاق الاجتماعية لاترضى عن النحو الّذى سلكاه فى التعبير، ولكنه من النّاحية الادبيّة ادب صادق قوى، وان شعر الشاعر فى الورع والزهد ولكنه فى نفسه ينطوى على دعارة وفُجور، لم يكن شعره صادقا ولا قوياً وان رضيت عنه الاخلاق الاجتماعية، نعم ان الادب الّذى ينبعث عن عاطفة انسانيّة نبيلة أرقى واسمى، ولكن منادمنا نتكلّم فى دائرة الصدق فكلّ مايصف عواطف الانسان أدب صادق . والصدق يمنح الأدب قوّة وحياة

وهذا الصدق فى التعبير هو الّذى يسبغ على الادب مسحة الخلود فالشعر الّذى قيل فى المديح والهجاء اقلّ قيمة وخلوداً مما قاله الشعراء فى وصف عواطفهم فرثاء ابن الرومى لولديه أبقى من هجائه لخالد بن قحطبة واعتداد المتنبى بنفسه فى شعره اقوى من مدحه لغيره ــ بل مالنا نذهب بعيداً ونحن نرى من الكتّاب المحدثين من توزّع أدبهم بين ادب سياسى وادب قومى او عالمى فأمّا كتابتهم السياسيّة فقيمتها وقتيّة لاتقدر كثيراً الا فى ظرفها وبيئتها وزمانها .

واما أدبهم القومى او العالمى فكثير منه يستحقّ الخلود والبقاء، صالح لان يقرأ ويردّد على اختلاف الزمان والمكان .

كتب كاتب امريكى فقال يسألنى كثير من الشبان ان اضع لهم مبادى تساعدهم فى الكتابة فلهم اقرّر هذا المبدأ : اكتب فى الموضوع الّذى تجيد معرفته والشعور به ثمّ اكتب ولاتنظر أىّ نظر لما تحدثه كتابتك من نتيجة وأثر ، وكلّ مايجب ان تعنى به ان تعتقد ان ماتكتبه حق ، ولتكن نتيجته ماتكون ، وليكن مرشدك فى كتابتك الحياة والعقيدة ولاتخش من نقد يوجّه اليك الّا من ناحية أنه حق أو ليس بحق .

وهذا القول صحيح كلّ الصحّة من حيث نصحه للكاتب الّا يكتب إلّا الحق ، ولايهتمّ بنقد ناقد له من جهة الاسلوب ومن جهة العيب عليه والأزدراء به ، فمتى ارضى الكاتب ضميره وعنى بالموضوع بحثاً ودرساً واخراجاً فلاضير عليه من نقد الناقدين ، وعليه ان ينتفع بما يوجّه اليه من نقد صحيح ولا يخشى بأسهم . اما ان اراد الناصح ان الكاتب يجب ان لايهتم الا بقول الحق من غير نظر الى الموضوع الّذى يكتبه ومايترتب على كتابته فيه من نتايج فغير صحيح اذ ليس كلّ حق يقال وليس يقال الحق للناس جميعا فى ادوار حياتهم المختلفة ، فالكاتب والفنّان يجب ان يسائل نفسه عن مقدار العواطف الّتى تثيرها كتابته ، فهناك قوم مرضى باعصابهم وشهواتهم وحياتهم العقليّة والاجتماعيّة ، ومن الخطر ان يغذى هولاء بأنواع من الادب تزيد فى هياج اعصابهم وان كان مايقال حقاً وصدقاً ، فنحن اذا نطالب الاديب ان لا يقول الا الصدق يجب ان نطالبه ايضا من الناحية الاجتماعية — ان لا يقول الا الصدق الذى يتّفق والصالح العام

والصدق يمنح الادب قوة لان الاديب اذا عبر عما تكنّه نفسه ويختلج به قلبه كان قوله اقوى تأْثيراً واشدّ حياة والاديب الحق هو من تأثّرت نفسه بالحياة ومظاهرها تاثرا خاصّاً يتّفق ومزاجه ثمّ هو يحاول بأَدبه ان ينقل هذا التأثّر الى الناس ويجعلهم يشعرون بما يشعر وينفعلون بما ينفعل فان هو لم يتأثر وحاول ان يؤثّر كان اديباً مزيّفا وكان الفرق بينه وبين الاديب الحق كالفرق بين النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة .

لما قتل مالك بن نُويرة ظلماً وغدراً وكان صديقا لعمر بن الخطاب وخبر مالك مشهور فى حديث الرّدّة وكان متمّم واجداً ورثاه وبكى على اخيه حتّى جادت عينه العوراء بالدمع فقال له عمر وددت انك رثيت اخى زيد بن الخطّاب كما رثيت اخاك مالك بن نويره ففعل فلم يجد ولم يبلغ مابلغ من رثاء اخيه فقال له فى ذلك فقال انى لاجد لأخى مالااجد لأخيك وقال له ايضاً لومات أخى كما مات اخوك لم ابكه

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرّقنا كانى ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

لايخفى ان كثيراً من الشعراء اتّخذوا مدح الملوك والامراء وسيلة من وسائل العيش. ولاانكر ان كثيراً منهم وصل بذلك الى اسفل دركات الإسفاف واصرّح بانّ من النقائص النفسيّة ان يسخّر الشعر تسخيراً فى سبيل المنافع الزائلة ، واعترف بان هذه النقيصة لم يتفرّد بعارها

شعراء العرب فقد كان أكثر الشعراء فى اوربا يعيشون عالة على الملوك والامراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصيّة الا القليل ولكنّى ـ مع هذا أقول بان الشعر ديوان العرب وهو الوثيقة الباقية على ما كان فيهم من كرم الشمائل والخصال . والمادحون قد يكذبون ولكنّهم فى كذبهم يصوّرون ما اصطلح عليه معاصروهم من الوان المحاسن والعيوب . فالشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة ممدوحه ولكنّه من الوجهة الإجتماعيّة صادق كلّ الصدق لانه يصوّر مايشتهى ممدوحه أن يتّصف به من كرائم الخلال ولاننسى ابكار افكارهم فى نظم اشعارهم والتعليل والتحليل والتصوير والتجسم. شريف الرضى فى الحجازيات والكميت فى الهاشميات . ابيوردى فى النجديّات ابو العتاهية فى الزهديّات وابونواس فى الخمريّات . البحترى فى طيف الخيال فإنّه لمّا ترجمت كتب الحكمة والعلم الى لسان العرب قرأ ادباء المسلمين كتاب المنطق لارسطو ورأوا فيه ذكر اوميروس والشاعر الثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر احد من الاعاجم ولا التفتوا الى اساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات والقصص ولاقدّروا حرّية فكرهم ولاذوقهم فى الكلام حقّ قدره لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسايل والدواوين والمعلقات سيّما ماادهشهم من كلام الله والحديث فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعيّات والطب والهندسة ولكنّهم لم يترجموا الاديب من ادباءِ اليونان والرومان لاقصيدة ولاخطبة لارواية ولاحكاية من اساطيرهم . فترجمة

كتب العلم والحكمة الى لسان العرب ظهر لها تأْثير فى توسيع افكار الشعراء الاسلاميّين وظهر فيهم طبقة جديدة هى طبقة المتنبّى والمعرّى فى الشرق. وابن هانى فى اشبيلية وهو المسمّى بمتنبّى الغرب فحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر فى كتب العلم والحكمة فكلامهم ابلغ معنى واكثر فائدة لاشتماله على آراء فلسفية وسياسيّة ومباحث عقليّة وعلميّة غير انهم خرجوا عن اساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم اساليب مخصوصة فقام عليهم المتعصّبون لاساليب العرب الأقدمين وسلقوهم بالسنة حداد وشدّدوا عليهم النكير وقالوا ان نظم المتنبّى والمعرّى ليس من الشعر فى شىء لانهما لم يجريا على اساليب العرب المخصوصة.

وانها لتختلف الألسنة والألوان وتتبدّل المذاهب والاديان وتتباعد المنازل والبلدان. ولكن شيئاً واحداً لايختلف بين نفس ونفس ولايتبدّل بتبدّل الاعصار والامصار هو العواطف البشريّة ان انا شيد المجنون العامرى لليلى العامريّة انا شيد كلّ عاشق أينما كان وقصّة الوامق والعذراء وشيرين وفرهاد قصّة كلّ من نطق بالضاد وخطب ديموستين هى خطب كلّ امّة تبنى المجد وتعمل للحياة ومن هنا جاءت عظمة الادب وجاء خلوده انه ليس كالعلوم ان قرأ طالب الادب فيقرأ شعراً قيل قبل الف وخمسمائة سنة ولايزال جديداً كأنّه قيل اليوم ان قلت هذا من فضل العلم لان العلوم تتقدّم وتترقّى وتسعى الى الكمال.

اقول ان الادب قد بلغ الرشد وحدّ الكمال من قبل ان يولد العلم قد عاش البشر

دهوراً بلا علم ولكنهم لم يعيشوا يوماً بلا ادب ان آدم قال لحوّاء كلمة الحب لم يحدثها فى الكيميا . ولا حلّ معها مسائل الجبر فى رياض الجنّة والحب اول كلمة فى سجلّ الادب .

الشعرا خلد من الكيمياء . وابقى من الرياضيات كم مرّة تبدّلت نظرات العلم منذ نظمت حوليّات زهير والنابغة فى زمن نعبّر عنه بالجاهلية ولا يزال لها رونقها ومنزلتها وقد تغزّل الشعراء وأدخلوا فى غزلهم انّهم يطيرون الى احبابهم باجنحتهم ويقول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلّى الى من قد هويت اطير

وفى آداب اليونان انهم كانوا يشيرون الى استخدام الاجنحة وتقليد الطير . وفى الآثار المصريّة من صورهم بصورة اناس ذوى اجنحة ثمّ انتقل الخيال الى العمل ، قد يأخذك من الشاعر سحر الاسلوب ، وبلاغة العبارة ، وانسجام القافية ، وحلاوة الرنين ، وجلجلة اللّفظ ، والقدرة على التنميق ، والتطريز والوشى ، فتنخدع بهذه الظواهر . وتخيّل اليك ان خيال الشاعر ، مشبوب وتصوّره جامح قوى ، وعواطفه اصيلة صادقة ، فتهتف معجباً وتقول : انه فى الحق لشاعر كبير .

ولكن بلاغة اللّفظ ، قد تستر المعنى الشائع ، والفكرة المبتذلة ، والعاطفة المفتعلة ، وقد تدل ابلغ الدلالة على عجز واضح فى ملكات التخيل وفى اقوى الاحساس والشعور .

ونحن الشرقيين . نؤثر فى الغالب العرض على الجوهر ، ونقدر اللّفظ اضعاف تقديرنا المعنى . ويفتننا الاسلوب العاصف المدوى أكثر مما يفتننا الفكر العميق ، والاحساس الصادق ، والبساطة النادرة الصادرة عن العقل الكبير والقلب الناضر الصافى .

فهذه الخاصة النفسيّة الملحوظة فى كثير منا . تباعد بيننا وبين روح الانصاف والعدل فى الحكم على الشعراء والادباء وتشوّه معنى الشعر الصحيح فى نظرنا . وتفضى بنا الى غمط حقوق نفر من النوابغ الموهوبين هم فى طليعة كبارهم والادب انواع منه ماهو عالمى . ومنه ماهو اقليمى ومنه ماهو فردى ثمّ منه ماهو جديد ومنه ماهو قديم اما الادب العالمى او اديبه فهو من أشرف بطبعه وتطبعه اى بروحه وفكره على العالم وخبرا دواءه وشخصها ثمّ عمد الى معالجتها بلسانه وقلمه .

وامّا الادب اوالاديب الاقليمى فهو القاصر بإشرافه على قومه والمحيط الّذى ترعرع فيه . فترى نتاجه من نظم او نثر وقفا على معالجة مايشعر فى قومه من داء .

واما الادب الفردى والشخصى فهو نديم الملك او سمير الامير تجد هذا مسيراً بأدبه وفق هوى سيّده الّذى يخلد اليه فى كل مايقول ويكتب (وبين هذه الانواع من الادب مراحل وضروب شتّى) .

والاحسن ان نقول انه هناك نوعان من الادب ادب لايعتمد على الدولة كادب الغزل والقصص والحماسة وما اليها وادب يعتمد على الدولة

كأدب المديح وما إليه فادب عمر بن ابى ربيعة وجميل بثينة ومجنون ليلى والعبّاس بن الاحنف ادب مستقلّ ليس كعبة الشاعر فيه هو الخليفة ولا الأمير وانّما كعبته ليلى وبثينة ، وادب ابى تمام والبحترى والمتنبّى ادب دولة ، كعبتهم فيه المعتصم والمتوكّل وسيف الدّولة وكافور وامثالهم .

وعلى الجملة فلو احصينا شعراء العرب وعدّدنا النابغين منهم وقرأنا تاريخ حياتهم لوجدنا الجمهرة العظمى منهم قد نبغوا فى ظل الملوك وسبب هذا ان الشعر فنّ جميل والفنون الجميلة انّما تزهر وتنمو فى القصور كالغناء والموسيقى والنحت والتصوير والخطوط لانها تعدّ من الامور الكماليّة ومن الزينة والترف واحسن انواع الزينة انّما مكانه اللّائق به القصور كاللؤلؤة الكبيرة والحجر الكريم النادر والصورة الرائعة والمصحف المخطوط خطّاً بديعاً فكلّ هذه وامثالها لا يقوّمها حقّ تقويمها الّا الملوك والامراء فاليهم تهدى وفى قصورهم تزداد روعة وجمالا ثمّ كان أن اتّجه الشعر العربى أكثر ما اتّجه الى المديح ، فلو احصينا الشعر العربى ووزّعناه على أبوابه لوجدنا نحو ثلثيه مديحاً والثلث الآخر تنقسمه الأبواب المختلفة الاخرى والملوك اقدر على المكافأة وأسخى فى العطاء فالشاعر يبدأ يتعلم فى مدح الاغنياء فاذا نبغ لم يجد موضعاً لشعره لائقا الا الملوك فقصدهم وقصر مديحه عليهم . ومن اجل هذا نرى انواع الشعر الاخرى تنمو خارج القصور بعيدة عنها كاللزوميات لأبى العلاء المعرّى وشعر التصوف مثل شعر عمر بن فارض وشعر الغزل الصرف كشعر جميل

والعبّاس بن الاحنف وعمر بن ابى ربيعة لان الشاعر فيها يغنّى لنفسه ويرضى عاطفة تجيش بصدره لايتطلب من اجل ذلك جزاء ولاشكورا فلما جاءت الدولة العباسيّة واكثر الملوك من عطاياهم قصدهم الشعراء من كل فج فكانت بغداد موطن الخلفاء وموطن الشعراء معاً ومن نبغ فى مصر او الشام او الحجاز ثمّ ينفق شعره ولم يشتهر أمره الا اذا قصد الملوك والامراء ببغداد فاذا عددت نوابغ الشعراء فى ذلك العصر امثال بشّار بن برد ومسلم بن الوليد وابى العتاهيه وابونواس وابى تمام والبحترى وابن الرومى وابن الجهم رأيتهم نبغوا فى ظل القصور ورأيت تاريخهم وتاريخ شعرهم جزءًا من تاريخ الخلفاء والامراء هؤلاء يقصدون الخلفاء وهؤلاء يقصدون البرامكة وهؤلاء يقصدون الأَمير أبادلف وقلّ ان ترى فى هذا العصر شاعراً لاصلة له بملك او امير حتّى العبّاس بن الاحنف فانه انف عن المدح وقصر شعره على الغزل ومع هذا اخذ صلة الرشيد وغيره على حسن تغزله ولطف مقصده فى التشبيب بالنساء .

ومن هؤلاء الشعراء من كان يقنع بمدح اىّ امير واىّ غنىّ ومنهم من كان يأنف ان يمدح الا الملوك فسلم الخاسر يعيّر مروان بن ابى حفصة بتكفّفه من هذا ومن ذاك ويفخر هو بانه لايمدح الّا الملوك فيقول :

من مبلغ مروان عنى رسالة ... مغلغلة لاتنثنى عن لقائكا
حبانى أَمير المؤمنين بنفحة ... ثمانين الفاً طاطأَت من حبائكا
ثمانين الفاً نلت من صلب ماله ... ولم يك قسماً من أولى وأولائكا

ويفتخر بشار بن برد فيقول

وانّى لنهّاض اليدين الى العلى قروع لابواب الهمام المتوّج

وفى بلاط سيف الدّولة بن حمدان فى حلب اجتمع عشرات الشعراء وعلى رأسهم المتنبّى وابوفراس يشيدون بفضله ويسجّلون وقائعه وهو يغدق عليهم من ماله حتى قال فيه ابو الطيّب

تركت السُّرى خلفى لمن قلّ ماله وانعلت افراسى بنعماك عسجدا

ولما ضعفت الخلافة ببغداد وعلا شأن مصر تحوّل غرض الشعراء من بغداد الى مصر فكانت مصر مقصد المغاربة وكانوا ندماء الخلفاء وسمراء الامراء بعضهم أليف الكاس والأوانى وناكس الرأس وصريع الغوانى. يرتزقون بشعرهم فيمدحون الشخص بما ليس فيه ويبالغون فى المدح والكذب فيه ويمدحون الفسقة والظلمة بل الكفرة وقد يصفونهم باعلى من صفات الأنبياء :

ماشئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانك انت الحاكم الجبّار

ويهجون من منعهم او لم ترضهم جائزته باقبح الهجو واقذعه وافحشه ويثلبون الاعراض ولايتورّعون عن شىء فى هذا السبيل فكانت تهاجم لاجل ذلك الخلفاء والملوك والامراء فمن دونهم فعندهم لأخذ الجوائز وسايل شتّى :

احدها المدح الّذى يرغب فيه كلّ احد ولوكان بالباطل الّا ماندر والمدح بالشعر يرغب فيه أكثر من غيره لانه مما يحفظ وينتشر وتطرب

وتهتزّ له النفوس ويستهوى الالباب وتحدى به الركاب وينشد فى المحافل ويبقى على مرّ الدهور لاسيّما اذا كان من شاعر مشهور جيّد الشعر متفنّن فى أساليب الشعر وكثيراً مايرتفع به الوضيع وتقضى به الحوائج كما حصل فى مواضع كثيرة .

ثانيها هجو اعداء الممدوح الّذى كان يتعمّده الشعراء فى أثناء مدائحهم لمن يمدحونه لعلمهم بان ذلك ممّا يعجبهم ويسرهم فهو احدى الوسائل لبعثهم على العطاء .

ثالثها الهجو الّذى يخاف منه الناس أكثر من خوفهم من السّلاح للعلّة المتقدّمة فى المدح من اشتهاره وانتشاره بين النّاس وحفظهم له وبقائه على مرّ الدهور وكرّ الليالى . هجا بعضهم قاضياً بقوله :

اذا كلّمته ذات دلّ لحاجة وهمّ بأن يقضى تنحنح اوسعل

فقال المهجوّ ربما أخذنى السّعال وانا فى المستراح فاحبسه لما شاع من هذا الشعر وقال الشاعر[1] فى الشعبى ان لك فنوناً فى الأحاديث وان لنا فنّا واحداً فان رأيت الّا تحملنى على أكتاف قومك فادعهم حرضاً .

فقال الشعبى قلت لااعرض لك فى شىء من الشعر ابداً فأقلنى هذه المرّة قال من يكفل بك قلت أمير المؤمنين . وعظماء الملوك وان كان يمكنهم عقاب من يهجوهم بالحبس والضرب بل بالقتل الّا انهم علموا ان ذلك لايغسّل عنهم عار الهجاء الّذى ينتشر ويحفظ فكان عقلاؤهم لايلجأون

١ــ الاخطل فى مجلس عبدالملك .

الى هذه الطريقة لعلمهم بأنّها لاتفيد بل يحافظون على إرضاء الشاعر لئلّا يهجوهم ويرون ان الدفع اسهل من الرفع ومن لجأ اليها اوّلاً عاد عنها ثانياً فهشام بن عبدالملك لما مدح الفرزدق زين العابدين عليه السّلام بالقصيدة المشهورة امامه وامام كبائر الشام وغاظه ذلك امر بحبسه فهجاه فى الحبس بقوله :

يقلب رأساً لم يكن رأس سيّد وعيناً له حولاء بادعيوبها

فاضطرّ هشام الى اطلاقه خوفاً ان يقول فيه ماهو ادهى وامرّ[1] وحفظ الناس هذا الهجاء واستمرّ حفظه الى اليوم . وبشّار لما هجا موسى الهادى بالبيتين المشهورين أمر بضرب به حتّى مات ولكن ذاك لم يغسل عنه وصمة الهجاء الّذى حفظه النّاس وأودعه المؤلفّون كتبهم وكان بنواميّة يكرمون الفرزدق وهم يعلمون تشيّعه لأهل البيت فيحتملون ذلك منه طلباً لمدحه وخوفا من قدحه وهجائه .

---

١ ـ من مضحكات الاحاديث ان عدّة من المخانيث قدموا الى امير فضرب احدهم بالسياط وهو ينشده بالله العظيم وكتابه الكريم و رسوله الامين ويذكره الدين وحرمة المسلمين والسياط توفيه نصيبه والمخنث يجعل الله حسيبه ثم قدم الباقون فعمل بهم مافعل بصاحبهم فقال الأخير ياحمير أكذا يحلف الامير اصبروا حتّى أقدم واسمعوا حتّى أتكلّم فلما جرد للسياط قال ايّها الامير بحياة والدتك الّا عفوت عنّى فقد أخذ الخوف منّى فغضب الامير وقال على بالسياط حتّى يلج الجمل فى سمّ الخياط مالك ولذكر الحرم فحلّفه المخنث بطرّتها ثمّ بغرّتها ثمّ صار الى ثغرتها ثمّ تدحرج الى سرّتها فلما انتهى الى السّرة اشفق الامير على الحرّة فقال خلّوه قدوالله بلغت السرّة أوزدت وصرت الى الدرّة اوكدت وماذا بعد الحق الاالضلال وهل بعد البشر الّا النّكال .

ولم يذكر التاريخ امة بلغ الشعر عندها المنزلة الّتى بلغها عند العرب فكان الشاعر العربى مرجّوا ومخوفاً معاً يتوسّل بشعره لنيل الحظوة عند الملوك والامراء . وبمرور الزمن اصبح لكل امير شاعر يلازمه ويتغنّى بمدحه ويرتزق مما ينفحه به من الاعطيات . وماخفض قدر الشعراء شيء مثل تلك الاعطيات فبعد ان كان الشعر شعور تجيش به نفس الانسان ووسيلة للاعراب عن عواطف النفس وعما تجيىء به القريحة اصبح وسيلة للارتزاق يستغله الشاعر فينطق به كلما الجأته الفاقة وسوّلت له نفسه ابتزاز اموال الغير . ونشأت طائفة من الشعراء تكيل الثناء جزافاً لمن يستحقّه ولمن لا يستحقّه ومن نكد الاقدار ان اكثر الشعراء المدّاحين كانوا اذا لم يكافأوا عن شعرهم انقلبوا الى الذم والهجو لان الشعر عندهم كان وسيلة لاغاية ولان العرض فى نظرهم كان فوق كل اعتبار آخر فاذا جنب الممدوح ظنهم اطلقوا عليه سيلاً من قوارص المنظوم وشهروا به تشهيراً وقلّما سلم من هذه النقيصة احد من الشعراء الّذين زاولوا صناعة المديح . وهذا مما يخفض قدر الشعر لان الشاعر الّذى يمعن فى الخيال الى ماوراء العالم المنظور ثمّ ينقلب مرتزقا يتاجر بشعره انما يبيع كرامته بالعرض .

سافر احد الحكّام وعند ما اقبلت الوفود لزيارته فى احدى المديريات تقدّم اليه احدهم بقصيدة القاها فى جنابه . جاء فى مطلع احد ابياتها أنت كالبدر . فما كان يأتى على آخرها حتّى نظر الحاكم الى الحاضرين قائلاً كذب ونفاق. هؤلاء الشعراء يقولون مايطابق الاوزان ، وليس مايطابق

مقتضيات الأحوال – ولعلّ هذا القول ابلغ ما كان يمكن ان يقال فى ذلك الظرف الخاص .

ان كثيراً من الشعر والادب الّذى نقرأه ونكتبه من قبيل الشعر الّذى كان يقال فى بعض العصور السالفة ، وكانت نتيجته ... فأعطاه ألف دينار .

كانت العرب لاتتكسب بالشعر وانما يصنع احدهم مايصنع فكاهة او مكافاة عن يدلا يستطيع على أداء حقّها الا بالشكر اعظاماً لها قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بنى رهط المعلى .

اقرّ حشى امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

لان المعلى اجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء فقيل لبنى تيم مصابيح الظلام وقال ايضاً لسعد بن الضّباب

سأجزيك الّذى دافعت عنّى فما يجزيك عنّى غير شكرى

وكان الشعر أكثر علم العرب واوفر حظوظ الأدب وكان الشعر كلّه رجزاً أو قطعاً وانه انما قصده على عهد هاشم وكان اوّل من قصده مهلهل وامرؤ القيس – واول من طول الرجز وجعله كالقصيد . الاغلب العجلى شيئاً يسيرا وكان على عهد النبى ثمّ اتى العجاج فافتن فيه وسئل ابو عمرو بن العلاء هل كانت العرب تطيل قال نعم ليسمع منها قيل هل كانت توخر قال نعم ليحفظ عنها ويستحب عندهم الإطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والاصلاح بين القبايل كما فعل زهير والحرث بن

حِلِزّة والافالقطع أطير فى بعض المواضع والطول للمواقف المشهورة ومن مذاهب العرب أن القبيلة منهم كانت اذا نبغ فيها شاعر اتت القبايل فهنّأتها بذلك وصنعت الاطعمة واجتمعت النساء يلعَبْن بالمزاهر كما يصنعن بالاعراس وتباشروا به لانه حماية لاعراضهم وذبٌّ عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشاره بذكرهم وكانوا لايهنئون الابغلام يولد اوفرس تُنتَج او شاعر ينبغ فيهم .

لقد كان العرب فى اول عهدهم يعيشون عيشه قبايل وكان للقبيلة شيخهاوكان المعنى القبلى متغلبا عليهم وكان الفرد يعيش للقبيلة ويموت للقبيلة امّا شعور وشخصيته فضعيف فاتر .

من اجل هذا كان اشعر الشاعر انما هو فى الاشارة بقبيلة والتشهير باعدائها . فلما ظهر للعرب ملوك رأينا الشعر بدأ يتحول نحوهم فقصد النابغة الذبيانى النعمان بن المنذر ومدحه وقبل الصلة منه واستطعم الشرف والنعيم ـ فكان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة ممّا كان يناله من الملوك وفاقه الاعشى نى ذلك فكان رحّالة الى الملوك يمدحهم وينال عطاءهم فقصد المناذره على تخوم العراق والغساسنة على تخوم الشام بل وقصد ملوك العجم يمدحهم فيجزلون عطاءه ويملأون يده فلماجاء ملوك بنى اميّة عرفوا قيمة الشعر واثره فى الدعوة لهم ومكافحة خصومهم فقربوا الشعراء . وكان كل من طمع فى الملك من مناوئيهم يتخذ الشعراء أداة له فى الخصومة والنزال فللخوارج شعراؤهم وللشيعة شعراؤهم ولعبدالله بن

الزبير شعراؤه ولا يستثنى من مشاهير شعراء بنى اميّة الاعدد قليل لم يتصل بملك ولم يقبل عطاءً مثل عمر بن ابى ربيعة فقد كان يغنّى لنفسه وللنساء واكتفى بجاهه وغناه وانف من المدح والهجاء ولكن هذا قليل وامثاله قليلون اذا قيسوا بمن نبغوا فى ظل الملوك والامراء وكما ان فيهم مثل عمر بن عبد العزيز اقلّ قليلاً وفى دولة العبّاسيّين تعدّدت الامراء وصارت ملوك الطوائف سبباً من اسباب التنافس بينهم فكان سعى الأمراء الى اكتساب مديح الشاعر المشهور اشدّ من سعى الشعراء الى اكتساب جوائز الممدوحين وارتضى هؤلاء الملوك من هذا الشاعر مالم يكن يرتضيه ممدوح من مادح فى زمانه ولا قبل زمانه . قيل ان طاهر بن الحسين جلس بين يدى الشاعر ليستمع الى مديحه فيه وكان اكبر مايخشاه الأمير منهم ان يتخطاه الشاعر فلا يقصد اليه ولا يمدحه كما مدح انداده فقصدوه بالدّعوة قبل ان يقصدهم بالمديح وقد يمدح الشاعر جاريته بما يقتضى الحال حكى فى مجالس العلماء مجلس بشار بن برد مع خلّاد بن المبارك قال قلت لبشّار إنّى أراك فى شعرك تهجر فتأتى مرة بفنّ ومرة بفنّ قال مثل ما ذا قلت مثل قولك

اذا ما غضبنا غضبةً مُضَريَّة هَتَكْنا حجاب الشمس اوقطرت دما

ثمّ تقول رَبابة ربة البيت . تصّب الخلّ فى الزيت . لها عشر دجاجات . وديك حسن الصوت . فقال يا ابا مخلد الحال بينى وبينك قديمة وأراك تعرف مذهبى فى هذا . هذه امرأة كانت لها عشر دجاجات وديك وكنت لا آكل بيض السُّوق وإنّما آكلُ البيض المحصَّن فاردت

ان أمدحها بما تفهم ولو أنّى مدحتها بمثل قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل وأخواتها لم تفهم ما اقول. ولم يقع منها موقعه وانما أنا كالبحر الزاخر يقذف بالعنبرة وبالدرة النفيسة وربّما قذف بالسمك الطّافى. ولكن لا أضع كلّ شيء الا فى موضعه قلت مثل ماذا ؟ قال مثل قولى :

أنْفَسُ الشوق ولا ينفسنى ... واذا قارعنى الهَمُّ رَجَعْ
أَصرع القرن اذا نازلتُه ... واذا صارعنى الحبّ صَرَع
أنا كالسيف اذا رَوَّعتَه ... لم يروّعك وان هــزّ قطع
سيفى الحلم وفى منطقتى ... اسد الموت اذا الموت يقع

قال احمد. فسمعت الاصمعى يقول. العجب له أنه لا عشيرة له ولا له مال بارع واعمى ويقول مثل هذا[1] ان ابرهيم بن المهدى حينما سقطت عنه الخلافة واستخفى من المأمون هجاه دعبل الخزاعى فدخل ابرهيم على المأمون فشكى اليه حاله وقال يا أمير المؤمنين ان الله سبحانه فضّلك فى نفسك علىّ. والهمك الرّأفة والعفو عنّى والنسب بيننا واحد. وقد هجانى دعبل فانتقم لى منه فقال المأمون وماذا قال ؟ لعلك تقصد قوله

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله ... مهفا إليه كلّ اطلس مائق
ان كان ابرهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحُن من بعده لمُخارق
انّى يكون وليس ذاك بكائن ... يرث الخلافة فاسق عن فاسق

فقال. هذا من بعض هجائه. وقد هجانى بما هو اقبح من هذا فقال المأمون. لك اسوة بى. فقد هجانى واحتملته حين قال فى

أيسو منى المأمون خطة جاهل أو مارای[1] بالامس رأس محمد
توفى على روس الخلائق مثلما توفى الجبال على رؤوس القَرْدَد
ونحلّ فى اكناف كل ممنّع حتّى يذلّل شاهقا لم يُصعد
انى من القوم الّذين سيوفهم قتلت اخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد
ان الترات مسهّد طُلّابُها فاكفف مذاقك عن لعاب الأسود

فقال ابرهيم. زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وكان ابواسحاق المعتصم ساخطاً على دعبل لانه كان يهجوه ومن هجائه

بكى لشتات الدين مكتئب صَبّ وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام امام لم يكن ذا هداية فليس له دين وليس له لبّ
وما كانت الأنباء تأتى بمثله يُملَّك يوما او تدين له العرب
ولكن كما قال الّذين تتابعوا من السلف الماضين اذعظم الخطب
ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف فى الكهف سبعة خيار اذا عدّوا وثامنهم كلب
وانّى لاعُلى كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس اذساس ملكهم وصيف واشناس وقد عظم الخطب
وفضل بن مروان يثلم ثلمة يظلّ لها الاسلام ليس له شعب

١ـ فى الاغانى عاجز وفى الشعر والشعراء عارف بمعنى الصابر والفخر برأس محمد لان طاهر بن الحسين قتله وطاهر مولى خزاعة .

تختلف المقامات والازمنة والبلاد فيحسن فى وقت مالايحسن فى آخر ويستحسن عند اهل بلد مالايستحسن عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند اهله بعد ان لاتخرج من حُسن الاستواء وحدّ الاعتدال وجودة الصنعة . وربما استعملت فى بلد الفاظ لاتستعمل فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام اهل فارس فى اشعارهم ونوادر حكاياتهم قال الرصافى والّذى اختاره انا على التجريد والتحسين الّذى يبقى غابره على الدهر ويبعد عن الوحشى المستكره ويرتفع عن المولّد المنتحل ويتضمّن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة وانشد بعض العلماء ولم يذكر قائله

الشعراء فاعلمنَّ اربعة   فشاعر لايرتجى لمنفعة
وشاعر ينشد وسط المجمعة   وشاعر آخر لايجرى معه
وشاعر يقال خمر فى دَعَه

وانشد بعضهم

الشعراء فاعلمنَّ اربعة   فشاعر يجرى ولايجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعة   وشاعر لاتشتهى ان تسمعه
وشاعر لاتستحى ان تصفعه

وعارضهما الرصّا فى المعاصر بقوله

الشعراء فى الزمان اربعة   فشاعر افكاره مبتدعة

وشاعر اشعاره متبّعة وشاعر اقواله منتزعة

وشاعر فى الشعراء امّعه[١]

فليس من اتى بلفظ محصور تعرفه طائفة من النّاس دون طائفة لايخرج من بلده كالّذى لفظه سائر فى كلّ ارض معروف بكلّ مكان وليس التوليد والرقّة ان يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ولابارداً غثّاً كما ليست الجزالة والفصاحة ان يكون الكلام حوشيّاً خشناً ولااعرابيّاً جافياً – ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والاعشى الّا بحلاوة الكلام وطلاوته مع البعد من السَّخَف والركاكة على انهم لو اغربوا لكان ذلك محمولا عنهم اذ هو طبع من طباعهم .

وانّما سمّى الشاعر شاعراً لانه يشعر بمالايشعر غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولااختراعه او استظراف لفظ وابتداعه او زيادة فيما اجحف به غيره من المعانى او نقّص ممّا اطاله سواه من الالفاظ او صرّف معنى من وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لاحقيقة ولم يكن له الّا فضل الوزن . والشعر مزلّة العقول وذلك ان احداً ماصنعه قطّ فكتمه ولوكان رديئاً وقيل يعجب المرء بابنه وشعره وانما ذلك لسروره به واكباره ايّاه وهذه زيادة فى فضل الشعر وتنبيه على قدره وحسن موقعه عن كلّ نفس .

١ – الإمّعة بكسر الهمزة وتشديد الميم الذى لارأى له فهو يتابع كل أحد على رأيه والهاء للمبالغة وقيل هو الذى يقول لكل احد انا معك اوأنا مع الناس وفى الحديث اغد عالماً اومتعلّماً ولاتكن إمّعة ولايقال للمرأة ومنه حديث ابن مسعود لايكوننّ احدكم إمّعة .

ان الالفاظ قوالب للمعانى

اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوّته فاذا سلم المعنى واختلّ بعض اللّفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك من غير ان تذهب الروح وكذلك ان ضعف المعنى واختلّ بعضه كان للفظ من ذلك اوفر حظّ كالّذى يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح ولا تجد معنى يختلّ الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ماقاله الحكماء من أنّ أحكام أحد المتحدين يسرى الى الآخر، فان اختل المعنى كلّه وفسد ، بقى اللّفظ مواتاً لافائدة فيه وان كان حسن الطلاوة فى السمع . كما ان الميّت لم ينقص من شخصيّته شىء فى رأى العين الّا انه لاينتفع به ولايفيد فائدة، وكذلك ان اختل اللّفظ جملة وتلاشى لم يصحّ له معنى لأنا لانجد روحاً فى غير جسم البتّة ـ ثمّ للنّاس فيما بعد آراء ومذاهب منهم من يؤثر اللّفظ على المعنى ويجعله غايته ووكده وهم فرق قوم يذهبون الى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنّع وهذا النوع ادّل على القوّة واشبه بما وقع فيه من موقع الافتخار وكذلك ما مدح به الملوك يجب ان يكون من هذا النحت كقول بشّار

اذا ما غضبنا غضبةً مضرّية هتكنا حجاب الشمس اوقطرت دما[1]
اذا ما اعرنا سيّداً من قبيلة ذرى منبر صلّى علينا وسلّما

١ـ يقول اذا ماغضبنا غضبة شريفة فضحنا نور الشمس بلمعان سيوفنا الى ان تكتسى سيوفنا بالدم فيذهب لمعانها ويعود نور الشمس الى الظهور .

وفرقة اصحاب حَلَبة وقعقعة بلاطائل معنى الّا القليل النادر كقول ابن هانى

اصاخت[١] فقالت وقع اجرد[٢] شيْظم[٣] وشامت[٤] فقالت لمع ابيض مخذم[٥]

وما ذعرت الا لجرس[٦] حليّها ولارمقت[٧] الّا بُرى[٨] فى مُخـدّم[٩]

---

١ – اصغت ٢ – صفة للفرس ٣ – الطويل من الخيول ٤ – نظرت

٥ – السيف القاطع ٦ – الصوت الخفىّ ٧ – لمحت ٨ – جمع بُرة الحلقة ٩ – موضع الخلخال

قال بعضهم وقد يستحسن شعر لجودة لفظه وليس فيه كبير معنى كما قال العتبى فى شعر جرير

ان العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك له وهن اضعف خلق الله انسانا

وقد انكر الحسن بن عبدالله بن سهل هذا الانكار وقال لااعلم معنى اجود من هذا ولا احسن منه وكلا الرجلين امام فى الادب ولكن الاختيار يختلف وما يقولان فى جرير يهجو عرين بن اليربوع عرين من عرينة ليس منا برئت الى عرينة من عرين لو سمعا هذا البيت لقا لا ان ليس هنا معنى لا كبير ولا صغير والحقيقة ان الميل النفسى والطبيعة هى الاصل لا التصنّع فقد يكون جرير اميل الى الغزل منه الى الهجو وليس ذلك معهوداً فيه اذ له مع الفرزدق مجال واسع فى ذلك اللهم الا ان يقال ان جريراً يكره الفرزدق عن صميم القلب وبجميع معنى الكلمة والعرين ليس بهذه المثابة فيكيل للاول بالاردب وللثانى بالصاع وأفرغ من قول جرير هذا قول الاعشى

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

اللحم المشوى هو المراد بالشاو وبعد الفاظ مترادفة معناها سرعة الحركة

وقال الاعشى وكاس شربت على لذة واخرى تداويت منها بها

فاخذ ابونواس دع عنك لومى فان اللوم اغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وليس تحت هذا كلّه الّا الفساد وخلاف المراد الّذى يفيدنا ان تكون هذه المنسوب بها ليست حليّها .

ان كان لكلّ امة فن جميل برعت فيه وتميّزت فالشعر فنّ العرب الجميل فيه برعوا وبه تميّزوا . وان كانت حياة الفنون الجميلة . فى تاريخ أكثر الامم ، قصيرة الامد سرت فى عصر من عصورها الزاهية ثمّ خبت من بعد وانطفأت. كالنحت والتصوير عند اليونان والرومان . فالشعر فى تاريخ العرب طويل العمر متصل الحياة . صحبهم منذ ان ظهرت آثارهم على صفحات التاريخ ولزمهم ملازمة اللغة والبيان .

ولماطغى العلم فى هذا العصر على كلّ مسارح الحياة وتنكر للخيالات والاوهام خشيت الامم الّتى تعز القريض – وفى مقدّمتها الامة العربيّة – ان لايثبت الشعر وعبثه لضربات معاول العلم وخافوا ان يفقد مكانته فى حياة المجتمع الحديث . لولا ان وجد علم النفس ان الشعر حاجة ضروريّة للنفس الانسانيّة والمجتمع البشرى . وان حيـاة النفس والمجتمع لاتنمو ولاتزدهر ولاتتكامل الّا اذا ادركت حاجاتها الضروريّة فعاد الشعر الى الحياة الحديثة وهو اعزّ ممّا كان منزلة . وأنبه شاناً لانه كان من قبل ألهية وترفا فاضحى اليوم حاجة حيّوية لابدّ منها .

واغراض الشعر العربى كثيرة من اشهرها واقدمها الغزل وهو فى اللغة محادثة النساء وفى الأدب محادثتهنّ بما يعجبهنّ والحديث عنهن ووصف محاسنهنّ وبثهنّ عواطف الحب والشوق . وقد تاخر ظهور الغزل فى شعر

أكثر الامم طوال العصور الّتى لم ينظر فيها الرجل الى المرأة نظرة الانسان للانسان والندّ للندّ بل نظرة الانسان الى مادون الانسان والسيّد للعبد الرقيق – يقول استندال الكاتب الفرنسى المشهور فى كتابه عن الحب لذا كان مولد اطهر الوان الحب والغزل فى خيام عرب الجاهلية السمراء. حيث الطهارة فى التربة والجوّ والصفاء فى السماء. وحيث ينظر البدوى الى البدويّة نظرة الكفءُ الشريف للكفءِ الحبيب.

كان الغزل فى حياة الجاهليّين حاجة نفسيّة. كان يبلل بنداه الرطيب قلوبهم الّتى جفّفتها شمس الصحراء. ويخلق لهم فى طرقاتهم المحرقة بعض الظلال الوارفة يأوون اليها. وتبعث فى قلوبهم الامل والنّشاط. كلما هدتهم وعورة المسالك وقسوة الحياة فى الصحراء. كانوا بأنغامهم العذبة يحدون ابلهم الصابرة وقوافلهم وكانوا بذكرى الاحبة يحدون قلوبهم الخافقة وآمالهم ولم يكن العربى يحس الكمال الا اذا جمع بين النفس العاشقة والقلب الشجاع وبين ذلّ الهوى وعزّ السطوة والشأْن وكان الغزل فى الجاهلية حاجة اجتماعية فنّية أيضاً. كان تقدمة يقدّمها الشاعر بين يدى أغراضه الاخرى. فلا يبدأ مديحه ولا فخره ولا هجاءه حتّى يهزّ العواطف بذكرى الاحباب ويلين القلوب بصور العشق واهل الهوى. ويطرب النفوس بتصوير محاسن النّساء. شانه فى ذلك شان المغنّى. لا يبدأ الغناء الا بعزف الآلات فمتى هيمنت الموسيقى على المشاعر وبعثت النشوة والسرور فى قلوب السامعين وخلقت

الجو المطلوب غنىّ وطرب وتصرف باهواء سامعيه كيف شاء .

ولعلّ تلك الدواعى النفسيّة والاجتماعية الفنّية هى الّتى صيّرت الغزل الجاهلى اميل الى الذّكرى ، والى بعث الماضى السعيد . ودفعت الشاعر الى الحديث عن قلبه المعذب ووصف وجده ولوعته وبعد احبتّه . وشغلته عن الاطناب فى تصوير جمال المحبوب الحسّى وهو يتثنى فى بروده وعطوره وزينته كما فعل المتغزلون فى العصور التالية قال امرؤ القيس — وهو من نعلم اقل شعراء الجاهلية صدقاً فى الهوى . وأجدرهم بان لا يشكو الهيام وحرقة الصبا بعد ان ذكر أيّاما صالحة كانت له من صويحباته

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلّل ... وان كنت قد ازمعت صرمى فاجملى

اغرّك منى ان حبك قاتلى ... وانك مهما تامرى القلب يفعل

وقال حسّان بن ثابت يذكر أيّام الصبا والغرام فى الجاهلية

قد تعفى بعدنا عاذب ... ما به باد ولا قارب

ولقد كانت تكون به ... طفلة ممكورة كاعب

وكلت قلبى بذكرتها ... فالهوى لى فادح غالب

وكانت حين أذكرها ... من حميا قهوة شارب

لم تكن سعدى لتنصفنى ... قلما ينصفنى الصاحب

فأبك ماشئت على ما انقضى ... كلّ وصل منقض ذاهب

لو يرد الدمع شيئاً لقد ... رد شيئاً دمعك الساكب

ولعل تلك الدواعى أيضاً هى الّتى قرنت معنى الالم والحرقة الى

لفظ الحب ومرادفاته فالغرام لغة الشر الدائم والهلاك والعذاب والحب (والهيام) العطش والجنون من العشق والعشق افراط الحب وعمى الحسّ عن ادراك عيوبه والوجد الحب والحزن ويقال احبّ الرجل اذا احسّ الحب واحبّ الجمل اذا برك من المرض .

وخير مايميّز الغزل الجاهلى المصارحة فى بثّ الصبابة وعناية الشاعر بالتّعبير الصّادق واطلاق النفس على سجيّتها . وضعف رغبته فى اظهار البراعة للسامعين وأسر اعجابهم بالتلفيق والمبالغة والعبث باهوائهم واحساسهم كما فعل شعراء العصور المتأخّرة .

ولما جاء الاسلام وجم الشاعر وحار وكبا جواده . لقد شق القرآن الكريم طريقة للبلاغة الرائعة غير الشعر . طريقة ابعد من العيوق منالاً ممتنعة على المقلّدين ولم يرحب المجتمع الاسلامى الناشى – وهو المشغول ببناء حياة جديدة قويّة خالدة بالشعراء الاقدمين . ولاسيّما بعد شهادة القرآن والرسول الكريم . فسكت حسّان بعد اذ فرغ من مسابة القرشيين وحبس الحطيئة لهجائه الزبرقان وطلب الى الخنساء الكفّ عن البكاء والرثاء . واشتدّ بعض الخلفاء فمنع التغزل بالنساء فقال حميد بن ثور متغزلا بشجرة من السرح .

فياطيب ريّاها . ويا برد ظلها اذا حان من شمس الصباح شروق

وهل انا ان علّلت نفسى بسرحة من السرح موجود على طريق

وكان المجتمع الاسلامى ينتظر شعراً من طراز جديد يجرى مع

اغراض الدين وينهض بالقلوب الى الطهر والفضيلة ويسمو بها الى آفاق الحياة الفكريّة الخصيبة والمُثل العالية لكن هذا الشعر لم يظهر. واقام اكثر الشعراء على جاهليتهم الشعريّة وانحرف المجتمع الاسلامى بدسائس الأمويين عن اغراضه الاولى ونشأت فى قلب البلاد العربية بيئات جديدة تتطلب الشعر ولاسيّما المدح والهجاء والنسيب.

كان هذا النسيب زمن بنى اميّة شديد الشبه بنسيب الجاهليين الّا فى الحجاز حيث صبغة البيئة الخاصة الناشئة بالوان جديدة متميّزة لقد ملأ الأمويون الحجاز بالأموال والغنائم والعبيد والسبايا. وصرفوا اهله بالمتع والمغريات عن المطالبة بالخلافة والثّورة على ملوك الشام الى حياة المجون واللهو والغناء. وكان لابدّ لهذه الحياة العابثة الصاخبة من عندليب يصدح على أفنانها. ويزين للناس حياة اللهو الرخيص والاستمتاع باللذّات الحسّية. والتنقل فى الهوى بين الحوارى الحسان تنقّل الطيور بين الاثمار والاغصان فكان هذا العندليب عمر بن ابى ربيعة.

وقد نقم على عمرو اتباعه من المترفين المجان علماء الحجاز وصالحوه الّذين شرفوا بصحبة رسول الله ﷺ وتابعوهم. فجعلوا يرشدون اللاهين العابثين الى طريق الجد والخير ويزينون فى قلوبهم التقوى. ويدعونهم الى حياة كلها الطهر والشرف والسمو لكنها كانت فى أعين عمر واشياعه جافة قاسية لاتغريهم. فيها كلّ الانصراف عن الدنيا والحياة المرحة الّتى يحبونها ويتعشقونها.

بالغ عمر واتباعه فى حبّ الحياة واللهو المبذول . وبالغ العلماء والوعّاظ فى التنفير من الحياة والزهد فى طيّباتها وتطرّف الفريقان وافسحا المجال لينمو بينهما فى القلب . حيث الحقايق الصحيحة غزل جديد ماشهر قبل الاسلام . ولاحفظت اشعاره . غزل فيه عفة واخلاص . فيه مايرضى قلوب شبان الحجاز المتفتّحة للحب العابق به جوّه الماجن . وفيه مايرضى اهل الرشد والصلاح بطهره وشرف اصحابه .

فالغزل العذرى اذن – ان لم يولد فى الاسلام – ربيب الاسلام وحبيبه: غذاه وربّاه وسهر على نموّه وازدهاره . فكان للمتديّنين المنقطعين فى بادية التفكر . والداعين الى الحياة الصالحة المتقشفة المتجرّدة وروداً حمراء نافحة العطر . سقاها الشعراء العذريون دماء قلوبهم وقطرات من الندى الرطيب أسالها اهل الهوى العفيف من عيونهم فأَنعشت من تَجنّ الى ديار الصلاح وبوادى الطهارة نفوسهم قال جميل بثينة

وانى لارضى من بثينة بالّذى لوابصره الواشى لقرت بلابله

بلا وبأن لااستطيع وبالمنى وبالأَمل المرجوّ قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى و اوائله

ولم يستطع العصر العبّاسى بما كان فيه من تهالك على اللذّات الجسديّة وافراط فى السكر والخلاعة . ومجاهرة بالفحش وخلع العذار . وتعشق للجوارى الفاسقات والغلمان لم يستطع هذا العصر – على جوه المحموم

بالغرائز الجامحات ان ينزع حبّ الغزل العفيف من النفوس . فمال اليه بعض الشعراء كالشريف الرضى واولع به المتصوّفة والمبتدعون للغزل الدينى المتشوّقون لديار الرسول قال ابن الفارض

وتلطف واجر ذكرى عندهم ... علّهم ان ينظروا عطفا إلىّ

قل تركت الصب فيكم شبحا ... ما له ممّا براه الشوق فىّ

بين اهليه غريباً نازحا ... وعلى الأوطان لم يعطفه لىّ

اوعدونى او عدونى وامطلوا ... حكم دين الحب دين الحب لىّ

بل أسيئوا فى الهوى او احسنوا ... كلّ شىء حسن منكم لدىّ

لكن الغزل العفيف ليس هو اللون المميّز للغزل فى العصر العبّاسى ولعل اهمّ ما كان يميّزه. غلبة الوصف الحسّى عليه اذ لم يكن هم الشعراء فى هذا العصر . شكوى الصبابة الدائمة وبث الحب الصّادق العميق . كما فعل شعراء الجاهلية والعذريّون. بل كان همّهم وصف محاسن الغوانى شعورهن وأحْداقهن وخدودهن وقدودهن ونحورهن والمجون والمجاهرة بحبّهن والتنقّل بينهنّ من غير ما إقامة على حبّ احديهنّ والمصارحة بكثرة عشّاق كلّ واحدة منهن .

قال العبّاس بن الاحنف وهو اعفّ شعرائهم وابعدهم من شهوات الحس

أتاذنون لصب فى زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء ان طال الجلوس به ... عفّ الضمير ولكن فاسق النظر

وقال ايضاً ذكرتك بالتفاح لما شممته ... وبالراح لما قابلت اوجه الشرب

تذكرت بالتفّاح منك سوالفا وبالراح طعماً من مقيلك العذب

وهكذا فقدت المرأة فى هذا العصر. معانيها الساميّة وأضحت ألهية مغرية ومتعة رخيصة تَسْتجيب لها احساسات الرجال العارضة وأهواؤهم. ولا تنفتح لها قلوبهم ولا تسمو بحبّها نفوسهم. وغابت من غزل هذا العصر صور الحراير الشريفات وامتلأ بتمجيد الاماء الفاسقات وممّا يميّز الغزل العبّاسى أيضاً مبالغة الشعراء فى وصف شدّة حبهم، وما فعلته الاشواق بهم. هذا بشّار بن برد يقول:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنّى الكرى طيف ألم

نفّسى ياعبد عنّى واعلمى أنّنى ياعبد من لحم ودم

ان فى بردىَّ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

ويقول آخر ولو ان ما ابقيت من جسمى قذى فى العين لم يمنع من الإغفاء

والمبالغة كما نعلم. سبيل دائم لستر العاطفة الهزيلة والحبّ الكاذب وخلاصة القول فى هذا الغزل انه وسيلة من وسائل الإغراء لانتيجة من نتائج الوجد. وان أصحابه تقصدوا فيه اظهار شاعريّتهم ورقّتهم وظرفهم ورهافة حسّهم ومجونهم أكثر من تقصدهم وصف حرقتهم وشوقهم والدلالة على وفائهم وصدقهم والتعلل بذكر الحبيب ولا يختلف الغزل فى الاندلس عن هذا الغزل الّامن ناحيتين أولاهما انه أقل مجونا وشططاً من الغزل العبّاسى. وأشدّ منه إستمساكا بالفضائل والآداب. والثانية ان طبيعة البلاد الجميلة زاحمت النساء على قلوب الشعراء الاندلسيّين فاكثروا

من وصف البساتين والرّياض والانهار والازهار ومجالس الأنس . وكانوا يستعيرون محاسن النساء لتزيين مناظر الطبيعة الساحرة بعد ان كانت العرب تستعير محاسن الطبيعة لوصف جمال النساء . وكانوا اذا تغزّلوا اوتشوّقوا ارتسمت من وراء صور محبوباتهم فرات اشواقهم صورة مشهد فاتن من مشاهد الطبيعيّة الاندلسية الباسمة قال ابن زيدون

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والافق طلق ووجه الارض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنّما رق لى فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضّى مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيّام لذّات لنا انصرمت بتنالها حين نام الدهر سراقا

ولما انحطّ الادب العربى . فى عصر الدول المتتابعة . تردّى الغزل مع الاغراض الشعريّة الاخرى فى مهاوى الكلفة و الفقر و الجدب و الجفاف . واستحال الى استعارات غريبة اتخذها الشاعر معياراً لبراعته وافتتانه فى النظم والى صناعات زخرفيّة تنوء بالعاطفة كما تنوء الاحجار الكثيرة الصلدة بنبتة الربيع . وبات همّ الشعراء إظهار افتنانهم وقدرتهم على تصيد التشابيه النادرة والاستعارات البعيدة والتورية الغريبة والشعبدة اللفظيّة لابيان ظرفهم ورقة عواطفهم كما فعل الشعراء العباسيون . ولا الكشف عن طهر نفوسهم وصدق لوعتهم كما فعل العذريون والجاهليون

عانده فى الحب اعوانه وخانه فى الود اخوانه
متيم ليس له ناصر اوّل من عاداه سلوانه

ماشأنه الا مقال العدى وقد همت عيناه ماشانه

وقال بعضهم مسألة الدور جرت بينى وبين من احب

لو لا مشيبى ماجفا لو لا جفاه لم اشب

وقال آخر ياساكناً قلبى المعنىّ وليس فيه سواك ثان

لاىّ معنى كسرت قلبى وماالتقى فيه ساكنان

والغزل فى العصر الحاضر وارث تلك العصور المتقدمة . وثمرة من ثمراتها يتنازعه اليوم تيّاران. تيار الادب العفيف الطاهر وقدانقلب الى ادب باك طافح بالآهات والعبرات والذلّ . ولاسيّما حين جرى بريح الأدب الرومانتيكى الاوروبى ويستمدّ من لعابه يمثله قول القائل

هل رأيت النجم فى الافق بدا انه عينى تولّاها الذبول

او أتى سمعك فى الليل صدى انه منى بكاء وعويل

فاذا بلل كفيك النـدى فهو دمعى بين ايديك يسيل

آه كم حاولت ان أسلو الهوى واريح القلب من عبءٍ ثقيل

فاذا الحب على القلب استوى مالكا يحكم فى عبد ذليل

والتيّار الثانى يجرفه الى مهاوى الرذيلة . ويجعله عوناً للفجور على الاخلاق الفاضلة ويصيره اشبه بالصُور الخليعة الّتى تتباهى اليوم بعض المجلّات بنشرها . وهو فى الغالب من عمل شعراء خاملين ليس لهم فى الحياة مثل اعلى ينهضون اليه ولاعمل شريف يبذلون فيه جهدهم ونشاطهم . فتركز انتباههم على الغريزة الجسديّة وعلى كل مايثيرها ويمجدها

من الصور والاشكال والالفاظ واذا كان الغزل من الاغراض الشعرية الرئيسيّة . ينفذ الى أعماق النفس الانسانيّة . ويؤثر فى حياتها وفاعليتها . وفى مكنته ان يشيع فيها الظلمة والخمول والياس – او يضئ كهو فها القاتمة بنور الحب الصحيح . ويزيد فى نشاط القلب وتوثبه نحو الحياة المجيدة الخصيبة. كان لابد من العناية بدراسته فى هذا العصر. وتوجيهه التوجيه الصّحيح المفيد . والتروى فى اختيار انواعه وتمييز السامية منها . الّتى يجب ان تمنح وحدها حق الحياة والظهور فى كتب الادب الجيدة والمجلّات الراقيّة والاقلام الممتازة .

واوّل مانطلبه ان يهجر الغزل القديم . ويجعل من حظّ المتاحف ودور الكتب القديمة ولاسيّما نوعه الماجن الّذى يرفع اكثر مورخى أدبنا من شأنه. على حين يجعله مورّخوا الآداب الاخرى فى أكثر بلاد الله حرّية وتهتّكا – من أنواع الادب المنحط الوضيع ونطلب ان لا يرحّب الا بالغزل الّذى يخرج النفس من فتورها ويزيدها عزماً واريحيّة ويملؤها رضىً بالحياة وقدرة على مغالبة صعابها وتكاليفها كقول القائل – وما اندره قولا وما اعذبه

اذا كنت وحدى اكون وايا ك او خاليا فاشتغالى بك
واطلب المجد والمكرمات لتحسن لى شيمة عندك

ونطلب ان ينخلع أدبنا من ربقة الجاهلية والاباحيّة فلا يقتصر على تمجيد الحسان اللائى لا تربطنا بهم رابطة الشرع او الزواج او الخطبة

بل يعنى بالزوجة والخطيبة عناية الاقدمين بالحبيبة ... ولا يخفى ماهذا الضرب من القول من اثر فاضل فى تزيين معيشة الاسرة وترغيب الفتيان والفتيات فى الحياة البريئة الشريفة وقد ظهرت تباشير هذا الغزل الجميل فى شعر الشعراء الافاضل الّذين فقدوا زوجاتهم. فانطقهم الحزن الصادق بوصفهن فاشادوا بذكر محاسنهن وفضائلهن واثرهن العميق فى حياة الاسرة السعيدة قبل غيابهن.

ونرجو كذلك من شعراء الجيل ان يذكروا أنّ الغزل ماهو فى الحقيقة الاتغن بمظهر واحد من مظاهر الجمال البديع واللذّة الصحيحه، وان المظاهر الاخرى بديعة، شديدة السحر والفتنة وانها جديرة بعنايتهم. قمينة باشعارهم فانكان الطفل لايرى متعة الحياة الا فى اللعب والطعام الطيب والمراهق والشاب لايرى الحياة الا فى الحب الجنسى والتفانى فى خدمة المحبوب فان النفس الكاملة الانسانيّة كلما تقدّمت بها الايّام تطلع على مظاهر اخرى منوّعة من مظاهر الجمال الساحر واللذّات العفيفة ولاتجد شيئاً قام الّا على الحب واذا العالم فى نظر العارف محب ومحبوب ولابن العربى فصل واسع فى فتوحاته عالج به مذهب الحب.

يرى ان العالم كله حب يقدم حبه لخالقه فما احب أحد غير خالقه ولكن احتجب عنه بحجب زليخا وليلى وسعاد وبثنية والدينار والدرهم والجاه وكلّ محبوب فى العالم. فان الحب سببه الجمال وهو لله تعالى لان الجمال محبوب لذاته والله جميل يحب الجمال فيحب نفسه وسببه الآخر

الاحسان وما ثَمَّ احسان الا من الله فان احببت للاحسان فما احببت الا الله فانه المحسن وان احببت للجمال فما احببت الا الله فانه الجميل فكل كمال وجمال فى كلّ كامل وجميل فهو عرض وكلّ مابالعرض لابدّ وان ينتهى الى مابالذات ولذا قال سيّدنا أمير المؤمنين عليه السلام مارأيت شيئاً الا ورأيت الله قبله وبعده وفيه ومعه.

واما حالة المحب الّتى يرويها ابن العربى فهى حالة الفناء الكلّى وهو الشغل بالحب عن متعلّقه. ويضرب لذلك مثلاً، جاءت ليلى الى قيس وهو يصيح. ليلى ليلى. وياخذ الجليد ويلقيه على فؤاده. فتذيبه حرارة الفؤاد فسلّمت عليه. وقالت انا مطلوبك. انا بغيتك انا محبوبتك أنا ليلى، فالتفت اليها قائلاً اليك عنّى فان حبّى[1] شغلنى عنك، وقد لا تهمنا صحة الرواية اوكذبها. وانّما هى مثل مختلق شاؤوا من وضعه ان يعبروا عن مدى تأثير الحب فى الانسان ويطلب ابن العربى الى المحب ان يصمّ سمعه الا عن كلام محبوبه ويعمى عينيه عن كل منظور سوى وجه محبوبه ويخرس لسانه عن كلّ كلام الّا عن ذكر محبوبه وذكر من يحبّ محبوبه ويختم على قلبه. فلا يدخل فيه سوى حبّ محبوبه ولا يتخيّل سوى صورة محبوبه فبه يسمع وله يسمع وبه يبصر وله يبصر وبه يتكلّم وله يتكلّم. ان صلوتى ونسكى ومحياى ومماتى لله ربّ العالمين.

١ — وقال صدر المتالهين فى الاسفار، فانّ العشق بالحقيقة هو الصورة الحاصلة وهى المعشوقة بالذات لا الامر الخارجى وهو ذو الصورة الا بالعرض ولذا قال المجنون العامرى لى عنك غنى بعشقك.

العروض والادب

قلنا ان الشعر من اساليب الكلام الّتى لها تأثير كبير على النفوس . على ان الشاعريّة لاعلاقة لها بمعرفة قوانين النظم . اى ان الانسان قد يكون شاعراً دون ان يكون له مقدرة على نظم بيت واحد فتراه يتأثر بالشعر وينطق بالمعانى الشعريّة ولايقوى على النظم ـ وقد يكون لشخص المقدرة على نظم القصائد الطويلة حسب الضوابط والقوانين العروضيّة ومع ذلك لايحسب شاعراً بل ناظما لانّ ليس فى نظمه معانى شعريّة تثير النفس وتهيج العواطف على انه قد يوجد من يستطيعون امتلاك ناصية الضوابط والقوانين العروضيّة مع مقدرة على النظم المفعم بروح الشعر فهؤلاء هم الناظمون الشاعرون الا انهم ليسوا بكثيرين ـ ونحن اذا اوردنا هنا قوانين النظم ولقناها للطلبة لانتكفل ان نضع فيهم روح الشاعريّة اذا لم تكن فى طباعهم . فان كثيراً من الاشعار الخالدة الّتى توارثها الخلف عن السلف فاصبحت جزءا من حياة الامة تهتزّ اعصابها عند تلاوتها وانشادها انّما نظمها اربابها بدافع شعرى موسيقى فى نفوسهم دون ان يدرسوا قواعد العروض والاوزان ـ لان هذه الضوابط والقواعد انما وضعت بعد الاسلام ونحن ندرسها لمعرفة الفن .

امّا اوزان الشعر العربى فهى ستّة عشر بحراً نورد المألوف منها فنأتى على اسم البحر وتفاعيله وماله من الاعاريض والاضرب ومايصحّ فيه من الجوازات المألوفة موردين الامثلة المحسوسة من نظم ائمّة هذا الفن موضحين المراد ببيان اجمالى يرتاح اليه عقل الطالب وتنتبه افكاره

الى استخراج الضوابط والاحكام الّتى تمرّ امامه فى تمارين ضمّت ارق المنظوم فيروض ذهنه ويكتسب بذلك اللّغة مع القاعدة ـ كلّ ذلك بايجاز مفيد .

البحر الطويل

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

» » » » » » » مفاعلن

» » » » » » » فعولن فعول

إذا قيل هذا حين أَسْلُوْ يَهْيِجُنى   نسيم الصبا من حيثما يطلع الفجر

فعولن مفاعلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

إذاقى. لهاذاحى. نأسلو. يهيجنى نسيمص. صَبامِنْ حَىْ. ثمايط. لَعَلْفَجْرَ

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ومهما.تكن عندمْ. رِئِن مِنْ.خليقتن   وان خا ـ لهاتخفى ـ علنّنا ـ ستعلمى

حكى لُؤلُوءًا رطبا مغشى بجوهر   مصفى لِفَرْطى رقة وصفاء

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن (فعول فعولن)

حكى لو. لؤن رطبن. مُغْششَنْ. بجَوْهَرِن مُصَفَفَن. لفرطى رق. قتن و. صفائى

احكام وملاحظات

١ ـ بيت الشعر . يتألف من صدر وهو الشرط الأَوّل منه ومن عجز وهو الشرط الثانى

٢ ـ تفاعيل البحر الطويل ثمانية كماترى أعلاه اربعة فى الصدر واربعة فى العجز

٣ ـ آخر جزء او (تفعيل) من الصدر يسمّى العروض. وآخر جزء من العجز يسمى الضرب

٤ ـ فالبحر الطويل له عروض واحدة وهى مفاعلن وثلاثة اضرب وهى مفاعيلن ـ مفاعلن ـ (فعولُ فعولن) فترى من الابيات الثلاثة الّتى قطعناها ان العروض بقيت واحدة لم تتغيّر وامّا الضرب فظهر فى اشكاله الثلاثة ـ فاذا شرع الناظم بعروض وضرب فعليه ان يحافظ عليهما فى كلّ القصيدة

٥ ـ انّ التقطيع يعتبر فيه اللّفظ دون الصورة فيحسب الحرف المشدّد حرفين والتنوين نوناً ساكنة وما تهمله لفظا لانعدّه ولو كتب خطاً ومانلفظه نحسبه موجوداً ولواهمل كتابة كمالاحظت مما قطّعناه

جوازات

١ ـ يجوز فى البحر الطويل حذف النون من فعولن ـ فيصير (فعول) وقد ورد أيضاً حذف الياء من مفاعلين الّتى فى الوسط فتصير (مفاعلن) غير ان الجواز الشعرى ليس حكمايرتبط به الناظم فقد يستخدمه فى تفعيل ولايستخدمه فى آخر، وبعبارة اخرى ان الجواز عارض وقتى فى القصيدة وأمّا العروض أو الضرب فيلتزم غالبا الناظم بهما من الأوّل الى الآخر فى القصيدة ـ الا عند التصريع فى مطلع القصيدة اى عند ما يجعل

الشاعر قافية الصدر والعجز واحدة فيصبح التفعيل واحداً كما ترى في الأبيات الآتيه .

٢ـ الاشباع هو مدّ الحركة لفظا كأنّ وراءها حرفا متحرّكا من جنسها وهو يقع فى آخر كلّ من الصدرا والعجز ـ ويقع فى وسط البيت فى الضمير (هاء مثل له = لهو ـ والاختلاس اختطاف الحرف كانه غير موجود ففى البيت التالى اختلس المعرى الالف فى العروض فكانه قال نفاعلو . وحذف النون من فعولن فى الوسط

الا فى سبيل المجد ما انا فاعل عفاف واقدام وحزمٌ ونائل

وقد يأتى الناظم ببيت من الشعر موزوناً وزناً مضبوطاً لاجواز فيه ولاتحسّ انه شعر وقد ينظم شيئاً يرتكب فيه جوازات متعدّدة ومع ذلك تشعر انه شعر كما المعنا سابقا . وفى الأبيات الآتية جوازات شعريّة ممّا ذكرناها اعلاه فانتبه اليها عند التقطيع وبين نوع الضرب والعروض

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكلّ رداء يرتديه جميل

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختارَهُ مضنىً به وله عقل

وعش خالياً فالحب آخره عنا واوّله سقم وآخرهُ قتل

اراك عصّى الدمع شيمتك الصبر اما للهوى نهى عليك ولا امر

اخاك اخاك إنَّ من لا اخاً له كساع الى الهيجا بغير سلاح

فى صدر هذا البيت حذف النون من فعولن وحذف الياء من مفاعيلن

ميزان البحر البسيط

مستفعلن فاعلن مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُن مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

امثلة مقطعة

يا ايّهــا الكوكب السامى بطلعته

هل انت شمس الدجى المدعوّ بالقمر

مستفعلن فاعلن مستفعل فعلن مستفعلن فاعلُن مستفعل فعلن

يا ايُّهَلْ ـ كوكبس ـ سامِيبِطَلْ ـ عَتِهِى

هل انتشمْ ـ سُدْدُجَلْ ـ مدعووبل ـ قمرى

كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستفعل فعلن

كُلْلبن أنُ ـ ثى وإن ـ طالت سلا ـ مَتُهُوْ

يَوْمَن على ـ أالَتِن ـ حَدْباءَ مح ـ مُولُو

احكام وملاحظات : ١ ـ البحر البسيط مركّب من ثمانية اجزاء (تفاعيل) اربعة فى الصدر واربعة فى العجز .

٢ ـ ولهذا البحر عروض واحدة وهى فعلن ـ وله ضربان وهما فعلن فعْلُن كما ترى فى المَثَل الأوّل والثانى فاذا اختار الناظم احد هذين الضربين لقصيدته يجب ان يحافظ عليه من أوّل القصيدة الى آخرها .

٣ ـ البحر المجزوء هو الّذى يحذف جزء (تفعيل) من كلّ شطر منه ـ والمشطور هو الّذى يحذف احد شطريه ـ والمنهوك هو الّذى يحذف ثلاث اجزائه .

جوازات ١ ـ يجوز فى البسيط حذف الالف من فاعلن فتصير فعلن كما تلاحظ عند تقطيع البيت الآتى

لاتحقرنّ صغيراً فى مخاصمة ان البعوضة تدمى مقلة الاسد

٢ ـ يجوز فى هذا البحر أيضاً حذف الحرف الثانى من مستفعلن الاولى فى الصدر ومن مستفعلن الاولى فى العجز فتصير مُتْفَعِّلُن او مفاعِلُنْ وحذف ثانى الجزء ساكناً يسمى الخبن ومن تقطيع البيت الآتى ترى ذلك

بكم قريش كفينا كل مُعْضِلَة وأَمَّ نهج الهُدى من كان ضلّيلا

٣ ـ وقد يجوز فى هذا البحر حذف الحرف الرابع الساكن من مُسْتَفْعِلُن فتصير مُسْتَعْلِن او مفتعلن ـ كما ترى فى اوّل ـ تفعيل من هذا البيت

نحن على العهد لاننسى عهودكم للحشر والنّشر مادمتم وأُبقينا

ويجوز ان يحذف من هذا البحر الجزء الأخير من كلّ من الصدر والعجز ثمّ تنقل مُسْتَفْعِلُنْ الى مُتَفْعِل (اوْفعولن) فيصير مجزوءًا ووزنه

مستفعلن فاعلن فعولن مستفعل فاعلن فعولن

ومن تقطيع الأبيات الآتية يتّضح ذلك

ان ابد فى حبّه خضوعاً فليس ذلّ الهوى بعار

لوكان فى الحب لى اختيار لكان تركى له اختيارى

من روحه فى يدى سواه فهو حقيق بأن يدارى

امثلة : مطلوب تقطيعها وملاحظة جوازاتها ـ وقد اوردنا بينها

بعض ابيات من البحر الطويل الّذى مرّ، فعلى الطالب التمييز بينها وبين ابيات البسيط

ما لى اراك ضئيل النور ياقمر أمسّك الوجد ام قد مسّك السهر

نالت على يدها ما لم تنله يدى نقشاً على معصم اوهت به جلدى

هم يحسدونى على موتى فوا أسفى حتّى على الموت لا أخلو من الحَسَد

اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنّن ان اللّيث يبتسم

وما انتفاع اخى الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

تنكّر لى دهرى ولم يدر أنّنى اعزّ واحداث الزمان تهون

فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه وبتّ اريه الصبر كيف يكون

ولست وان قرّبتُ يوماً ببايع خلاقى ولادينى ابتغاء التحبّب

ميزان بحر الرّمل

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

» » » » » فاعلان

» » » » » فاعلن

امثلة مقطعّة باعتبار اللفظ

لست اشكو حال جفنى والكرى ان يكن بينى وبين الدمع صلح

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

لست اشكو ـ حال جفنى ـ ولكرى إن يكن بَىْ ـ نى وبيند ـ معصلحو

او خذوا منّى الّذى أبْقَيْتُمُ لا اريد الجسم مسلوب الفؤاد

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلان

اوخذو من ـ نللذى أب ـ قيتموْ لااريدل ـ جسم مسلُوْ ـ بَلْفُؤاد

لم يَرُق لى منزل بعـد النَّقَا لا ولا مستحسن من بعـد مَىْ

فاعلاتـ ن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

لم يرق لى ـ منزلُنْ بَعْ ـ دنْنَقا لاولامسْ ـ تَحْسَنُنْ من ـ بَعْدِمَىْ

احكام وملاحظات ـ للرمل عروض واحدة محذوفة وهى (فاعلن) وله ثلاثة اضرب ـ الاوّل صحيح وهو (فاعلاتن) والثانى مقصور وهو (فاعلان) والثالث محذوف وهو (فَاعِلُنْ) والابيات المقطعة دلّت على كلّ شكل من الاضرب الثلاثة .

جوازات ١ ـ يجوز فى هذا البحر ان يحذف الحرف الثانى من كلّ من فاعلاتن وفاعلن فتصيران فَعِلاتن فَعِلُنْ ـ وهذا الجواز يتناول العروض والضرب أيضاً :

٢ ـ يأتى هذا البحر مجزوءًا فيصبح مؤلفاً من أربع مرّات فاعلاتن وميزانه فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

» » » فاعلان

» » » فاعلن

لاحظ فى تقطيع الأبيات الآتيه والجوازات وانواع الاضرب فى التام والمجزوء

يا هلالا قد تجلى في ثياب من حرير
مالخديك استعارا حمرة الورد النضير
وفتاة قد تلالا فرقها يحكى الهلالا
قلت من سماك ليلى قالت المولى تعالى
وطنى قبل انتفاعى امتى قبل الأُمم
لغتى اشهى سماعى علمى ابهر علم
ياعذولى لا تلمنى فى هوى باهى المحيا

امثلة مطلوب تقطيعها :

انت ياشمس على مرّ السنين قد تقلّبت طلوعاً فى الورى
حدّثينا بحديث الأوّلين فلقد شاهدت تلك الأعصرا
أفكانوا مثلنا مختلفين لايغيثون اذا خطب عرا
إيهِ يادنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقك الا خلّبا
طال ليلى وعيونى لم تنم ونفى عنّى الكرى طيف ألَمْ
خفّفى عنّى قليلا واعلمى انّنى يا عبد من لحم ودم
انّ لى يا عبدُ جسما ناحلاً لو توّكأت عليه لانهدم
كلّ قلب ليس فيه للهوى صبوة عذرية ما ذاك قلب
لاتسل عن حال ارباب الهوى يابن ودّى مالهذا الحال شرح
كم أُداوى القلب قلّت حيلتى كلماداويت جرحاسال جرح

ميزان البحر الكامل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

» » » » » متفاعل

» » فَعِلُنْ » » فَعِلُنْ

» » » » » فَعْلُنْ

ابيات منظور فى تقطيعها الى صورة اللفظ دون الخط

مضت الدهور وما اتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

مَضَتِدْدُهُو ـ رُوَماأتى ـ نَبِمِثْلِهِى وَلَقَدْأتى ـ فَعَجِزنَعَنْ ـ نُظَرائِهِى

جَرَّدْتَ من سحر العيون صوارماً فَاَبَتْ سوى الاكباد من اغماد

مستفعلن مستفعلن متفاعلن متفاعلن مستفعَلُنْ متفاعل

جرَّدْتَمِنْ ـ سِحْرِالْعُيُونْ ـ صوارِمَنْ فابت سول ـ اكبادمن ـ اغمادى

أَلْحُسنُ يرحل كلّما رَحلوا معهم وينزِل حيثما نزلوا

مُسْتَفعل متفاعلن فعلن مستفعلن متفاعلن فعلن

أَلْحُسْنُيَرْ ـ حَلُكُلْلَمَا ـ رحلوا مَعَهُمْ وَيَنْ ـ زِلُ حَيْثُما ـ نزلوا

واذا رأيت اخاك فى غضب فدع العتاب وراضه قَبْلا

متفاعلن متفاعلن فعلن متفاعلن متفاعلن فعلن

احكام و جوازات ـ لهذا البحر عروضان وهما (متفاعلن ـ فعلن) وله اربعة اضرب اثنان منها وهما (متفاعلن اومتفاعل) يستخدم احدهما

الشاعر اذا نظم قصيدة على العروض الاول والثانى وهما فَعِلُنْ فَعْلُنْ) يستخدم احدهما عند نظمه القصيدة على العروض الثانية .

جوازات ١ – يجوز فى هذا البحر تسكين الحرف الثانى فى كلّ متفاعلن فينقل الى مستفعلن كما رأيت فى الأمثلة المقطّعة واذا عمّ هذا الجواز كل تفاعيل البيت خرج عن كاملته .

٢ – ويجوز ان يأتى البحر الكامل مجزوءًا بحذف آخر كلّ شطر فيكون وزنه متفاعلن متفاعلن – متفاعلن متفاعلن او (متفاعلن او متفاعلاتن) ومن تقطيع المجزوءة الآتية ترى انواع الاضرب الثلاثة

قوم اذا اشتجر القنا جعلوا الصدور لها مسالك
اللابسين قلوبهم فوق الدروع لدفع ذلك
فاقوا الانام فضائلا مأثورة و فواضلا
ولقد نزلت بهم فلم أرهم يراعون الضيوف
و بلوتهم فوجدتهم لما سبكتهم زيوف

تمرين – مطلوب تقطيع الابيات الآتية ومعرفة التام من المجزوء وتبيين انواع الضرب والعروض ولاتنس انه فى التصريع يكون العروض مماثلا للضرب لاحظ مطلع ابن الفارض .

غيرى على السلوان قادر وسواى فى العشّاق نادر
لى فى الغرام سريرة والله اعلم بالسرائر
والنفس راغبة اذا رغبتها واذا تردّ الى قليل تقنع

اصبر على كيد الحسود ... فان صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ... ان لم تجد ما تأكله
قدم الزمان وصبوتى تتجدّد ... فكأنّنى فى كلّ يوم اولد
قالت مشيبُك اسود فى ناظرى ... قلت الحقيقة إنَّ لحظك أسود
عذل العواذل حول قلبي التائه ... وهوى الاحبّة منه فى سودائه
بنت المكارم وسط كفّك منزلا ... وجعلت مالك للانام مباحا
فاذا المكارم اغلقت أبوابها ... كانتْ يداك لقفلها مفتاحا

ميزان الرجز ـ مستفعلن مستفعلن مستفعلن ، مستفعلن مستفلن مستفعلن

" " " " " "

احكام وجوازات ١ ـ بحر الرجز مؤلف من ستة اجزاء (مستفعلن) ثلاثاً فى الصدر وثلاثة فى العجز .

٢ ـ لهذا البحر عروض واحدة تامة (مستفعلن) وضربان الأوّل مثلها ـ والثانى مقطوعة (مستفعل = مفعولن) .

٣ ـ يجوز فى هذا البحر الخبن فى مستفعلن فتصير (متفعلن = مفاعلن) ويجوز فيها ايضا الطى فتصير (مستعلن = مفتعلن) ويجوز فيها الخبن فتصير (مُتَعِلُن او فَعِلَتُنْ) .

٤ ـ كثيراً ماينظم الشعراء القواعد والحكم على هذا البحر ويصح عندهم ان يأتى التصريع فى كلّ بيت من القصيدة اى ان العروض والضرب يأَتيان على قافية واحدة وقد يختلف كلّ بيت عن قافية غيره من الأبيات .

٥ - مرّ معنى الكامل وزنته الموسيقية كما لاحظت تشابه زنة (الرّجز) فالأوّل مولف من ستّة اجزاء (متفاعلن) ويجوز فيها الخبن اى تسكين الحرف الثانى فتصير على وزن مستفعلن) فيمكن اذا نقل الكامل الى الرجز بنقل اجزائه كلها من متفاعلن الى مستفعلن .

٦ - يأتى مجزوءًا أيضا بحذف آخر كلّ شطر منه فيبقى فيه تفعيلان فى الصدر وتفعيلان فى العجز - وقد يأتى مشطوراً بحذف نصف البيت .

أمثلة للتقطيع فليتنبّه الى مافيها من الجواز

انى لقد جرّبت اخلاق الورى	حتى عرفت ما بدا وما اختفى
كلّ يعد نفسه نعم الفتى	فمن هو اللئيم منّا يا ترى
لو عرف الانسان عيبه لما	رأيت عيباً فيه ماطال المدى
من لم تفده عبراً أيّامه	كان العمى اولى به من الهدى
من ناط بالعجب عُرى اخلاقه	نيطت عرى المقت الى تلك العرى
اعطيته ماسألا	حكّمته لوعدلا

ميزان الوافر - مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

احكام وجوازات ١ - للوافر التام عروض واحدة (فعولن) ولها ضَرْب مثلها .

٢ - يجوز عصب مفاعلتن اى تسكين لامها فتنقل الى مفاعيلن .

٣ - يأتى هذا البحر مجزوءًا بحذف عروضه وضربه فيصبح تفعليه مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن (او مفاعيلن)

ملاحظة ــ مايجوز فى التام يجوز أيضا فى المجزوء ــ وللمجزوء كما ترى عروض واحدة وضربان ــ وقد جوّز بعضهم فى المجزوء عروضا ثانية وهى (فعولن) ولها ضرب مثلها ــ والجوازات اللفظية انما تشفع فيها الشاعريّة .

امثلة للتقطيع ــ فلينتبه فيها الى أنواع الأعاريض والأضرب والجوازات

اذا لم تستطع أمراً فدعه	وجاوزه الى ما تستطيع
أمن سرق الخليفة وهو حىّ	يعفّ عن الملوك مكفنينا
أراشقة الصدور بطرف ريم	وسارقة السرائر والضمير
وما فى الأرض أشقى من محبّ	وان وجد الهوى حلوا المذاق
تراه شاكيا فى كلّ حال	مخافة فرقة او لاشتياق
فيشكو ان نأوا شوقا اليهم	ويشكو ان دنوا خوف الفراق
خبرت العمر فى رغد وضنك	وخضت غماره فى كلّ حال
فلا جزعت من الحدثان نفسى	ولا طربت لأحلام الليالى
دع الايّام تفعل ما تروم	ولا تعبث بهمّتك الهموم
غزال زانه الحَوَرُ	وساعد طرفه القدر
ويلك اذا بدا وجها	حكاه الشمس والقمر

ميزان الخفيف ــ فاعلات مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

احكام وملاحظات ١ ــ للبحر الخفيف التام عروض واحدة (فاعلاتن) وضرب مثلها كما ترى ويجوز ان يصير الضرب (فَعِلاتُنْ) وقد تسكن فيه العين كما تلاحظ فى الأمثلة ادناه .

٢ – يجوز فى هذا البحر خبن فاعلاتن فتصير فعلاتن – ويجوز أيضا خبن مستفعلن فتصير متفعلن ويجوز طيّها فتصير مستعلن = مفتعلن.

٣ – ويأتى هذا البحر مجزوءًا بحذف العروض والضرب منه فَتصبح فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن مستفعلن = مفعولن ملاحظة لمجزوء هذا البحر عروض واحدة وضربان احدهما مثلها – والثانى مستفعلن او مفعولن ويجوز خبنه فيصير فعولن .

امثلة للتقطيع – فليلاحظ فيها الجوازات .

ياسماء العراق انى مريض	ياسماء العراق انت دوائى
ان قلبى بحبّ من لااسميّ	فى عناء اعظم به من عناء
كلّنا فى هواك عبد يرجّى	نظرة فى الغرام من ناظريك
كم كريم ازرى به الدهر يوما	ولئيم تسعى اليه الوفود
ايها اللائمون ما ذا عليكم	ان تعيشوا وان اموت بدائى
ليس من مات فاستراح بميت	انما الميت ميّت الاحياء
حبّه خط فى فؤادى سطرا	ابدا منه ليس بالممحّو
قد أرانا من مبسميه بروقا	فارَيناهُ ديمة هتانة
ردّ منّا القلوب منكسرات	بعد ما راح كاسراً اجفانه
خطرات النسيم تجرح خدّيه	ولمس الحرير يدمى بنانه
ما لليلى تبدلت بعدنا ودّ غيرنا	ارهقتنا ملامة بعدايضاح عذرنا
فسلونا عن ذكرها	وتسلت عن ذكرنا

١ – مجلد ٣ ، ج ١١ ، المورد الصافى ، ص ٢٧٢ .

وصايا ابى تمام للبحترى فى نظم الشعر

يا ابا عبادة تخيّر الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة من الأوقات إذا قصد الإنسان تأْليف شيء أو حفظه ان يختار وقت السحر وذلك ان النفس تكون قد أخذت حظّها من الراحة وقسطها من النوم وخفّ عنها ثقل الغذاء وصفا من أَكثر الأَبخرة والادخنة جسم الهواء وسكنت الغماغم ورقّت النسائم وتغنّت الحمائم. واذا شرعت فى نظم الشعر فتغنّ به فان الغناء مضماره الذى يجرى فيه واجتهد فى ايضاح معانيه. فان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا. وأَكثر من بيان الصبابة وتوجّع الكآبة وقلق الاشواق والفراق والتعلّل باستنشاق النسائم وغناء الحمائم والبروق اللاّمعة والنّجوم الطالعة، والتّبرم من العذال والوقوف على الاطلال، وإذا أخذت فى مدح سيّد فاشهر مناقبه واظهر مناصبه وارهف من عزائمه ورغّب فى مكارمه، واحذر المجهول من المعانى وايّاك ان تشين شعرك بالعبارة الرديئة والألفاظ الحوشية، وناسب بين الألفاظ والمعانى فى تأْليف الكلام، وكن كانك خيّاط يقدّر الثياب على مقادير الأَجسام، واذا عارضك الضجر فارح نفسك، ولاتعمل الاّوانت فارغ القلب ولاتنظم الاّ بشهوة فانّ الشهوة نعم المعين على حسن النظم وجملة الحال. ان تعتبر بما سلف من اشعار الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه.

قال ابن جنىّ سألت أباعلى هل يجوز لنا فى الشعر من الضرورة ماجاز للعرب أولا ؟

فقال : كما جاز ان نقيس منثورنا على منثورهم فكذلك يجوز لنا ان نقيس شعرنا على شعرهم فما اجازته الضرورة لهم أجازته لنا وماحظرته عليهم حظرته علينا ، واذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم فليكن من أحسن ضروراتنا وما كان من اقبحها عندهم فليكن من اقبحها عندنا ومابين ذلك بين ذلك: فان قيل هلّا يجز لنا متابعتهم على الضرورة من حيث كان القوم لا يترسّلون فى عمل اشعارهم ترسّل المولّدين ولا يتأنّون فيه ولا يتلوّمون على حوكه وعمله، وانما كان أكثره ارتجالاً قصيداً كان أورجزاً أو رملاً فضرورتهم اذا اقوى من ضرورة المحدثين فعلى هذا ينبغى أن يكون عذرهم فيه اوسع وعذر المولّدين أضيق. قيل يسقط هذا من اوجه. أحدها انه ليس جميع الشعر القديم مرتجلا بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه والملاطفة له والتلوّم على رياضته وإحكام صنعته نحو مايعرض لكثير من المولّدين ألا ترى الى مايروى عن زهير من انه عمل سبع قصايد فى سبع سنين . فكانت تسمّى حوليّات زهير، لانه كان يحوك القصيدة فى سنة والحكاية فى ذلك عن ابن ابى حفصة انه قال كنت اعمل القصيدة أربعة أشهر واحكّكها فى أربعة أشهر واعرضها فى أربعة أشهرثمّ أخرج بها إلى الناس، فقيل له فهذا الحولى المنقّح وكذلك الحكاية عن ذى الرّمة انه لمّا قال (بيضاء فى نَعَج صَفراء فى برج) أجبل حولاً

لايدرى مايقول الى ان مرّت به صينيّة فضيّة أشربت ذهباً فقال (كأنّها فضّة قد مسّها ذهب) وقد وردت ايضاً بذلك اشعارهم . قال ذو الرّمة أجانبه المساند والمُحالا — ألاتراه كيف اعترف بتأنّيه فيه وصنعته إيّاه

وقال عدىّ بن الرّقاع العاملى

وقصيدة قد بتّ اجمع بينها حتّى أقوّم ميلها وسنادها

نظر المثّقف فى كعوب قناته حتّى يقيم ثقافُه منآدها

وقال سويد بن كراع

أبيت بأَبواب القوافى كأَنّما أذودُ بها سربا من الوحش نزّعا

وانّما يبيت عليها لخلّوه بها ومراجعة النظر فيها وقال

اعددت للحرب الّتى أعنى بها قوافياً لم اعن باجتلابها

حتّى اذا اذللت من صعابها واستوسقت لى صحت فى أعقابها

فهذا كما ترى مزاولة ومطالبة واعتقاب لها ومعاناة كلفة بها ومن ذلك الحكاية عن الكميت وقد افتتح قصيدته الّتى اوّلها (ألا أحييّت عنّايا مدينا) ثم أقام برهة لايدرى بماذا يعجّز على هذا الصّدر الى ان دخل حمّاماً وسمع انساناً دخله فسلّم على آخر فيه . فانكر ذلك عليه فانتصر بعض الحاضرين له (فقال وهل بأس بقول المسلّمين) فاهتبلها الكميت فقال وهل بأس بقول مسلّمينا —

براعة المطلع او الاستهلال

وبعبارة اخرى حسن الابتداء ينبغى للمتكلم الاديب ان يزيد عنايته ويكثر اهتمامه باربعة مواضعه من كلام وان كان ينبغى ان يتحرّى الاجود فى سائره .

اوّل الكلام وآخره ومكان التخلّص وحسن الطلب وحسن الختام فبراعة المطلع ان تكون الفاظه مختارة سالمة عمّا ينفر منه السامع او يتعلّق به نقد واذا كان الكلام شعراً أو نثراً مسجّعاً لزم ان يكون كلّ من الشطرتين او القرينتين مستقلّاً بالافادة مع شدّة التناسب بينهما وعلى المتكلّم ايضاً ان يكون اوّل كلامه مشتملاً على إشارة لطيفة إلى مقصوده من الكلام وسمّوا ذلك براعة الاستهلال وسنورد عليك مطالع تحذر أمثالها رمت بأصحابها إذ ذاك خلف الاعتبار على انّهم من فحول الادباء. قال غيلان ، ذو الرمة يمدح عبد الملك بن مروان وكان بعينيه علة

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنّه من كلى[1] مغرية سرب

جرى الشاعر على عاداتهم فى ذكر العشق وأحواله من السهر والبكاء وحرارة القلب وانفطار الكبد الى غير ذلك ولم يلتفت إلى حال من معه الخطاب فكان جزاؤه ان قال له . مالك وهذا يا بغيض ، وافتتح جرير بقوله

أتصحو ام فؤادك غير صاح فقال ممدوحه : بل فؤادك

وقال اسحق الموصلى فى اوّل تهنئة بقصر بناه ملكه

يا دار غيّرك البلا ومحاك ياليت شعرى ما الّذى ابلاك

١ ــ جمع الكلية بالضم فالسكون هنا رقعة تخرز فى القربة تحت العروة .

فامر بهدمه لساعته

ولبعضهم يخاطب عظيماً يرجو إثابته

موعد احبابك بالفرقة غد : فقال بل احبابك ولك المثل السوء

وقال مرّة ثانية بيوم مهرجان

لاتقل بشرى ولكن بشريان غرّة الداعى ويوم المهرجان

فأمر بضربه خمسين سوطاً وقال اصلاح أدبه احسن من إثابته

وقال ابوتمام (على مثلها من اربع وملاعب) فقال بعض الحاضرين لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

وقال بعضهم مدحت السلطان بقصيدة وقبل عرضها عليه اطّلعت كثيراً من حذّاق الأصحاب عليها فما منهم الّا من قدح فكره فى نقدها ولم يأخذ علىّ منها شيئاً ثم عرضتها على الممدوح فصادفت قبولاً وكان مطلعها

دعها ولا تحبس زمام المقود نطوى بايديها بساط الفدفد

وكنت بها معجباً. فاسمعتها يوماً لبعض شبّان أعيان العسكر فقال مايؤمنك ان يقول حين يتناول درجها فيجد فى صدرها دعها. قد فعلت ويرمى بها. أما كنت تخجل ؟ فقلت بلى ولكن الله قد وقى ، ومثل هذا فى النقد ممّن لاينتظر ماروا ابونواس فى التقريظ عن غلامين سأل احدهما الآخر عما يقصد ابونواس فى قوله (الافاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر) فى خصوص قوله ، وقل لى هى الخمر ، فقال الآخر لاأدرى فقال الغلام اراد الشاعر ان يطرب حواسّه الخمس فإنّه لمّا يشربها يذوقها ويشمّها ثمّ حينما يتناولها بيده يمسّها وقد شاهدها ببصره ، فلم يبق الاان يحسّها بالسمع فقال ، وقل

لى هى الخمر فسرّ ابونواس وقال قصد الغلام من كلامى مالاأقصده

قال المرصفى ويحكى ان صالح بن حسّان قال[١] يوماً للهيثم بن عدى انشدنى بيتا صدره اعرابى فى شملته وعجزه مخنث من مخنّثى المدينة فقال لاأعرفه فقال أجلّتكك حولاً فقال ولو أجلّتنى عشراً فقال كنت احسبك اذكى من هذا وانشده بيتاً لجميل

ألا أيّها النّوام ويحكم هبوا هذا اعرابىٌّ فى شملته ثم ادركته رقّة الشوق فقال أسائلكم هل يقتل الرجل الحب فقال أفتعرف انت بيتاً أوّله اكثم بن صيفى فى أصالة الرّأى ونبل العظة وآخره بقراط لمعرفته بالداء والدواء قلت هوّلت علىّ فليت شعرى باى مهر تمهر عروس هذه الخدر قال بانصافك وانصاتك وهو بيت الحسن بن هانى

دع عنك لومى فان اللّوم إغراء وداونى بالّتى كانت هى الدّاء

ومثل ذلك يروى عن المأمون ولمسلم بن الوليد

أديرا على الراح لاتشر باقبلى ولاتطلبا من عند قاتلتى ذحلى

فهذه المطالع كافية لإرشادك الى مايجب احتراسك من مثله وازيدك ما حكى ان شاعراً مغربيّاً سمع شعراً لصاحب بهاء الدّين زهير المصرى

---

١ — وقيل ان الرشيد قال للمفضّل الضّبى أذكر لى بيتا يحتاج الى مقارعة الأذهان فى إخراج خبئه ثم دعنى وايّاه فقال أتعرف بيتا اوّله اعرابى فى شملته هابّ من نومته كأنّما ورد على ركب جرى فى اجفانهم الوسن فظلّ يستنفرهم بعنجهية البدو وتعجرف الشدو وآخره مدنى رقيق غذى بماء العقيق فقال لااعرفه قال هو بيت جميل الا ايـّها الركب النيام ألاهبوا .

فحمله ذلك على ان يقصد مصر ليتعلّم رقّة الشعر من ذلك الوزير فلما لقيه وعرفه الحال قال له الصاحب انّ ذلك امر لايعرف بطريقة تعليم علميّ وانمايصرف الشاعر فكره فيمايرد عليه من لطائف الاشعار ويتأمّل فى جهات اللطف فيها حتّى تأخذ من طبعه مكانا وحينئذ يجهد فى محاكاتها فعليك باديان قرائتها على ذلك الجد والآن التى عليك صدراً لتعمل عليه عجزا وتطلعنى لاخبرك بحاله فانشده (يابان وادى الاجرع فاخذه المغربى و انصرف يكد فكره فى تتميه ثمّ جاء صبيحة ليلته الى الصاحب فانشده **يا بان وادى الاجرع سقيت ماء الادمع**

فقال الصاحب الصدر يطلب غير هذا واتمّه بقوله (هل ملت من طرب معى) فانت ترى ان الميل مأخوذ من البان وتعليله بطرب المساعد للعاشق ومجانسته ايّاه فى العشق فمثل هذا ينبغى ان تكون المطالع

قلت وممّا يماثل ذلك فى الضد قول بعض الخلفاء لبعض الشعراء أجزنى فيما اقول قال لبّيك يامولاى فقال الخليفة ألامر لله وحده قال الشاعر . وللخليفة بعده قال الخليفة . وللمحبّ اذا ما قال الشاعر حبيبه جاء عنده تمّ بعون الله الجزء الأوّل من الدّين والأدب ويتلوه الجزء الثّانى ان شاء الله أوّله أقسام الشّعر

فهرس الموضوعات والمطالب

المصادر والمآخذ

فهرس اسامی الكتب والمجلات

فهرس الاعلام والاشخاص

الف

ن

فهرس الاماكن والقبائل والطوائف

حرف الالف

حرف الباء

التاء

الثاء

ج

تصحيح الاغلاط

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	٩	بالفضاءُ	بالفضاءِ
٣	١٧	انبئنا	أنبأنا
٧	٢	كتب	الكتب
٩	٢	اسئلوا	اسألوا
٩	١٥	ائمة	الائمّة
١٠	٥	دلّت	دلّ
١١	١٦	المبدء	المبدأ
١٤	٣	نغمسنا	انغمسنا
١٤	١٩	ضيوف	ضيوفا
١٥	٤	رقانا	رقينا
١٥	٨	المستشرفون	المستشرقون
٢٠	٩	الملائين	الملايين
٢٦	٨	دين	الدين
٢٨	١٨	رسول	رسولا
٣٣	١٣	يدعوا	يدعو
٣٩	١٦	الّذين	الّذى
٣٩	١٧	فيها	فيه
٥١	٥	ابلانا	اولانا
٥٦	١١	احسّبت	أحسست
٦٢	٩	الزراقة	الزرافة
٦٦	٨	كتب والفقه	كتب الفقه
٦٩	١١	تفسير	التفسير
٧٢	٤	اصاب	اصابت
٧٧	٢	سبعة عشر ركعات	سبع عشرة ركعة
٨٧	١٢	جربت	جريت
٩٤	١٦	كدح رايت	رايت كدح
٩٦	٦	يحمل	تحمل
١٠٢	١٢	البئية	البيئة
١٠٢	١٥	الجريئ	الجرئ
١١٣	٨	اعضا	الأعضاء
١١٦	١٦	الانفعالات	انفعالات
١٢٥	٩	لله لالة	للدّلالة
١٣٥	١٦	نهجم	نهجهم
١٣٨	١٣	ادب	الادب
١٤٥	٩	كالمحي	كمحي
١٥١	١١	لتلغراف	التلغراف
١٥٣	٨	تتجاوز	يتجاوز
١٥٤	١٦	جناخ	جناح
١٥٨	١١	الكريهة	الكريه
١٥٩	١٥	شعرائنا	شعراؤنا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٠	١٣	يجولون	يحوّلون
١٦١	١٠	رؤسنا	رؤوسنا
١٦٦	١٢	خيّام	الخيّام
»	»	فردوسى	الفردوسى
١٨١	١٤	نبتحج	نتبجّحُ
١٨١	١٥	حقيقها	حقيقتها
١٩٠	٦	الحرب	الحربيّة
١٩١	١١	محتنق	مختنق
١٩٧	١٦	مسدد	المسدد
٢٠٢	٦	جاؤ	جاءوا
٢٠٧	١٧	بدنيه	بدينه
٢٤٠	١٩	يملكها	يملكها
٢٥٤	٥	لم ارتض	لم ارتضى
٢٧١	١٢	تنال	ينال
٢٧٧	٣	غلاط	علاط
٢٧٨	١٣	استمداداً	استعداداً
٣٠٤	٥	زعمم	زعمتم
٣١٠	٤	يرافع	يدافع
٣١١	١٨	مهابهارته	ماهبهاراتا
٣١٥	٤	عمر بن	عمرو بن
٣١٦	١٩	همّه	همّة
٣١٧	١٦	ربع ميتة	ربع ميّة
٣١٨	١	تدير	تدبير
٣١٨	١	مرتنب	مرتغب
٣٢٨	١٨	كعبُ	كعب و
٣٣٨	٩	شريف	الشريف
٣٣٨	١٣	والشاعر	الشاعر
٣٤٢	١٩	فأرض	الفارض
٣٤٩	٩	بى	فى
٣٤٩	١٠	شعور	شعوره
٣٤٩	١٠	اشعر	شعر